www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مِنْ ذَخَائِرِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ

للعلامة الشيخ طه محمد الساكت

أستاذ الدراسات العليا بقسم الحديث في كلية أصول الدين
بجامعة الأزهر سابقا
ولد سنة ١٣٢١ وتوفي سنة ١٤٠٣
رحمه الله تعالى

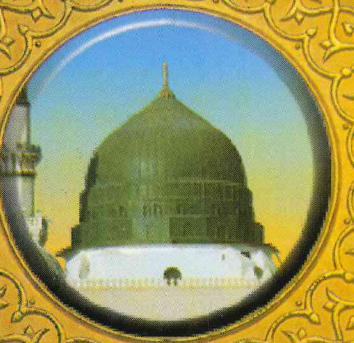

جمعها ورتبها وعلق عليها وقدم لها

مجد بن أحمد مكي

الجزء الأول

دار نور المكتبات

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

دار نور المكتبات
السعودية - جدة - حي السلامة - بجوار جامع الشعيبي
هاتف وفاكس: ٦٨٣٨٠٥١ - ص.ب: ٤٠٣٧٤ - الرمز البريد: ٢١٤٩٩

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

مِنْ ذَخَائِرِ

السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ

(١)

الجديد و حصري NEW & EXCLUSIVE

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مِنْ ذَخَائِرِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ

للعلامة الشيخ طه محمد السَّاكت

أستاذ الدراسات العليا بقسم الحديث في كلية أصول الدين
بجامعة الأزهر سابقاً
ولد سنة ١٣٢١ هـ وتوفي سنة ١٤٠٣ هـ
رحمه الله تعالى

جمعها ورتبها وعلق عليها وقدم لها

مجد أحمد مكي

الجزء الأول

دار نور المكتبات

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمةً للعالمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه الغرِّ الميامين، وبعد:

فهذه طاقة[١] عطرة من رياض السنة النبويَّة، وهي مجموع الأحاديث النبويَّة التي قام بشرحها فضيلة الأستاذ الشيخ طه محمد الساكت رحمه الله تعالى في مجلة الأزهر، ويَعود سماعي بفضيلة الشيخ، وتعرُّفي على اسمه لأوَّل مرة، عند إعدادي لرسالتي الماجستير في الحديث النبويِّ: "أقوال الحافظ الذهبي النَّقدية في علوم الحديث من كتابه سير أعلام النبلاء" سنة ١٤٠٩ حين قراءتي لتعليقات الأستاذ العلامة المحقِّق الشيخ شعيب أرناؤوط جزاه الله خير الجزاء، عند قول الذهبي في ترجمة عبدالله بن أُبيّ الخوارزمي: "فقول البخاري في "الصحيح": حدَّثنا عبد الله، حدثنا سليمان...فذكر حديثاً[٢] فهو عبد الله بن أُبي".

---

(١) يقولون: باقة من الزهر. والصواب: طاقة من الزَّهْر. والجمع: طاقات. أما الباقة فهي الحُزْمة من البقْل. كما في "معجم الأخطاء الشائعة" ص ٤٥.

(٢) ساق فضيلة الشيخ شعيب الحديثَ الذي أبهمه الإمام الذهبي عن أبي الدرداء ﷺ: كان بين أبي بكر وعمر محاورة، فأغضب أبو بكر عمر، فانصرف عنه عمر مُغْضَباً، فاتَّبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له، فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ، فقال أبو الدرداء: ونحن عنده، فقال رسول الله ﷺ: "أما صاحبكم هذا فقد غامر"

=

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

قال الأستاذ شعيب: " قلت: أذكر أني قرأت شرحاً قديماً بمجلة الأزهر للشيخ طه الساكت، وقد جعل عنوانه: خصومة الأكابر. وقد وُفِّق لهذا العنوان أيما توفيق " (١).

وعَلَق في ذاكرتي منذ ذلك الحين اسمُ المؤلف وعنوانُ المقالة، وقمت بمراجعة مجلة الأزهر، واستخراج دفائن كنوزها في التفسير والحديث والفقه... ووقفت على تلك المقالة التي أشار إليها فضيلة الشيخ شُعيب حفظه الله تعالى، وجمعت سائر ما كتبه الشيخ الساكت في ركن السنة النبويَّة، وبقيت مجموعة لديَّ مع كثير من المجاميع المنتخبة من مجلات إسلامية كثيرة...

وفي لقاءٍ إيمانيٍّ علميٍّ مع الداعية الخطيب الأديب الشيخ جمال الدين سيروان، تكلَّم فيه عن أدب الخلاف، ونقل عن شيخه العلامة المربي الشيخ عبد الكريم الرفاعي رحمه الله تعالى أنه كان يُوصي تلاميذه بمراعاة أدب الخلاف، ويقول لهم: إذا كان لا بد من الخصومة فلتكن كخصومة الأكابر... فقلت للأستاذ: إنَّ هذا المعنى الذي يدعو إليه فضيلة الشيخ عبد الكريم كتب فيه فضيلة الأستاذ طه الساكت مقالات ضافيات في مجلة "الأزهر" تحت هذا العنوان، فَسُرَّ الأستاذ الشيخ جمال الدين بهذا التوافق؛ وذلك ممَّا شجَّعني لأعود إلى تلك المقالات، وأعزم على ترتيبها وخدمتها ونشرها.

قال: وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلَّم، وجلس إلى النبيِّ ﷺ، وقصَّ على رسول الله ﷺ الخبر، قال أبو الدرداء: وغضب رسول الله ﷺ، وجعل أبو بكر يقول: "والله يا رسول الله لأنا كنت أظلم "، فقال رسول الله ﷺ: " هل أنتم تاركو لي صاحبي، هل أنتم تاركو لي صاحبي. إني قلت: يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً، فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت " أخرجه البخاري. وانظر شرحه في هذا الكتاب ص.

(١) سير أعلام النبلاء ١٣: ٥٠٣، وانظر - أيها القارئ - كم لتعليقة صغيرة من أثر ونفع ودعوة إلى خير ودلالة عليه، وكم من تعليقة صغيرة أو كبيرة، من ضُرٍّ ومنعٍ عن خيرٍ وصدٍّ عنه، يُرسلها من لا يحاسب نفسه، ولا يراقب لسانه وقلمه.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ولم تتوفَّر لديَّ آنذاك معلومات عن فضيلة الشيخ الساكت، ولم أقف له على ترجمة في المجلات ولا سيما مجلة "الأزهر" التي استمرَّ يكتب فيها قرابة ستة عشر عاماً منذ سنة ١٣٦٢ حتى سنة ١٣٧٨، وقدَّر الله عزَّ وجلَّ أن أتعرَّف على كبرى بناته السيِّدة الفاضلة أُمامة التي تُدرِّس في إحدى ثانويات جُدَّة، واتَّصلت بها، وأعلمتها بعزمي على نشر مقالات والدها في السُّنَّة النبويَّة، ففرحت واستَبْشرت، وأمدَّتني بما توفَّر لديها من معلومات عنه، ثم اتَّصل بي الأخ الأستاذ السيد يحيى بن طه الساكت من القاهرة، وشجَّعني على المُضيِّ في هذا العمل، وأرسل لي بعض الأوراق والرسائل والمذكِّرات التي تفيدني في ترجمة والده رحمه الله تعالى.

وبقي هذا الكتاب من جملة الأعمال العلميَّة التي أعزم على نشرها، حتى سَنَحت لي الفرصة، وقويَ العَزْم، فقمت بقراءة الأحاديث وترقيمها والتعليق عليها، ثمَّ ترجمت للمؤلف، وعرَّفت بمقالاته، ثم بيَّنت جوانب خدمتي لها.

وممَّا شجَّعني على إنجاز هذا العمل، ووفَّر لي الأسباب لإخراج هذا الكتاب على هذا الوجه، الأخ الدكتور الشيخ عبد الله بصْفر الأمين العام للهيئة العالمية لتحفيظ القرآن الكريم؛ ليكون مرجعاً لمدرّسي المعاهد القرآنية التابعة للهيئة، جزاه الله خير الجزاء.

أسأل الله سبحانه أن يتقبَّل مني هذا العمل، وأن يعظم الأجر لصاحبه ومؤلِّفه، وأن ينفع به مَنْ قرأه ودعا لمؤلِّفه وجامعه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلوات الله وسلامه على نبيِّه خاتم المرسلين.

وكتبه

مجد مكي

الاثنين في ٢٨ محرم سنة ١٤٢٤

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ترجمة الشيخ طه محمد الساكت

١٣٢١ – ١٤٠٣هـ

١٩٠٣ – ١٩٨٣م

عندما قرأت مقالات الشيخ في السنَّة النبويَّة، أحببتُه وأكبرتُ علمَهُ وفَضْلَهُ، ولمست إخلاصه وصدقه وتحرِّيه وأمانته... ولم أجد لفضيلته ترجمةً منشورة لأحد تلاميذه وأصحابه، وما أكثرهم!! ثمَّ أكرمني نجله الكريم السيد يحيى طه الساكت وفقه الله ورعاه بأوراق ومذكَّرات، رتبتُها ونظرتُ فيها، واستخلصت منها الترجمة التي بين يدي القارئ.

وأهمُّ ما يتعلَّق بترجمته ورقات كتبها في نسبه ومولده ونشأته، ثم ورقة أخرى في موجز حياته العلميَّة، أبتدئ الترجمة بإيرادهما كما كتبهما بقلمه. قال رحمه الله تعالى:

نسبي: طه بن محمد بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد البر - وعبد البر، لَهُ ضريحٌ يُزار بمسجدٍ تابعٍ لوزارة الأوقاف ببلدتي ومسقط رأسي "ميت عفيف" التابعة لمركز منوف بمديرية المنوفية - ابن الشيخ عبد الوهاب العفيفي - صاحب المقام الشهير بمسجده بقرافة المجاورين بمصر - وينتهي نَسَب العفيفي إلى الحسن سِبْط رسول الله ﷺ (١).

---

(١) اقتُطف هذا من النسبة الموجودة لدى ابن عمَّتي الشيخ محمد عبد البر (طه).

وفي شهادة نسب مصوَّرة عندي صادرة من نقابة السادة الأشراف بجمهورية مصر العربيه لابنة الشيخ السيدة عائشة برقم ٢٩٣٥ بتاريخ ١٩٩٩/٧/٤م وأنها من ذريَّة الإمام الحسن عليه السلام، فهي الشريفة عائشة بنت طه بن محمد "الساكت" بن محمد بن إبراهيم =

الجديد و حصري NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وأمُّه : شريفة بنت عبد السلام بن يوسف بن محمد بن عبد الرزاق بن محمد شقيق الشيخ العفيفي.

مَسْقط رأسي : بلدة " ميت عفيف " التابعة لمركز منوف، مديرية المنوفية.

ولدتُ في ٢٥ من ربيع الأول ١٣٢١ هجرية، الموافق ٢١ من شهر إبريل ١٩٠٣ ميلادية، ولأمر قدَّره الله رَحَلت الأسرة إلى جهة كفر الدوار بحيرة، ولم أُتَمِّم في رضاعي وقتئذ شهرين، ولأسباب المعيشة انتقلت بي الأسرة إلى القصعي بمحطة الرمل الميري برمل الإسكندرية، وفي هذه البلدة حفظت القرآن وسنِّي تبلغ الثانية عشرة، ثم اشتغلت بالمعيشة بضْعَ سنين مَعَ تعهُّدي للقرآن ومخالطة أهل العلم.

ولمَّا اتَّصلت بصاحب الفَضْل عليَّ أستاذي الأول الشيخ سيِّد رمضان اشتدَّ شوقي للعلم، ورأى مني ذلك، فزاده إلهاباً، وطالع لي علوم السنتين الأوليَيْن، وجاهد معي، حتى التحقت بالسنة الثالثة بالمعهد الإسكندري، مضحّياً في سبيل هذه النعمة كلَّ مُرْتَخَصٍ وغالٍ، وكان ذلك في سنة ١٣٣٩هجرية، ١٩٢١ ميلادية.

ولانقلابٍ سياسيٍّ أُلغيت هذه السَّنَة على طلاب الأزهر وفروعه، وبالمعهد المذكور نلْتُ الشهادة الأوليَّة مُنْتَسباً، ثم الشهادة الثانوية متطوِّعاً، والتحقت بالقسم العالي بالأزهر مُنْتَسباً" انتهى.

وبعد كتابة ما تقدم وقفت على أوراق أخرى فيها زيادة تفصيلٍ عن نشأته الأولى، وقد كُتبت هذه الأوراق بخطه بتاريخ ١٧ محرم ١٣٤٢ الموافق ٣٠

ابن محمد من ذريّة الشريف عمر المرزوقي العفيفي بن مرزوق الكفافي بن أحمد بن عيسى بن يحيى بن محمد بن داود بن موسى بن يحيى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السِّبط بن الإمام علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه والسيدة فاطمة الزهراء بنت سيِّدنا محمد رسول الله ﷺ.

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أغسطس ١٩٢٣ وهو في العشرين من عمره، وهذه الأوراق هي موضوع تعبير كتب فيه جواباً مفصَّلاً عن سؤالٍ يطلب فيه مدرس المادة أن يذكر تاريخ حياته منذ منشئه إلى اليوم، فقال بعد مقدِّمة:

" كيف أذكر تاريخاً حافلاً حَوَى قَصَصاً شتَّى، وجمع آثاراً عظمى... لا أقدر على ذلك مهما استفرغت الجهد. نعم أقدر على ذكره مُجْملاً فيما ينبغي الإجمال فيه، ومفصَّلاً فيما يحسن فيه التفصيل، وها أنا في ذلك شادٍ بلا بأو (أو) مغالاة، ولا عُجْبٍ أو مباهاة، فأقول: أما مَسْقط رأسي فبلدة مائة عفيف[١]، بلدة من بلدان المنوفية، مركزها منوف، مديريتها شبين الكوم، يُضرب بِهَا المثل في جودة أرضها وخصوبتها.

وأما والدي فهو محمد بن محمد بن إبراهيم بن محمد - لُقِّب بالسَّاكت؛ لطول سكوته، ومَيْله للعزلة - ابن عبد الوهاب - صاحب مقام بأكبر مساجد البلدة[٢]- ابن العفيفي – صاحب مقام عظيم تجاه سيدي عبد الله المنوفي بقرافة

---

(١) هكذا رسمها بخطِّه، وتقدم أن أسماها: ميت عفيف.

(٢) لا يجيز الشيخ رحمه الله تعالى بناء المساجد على القبور، والتوجُّه إليها في الصلاة، بل حذَّر من ذلك في رسالة رأيت مسودتها بخطه عندما كان مدرساً بمعهد القاهرة الثانوي، وجَّهها إلى وزير الأوقاف آنذاك، وقال فيها: "في مصر -يا معالي الوزير- مساجد كثيرة، يستقبل فيها المصلُّون أضرحةً منْصوبةً، إن لم تُلْهِهم عن ذكر الله فلا مناصَ من أن تأخذ جانباً من خشوعهم وضراعتهم ونُسكهم وعبادتهم في أعقل معاقل الإيمان، وأعظم أركان الإسلام، وهي الصلاة، تلك البقية الباقية للمسلمين – يا معالي الوزير – والتي شرَّفكم وأعزَّكم وحاطكم ورعاكم؛ إذ جعلكم قوَّامين عليها في بيوتٍ أذنَ الله أن تُرفع ويُذكر فيها اسمه، وإذ ندبكم للعناية بهذه البيوت، فانتدبتم لإنهاضها والعمل على أن تكون لله وحده نظيفة طيبة كريمة محبَّبة زاكية.

فهل لمعالي الوزير أن يضيف حسنةً إلى حسناته الكثيرة، ويداً إلى أياديه البيضاء الناصعة برفع هذه الأضرحة إلى محالِّها اللائقة، حتى تخلُص للمسلمين عبادتهم، وتزكو عند

=

الجديد و طريف NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

مصر، وقد زُرْته منذ عامين -.

تزوَّج والدي بأثيلة[(١)] في المجد، عريقة في النَّسب، بينها وبينه وشيجة رَحِم، غير أنَّ عِشرتهما لم تطل، ووِصَالهما لم يأتلف، وجَدُّهُما[(٢)] لم يَدُم، وتلك حكمةٌ عاليةَ أبى الله إلا أن تكون، ولا مناص ممَّا حُمَّ، ولا بد ممَّا كُتب.

بعد وضعي بأيام قلائل اقْتضَت إرادة الله أن تتزوَّج والدتي بوليِّ أمري الآن، وهو رجل من جرثومة [(٣)] طيِّبة، وسلالةٍ شريفة اسمه: محمد بن محمد إسماعيل روتان، لَقبُ عائلةٍ مشهورةٍ ببلدة دسوق وكَفْر الدوَّار.

ما الذي فعل معي هذا الرجل؟ فعل مالا يفعله الأبُ الرحيم، والوالد

الله ضراعتهم، ويتمَّ لله إخلاصهم، وحتى يذكركم الله كما أخلصتم له الذكر. وحسبكم من سعادة الدنيا والآخرة أن يذكركم الله عز وجل.

ولست أذهب مذاهب الغالين ولا المتنطِّعين الذين يُكفِّرون الناس أو يؤثِّمونهم بصلاتهم في مساجد الأضرحة، ولست كذلك - عياذاً بالله تعالى - ممن يرغبون في إثارة الجدل الديني والخصومة بين الناس... وكيف ومَثَلي الأعلى الذي عاهدتُ الله تعالى عليه حتى ألقاه هو أن أكون من الدعاة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة؟

إنما الذي أذهب إليه وأرجوه، وأناشدكم الله تعالى أن تحققِّوه هو أن تُستدبر هذه الأضرحة ولا تُستقبل، فإذا نُقلت إلى مقبرة عامة أو خاصَّة فذلك أبْعد للرِّيبة وأقرب إلى الخير، أما منع إنارتها والمغالاة في تزيينها والإسراف في النفقات عليها حين زيارتها، فله نظرتكم الموفقة، ورأيكم المسدد..

هذه أمنيتي - يا معالي الوزير - صبرتُ عليها طويلاً حتى هيَّأ لها فرصتها المباركة، فوضعتها بين أيديكم، ضارعاً إلى الله أن يُكرمكم كما أكرمتم بيوته، وأن يذكركم كما ذكرتموه. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(١) أي: أصيلة.

(٢) أي: حظهما الدنيوي أي البخت.

(٣) الجرُثومة: الأصل.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الشَّفيق مع ولده!!

بالغ في إكرامي، ورحَّب بي، وأحبَّ والدتي لأجلي، وعظَّم من شأن عائلتي، ورفع من قدر المُعْتَزين إليَّ، بل والمنتسبين إلى من انتمى إليَّ. فكنا في ذلك الوقت قاطنين ببلدة (العكريشة) في رَغَد في العيش، وسَعَةٍ منه، ثمَّ رأى وليُّ أمري النُّقلة إلى بلدة القصعي بالرَّمْل، فظعن بنا حينئذٍ إلى تلك البلدة، وقد بلغت أربعة أعوام من العمر. واختار بعد مجيئه إليها أن يكون بستانياً بعد أن كان صياداً.

ما الذي أصابه بعد قدومه القَصْعي؟ ماتَ له طفل بلغ الأولى من عمره بعد بنت بلغت الثالثة من عمرها أيضاً، فما تأثَّر بهذا وما عَبَأ به، بل احتزم بنطاق العزيمة، وتَسَرْبَلَ بلباس الصبر والتقوى ضارعاً إلى الله أن يبقيني له.

وبعد عُدُونَا[١] بهذه البلدة عاماً سلَّمني إلى صاحب مكتب ماهر، قد اشتهر بتحديق[٢] الصِّبيان وترقيتهم، وقال له: ربِّه مُحْسناً تعليمه، مُهذِّباً نفسه، مُقيماً أَوَدَه[٣]، ودونَكَ ما طلبت. فرحَّب بي المعلم، وأخذ في تدريبْي على القراءة والكتابة، وترقيتي في مدارج التعليم إلى أن حفظت القرآن الكريم جيِّداً، وتعلَّمت مبادئ الحساب وقواعد الإملاء متَّبعاً ذلك بالتجويد، وعمري إذْ ذاك اثنا عشرة سنة.

بعد هذا أراد وليُّ أمري دَرْجي ضمنَ المعاهد الدينيَّة، فَصَرَف عنايته في استخراج شهادة ميلادي أو تطعيمي حيث ضاعتا ريثما نُقلنا من بلدتنا الأصلية،

---

(١) أي: إقامتنا.

(٢) أي: الإحاطة بهم وتشديد النظر إليهم.

(٣) أي: اعوجاجه.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولما أنْ جاءت إحدى الورقتين بعد كبير العناء، وطويل الاستقراء، كتب الله أن لا ننال طِلْبتنا في هذا العام، وأن لا نقضي إرْبنا [١] في تلك السنة، وما ذلك إلا لحكمةٍ أراد الله إظهارها.

فقد خبَّرني كاتبُ المعهد بعد أن امتُحنت في القرآن، وأُتيح لي الدَّرْج في المعهد عامئذ بأنَّ ورقة التطعيم مرفوضة لِدَدٍ [٢] أُلفي بها، ووَضَرٍ [٣] وُجد فيها، فحاولت الانتساب فما أمكن، وأجْهدتُ النفس في إخراج صورة شهادة الميلاد فلم أتمكَّن.

هنالك يَئِسْتُ من البحث عليها، وقَنطتُ من التحاقي بالمعهد، ورجعت بخُفَي حنين، وصار ما تجشَّمته أثراً بعد عَيْن.

ما حصل بعد اليأس وما كان بعد القنوط؟ اقتعدت الدار بُرهةً من الدهر، أنتظر أمراً يُقضى، وأتربَّصُ حكماً يُبْرم، وأتمثَّل بقول الحكيم الشاعر:

إنَّ الأمور إذ اشتدَّت مسالكها ... فالصَّبر يفتح كلَّ ما رتَجا
لا تَيْأسن وإنْ طالت مطالبه ... إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا

وكنت أُصيبُ تلاوة القرآن، وأُديمُ مطالعة ما يروقني من الكتب فَضْلاً عن قضاء المصالح وأداء الواجبات، ولما خفت ذهاب المعلومات، ونسيان القرآن، التحقتُ بمدرسةٍ أوَّليَّة بالقرب من بلدتنا بعد استشارة وليٍّ أمري في ذلك، وما زلت مُجِدًّا في الحفظ، ومجتهداً في الدروس إلى أن تعرَّفت برجلٍ حميد السَّجايا، كريمِ الخصال، حازمِ الرأي، ولمَّا تَوَطَّدت الإلفة، واتَّصلت

---

(١) أي: بُغيتنا.

(٢) الدَّدُ: اللهو واللعب.

(٣) أي: وسخ.

الجديد و الطريف NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

المَقَةُ [١]، قال لي ذات يوم: إني تاجرٌ أحتاج لأمين مثلك يكتب لي الصَّادر، ويُثبت لي الوارِد، حتى أكون على بصيرة من أمري، فإن رغبتَ في أن تكون لي ظهيراً فَنِعْم الظَّهير، وإن عَزَفْتَ عمَّا قلت، فلست لك من القالين [٢]، فاسْتَشَرت في ذلك وليَّ أمري، فقال: لتكتب له على أن لا يُلهيك عن دروسك، ويمنعك عن مذاكرتك، ثم مازلت أرعى المصلحة، وألاحظ المهنة حتى أراد الله نوالي البُغْية، وحصولي على الأمنيَّة، وإذا أراد الله نفاذ أمرٍ هيَّأ أسبابه.

نقلي إلى دور آخر:

ثمَّ بعد أن قضَيْتُ عامين ونصفاً عند ذلك التاجر، أُولعت بطلب العلم لما رأيت فيه من المآثر العظيمة، والمفاخر الجليلة، فعرضت هذا على صاحبي، فما كان جوابه إلا أن قال: أنا أوَّل مُعْضد لك على طلب العلم، ومُؤازرٍ لك على عُلوِّ المكانة، وارتفاع الشَّأن، فشكرتُ له على ما أبداه، وامتدحْتُه على ما أظهره.

وفي عامٍ فارقته سافرتُ للبحث عن شهادة ميلادي، وللتعارف بيني وبين أسرتي، فوصلت لبلدتي، وأقمت فيها أياماً، وذهبت مع والدي لزيارة أهل البيت، ولم يكن الوالد حفظه الله قد رآني إلا مرَّةً واحدة قبل هذه، ولذلك كاد يُغْشى عليه عندما لمحني، ثم قال: يا ولدي ماهذه الفرقة؟ وما هذا الجَفَاء!! غير أني أقول: لا تَثْريب [٣] عليك اليوم، يغفر الله لك، وهو أرحم الراحمين.

وما زال يدعو لي بالتوفيق إلى أن فارقتُه بمصر بعد أنْ جاسَ معي

---

(١) المقةُ: المحبَّةُ. وقد ومِقَ يَمِقُ مِقةً. والهاء فيه عوضٌ من الواو المحذوفة، وبابه الواو. كما في "النهاية" ٤: ٣٤٨.

(٢) أي: المبغضين.

(٣) أي: لا لوْم.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ثَبَجها[١]، وجَابَ معي معظم أرجائها، وقد كان بودِّه أن أنتسب للأزهر فلم ينل ما ودَّه، لما رأى ما عندي من الحيْدَة[٢] عن ذلك.

وبعد أن قضيْت نَهْمتي [٣] من الزيارة، وحصلت على ضالَّتي من المديرية، قدمتُ محلَّ إقامتي، وهمَمْتُ بإرسالها للمعهد كي تخوِّل لي السلوك ضمنه، فمنَّ الله عليَّ باتِّصالي بأحد أجلَّة العلماء وأفاضل النُّبهاء، يدعى بالسيِّد، وهو سيِّد. فما كان من هذا السيِّد الهمام، والعالم الإمام الذي أعجزُ مدى الدهر عن شكره، ولن أقوم حياتي بواجبه، إلاَّ أنْ سَلَك بي مسالك الرجال، فطَوْراً يُرشدني للهدى، وتارة يُهدِّدني عن الخَطَل بالأذى، بيْنا تراه ملاطفاً إذا هو معاتب، وبينما تراه عاطفاً إذا هو معاقب، فللَّه دَرُّه من مُهَذِّب، ولله أبوه من مُنقذ، فلقد أنقذني من ظلمات الجهل إلى معالم السَّعادة. قرأتُ عليه في نصف سنة ما قُرِّر في عامين، وانتسبتُ للمعهد بواسطته منذ سنتين، وألحقتُ بالسنة الثالثة بعد امتحاني فيما طلب، وقيامي بما وَجَب، فحمداً لك اللهمَّ على ما أوْلَيْتَ، وشكراً لك على ما أسْدَيْت، وغفراناً منك على ما زَلَّ به اللسان أو اجتلبه [٤] الجَنَان.

بعد انتسابي في المعهد ولحوقي به :

انتسبتُ للمعهد عام تسعة وثلاثين وثلاثمائة بعد الألف، فكنتُ أجدني دائماً فرحاً مُسْتبشراً بما فَلَجْت [٥]، قريرَ العين، مُثْلج الصَّدر بما ظَفِرتُ،

---

(١) أي: وسطها.

(٢) الحيْدة: الميْل والانصراف.

(٣) النَّهمة: الحاجة، والشهوة في الشيء.

(٤) أي: خدشه.

(٥) الفُلْجة: الظفر والفوز بالمحبوب.

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وكنت سالكاً طريقاً وسطاً، وخطة حسنه في المذاكرة والمدارسة، ولا أفرِط ولا أُفرِّط، وكنت ليِّنَ العريكة مع إخواني، منشرحَ الصَّدر لكلٍّ منهم، وممَّن أُولعتُ بحبِّه أخي محمد زكي المغربي، فكنتُ مُصَاحباً له، ومُجالساً، فكان أدامه الله يراعيني بنصائحه، ويُرشدني بتقواه، وما زلنا في جِدٍّ واجتهاد حتى دالت الأيام، وانقلبت الأحوال، وبُدِّل السُّرور بالأحزان، حيث أُلغي امتحان تلك السنة المشؤومة لاضطراب سياسيٍّ، وتَرَجْرج حالي، ووقعت حوادث مُؤْلمة تجعل الولدان شيباً.

بعد أنْ زالت تلك المفازع، وهاتيك الكوارث، وَهَدَأ الحال، وعمَّ الاطمئنان، رَجَعَ الطلاب إلى معاهدهم عَقِبَ السنة المشؤومة، وقضوا فيها إرْبَهُم من دروس العلوم وإتقان الفنون، ومازالوا كذلك إلى أن تقرَّر امتحانهم، وآن إبَّان اختبارهم، فَنَجَح الجمُّ الغفير، وظفر كلٌّ بانتقاله إلى السنة التي بعدها، ألا وهي السنة الرابعة الدراسية سنة الجِدِّ والاجتهاد، والمثابرة على العمل، وطرح الرُّقاد، وقد كنت في مقدِّمة ناجحي السنة الثالثة بعناية أساتذة نبغاء، ومدرِّسين حُكماء، ومربِّين أجلاء سلكوا بنا جادَّة الطريق، واصْطَفَوْا لنا لُباب كلِّ عميق، فأنْعِمْ بهم من فطاحل عظماء، وأكرم بهم من رجال أتقياء، زرعوا فَحَصَدوا، وعملوا لله فوجدوا، فما أحسن غرسَهُم، وما أجلَّ عملهم.

أسأل الله أن لا يحرمنا رضاهم، وأن لا يخزينا فيهم، وأن لا يقطعنا عنهم، إنه أكرم مسؤول، وأعظم مأمول " انتهى.

وكلُّ ما تقدم ذكره ممَّا كتبه بقلمه في صفحات متفرِّقات تحدَّث فيها عن نشأته وبداية طلبه للعلم، ثم وقفتُ على صفحة واحدة كتب فيها تعريفاً مُوجَزاً بحياته العلميَّة ومراحله الوظيفيَّة قال فيها:

موجز حياته العلميَّة :

في عام ١٩٣٤	نال شهادةَ التخصُّص القديم في التفسير والحديث، وكان أول فرقته. وشهادة التخصُّص القديم تعادل

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

	الدكتوراه، وتُسوِّغ لحاملها التدريس بالجامعات.
في عام ١٩٣٥	كان أول المتسابقين في امتحان الوعظ والإرشاد بالأزهر الشريف.
من عام ١٩٣٥ - ١٩٣٩	عُيِّن واعظاً عاماً بالفيوم ثم بالإسكندرية.
من عام ١٩٣٩ - ١٩٤٨	عُيِّن مدرِّساً بمعهد القاهرة الثانوي.
من عام ١٩٤٩ - ١٩٥١	بُعث مُدرِّساً بكليَّة الشَّريعة بمكة المكرمة.
من عام ١٩٥٢ - ١٩٥٣	عاد مُدرِّساً بمعهد القاهرة الثانوي.
من عام ١٩٥٣ - ١٩٦٧	عُيِّن مفتشاً للعلوم الدينية والعربية، ثم مفتِّشاً عاماً للعلوم الدينية.
في عام ١٩٦٧	نُدب للدراسات العليا بقسم الحديث في كلية أصول الدين بجامعة الأزهر.
من عام ١٩٦٨ - ١٩٧٠	نُدب مدرِّساً للتفسير والحديث بالجامعة الإسلامية بليبيا.
في عام ١٩٧١	نُدب مدرِّساً للحديث في كلية أصول الدين بجامعة الأزهر.
في عام ١٩٧٢	نُدب مدرِّساً للحديث وعلومه في كلية أصول الدين بجامعة الأزهر في أسيوط.
من عام ١٩٧٣ – ١٩٧٤	نُدب مدرِّساً للحديث وعلومه في جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان.
من عام ١٩٧٥ - ١٩٧٦	نُدب مدرِّساً للحديث وعلومه في كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

في ١٢ من شهر رمضان المعظَّم عام ١٣٨٦هـ = ١٩٦٦م رغبت المملكة المغربية في إيفاد عالم من كلِّ قطر عربي لإحياء هذا الشهر الكريم بالدراسات الحديثيَّة وغيرها، فكان هو المندوب الوحيد الذي اختاره الأزهر ممثِّلاً لمصر والأزهر.

وله بحوثٌ ودراساتٌ ومذكِّرات في الحديث وعلومه لا تزال مخطوطة، والله المستعانُ على جَمْعها وطبعها، ولا حَول ولا قوَّة إلا بالله " انتهى.

فهذه الأسطر السابقة ممَّا كتبه عن نفسه العلامة المحدِّث الشيخ طه بن محمد الساكت، والتي تُقدِّم صورة مجملة، وتعريفاً عاماً عن أسرته ونشأته، ومراحل حياته العلميَّة والوظيفيَّة.

وهذه شَذَرات أُخرى تُلقي بعض الضوء على حياته من خلال كتابه "درجات الناس عند الملوك"؛ إذْ كتب فيه بعض خواطره وذكرياته، تُظهر بعض الجوانب من حياته:

حجته الأولى والثانية وانتدابه للتدريس بمكة المكرمة :

" حجَّ أبو أمامة [١] رئيساً لبعثة الأزهر عام ١٣٥٩، ويقال: إنها كانت بعثة نموذجية [٢]، ثم حجَّ مستقلاً عام ١٣٦٧ مع والدته وزَوْجه الأولى، وزار فيمن

---

(١) وهي كنيته رحمه الله تعالى، تكنَّى بِهَا نسبةً إلى الصحابي الجليل أبي أمامة الباهلي صُدَيّ بن عَجْلان، من بقايا الصحابة بحمص، توفي سنة ٨٦ رضي الله عنه، وهو اسم ابنته الكبرى السيدة أمامة وفقها الله ورعاها.

(٢) وقد كتب الشيخ الساكت عن حَجَّته الأولى عدة مقالات في مجلة (الإسلام) في الأعداد ١٧ و ٢٠ و ٢١ و ٢٣ من السنة العاشرة (١٣٦٠ = ١٩٤١) بعنوان: " من ذكريات الحج " تحدَّث فيها عن أمور أربعة أثَّرت في نفسه تأثيراً عميقاً، واحد مؤلم، ومناظر ثلاثة سارة، أما المنظر المؤلم فهو كثرة المحتاجين والسائلين والمُلْحفين، أما المناظر السارَّة، فأولها اتِّحاد الجامعتين الأزهرية والمصرية اتحاداً وثيقاً، وثانيها: إكرام المصريين والحفاوة =

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

زار بعوث التدريس، فلم يجد أكثرهم على ما يتمنّاه من التعاون والتآزر، وما يحبُّ لنفسه من معاني الخلال!

شكا بثَّه وحزنه إلى الله، وودَّ لو يُبعث فيعمل أول ما يعمل على إحلال الصَّفاء محل الجفاء، وعلى تجميل بعثة أمِّ القرى حتى تكون زينة البعوث في الإسلام... وحقَّق الله أمنيته، فنُدب عام ١٣٦٨=١٩٤٩ مدرساً بالبلد الحرام.

سَعْيُه في الإصلاح في بعوث التدريس بمكة المكرمة:

لما استقرَّ أبو أمامة، وقرَّ عيناً بمكة، خلص نجياً هو والأستاذ الجليل الدكتور عزَّام بك (١)، وزيرُنا المفوَّض بالمملكة العربية السعودية إذْ ذاك...

بهم، وبذل العناية في توفير راحتهم، وثالثها: اعتدال علماء نجد في محادثتهم ومعاملتهم للحجَّاج، وذكر في المقال الثاني: لقاءه مع شيخ علماء المدينة المنورة عبد الله بن جاسر، وهو لقاءٌ كلُّه مُحَاسَنَة وملاطفة ورفق واعتدال. ثم تحدَّث عن أسباب نجاح البعثة الأزهرية، وأرجع أسباب النجاح بعد توفيق الله تعالى إلى أمور ثلاثة هي: سدُّ أبواب الجدل، والأناة والاحتمال، واللين والتواضع.

كما كتب في مجلة (الرابطة العربية) في العدد (٢٦٧) من السنة السادسة (١٣٦٠ = ١٩٤١) مقالة بعنوان: "من ذكريات الحجاز" تحدَّث فيها عن مدرسة العلوم الشرعية، ومكتبة الحرم المكي، ومكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت بالمدينة المنورة.

(١) الدكتور عبد الوهاب عزَّام المولود سنة ١٣١٢ والمتوفَّى سنة ١٣٧٨، العالم الأديب، تخرج من مدرسة القضاء الشرعي بالقاهرة، ودرس في الجامعة المصرية، ونال شهادة الآداب والفلسفة، ثم التحق بجامعة لندن ونال منها درجة الدكتوراه في الآداب الفارسية، وعُيِّن عميداً لكلية الآداب بالجامعة المصرية، ثم عيِّن وزيراً مفوضاً لمصر في المملكة العربية السعودية سنة ١٩٤٨، ونقل إلى الباكستان، وأعيد إلى السعودية سفيراً سنة ١٣٥٤، وأنشأ جامعة الملك سعود في الرياض، وتوفي بالسكتة القلبية فجأة بمنزله في الرياض، ونقل بالطائرة إلى مصر ودُفن في حلوان، رحمه الله تعالى" كما في "الأعلام" ٤: ١٨٧.

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ورَجا منه أن يكون رئيساً للجنة الإصلاح. واشترط للعضوية الدائمة أن يتحلَّى العضو بهذه الخِلال الثلاث: الحكمة، والبذل، والحِلم، يريد بِهَا ألا يكون رجل الإصلاح في حاجةٍ يوماً إلى الإصلاح.

وأما العضو المندوب فاشترط فيه أن يكون أعرف بالخَصْمَيْن، وأرجى للنجاح "[١].

ومن خلال بحثي في بعض أوراقه التي أطْلَعَني عليها نَجْلُه الكريم السيِّد يحيى الساكت، تظهر معالم أخرى من شخصيَّته، وكذلك من خلال المقالات الكثيرة التي نشرها في كثير من المجلات الإسلامية الذائعة الصِّيت الواسعة الانتشار في عصره لمن أراد أن يستقصيَ جوانب حياته ومجالات عطائه.

* * * * *

---

(١) درجات الناس ص ١٥.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

نشاطه العلمي والدعوي

الوعظ والتذكير:

من أبرز أعمال فضيلة الشيخ طه: قيامه بالوعظ والإرشاد والتذكير والدعوة إلى الله عزَّ وجل، حيث كان أوَّل المتسابقين في امتحان الوعظ والإرشاد بالأزهر الشريف سنة ١٩٣٥، وعُيِّن واعظاً عاماً بالفيوم، ثم بالإسكندرية.

واستمرَّ من سنة ١٩٣٥ إلى سنة ١٩٣٩، حيث تمَّ بعد ذلك تعيينه مُدرِّساً بمعهد القاهرة في أول إبريل ١٩٣٩ حتى سنة ١٩٤٨.

وقد ذكر بعض مواقفه في الدعوة والتذكير، وطريقته في الدعوة العامة، وقضائه على كثير من البدع والمنكرات الشائعة بينهم آنذاك.

كتب في مجلة الإيمان في العدد الثاني عشر من السنة الثانية ١٣٥٤ تحت عنوان:

حديث عيان: واعظ يقضي على خرافتين شائعتين:

لست أريد أن أحدِّثك عن الخرافات والدجل في مصر وفي غير مصر، فقد شاع أمرهما وذاع حتى خُدع بِهما بعض من لا تظن بأساً بِلُبِّه ولا دَخَلاً [١] بفطنته: وإنما أروي لك قصتين واقعيَّتين كانتا لأعظم وسيلة في تقويض خرافتين ملأتا أدمغة العامة وأشباه العامة في بلدتنا منذ عهد بعيد أولاهما: الإنفاق من تحت "السجادة"، وأُخراهما: طيَران الميت وزيارته الأولياء رغم حامليه.

١- فاجأنا بمجلس عمدة القرية رجل ممتلئ قوةً وصحةً بصوت قوي

(١) أي: فساداً وعيباً.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

جهير، وعمامة كبيرة حمراء، في عنقه سبحة ضخمة، وفي يده عصا غليظة، قد رُصِّعت بالمسامير، دخل يُهلِّل ويكبِّر من غير استئذان ولا سلام، فأول ما وقع في قلبي أنه مُخادع كذاب، فانْبَريت له دون الجالسين، فقلت: من الرجل؟ فقال: فلان. وما عملك؟ فقال: من المتوكلين، فقلت: كيف تعيش؟ فقال: من عند الكريم. فلم أزل أستدرجه حتى صارحني في غير حياء: أنه مكث أعواماً ستة ينفق من تحت السجادة، وأقل ما كان يجد كل صباح عشرون قرشاً، ثم لمّا حسده أقاربه على هذا الرزق أُفشي السِّر، فانقطع عنه، وكان من العابدين القانتين. فقلت: ياللعجب! تشكر ربَّك وتعبده فيقطع عنك رزقه ومعونته، وهو الذي يقول: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ والله إنك لمفتر كذَّاب، فعلاه خِزْي، ولم يستطع أن يجيب شيئاً، ثم استْبَان من خلال حديثه أنه تارك بلدته وزوجه وأولاده، وعاقٌ لأمه، وأنه يرحل من قرية إلى قرية، يدخل على النساء ويجالسهنَّ. وذكر بعض الجالسين كثيراً من معايبه ومخازيه، فَشَرحتُ للناس فضْل الكسب وعمل اليد، وبيَّنتُ لهم أن نبيَّ الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده، وأن عمر ﷺ كان يعظِّم الرجل ويُكبره، فإذا علم أن لا عمل له أسقطه وازدراه، وأنه لو كانت السماء تمطر ذهباً أو الأرض تفجَّر فضة، لفسد النظام واختلَّ العمران، ولكان الأنبياء والأولياء أوْلى بهذا المغنم الفيَّاض.

فآمن الناس بالحقِّ، وكفروا بالباطل، وخرج الدَّجال مذموماً، ولم يعثر عليه أحدٌ بعد على أثر.

القضاء على خرافة طيران الميت وزيارته الأولياء رغم حامليه :

٢- اعترضني جمع في الطريق سائلين: ألم تر الجنازة التي طارت لزيارة الأولياء؟!! (لا) وما كان لجنازة أن تطير، وقد انتقلت من عالم إلى عالم، وإنَّ لها عن الطيران لشغلاً شاغلاً.

فقالوا: إن هنا أسرة شريفة يموت أحد أفرادها فيحتِّم على حامليه أن يزيروه الأولياء. ثم يتَّجه اتِّجاها خاصًّا لا يحيد عنه إلى مقْبرته، وهو من أجل هذا يتعب

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الناس ويشقُّ عليهم، وهاهي ذي الجنازة ستراها قادمة من الزيارة إلى حيث تريد.

قلت: قد آن للحقِّ أن يجيء، وللباطل أن يذهب إلى حيث لا يعود، وما هي إلا دقائق حتى جاء الموكب حافلاً بمئات من الرجال والنساء والولدان بين تَهْليل وتكبير وزغردة وصياح بالبشر والسرور.

استوقفت الجنازة، وسألت بعض الحاملين: ماذا رأيت؟ أجاب بأنَّ النَّعش أخذه على الرُّغم منه، ودار به مراراً حتى قضى إرْبه، وهاهو ذا الآن ذاهب إلى المقبرة لا يلوي على شيء، فاتَّفقت معهم على أني سأعتزل هؤلاء الحَمَلة، وأختار غيرهم، وأوجِّه الميِّت إلى ما أُريد لا إلى ما يُريد، فإن أبى وطار بحامليه، فإني أول المؤمنين، وإن أطاع ورضي فَلْنَنْزع هذه الخرافة من رؤوسنا، ولنعلن عليها الحرب العَوان[1]، ثم تخيَّرت أربعة ممَّن أثق بهم، وأمرتهم أن يسيروا بالجنازة إلى المركز، وفي ساحته بين الجموع الحاشدة ألقيت عليهم محاضرة ضافية مُبيِّناً أخطار الخرافات وآثارها في العقل والدين والأمة والتربية، ثم شيَّعت الجنازة إلى مقرِّها الأخير، وفي المقبرة ألقيتُ محاضرةً ثانية أقنعت الناس فيها، بأن فعلهم هذا من عمل الشيطان، وأنه عدوٌّ مُضلٌّ مبين، وأنَّ بركة هذه الأسرة الشريفة في رفض هذه الخزعبلات لا في الانتساب إليها، ولم أزل بهم حتى تبرَّؤوا من هذه الخرافة وأشباهها، واعترف بعض الدعاة لهذه الأسرة بحقيقة الأمر قال: إننا أحياناً نتفق على أن يحمل النعش فلان وفلان، فيسيروا به إلى جهات خاصَّة، وأحياناً يدفع أحدنا بقية الحَمَلة، فيظنُّوا أنَّ الميت يَزُجُّ بهم إلى حيث يريد، وبتكرار هذه العادة صَدَّق بِهَا السُّذج من الناس، ثم قلَّدهم الجمُّ الغفير، ولكنك قد هدمت في ساعة واحدة ما بنيناه في مئات السنين.

---

(١) أي الحربُ التي يقاتل فيها مرةً بعد مرةٍ، جمع عُون.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

قلت: هكذا الباطل ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾(١).

وكتب في مجلة "نور الإسلام" في العدد الثالث من السنة الثانية ١٣٥٥ تحت عنوان:

شجرة تُعبد - الدعوة إلى الوعظ العملي:

سأل سائلٌ: إنه تُجاورنا شجرة أثل مُعمَّرة، نتبرَّك بِهَا ونزورها، ونُقدِّم لها القرابين والنُّذور، ونعتقد أنَّ تحتها أربعين ولياً! وهاهي تي تَشْغَل جانباً عظيماً من الأرض الخِصْبة، ولا يجرؤ أحد أن يمسَّها بسوء؟

قلت: ومن أين لها هذه البركة؟ وأيُّ فرق بينها وبين الأشجار الأخرى؟

قال: قد تبرَّك بِهَا آباؤنا من قبل، وَوَرَّثونا هذه العقيدة التي خالطتنا لحماً ودماً، وكم شَفَتْ مريضاً، وقضت حاجة، وفضحت سارقاً... قلت: وامصيبتاه! قد نَصَبَ الشيطان لكم فخَّ الشِّرك، وأرداكم في الهاوية، ودعاكم، فاستجبتم له حتى رَجَع بكم إلى الوثنيَّة الأولى، فَعَبدتم الأصنام وتقرَّبتم إليها، ثم لم تكن حُجَّتكم إلا أن قلتم ما قال المشركون من قبل: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾(٢).

إنكم لن تعودوا إلى الإيمان إلا إذا اقْتلعتم هذه "العُزَّى"، وأخلصتم لله دينكم وعبادتكم... وكان أمراً غريباً مُضْحكاً مبكياً ردُّهم جميعاً: إننا نخافها. أتريد أن يصيبنا ما أصاب فلاناً وفلاناً؟.

وفي صبيحة تلك الليلة صَحِبْتُ فريقاً منهم إلى وِكْر الشيطان، وكانت أعجوبة أن أخذت أقطع من أغصانها المترامية، وأُلْقي بالحبل والشعور المعلَّقة

---

(١) اقتباس من الآية ٢٦ من سورة إبراهيم.

(٢) سورة الزخرف: ٢٣.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

بها، وأنا أناشدهم الله أن يجْتثُّوها ليؤمنوا بالله وحده، ثم لينتفعوا بخشبها، وبالأرض التي تُعطِّلها.

وأمهلتهم خمسة عشر يوماً، فلم يحدثوا بِهَا حَدَثاً، وكلُّهم خائفٌ أن يَقْربها حتى النجَّارون. ماذا أصنع إذاً؟ إنَّ خير القول ما اقْترن بالعمل. وإنه لَحتْم أنْ أتولَّى أنا قطعها حتى أُزحِزحهم عن عقيدتهم الفاسدة.

ولقد كان ذلك، ففي ذات جمعة استَصْحَبْتُ أربعة نَفَر، منهم نجَّاران، وذهبنا إلى القرية، وجمعنا أهلها، وبدأت أقطع مع النجَّارين على مرأىً منهم، ولما حانَ وقتُ الصَّلاة ألقيتُ الخطبة والدرس في الأصنام والخرافات والجهل، ودعوتُهم إلى مساعدتنا في قطع رأس الصنم، فنفر فريق وَاثَّاقل فريق، ولم نَزَل نعمل ونقطع حتى جعلنا عاليَها سافلَها، ولم نُبْق إلا الأصول المتشعِّبة التي تحتاج إلى معاودة الجهاد أياماً، واتَّفقنا مع أهل البلد على اجْتثاثها واجْتثاث أُخرى بالقُرب منها.

وبعد؛ فهذا مثالٌ من أمثلة كثيرة للخرافات المتفشية في الجَهَلة والعامة، ولا يفيد في محوها مجرَّد القولِ والتذكير، بل لا بدَّ من القول المُقْترن بالعمل، والحكم المقفَّى بالتنفيذ، ورحم الله عثمان ورضي عنه إذ يقول: " إن الله ليزع بالسُّلطان مالا يَزَع بالقرآن" وإنَّ للواعظ قوةً ومظهراً لو أحسن سياستهما لكان الظَّفرُ حليفَهُ في كلِّ حين.

ألا حبَّذا لو دَعَا الواعظ إلى الله بفعله قبل قوله، وبحكمته قبل عمله، مُستَمِداً النصر والمعونة من عند الله، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ (١).

وقد تكلَّم عن تجربته في الوعظ والدعوة إلى الله بعدما نقل من الفيُّوم إلى الإسكندرية، وذكر تحت عنوان " **جَوْلة في عالم الروح** " في جريدة "بحر

(١) اقتباس من الآية ٤٥ من سورة النساء.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

يوسف" في العددين (٥٩٨) و (٥٩٩) من السنة (١٣) بتاريخ ٢٧ رمضان ١٣٦١ الموافق ٨ أكتوبر ١٩٤٢ بعض مواقفه في دعوة العلماء والحكام، فقال متحدِّثاً عن نفسه بأسلوب الغائب:

" عُيِّن واعظاً بالفيوم على أثر مسابقة أُجريت للمتخصِّصين الأزهريين، وقضى بِهَا عشرة أشهر كاملة حارب في خلالها بدعاً فاشيةً، وخرافات طاغية، واجتثَّ شجرةً (بالقاسمية) كانت تُعبد من دون الله، وأبطل طَيَران الأولياء، بَلْه الدَّجاجلة والمشعوذين، وقضى على خرافة "الإنفاق من تحت السجادة "، وحاربَ النساء اللاتي كُنَّ يَصِحْنَ ويُوَلْوِلْنَ طائفاتٍ بالقُرى، وكان يُؤْثر العمل على القول، والشِّدَّة على اللين ما وَجَد على القضاء على المنكر سبيلا.

وما أن فُتِحَ باب الوعظ في الإسكندريَّة حتى اختير أحد الوُعَّاظ بها، وهي مَنْشؤه ومَرْباه، فهو بِهَا أعرف، وهي له أطْوَع، وإليه أَقْرب، رأى بعد بضْعة أشهر أن يُقَسِّم الناس إلى طوائف: هذه طائفة القرَّاء، وتلك طائفة المتصوِّفين، وثالثة طائفة التجار، ورابعة طائفة العمال، وأولئك فتيان في المقاهي والمنتزهات، وأولاء نسوة في السُّرادقات أو الطرقات، ولكلٍّ وقتٌ معلوم، ودرس ملائم، أبلى بلاء حسناً، وجاهد جهاداً، كبيراً، ولكنه لم يظفر بعد بالثمرة التي يرجوها، والبُغْيةِ التي ينشدها.

على أنَّ أمامه صنفين من الناس لم يَدْعُهما، وهما اللذان إذا صَلَحا صَلَحَ الناس، وإذا فَسَدا فسد الناس: العلماء والأمراء.

وقد أعطى الله العهدَ والميثاقَ ألا يدع طائفةً دون أن يدعوَها مهما كلَّفه ذلك من ثمن.

ربِّ إنَّ الهدى هداك، ماذا أصنع في هذه الطوائف المختلفة، والنفوس الجامحة، والأهواء الشَّاردة، آتِ نفسي تَقْواها، وزكِّها أنت خيرُ مَنْ زكَّاها، أنت وليُّها ومولاها.

هكذا أخذ يَضْرع إلى الله تعالى أن يُعينه على هداية هذا الطوائف، وأن

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يُثبِّته أمام الطائفتَيْن الأخيرتَيْن اللتين لم تألفا أن يعظهما أحدٌ في جمعٍ حاشد أو في مكان مشهود.

اللهمَّ إنَّ الخلوة والرياضة: تزكية النفس، وتطهير الروح، وثبات الجنَان، وقضاء الطِّلْبَة، وتحقيق الرَّجاوة، وكذلك فعَل... راضَ نفسه حتى كان يكتفي بالتمرات في إفطاره، وباللُّقيمات في سحوره، واعتزل الناس حتى ثَقُل عليه كلامهم وجلوسهم، وطاب له الأُنْس بالله حتى لا يجد به الدنيا بديلاً، وهانَتْ نفسُه أمام فَيْض ربِّه ورحمته، فباعها له وهو جِدُّ مُغْتبطٌ بأنه باع قليلاً صغيراً، واشترى كثيراً خطيراً.

من آثار الخلوة وتزكية النفس :

وَجَدَ قُرَّة عينه في الصَّلاة، وفي تلاوة كتاب الله، فإذا ركَع لا يكاد يرفع، وإذا رَفَع لا يكاد يسجد، وإذا سَجَد فلا تَسَلْ عن حلاوة المناجاة، وكُشفت له أمور غريبة، وظهرت له مَعَان عجيبةٌ، وفُتِحَت له أبوابٌ من الأسرار والكشف كان يحلُّ بِهَا المشكلات، ويوضِّح بِهَا كثيراً من المعضلات، وإنه لَكذلك إذْ تهيَّأ له جَمْعٌ عَظيم من العلماء والسُّراة، وعلى رأسهم شيخ معهد الإسكندرية ووكيله في بيت أحد وجهاء المدينة، وهنا وَجَد الفرصة سانحةً في دعوتهم إلى الله، وتعاونهم على إحقاق الحق، وإبطال الباطل، وليكن ما أراد له أن يكون.

كانت الدعوةُ شديدةً، واللهجة قاسيةً على غير ما اعتاد من الحكمة والموعظة واللين في القول. وللخلوة شجاعةٌ وقوةٌ لا تبالي بمَنْ في الأرض جميعاً.

ومن الإنصاف أن نقول: لا يصلح للدعوة إلى الله مَنْ كان في خلوة أو رياضة؛ لأنه في عالم آخر غير عالم الشهادة، وهاهو ذاك رسول الله ﷺ وهو المؤيَّد المعصوم ؛ لم يَدْعُ قومَه إلا بعد أن مضى على خلوته في غار حراء رَدْح من الزمن.

وها هو ذا شهر رمضان، وهاهو ذا العشر الأخير منه قد أشرف، وكان

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

النبيُّ ﷺ إذا دخل العشر جدَّ وشدَّ المئزر، وأحيا ليله، وأيقظ أهله، وقد بقي على تحلُّلِكَ من العهود والميثاق، دعوة الطائفة الكبرى، طائفة الأمراء والحكام.

وهاهي ذي مُمَثَّلة في مليك البلاد وحاكمها الأكبر، وفي وزرائه وخاصَّته، وفيمن يحضرون صلاة الجمعة معه، وهو - أيَّد الله به الدين وأعلى به كلمة المسلمين – سَيُصَلِّي في مسجد يحيى باشا بالرمل، فلتكن الدعوة عَقِبَ الصلاة. وليكن هذا سراً بينك وبين الله حتى إذا كانت مخالفة أو محاكمة، فلتكن تَبِعَتُها عليك وحدك، وليقْضِ الله ما أراد.

بهذا الحديث أخذ يُناجي نفسَهُ، فعاود الخَلْوة، وأمْعن في الرياضة، وعَزَم على إنجاز مهمته مهما يكن من أمر، والله المستعان.

ما أحلى الخلوة، وما ألذَّ حديثَها، وما أسطع نُورَها، وما أشْجَعَ صاحبَها، لو وقفت الدنيا وأهلها في صفٍّ، وهو وحده في صفٍّ، لكان هو الغالب المنصور، أليس مع الله؟! وهل يغلب اللهَ غالبٌ؟!

نصيحته للحاكم ودعوته إلى تحكيم كتاب الله :

بهذه الرُّوح قام على أثر سلام الإمام يدعو إلى الله، وكلُّه ثباتٌ واطمئنان.

استهلَّ العظة بالدعاء للمليك والإخلاص له، وسار مُسرعاً نحو الملك يُقدِّم إليه كتابَ الله، ويَرْتجي منه أن يُصدر أمراً كريماً بالعناية والحكم على طريقه المستقيم ونهجه القويم.

حالَ بينه وبين ما يَبْتغي الحاشية والجند، وسيقَ للتحقيق، وسُئِلَ عن مخالفته النظام و(البروتوكول)، فقصَّ عليهم قصَّة إبراهيم الخليل عليه السلام، وبيَّن لهم أنَّ الدعوة إلى الله تعالى فوق كلِّ نظام، وأبدى استعداداً لكلِّ ما يصنعون.

عَرَفوا منه حُسْن النيَّة، فأطلقوا سراحه، وحذَّروه أن يعود لمثلها، فأجابهم إلى ذلك، وهو فَرِحٌ مسرور، لا بأنهم أطلقوه، ولكن بأنه وفَّى بعهد الله.

ذهب إلى مَنْزله فوجد حَشْداً من الإخوان والزملاء، منهم اللائم والعاتب،

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ومنهم الخوين والمنكدر، ومنهم السائل والمستفسر، وقد اتَّفقت كلمتهم على أنَّ أقلَّ عقوبة للإدارة هو النقل إلى حدود القطر إن لم يكن الفصل، ثم أجمعوا على أن يذهب إلى فضيلة الأستاذ الأكبر يترضَّاه.

فما كان جوابه عن كلِّ هذا الضَّجيج إلا أن قال: إنْ كانت هذه القَوْمةُ لله مخلصةً فسيدافع الله عني، وإن كانت غير ذلك فجزائي ما يحلُّ بكلِّ مُراءٍ كذَّاب، وكأن له مع الله ﴿ولله المثل الأعلى﴾ دلالاً إذْ قال: " أما شيخ الأزهر فلن أذهب إليه، بل الله يسوقه إليَّ " أو كلمة كان ينطق بِهَا عن صادق نية الإلهام، فقابله شيخ الأزهر على غير ميعاد، ويقول له:

أأنت الشيخ الساكت؟ أأنت الشيخ الساكت؟

- نعم.

- لقد عملت يوم الجمعة عملاً لا ينبغي لواعظ!!

- حقاً يا مولاي.

- ولم هذا؟

- على أثر رياضة روحيَّة.

- ولكنَّ الرياضة تُصفِّي الروح، وتُهذِّبها حقاً، ولكن تعجَّلت.

انتهى الحديث، وانصرف الشيخ، وقد قَضَى عَجَباً من ملامح وجه شاحب، وشخص ناحل.

الانتقال إلى التدريس في معهد القاهرة:

كان هو وزميلان له حاولوا غير مرة أن ينتقلوا إلى التدريس بالمعاهد، مُحتجِّين بأنهم تخصَّصوا في شُعَب التدريس لا الوعظ، وبأنَّهم أوائل شُعبهم، وبأنَّ مسابقة الوعظ جاءت عَرَضاً، فإذا قُبِلَ في التدريس مَنْ يليهم في مجموعاتهم ـ ممَّن لم يَنْجحوا في المسابقة ـ فلا أقلَّ من مساواتهم بإخوانهم، ولا يعقل أن يكون تبْريزهم في مسابقة الوعظ عائقاً لهم عن حقٍّ أصيل.

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

حُجَجٌ قوية، ولكن لم تأخذ بِهَا الإدارة، ورأتْ أخيراً أن يدخلوا مسابقة التدريس، إنْ كانت لهم فيه رغبة.

دخلها أخواه، ولم يرضَ هو أن يترك الدعوة إلى الله حتى يجيء الإذن، وعلامة الإذن التيسير، ووقع في قلبه أنه منتقلٌ إلى التدريس بإذن الله من غير مُسابقة، وكان ولا يزال يعاود الخلوة والرياضة كلَّما سَنَحت فرصة على الرُّغم من تحذير إخوانه له..

أشفق عليه شيخ الأزهر، ورأى رأيَ العين أنَّ الوعظَ أنْهَكَ قُواهُ، وأنه حمَّل نفسه مالا يحتمل، فأمر أن يهدأ ويستريح، وأنه في فترة سكونه وطمأنينته إذا هو يقرأ كتاباً بأنا قد نَدَبناك مدرِّساً بمعهد القاهرة " انتهى.

الشيخ محمد بن عبد العزيز الخولي :

وممَّن تأثَّر بمنهجهم في الوعظ والإرشاد والدعوة إلى الله، الشيخ محمد عبد العزيز الخولي أستاذ الوعظ والإرشاد، ومدرِّس الشريعة الإسلامية بمدرسة القضاء الشرعي ثم بدار العلوم وبتخصُّص الأزهر الشريف المتوفى في ٢٦ من ذي القعدة ١٣٤٩ رحمه الله – وقد قال في كلمته في تأبينه بعنوان: " **فقيد العلم والهداية** " التي ألقاها بجمعية مكارم الأخلاق الإسلامية في ٦ من ذي الحجة ١٣٤٩ الموافق ٢٤ من إبريل ١٩٣١ قال فيها: " قدمتُ مصر من بضْع سنين، وكنتُ شَغوفاً أن أرى عظماء الرجال، وأن أجلس إليهم ما استطعت، وأنْ آخذ منهم الحكم والإرشاد، والحكمة ضالة المؤمن. فما إن قَرَع سمعي ذكر الواعظ البليغ، والمربِّي المخلص – مَنْ فقدناه بالأمس – حتى ترقَّبت الفرص للاجتماع عليه، وما هي إلا أيام حتى أعلنت جمعيتنا هذه " جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية " محاضرة للراحل الكريم، عنوانها: "كيف نعظ"؟ بيَّن فيها رحمه الله شروط الواعظ، وما يجب أن يتحلَّى به من حميد الخصال، وشريف الخلال، كما بيَّن فيها طريق الواعظ الناجع والنصح المثمر، بياناً لا مزيدَ لأحد بعده،...

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

إلى أن قال: كانت تلك الموعظة الصَّادقة والمحاضرة الخالدة أوَّلَ حلقةٍ من حلقات صلتي القلبيَّة به، ولم يزل من بعد ذلك يؤيِّد قولَه فعلُه، ويشهد عملُه بصدقه في الله، وخالص رغبته في رضاه. ولم أزل من بعد ذلك أزدادُ له حباً وإجلالاً، وأغبطه كما يغبطه الكثير... " .

إصلاح طرق الوعظ :

وقد كتب في وقت مبكِّر يدعو إلى إصلاح طُرق الوعظ، وممَّا كتبه في ذلك سنة ١٣٥٤هـ = ١٩٣٦ حَوْل نظام العمل في الوعظ بعد تعيينه واعظاً عاماً بالفيوم لعامٍ واحد:

" يبلغ عَدَد الوعَّاظ في الوجْهَيْن البَحْري والقِبْلي اثنين وسبعين واعظاً، وأكثرهم في الوجْه البحري، ويُراد عَمل مسابقة في هذه الأيام لتعيين عشرين واعظاً يمثِّلون المراكز الخالية، لمَّا أحسَّ به المديرون وولاة الأمور من ثمرة الوعظ وجليل آثاره.

وفي الحق أنَّ الواعظ إذا رُزق التوفيق، وأُلهم النشاط والجِد، كان خير معوان على الدعوة إلى الله، وعلى تثبيت الأمن وإقرار السلام والطمأنينة، والسَّيْر بالأمة إلى مَهْيَع الفلاح والسعادة.

نظام العمل في الوعظ :

ويقضي نظام العمل أن يلقي الواعظ خمس محاضرات في الأسبوع، ويختار لنفسه يوم راحة – إذا شاء – على شريطة أن يكون الجمعة يوم عمل؛ لأنه أهم الأيام في الوعظ والاجتماع، وقد يختار الواعظ درساً أسبوعياً لبلد المركز، وينتقل إلى البلاد الأخرى لإلقاء الدروس الأربعة.

الشيخ عبد ربه مفتاح :

ورئيس إدارة الوعظ ومفتِّشه العام هو فضيلة الأستاذ الشيخ عبد ربه مفتاح، ويرسل إليه الوعاظ شهرياً برنامج العمل، وبيان الدروس التي يراد إلقاؤها، والبلاد التي ستلقى فيها. ويمرُّ سنوياً على الوعاظ جميعاً ليقف على مبلغ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تقدُّمهم وليرشدهم عند الحاجة.

ومن ميزات هذا الرجل أنَّ واعظاً واحداً لا يشعر في وقت ما أنَّ عليه رئيساً لا في حديث ولا في مخاطبة ولا في مراسلة ولا في إرشاد، وما هو إلا أبٌ رحيمٌ لأبناء بَرَرَة، أو صديقٌ حميمٌ لإخوان مخلصين (١).

على أنَّ الواعظ لا رقيب عليه إلا الله وحده، ففي مكنته أن يجدَّ ويكدَّ ويرحل لينفع وينتفع، ويأكل حلالاً طيباً، وفي استطاعته أن يلهو ويلعب ويخادع ويوارب. ولا يربي النفسَ والوجدان والخلق شيءٌ أعظم من مراقبة الله وخشيته.

وعاظ الفيوم:

في الفيوم الآن أربعة مراكز: البندر، وسنورس، وابشواى، وإطسا، وأكثرها بلاداً مركز "إطسا" ففيه سبع وأربعون بلدة ما عدا الغرب طبعاً، ووعاظه ثلاثة، ويراد تعيين رابع بالبندر. والجهلُ في هذه البلاد، والفقر كلٌّ قد أخذ بحظٍّ وافر إلا نَزْراً منها يسيراً لا يذكر.

ترى البلدة تبلغ سبعة آلاف أو الثمانية، وليس فيها عالم لا رسمي ولا غير رسمي، وإن قدِّر لها أن تحب عالماً غادرها إلى المدينة، ولذا ترى الناس في شدَّة الحاجة إلى فتح جديد وتعليم لمبادئ الدين، ومن أجل ذلك لا ينتفع الواعظ كثيراً إلا بمطالعته الخاصَّة، أما هذه الدروس الأولية ولا بد منها لهؤلاء السُذَّج فإنها لا تغنيه شيئاً.

ومرجع فقرهم إلى انتشار الربا الذي أتى عليهم فأهلكهم، والمواصلات على العموم رديئة ويقال: إنها خير من غيرها في الوجْه القبلي. وجزى الله أهل

---

(١) توفي الشيخ عبد ربه مفتاح في شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٧، وللشيخ طه الساكت كلمة صغيرة في رثائه نشرها في مجلة "نور الإسلام" العدد (٥) من السنة الرابعة.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الإدارة خيراً، فإنهم يقومون بمعاونتي في بعض الأحيان على جانب منها ذي أهمية.

برنامجه الخاص:

نظراً لإقامتي بـ "إطسا" وهي بلد المركز، خصَّصت لها درسين أسبوعيين في مسجديها؛ (أحدهما تطوُّع) عدا دروسٍ للشرطة وللعَسَس "الخفراء" أحياناً، وعدا ما تدعو إليه الطوارئ والمفاجآت.

وجعلت أربعةً لبقية البلاد، وأسال الله المعونة على ما أُلاقي من صعوبة. والناس عامة يقبلون على الوعظ، ويستمعون للواعظ، متى علموا به، والمعتاد أن يُبلّغ العمدة بقدوم الواعظ في وقتٍ معيَّن ليجمع الناس عليه.

وهنا ملاحظة جديرة بالنظر، وهي أنَّ الواعظ لا يمكنه أن يؤدِّي لكلِّ بلد من بلاد المركز أكثر من درس واحد في كلِّ شهرين أو ثلاثة على حسب كثرة البلاد وقلَّتها.

وماذا يغني هؤلاء المساكين المحرومين درس واحد في كلٍّ ثلاثة شهور، والنفوس الخيِّرة في حاجة إلى الدروس والعظات كل أسبوع على الأقل، فضلاً عن النفوس الشريرة.

هي محاولة وجهاد على كلِّ حالٍ، ولهذا التباعد أقترح على الوعاظ أن يجعلوا معظم دروسهم مليئة بأصول الدين وفروعه ومكارم الأخلاق كي يكون كل درس برنامجاً عاماً يستضيئون به، ويسترشدون بهديه.

موازنة بين الوعظ والتدريس:

لا يجهل أحدٌ ما لكلٍّ من الوعظ والتدريس من مَحَاسن ومتاعب، وسأحاول إن شاء الله أن أكون منصفاً في هذه الموازنة، بعيداً عن التأثُّر بأيِّ أمر مهما كان نوعه، مُوجزاً مع هذا كله ما استطعت.

وأُريد أن أغضَّ الطرف في هذه الموازنة عن أمرين قد يراهما غيري على

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

شيءٍ من الأهمية؛ هما: المادة والمظهر؛ ذلك أنَّ المادة لا تقاس بكثرتها، وإنما تقاس عندي بالبركة فيها وبالتوفيق والسَّداد، فَرُبَّ صاحب خمسة أهنأ بالاً، وأحسن عيشاً، وأكرم نفساً من صاحب الخمسين والمائة.

ترى الأول صحيحَ الجسم، قليلَ الترف، معتدلَ السَّيْر، بينما ترى الآخر معتلاً سقيماً، ينفق ربع مرتبه على الأطباء والأدوية، وثلاثة الأرباع الباقية في الشهوات المختلفة والشؤون الوضيعة التي لا وزن لها في الشرف والحكمة والمروءة.

وأما المظهر فيرجع إلى تقوى الله أولاً، وإلى المروءة وكرامة النفس ثانياً.

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقَّـها هواناً بِهَا كانت على الناس أهونا

فنفسك أكرمها وإنْ ضاق مسكن عليك بِهَا فاطلب لنفسك مسكنا

فلا ترفع الوظيفة امرءاً، ولا تخفض الصناعة عاملاً، وإنما يرفعه أدبه، ويحطُّه تهاونه وابتذاله.

على أنَّ مظهر الوعَّاظ - بحمد الله - من أجمل المظاهر، فهم محترمون أينما كانوا، مُكرَّمون أينما حلُّوا، وأما المستقبل فبيد الله سبحانه، يُعزُّ مَنْ يشاء، ويُذلُّ مَنْ يشاء، ويرفع مَنْ يشاء، ويضع مَنْ يشاء.

فانحصر الكلام إذاً في النفع والأثر والسعادة النفسية:

يرى المنصف أن نفع التدريس قاصرٌ على طلبة محصورين لا يعدوهم إلى غيرهم، بينما يرى نفع الوعظ وأثره أبعد مدى وأعم نشراً، ثم يرى في التدريس ملقاً ومداهنة وجهلاً وأموراً كثيرة أقرب إلى الصناعة والفن منها إلى الدعوة والإخلاص.

وقد يُكره المدرس إكراهاً على تدريس مادة لا يرغبها فيعيش منغَّصاً حَرِجَ الصَّدر، محزونَ الفؤاد، ثم هو مسجونٌ في دائرةٍ ضيِّقة من الاطِّلاع والبحث، ومختلط برؤساء مختلفي المشارب والمناحي، ومُضْطَرٌ لأن يجامل كُلاً، ويسايره على هواه، وجالس - ولا بد - في مجالس لا تخلو من اللغو واللغط

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وذكر مالا ينبغي ذكره، إلى غير ذلك ممَّا هو مرئيٌّ رأيَ العين، فإما أن يداهن ويحابي، ويعيش عيشة التقلُّب والنفاق، وإما أن يعتزل ويعتكف، ويعيش عيشة الوحدة والوحشة. أمران ما أمرَّهما وأشدَّهما على النفس.

لكن الواعظ في بُعْدٍ ومَنْجاةٍ عن هذا كلِّه. وإن اختلط به العامة فهم أقل من أن يلغوا ويلغطوا في مجلسه، وهو أكبر من أن ينفِّرهم من الغيبة أمس، ثم يشاركهم فيها اليوم. وإن جالس الخاصَّة - وقليل ما هم- فمجالسةُ علمٍ وإرشاد وبحث في حدود الأدب والإجلال، وإن رأى منهم ما يريبه تلطَّف في نصحهم وكفِّهم، فإن انتهوا وإلا اعتزلهم معتزاً بنفسه، مصوناً دينه وعرضه، لا شأن لهم به ولا حاجة له إليهم، وهم لا يأتون بما يستنكره الشرع أمامه أدباً منهم أو مجاملة له على الأقل.

وهو لا يكثر من الاختلاط بهم، حتى لا يبتذل أمامهم أو يشعروا بأنه محتاج إليهم، ويوحي إليهم من طرف خفي وعند المناسبات بما تتطلَّبه الدعوة إلى الله من حُسْن السيرة والتعاون على البرِّ والتقوى، وأنهم شركاؤه في هذه الدعوة، فلا يتوجَّهون إلا إلى خير، ولا يتكلَّمون في مجلسه إلا في نفع، وأين المدرس من هذا كله؟

معاناة الوعاظ :

غير أنه لا يجهل أحد أيضاً أن الواعظ يقاسي من أخلاق الشاذِّين وجهلهم شدّةً، ويلاقي في انتقاله من بلد إلى بلد صعوبة.

وربما اضطر إلى المبيت، فلا تكتحل عينه بنوم، لا سيما إذا لم يتربَّ تربيةً ريفيَّة مثلي – وإن كنت لم أَبِتْ ليلةً واحدة خارج منْزلي الآن، لكني لا أضمن العاقبة مع رداءة المواصلات –.

نعم كل ذلك يكون، ولكنه جهاد في سبيل الله خصوصاً مع النية الحسنة، ووراثة للنبوة، واقتداء بسيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه.

ألم يكن ﷺ ينتقل من جهة إلى جهة، ويعرض نفسه على القبائل؟ ألم

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

يهاجر من مكة مولده وموطنه إلى المدينة المنورة في سبيل نُصرة الله وإعزاز دينه؟ ألم يلاقِ من الأذى والشدَّة ألواناً لا يلاقي الواعظ الآن معشارها ولا معشار معشارها.

وأين مَنْ يكرمونه ويجلُّونه ويخضعون له ممَّن كانوا يَسْعَون في قتله والمكر به؟ البَوْن شاسع والفارق بعيد.

وفي الانتقال رياضة وصحة ومتعة للجسم والروح معاً، وكم كانت الحياة الجلوسية منشأ أمراض وأسقام " انتهى.

قرار مشيخة الأزهر ابتعاثه إلى اليابان :

ولبروزه في مَيْدان الواعظ والتذكير قرَّرت مَشْيخة الأزهر ابتعاثه للدعوة إلى الله، ونشر الإسلام في اليابان، وفي خطاب أرسله الشيخ طه الساكت بتاريخ صفر من سنة ١٣٥٤ = مايو ١٩٣٥ إلى شيخ الأزهر كَتَب فيه: " حضرة صاحب الفضيلة مولانا الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد: فقد أرسلتْ إليَّ الإدارة خطاباً تطلب فيه أن أستعدَّ للسفر إلى بلاد اليابان في وقت قريب؛ لنشر الثقافة الإسلامية حتى يوافيني خطاب آخر بتسليم الاستمارات وما يتبعها. وقد أُرِّخ بتاريخ ١٩٣٥/٢/٢٨ إلا أنه لم يصل إليَّ إلا في ١٥إبريل ١٩٣٥. فلم أجد بداً أن أستعد. وكان من استعدادي أن قابلت المسيو "تامورا" أحد القائمين بأعمال القنصلية، وحادثته – وهو يعرف العربية – في شؤونٍ شتَّى، وانتهى بنا الحديث إلى أن تطوَّع لي بدروس في مبادئ اللغة اليابانية محادثةً وقراءةً، وقد أكملت حتى الآن أربعة عشر درساً.

وقد رأيتُ أن أكتب إلى فضيلتكم راجياً أن تتفضَّلوا بالنظر في هذا الأمر، فإما واصلت السَّير في الاستعداد، وإما وجَّهت عنايتي إلى أمر آخر، ولفضيلتكم الرأي الأعلى، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته "

وقد كتب الشيخ على مذكِّرة كتبها في ١٢ من المحرم سنة ١٣٥٤ بمناسبة عزم مشيخة الأزهر على بعثته إلى اليابان، وما يحتاج إلى اسْتصحابه في هذه

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الرحلة، كتب على حاشية تلك الصفحة: "دالت دولة الأزهر، فاستقال الشيخ الأحمدي الظواهري، وخَلَفه الشيخ المراغي، ثم رأى العدول عن سفري، واستقدم مبعوثي الصين في ٢٤ من رمضان ١٣٦٠ ".

ومن نشاطاته العلميَّة والدعويَّة :

مشاركته في الجمعيات الإسلامية، ولا سيما جمعية الهداية الإسلامية التي كان يرأسها الإمام محمد الخَضِر حسين، وكانت تربطه به صلة تلمَذة وثيقة ومحبة أكيدة.

وكذلك مشاركته في المحاضرات والنشاطات في الجمعية العامة للمحافظة على القرآن، وجمعية الشُّبَّان المسلمين، ومكارم الأخلاق، وجمعية منع المسكرات، وشباب محمد، والعشيرة المحمدية، وجماعة الوعظ والدعوة الإسلامية، ثم محاضراته في علوم السنة بمعهد تدريب الأئمة.

جماعة الأزهر للنشر والتأليف :

وتربطه صلة بجبهة علماء الأزهر التي كان يرأسها الشيخ محمد الشَّربيني، وكان عضواً في جماعة الأزهر للنشر والتأليف التي يرأسها الدكتور محمد يوسف موسى، ووكيله الأول محمد النجار، والثاني محمود خليفة، وكان الشيخ طه عضواً فيها مع: أبو زيد شلبي، وصادق عرجون، ومصطفى الطير، وجابر إسماعيل، ومحمد أبو العيون.

وشارك في لجنة النظر في مناهج الدراسة بالأزهر في عهد مشيخة الإمام محمد الخضر حسين، وكانت اللجنة مكوَّنة من أصحاب الفضيلة: محمد عبد الله دراز، وعبد الرحمن تاج، وعبد اللطيف السبكي، ومحمود شلتوت، واجتمعت في شهر ذي القعدة ١٣٧٢ = ١٩٥٣.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن نشاطاته العلميَّة: مشاركته في لجنة الموسوعة المفهرسة للأحاديث النبويَّة [(١)] في مجمع البحوث الإسلامية سنة ١٣٨٧، ثم انتخابه عضواً في لجنة تحقيق "جمع الجوامع " المعروف بـ"الجامع الكبير" [(٢)] للإمام السيوطي من قبل مَجْمع البحوث الإسلامية في الأزهر الشريف في ١٩٧٢/٦/٧.

كما تمَّ ضمُّه لعضوية لجنة القرآن والسنة بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في ١٩٨٠/٣/١٨.

وعضويته قبل ذلك في لجنة التفسير الوسيط، ولجنة الحديث في مجمع البحوث الإسلامية، ورئاسته لمجلس إدارة جمعية عمر بن عبد العزيز وما يتبعها من المعهد الأزهري لتحفيظ القرآن [(٣)].

---

(١) وأعضاء اللجنة: محمد علي السَّايس، ومحمد الزفزاف، وعلي حسب الله، وعبد الرحيم الجندي، وطه الساكت، وحافظ الليثي، وعبد الوهاب عبد اللطيف، وعبد الغني حامد سلمان. وقد تقرَّر قيام لجنة الموسوعة الحديثيَّة بفهرسة الكتب السبعة: الموطأ بروايتيه، والصحيحين، وكتب السنن الأربعة. وتشمل على فهرس الموضوعات عامة، يتناول الكتب والأبواب مرتَّبة على حروف المعجم، وفهرس الأحاديث القولية والعملية مرتَّبة على الحروف كذلك، وفهرس الشمائل المحمدية والصفات النبويَّة، وفهرس الرواة الذين انتهى إليهم إسناد الحديث، وفهرس الآيات القرآنية التي جاءت في أحاديث الأصل، أو سيقت مساق الأدلة والشواهد.

(٢) وأعضاء اللجنة: مصطفى الحديدي الطير، وطه الساكت، ومختار الهايج، ومحمد حافظ الدسوقي، وعبد الحميد نَدَا، وحسن عبد الظاهر، برئاسة الشيخ عبد الجليل عيسى.

(٣) ولكثرة هذه الأعباء اعتذر عن المشاركة في المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية. ففي رسالة كتبها للأستاذ الجليل الشيخ عبد الله المشد بتاريخ ٦ جمادى الأولى عام ١٤٠٠هـ معتذراً له عن دعوته للمشاركة في المجلس المذكور: " أما بعد ؛ فقد كان يُشرِّفني العمل بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لولا أعباء مسؤولياتي الجسام نحو: مسجد عمر بن عبد العزيز الذي بنيناه بعون الله تعالى، ثم بالمجهود الذاتي، وجمعية عمر بن عبد العزيز، ومحاضراتي في علوم السنة بمعهد تدريب الأئمة، وعضويتي بلجنة التفسير والحديث بمجمع =

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أصدقاؤه وأقرانه :

١- فضيلة الأستاذ الشيخ علي حسن البولاقي الذي كان يُسمَّى الشافعي الصغير، لتمكُّنه في فقه الإمام الشافعي.

٢- فضيلة الأستاذ الشيخ محمود خليفة الأستاذ بكلية الشريعة في الجامع الأزهر، والأمين العام لجبهة علماء الأزهر.

٣- فضيلة الشيخ عبد الرحيم الجندي، وكان يُسمَّى فلاح العِلْم.

٤- فضيلة الأستاذ الدكتور محمد الطيِّب النجَّار، مدير جامعة الأزهر سابقاً.

٥- فضيلة الأستاذ الدكتور محمد محمد المدني، عميد كلية الشريعة والقانون سابقاً.

٦- فضيلة الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز، أستاذ التفسير والحديث، وممثِّل جامعة الأزهر في المؤتمرات الدولية [(١)].

٧- فضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة، أستاذ الشريعة ورئيس قسمها في جامعة القاهرة سابقاً.

٨- فضيلة الأستاذ الدكتور محمد يوسف الشيخ، أستاذ الفلسفة بكلية

البحوث الإسلامية...وهي أعباء مرهقة – كما ترَوْن – لا تَدَع لي وقتاً خالصاً للمجلس الأعلى ولا لغيره، ولا شكَّ في أنكم إذ تتفضَّلون بقَبول عذري، تدعون الله أن يُعينني على احتمال هذه الأعباء!!.

كتبه أخوكم المعتذر الآسف : طه محمد الساكت "

(١) وهو من طبقة شيوخه ويَصِفُه في شرح حديث " بلوغ الدعوة المحمدية" بقوله في حكم من بلغتهم الدعوة الإسلامية مشوَّهة بالأباطيل، وأن هؤلاء –كما قال جمع من الفضلاء المعاصرين – في حكم من لم تبلغهم: ومنهم أستاذنا الكبير محمد عبد الله دراز في كتابه : «المختار من تيسير الوصول "، وقد انتفعنا به في شرح هذا الحديث.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أصول الدين بالأزهر.

٩- فضيلة الأستاذ الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار، شيخ الأزهر سابقاً.

١٠- فضيلة الأستاذ الشيخ محمد مصطفى الحديدي الطير، الأستاذ بكلية أصول الدين سابقاً.

١١- فضيلة الأستاذ الدكتور محمد مصطفى مجاهد، الأستاذ بكلية الشريعة سابقاً.

١٢- فضيلة الأستاذ الشيخ حافظ الليثي الموظف بإدارة الأزهر.

١٣- فضيلة الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود، شيخ الأزهر.

١٤- فضيلة الأستاذ الدكتور عبد المنعم النمر، وكيل الأزهر سابقاً.

١٥- فضيلة الأستاذ الشيخ منشاوي عبود الخولي، عضو مجمع البحوث الإسلامية.

١٦- فضيلة الأستاذ الدكتور محمد محمد أبو شهبة، الأستاذ بكلية أصول الدين في الأزهر، وبقسم الدراسات العليا في جامعة أم القرى سابقاً.

١٧- فضيلة الأستاذ الشيخ محمد متولِّي الشَّعراوي، المفسِّر المشهور، والداعية الإسلامي.

تلاميذه: كثيرون في شتى بلاد العالم الإسلامي، ومنهم:

١- الدكتور موسى لاشين شاهين، وكيل جامعة الأزهر سابقاً.

٢- أستاذنا الدكتور الشيخ محمود أحمد ميرة، أستاذ الحديث النبويِّ للدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وجامعة الإمام محمد بن سعود سابقاً.

٣- الدكتور الشيخ محمود الطحان، أستاذ الحديث وعلومه بجامعة الكويت.

٤- الدكتور عزة علي عطية، أستاذ الحديث بجامعة الأزهر.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة
شبكة الألوكة www.alukah.net

٥- الدكتور مصطفى غلوش، الأستاذ بكلية أصول الدين بالأزهر.

٦- الشيخ محمد عبد المقصود جاب الله، الأستاذ بكلية بنات الإسكندرية.

٧- الشيخ أحمد جاد، عضو مجمع البحوث الإسلامية سابقاً.

أسرته :

لفضيلة الشيخ طه الساكت ستة أولاد: أربع إناث، وذكران، وأسْرد أسماءهم حسب ولادتهم كما أفادتني ابنته السيدة رقيَّة حفظها الله تعالى:

١- السيِّدة أُمامة، ولدت في ٢٠/ ٦/ ١٩٤٧ وتخرَّجت في كلية المعلمين في عين شمس، وتعمل بالتدريس منذ سنوات في ثانويات جُدَّة.

٢- السيِّدة عائشة، ولدت في ١٩/١١/١٩٤٨ وحصلت على الثانوية العامة.

٣- السيِّدة أسماء، ولدت في ١٨/٢/١٩٥١ وتخرَّجت في كلية الزراعة في مشتهر، وتعمل مهندسة زراعية.

٤- السيد محمد عبد الوهاب، ولد في ٢٣/٣/١٩٥٣ وتخرَّج في كلية علوم الأزهر، ويعمل جيولوجي بالطاقة النووية.

٥- الدكتور يحيى، ولد في ١٩/١٢/١٩٥٤ وتخرَّج في كلية الصيدلة بجامعة القاهرة، ويعمل بالأعمال الحرة.

٦- السيدة رقية، ولدت في ١٩/٦/١٩٥٧ وتخرَّجت في كلية بنات عين شمس، وتعمل بالتدريس في الأزهر.

وفاته :

تُوفيَ رحمه الله بمنْزله الكائن بمدينة نَصْر ١٦ شارع الشهيد مصطفى رجب، خلف كلية بنات عين شمس في ٢٢ شعبان من عام ١٤٠٣ الموافق ٤/٦/١٩٨٣ عن ثلاثة وثمانين عاماً، أمضاها في الدعوة إلى الله عز وجل،

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ونشر العلم، والدفاع عن السنة النبويَّة، وكان على الرُّغم من أعراض شيخوخته ممتَّعاً بقواه ومداركه، وذلك لاتِّباعه المنهج النبويِّ في حياته كلِّها، في طعامه وشرابه، ونومه واستيقاظه، وفي تعامله مع أهله وأحبابه، وإشفاقه على القريب والبعيد.

ودُفن بمدافن جمعية ميت عفيف الخيرية بمدينة نصر بالقاهرة رحمه الله تعالى.

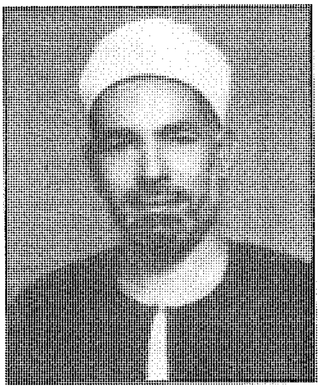

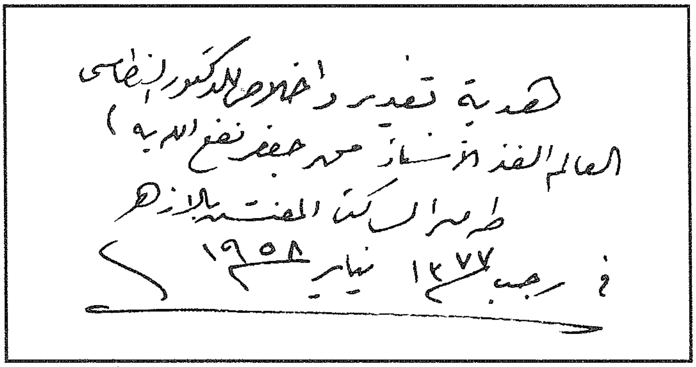

صورة المؤلف رحمه الله تعالى ونموذج من خطّه

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

آثاره العلميَّة

لم يتَّجه الأستاذ الساكت إلى التأليف، على الرُّغم من أهليَّته وتوفُّر الأسباب لديه، بل كان يكره ذلك، لأنه كما قال: " يكره أن يشغل الناس بالحديث عنه، فما أُتي الدين إلا من هذا الباب، فتحه المتَّبعون للأتباع والأشياع، وشَغَلوهم بأنفسهم وكلامهم عن الكتاب والسنة "

وقال أيضاً عن نفسه: " وهذا هو سرُّ كراهيته الشديدة للتأليف. وإذا حسبتَ التهذيب نصف التأليف، فقد هذَّب هو وأخوه البولاقي [(١)] رابع الأجزاء فقط من " صَفْوة البخاري " مع شيخنا المؤلف [(٢)]. فنصيبه إذاً من تأليف الكتب سدس جزء أو قيراط من ٢٤، ولقد همَّا أن يهملا اسميهما، لولا معارضة جماعة الأزهر للنشر والتأليف... ولولا أنَّ هذا الكتاب – أي " **درجات الناس** " شهادة لم يؤدِّها غيره ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [(٣)] لما خطَّ فيه حرفاً واحداً " [(٤)].

وتمتاز كتاباته بالإيجاز الشديد، لكراهته البليغة للثرثرة وأهلها، وإعجابه بجوامع الكلم، ولكنها -كما يقول الشيخ طه -: " مِنحةٌ اختصَّ الله بِهَا سيِّدَ

(١) هو فضيلة العلامة الفقيه الشيخ علي حسن البولاقي رحمه الله تعالى.

(٢) هو الشيخ عبد الجليل عيسى المولود سنة ١٨٨٨ والمتوفى في أول رمضان سنة ١٤٠١ الموافق ١٩٨١. وكتاب " صفوة البخاري " في أربعة أجزاء، تتضمَّن صفوةً من أحاديث صحيح البخاري، وعددها ٧٠٠ حديث مع الشرح الواضح، وعلى هذا الكتاب نشأت أجيال عدة من طلبة المرحلة الثانوية للأزهر، وَصَدر منه عدَّة طبعات آخرها سنة ١٩٥٣. كما في ترجمته في " مجلة الأزهر " الجزء الأول، السنة السابعة والستون ١٤١٥.

(٣) اقتباس من الآية ٢٨٣ من سورة البقرة.

(٤) درجات الناس ص ٢٠.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الفصحاء صلوات الله وسلامه عليه. والإيجاز البليغ أصْعَبُ قيادةً من الإطناب، وحَسْبُكَ أنه امتحان الجَنَان، وعنوان البيان "[١]

وسأتحدث عن كتابه "درجات الناس" وأقتبس منه بعض الفوائد:

درجات الناس عند الملوك:

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب في المحرم من سنة ١٣٧٠ بمطبعة أمين عبد الرحمن في ١٦٠ صفحة بعنوان: "درجات الناس عند الملوك" ابتدأه بمناجاة إلى ملك الملوك، ثم وجَّه خطاباً إلى السادة الملوك، وإلى الرعايا، وتكلَّم عن حقوق الملك على رعيَّته، وعن أخلاق الملوك، ثم اقْتَبَس شذرات من الصُّحف فيها صورة مُصغَّرة للرعيَّة بما وُصفوا به من أحوالهم، اختارها الشيخ الساكت وصفاً لحاضر أمَّته، وشهادةً لها أو عليها بأقلام جمهرة من مختلف طبقات الكُتَّاب والصحفيين والمؤلفين والمربِّين والشيوخ والنوَّاب وغيرهم ممَّن يُعتمد عليهم في كشف الغطاء عن أحوال الأمم، وبيان أصدق صورة لها.

ثم تكلَّم عن مقياس الدرجات وتفاوتها على مراتب كثيرة، الذي ينتظم في سلك هذه الآية الكريمة: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[٢] وأنَّ أساس الدرجات عند الله عزَّ وجل: العبودية لله، وأعظم مظهر لعبودية العبد: ولايته لربِّه، وإخلاصه، ثم ذكر الآيات التي ذكرت فيها الدرجات في القرآن الكريم، ثم تحدَّث عن الغش وضروبه وحُجبه المختلفة كثافة وسخافة.

المؤلَّفات المستحقَّة للذِّكْر:

ثم انتقل للحديث عن المؤلَّفات المُسْتحقَّة للذكر، ونَقَل عن ابن حزم

---

(١) المصدر السابق ص ٢٣.

(٢) سورة آل عمران: ١٦٢.

الجديد والحصري NEW & EXCLUSIVE

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

رحمه الله في مؤلفات أهل الأندلس قولـه: " وإنما ذكرنـا المؤلفـات المسـتحقَّة للذكر، والتي تدخل تحت الأقسـام السـبعة التـي لا يؤلِّـف عاقـل عـالم إلا في أحدها وهي: إمَّا شيءٌ يخترعه لم يُسبق إليه، أو شـيء نـاقص يتمُّـه، أو شـيءٌ مُسْتغلق يشرحه، أو شيءٌ طويل يختصره دون أن يُخـلَّ بشـيء مـن معانيـه، أو شيءٌ متفرِّق يجمعه، أو شيءٌ مختلطٌ يرتِّبه، أو شيءٌ أخطأ فيه صاحبه يُصـلحه. وأما التآليف المقصِّرة عن مراتب غيرها فلم نلتفت إلى ذكرها، وهي عندنا مـن تآليف أهل بلدنا أكثر من أن نحيط بعلمها.

وماذا كَانَ يقول أبو محمد – ابن حـزم - لَـوْ قُـدِّر لَـهُ أن يشـاهد بمصـرنا خفافيش المؤلِّفين، من الطبَّاعين والـورَّاقين، والمجتـدين والمـأجورين، ومـن محترفي الوعظ والإرشاد، وذوي الثَّرثرة في كـلِّ نـاد ؛ إلى آخـرين اسـتعجلوا المجْد، فتزبَّبوا قبل أن يَتحَصْرموا، وعلَّموا قبل أن يتعلَّمـوا؟!! وحبَّـذا النـار، تأكل الأقذار والأوزار.

ومن الإنصاف - الَّذِي نرجو أن يكون عماد كتابنـا هَـذَا - أن نُنـوِّه بكتـب حديثة لَهَا في الجامعة الثقافية مكان، ونرجو أن يكون لَهَـا موضـع في الميـزان. ومن آيِ التنويه بِهَا، أن ننبِّه على نقدها. وكفى بِهَا تنويها، أن تُعدَّ مساويها.

أ- في " فجر الإسلام " للأستاذ أحمد أمين مدير الإدارة الثقافيـة بالجامعـة العربية ط ٥ ص ٢١٧ مَا نصُّه: (ولم نظفر منهم في هَذَا الباب "نقد المتن" بعشر معشار مَا عُنُوا بِهِ من جرح الرجال وتعديلهم، حتى نرى البخـاري نفسـه علـى جليل قدره ودقيـق بحثـه يُثبـت أحاديـث دلَّـت الحـوادث الزمنيَّـة والمشـاهدة التجريبيَّة على أنها غير صحيحة لاقتصاره على نقد الرجال، كحديث: " لا يبقى على ظهر الأرض بَعْدَ مائة سنة نفس منفوسة "؛ وحديث: " من اصْطَبَح كل يوم سبع تمرات من عجوة لم يضره سمٌّ ولا سحر ذَلِكَ اليوم إلى الليل ").

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ونحن نيابة عن البخاري - رحمه الله - نضع بين يدي القاضي الأمين [١] هَذِهِ المقدِّمات الصحيحة، ثم نترك لَـهُ الحكم وإعادة النظر في قضية هذين الحَدِيثَيْن المظلومَيْن، المتَّفق عليهما بين الشيخَيْن.

في إحدى روايات البخاري للحديث الأول عن ابن عمر نفسه راوي الحديث: " فوهل الناس [٢]".. وَإِنَّمَا قَالَ النبيُّ ﷺ: " لا يبقى ممَّن هُوَ اليوم على ظهر الأرض " يريد بذلك أنها تخرم ذَلِكَ القرن. قَالَ الشُّرَّاح: وهَذِهِ إحدى معجزاته ﷺ فقد ظهر بالاستقراء أنه لم يعش أحد أكثر من مائة سنة ممن كَانَ على ظهر الأرض منذ تِلْكَ الليلة [٣]. وَقَدْ روى الأستاذ الحديث أو روي لَهُ من موضع واحد فقط، ولعله رُوي بالمعنى، لأنا لم نجد هَذَا اللفظ للبخاري. **ولا يحكم باحث على الحديث ولا سيما حديث الشيخين أو أحدهما إِلاَّ بَعْدَ تَتَبُّع الروايات والتثبُّت من معناها، فَإِنَّهَا يكمل بعضها بعضاً.**

وأكبر الظنِّ أنه اعتمد في سَوْق هذا الحديث على ذاكرته التي غاب عنها أن الذاكرة لا يُعوَّل عليها في هذا الشأن، اللهمَّ إلا أنَّ تُقَارِبَ ذاكرةَ أمير المحدثين – غير مدافع – أبي عبد الله البخاري.

والمراد بالتمر: تمر المدينة كَمَا في صحيح مسلم وغيره، وعدمُ الإصابة، لدعائه ﷺ لهذا التمر، لا لذاته وطبيعته. وَلَيْسَ المقصود التحدِّي والتجربة،

---

(١) لبث في القضاء الشرعي بضع سنين قبل أن ينقلب إلى المناصب العلميَّة الكبرى (طه).

(٢) فزعوا أو غلطوا في فهم الحديث، إذْ فهموا منه فناء العالم بعد مائة سنة، كما فهم من لم يطَّلع على هذه الرواية كبعض المستشرقين الذين نعتزُّ بهم كثيراً، ونتَّخذهم في البحث إماماً (طه).

(٣) في قوله ﷺ: " أرأيتكم ليلتكم هَذِهِ "؟

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

فإنَّ العبد لا يمتحن ربَّه كمَا نقلنا عن المسيح عَلَيْهِ السلام [١]، بل المقصود أنَّ فاطر السَّموات والأرض - إذَا ألهم عبده أن يفطر على هَذِه التمرات السَّبع [٢] حفظه من السُّم والسِّحر، وكَانَ الإيذاء بهما شائعاً عند أعداء العالم كُلّه، وكانوا جيران النبيِّ ﷺ وأنصاره. ولم يثبت في حادثةٍ مَا أنَّ أحداً تَصبَّح بهذه السَّبع فأصيب في يومه بسمّ أو سحر. فمتى وأين كانت التجربة؟ وإذا كَانَ لدعاء العامَّة أثرٌ لا يُنكر، فما بالك بمن أعطاه الله الكوثر؟

على أنه لا مانع أن يُودِعَ الله بعضَ الأشياء خاصَّة تدفع الأذى والضَّرر مادياً كان أو روحياً ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [٣]، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [٤].

وبعد، فمثل الأستاذ مَنْ يُقدِّر فضيلَة الرجوع إلى الحقِّ، ويُصحِّح هَذَا الخطأ ونحوه فيما يجدُّ من طبعات لكتبه النافعة.

ب- صريح الكتاب والسنة وعقيدة المسلمين كافَّة أنَّ البعث بالرُّوح والجسم معاً ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [٥] وأنَّ العذاب روحانيٌّ وجسمانيٌّ كذلك، على أتمّ ما يكون "الشخص" قوة وحساً ووعياً، خلافاً لكفرة الفلاسفة الذين ذهبوا إلى أنَّ البعث بالرُّوح فقط.

---

(١) ص ٢٤ من "درجات الناس" قال: ظهر إبليس لعيسى ابن مريم عليهما السلام، فقال له: ألست تقول: إنه لن يُصيبَكَ إلا ما كتبَ الله لك؟ قال: نعم، قال: فارْمِ بنفسك من ذِرْوة الجبل، فإنه إنْ يقدِّر لك السَّلامة تَسْلَم، فقال له: يا عدوَّ الله، إنَّ للهِ أن يختبر عبدَهُ، وليس للعبد أن يختبرَ ربَّه.

(٢) في الإيتار قولاً وعملاً تقوية للتوحيد حتى يختلط باللحم والدم، وَقد بيَّنا ذلك في مجلة الأزهر م ١٦ ص ٣٧٣ (طه) وانظره: في دعاء الله بأسمائه، ص٣٦٤.

(٣) اقتباس من الآية ٢٢ من سورة الأحزاب.

(٤) اقتباس من الآية ٨٥ من سورة الإسراء.

(٥) اقتباس من الآية ١٠٤ من سورة الأنبياء.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

بَيْد أننا نقرأ في "الفلسفة القرآنية" (١) تأييداً لهذا المذهب، مع تأويل لآيٍ من القرآن العربي المبين يجعلها إلى الخيال أقرب!

ولسنا بحاجة إلى الردِّ على المؤلِّف الكبير بعد أن كفانا مؤونة الردِّ عليه عالِمٌ جليل (٢) وسنكشف له الحقائق ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (٣).

ولكننا بحاجة إلى أن ننصف الإمام المفسِّر الذي اجْتَذبه المؤلف إلى مذهبه اجتذاباً، [فأبْرَزَ لنا شاهداً من كلام الإمام تناوله الإمام نفسه بالتجريح، وأغْفَلَ شاهداً تناوله بالتزكية والترجيح].

ولو كان مؤلفنا كاتباً عادياً لضَرَبْنا عنه صَفْحاً أو احتلنا لهفوته عذراً.

ولكنَّا لا نجد لصاحب "العبقريات" معذرة... اللهمَّ إلا أن يضرب لقُرَّائه المَثَلَ في أمانة النقل والرجوع إلى الحق، وله بالفاروق رضْوان الله عليه أسوة.

وإليكم ما أخذ من كلام الإمام وما تَرك حرفاً بحرف، ولكم التعليق والحكم:

قال المؤلف في ص ١٧٤: " فالإمامُ فخر الدين الرازي مثلاً يقول في تفسير الاِّتكاء على السُّرر الموضونة: " معناه أنَّ كلَّ أحدٍ يُقابل كلَّ أحد في زمانٍ واحد، ولا يفهم هذا إلا فيما لا يكون فيه اختلاف جهات. وعلى هذا فيكون معنى الكلام: أنهم أرواحٌ ليس لهم أدبار وظهور. فيكون المراد من السابقين هم الذين أجسامهم أرواح نورانية: جميع جهاتهم وَجْه. كالنُّور الذي يقابل كل

---

(١) للكاتب العَلَم الأستاذ عباس محمود العقاد (الساكت).

(٢) صديقنا الفهَّامة محمد يوسف الشيخ أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين، وهو صاحب الفضل والسَّبق في الرد على المؤلف في مجلة الأزهر م١٩ ج ٧-٨ ومن كلامه ما بين هاتين القوسين [ ] (الساكت).

(٣) اقتباس من الآية ٦ من سورة المطففين.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

شيء". وهذا فهم فيلسوف باحث في الجواهر والأعراض، وفي مطالب الأرواح والأجسام.

ونصُّ كلام الإمام قبل هذا: " وقوله تعالى: ﴿مُتَقَبِلِينَ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنَّ أحداً لا يستدبر أحداً، وثانيهما: أنَّ أحداً من السابقين لا يرى غيره فوقه، وهذا أقرب لأنَّ قول متقابلين على الوجْه الأول يحتاج إلى أن يقال مُتقابلين: معناه أنَّ كلَّ أحد.. الخ ".

بقي أن يكون المؤلف قد تعجَّل في النقل عَجَلتي حينما حكمتُ على حديث صحيح بالوضع في بحثٍ دعوتُ فيه إلى تحرِّي الأحاديث الصحيحة، وإيثارها في الوعظ والكتابة، ففيها غُنْيةٌ عن الموضوعة والضعيفة، ولكن ما لبثتُ أن أعلنت خطئي ورجوعي إلى الحقِّ بعدما تبيَّن [١].

وإلى القرَّاء سبب الخطأ فقد يكون فيه نفعٌ وعظة:

في أول صفحة ٢٠٤ من "تذكرة الموضوعات" للفتَّني ما نصُّه:

"اخبر تقله" كلُّ طرقه ضعيفة، نعم شهد له ما اتَّفق عليه الشيخان مرفوعاً: " الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة " الصَّغاني هو موضوع، وكذا "الناس كأسنان المشط".

اختطفت السطر الثاني مُتعجِّلاً، فأضفْت إلى الزَّلل أنْ قوَّلت الصَّغاني مالم يقل؛ إذ هو يريد الحديث الأول بلا رَيْب. ومعناه: أخبر من شئت فإنك لا بدَّ قاليه ومُبْغضه لما يتكشَّف لك من معايبه! ومن هنا أُمرنا أن نُحسن الظن، ونأخذ بالظاهر، والله يتولَّى السرائر.

---

(١) والذي نبَّهني مشكوراً أستاذنا الشيخ منصور ناصف صاحب كتاب "التاج الجامع لأصول الحديث" ونشر البحث مصحَّحاً مع الدعوة إلى الأناة في الحكم بمجلة "الهداية" ج١٠ م٨ (طه).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ج- في الصفحات الأولى، ثم في صفحتي ١٢٩-١٣٠ من "**الرسالة الخالدة**"[١] شبهتان[٢] وَجَدتا في هذا العصر - عصر الدعاوى والتأويل والفرار من التَّبِعَات - سُوقاً رائجة:

شبهة أنَّ الإيمان بالله واليوم الآخر مع العمل الصالح كافيان في الإسلام، ولو لم يقْترنا بالإيمان بخاتم النبيِّين صلوات الله وسلامه عليهم. وهذه عقيدةُ الجَهَلة بأصول الدين، ومنهم كثير من الذين ثقفوا ثقافة أوربية.

ومن البَدَهيِّ أنَّ الإيمان بمحمد ﷺ جزءٌ من الإيمان بالله وكتابه، وأنه لا يتصوَّر إيمان بالله تعالى مع تكذيب كتابه، أو التفريق بين أحدٍ من رسله.

وشبهةُ أنَّ للإمام وأهل الشورى أن يجتهدوا بعقولهم وآرائهم متى بَدَت لهم المصلحة، ولو لم يستندوا في اجتهادهم إلى قانون الشريعة العام وأصولها الثابتة.

وأكبرُ الظَّنِّ أنَّ هذا من قبيل الغموض العارض الذي يحتاج إلى إيضاح وتجْلية؛ أو من آثار العَجَلة في البحث والدرس كما قلنا آنفاً.

والكتاب العظيم كالدَّوْحة العظيمة لا ينقصها أن يذبل بعض وريقاتها، أو أن يلتوي على نفسه أو على غيره غُصنٌ من أغصانها.

وأكبر الظنِّ أن هَذَا من الغموض العارض الَّذِي يحتاج إلى إيضاح وتجْلية، أو من آثار العَجَلة في البحث والدرس.

د- وأما الكاتبون في **اجتهاد النبيِّ** ﷺ **وسيرته وشمائله ومعجزاته**، وكلِّ ما

---

(١) للكاتب الكبير والسياسي المحنَّك عبد الرحمن عزام باشا الأمين العام لجامعة الدول العربية (طه).

(٢) أزحنا هاتين الشبهتين، واعتذرنا عن المؤلف في الجزأين ٧ و ٨ من المجلد التاسع عشر من مجلة " الهداية الإسلامية" (طه).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

يتَّصلُ بِهِ، فلا وَزْنَ لما كتبوا في امتحان الملك إلاَّ من بَعْدَ أن يتأدَّبوا بأدبه.

سُئل بعض المحبين عن كتاب في اجتهاده ﷺ، فتَلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾(١).

وسُئل عن كتاب آخر نسيَ صاحبُه أن يَبْدأه بالبسملة - أو اجتهد فتعمَّد تركها - فأجاب: لَوْ طبعت هَذَا الكتاب لا سْتَحييت أن أنشره، وقَدْ أنساني الشيطان اسم ربِّي أن أذكره!

ونُنَبِّه هنا على إحدى الكبُر من آفات التأليف الشَّائعة، وهي انتصار المؤلف لرأيه بحُجَج وأحاديث تُؤيِّده، على حين يردُّ مثلها أو أحسنَ منها إذَا كانت تُعارضه! وهكذا يضيع الحق بين قَالَ وقيل، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ (٢).

ومن إحقاق الحق أن نذكر " **رسائل الإصلاح** " (٣) نموذجاً لكتب يُؤْتَمُّ بِهَا في التصنيف رُشْداً وهدايةً، وأمانةً وكفاية.

وجملة القول: أنَّ الكتب كالناس. و " إِنَّمَا الناس كالإبل المائة لا تكاد تجد فِيهَا راحلة " (٤).

ولو أنَّ الأزهر والجامعة ولجان التأليف على اختلافها - تُعنى بالتصحيح

---

(١) سورة الحجرات: ٣.

(٢) اقتباس من الآية ٩ من سورة النحل.

(٣) لأستاذنا الكبير السيد محمد الخَضِر حسين صاحب الردود الرفيعة القاصمة على كثير من أعلام هذا العصر كالأستاذ علي عبد الرازق باشا في كتابه "الإسلام وأصول الحكم"، والدكتور طه حسين باشا في كتابه "الشعر الجاهلي" ومن دَرَس مؤلفات أستاذنا فهنيئاً له الفضل والنُّبل وأدب الخطاب (طه).

(٤) انظر تخريجه وشرحه لهذا الحديث في هذا الكتاب بعنوان: "عزَّة الكمال في الناس" ص٤٥٣.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

عنايتها بالتصنيف، إذاً لقدَّمت للأمة خيراً يثقل بِهِ ميزانها، وترتفع درجتها " [١].

وبعد، فهذه لمحات موجزات، وَقَبسات مضيئات اخترتها للقارئ من كتاب المؤلف " درجات الناس عند الملوك " الذي صدرت طبعته الأولى في المحرم من سنة ١٣٧٠.

ثم صدرت الطبعة الثانية في غُرَّة رجب ١٣٧٠، ثم الثالثة في غُرَّة رمضان ١٣٧٠ بعنوان "**دَرَجات الناس**" في ١٢٧ صفحة، وقد اقتصر المؤلف في عنوان الكتاب على "درجات الناس" دون "عند الملوك"، وأجرى تعديلات وإضافات كثيرات، ودعا في مقدمته إلى أهمية التناصح والتواصي بين الراعي والرعية، والحاكم والمحكوم.. وتأثير صلاح الراعي في الرعيَّة، وتأثير الرعيَّة في الراعي.. وأنَّ المقصود الأول من كتابه هو: إشاعة التناصح بين عليا الطبقات ودُنياها، وكشف الغطاء عن هذه الحلقة المفقودة التي قطعنا بفقدها ما أمر الله به أن يُوصل، ثم تكلَّم عن دَرَجات الأفراد، واختلاف الناس في تقدير الكمال، ودرجات الأمم، وبيَّن أنَّ المثل العليا لأمم الأرض قاطبة هم المسلمون الأوَّلون في عهودهم الثلاثة الأولى، وتكلَّم عن منْزلة الصحابة، وحُكم ما وقع بينهم، ومنازلهم المختلفة، ومراتبهم المتفاوتة، ثم انتقل للحديث عن حاضر الأمم، وحكم مَنْ يفصل الدنيا عن الدين، وأورد نماذج من عظات العلماء للملوك، واستعرض بعض المؤلفات في نصح الملوك [٢].

ثم تكلَّم عن العلماء العاملين، والنُّصحاء المخلصين، وَرَثة الأنبياء، وقال عنهم- نفعنا الله بهم -:

---

(١) ص ١٥١ – ١٥٤ من الطبعة الأولى، وص ١١٨ –١٢٤ من الطبعة الثانية، وفيها إضافات.

(٢) وكلُّ ما ذكرته هنا ممَّا أضافه في الطبعة الثانية للكتاب الذي اختصر عنوانه، وعدَّل الكثير من محتواه.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وَرَثة الأنبياء :

" هؤلاء العالِمون العاملون، النَّاصحون المُخْلصون هم وَرَثة الأنبياء حقاً، يهتدون بهديهم، ويُجدِّدون للناس أمر دينهم، ويستغْنون بالغنيِّ الحميد عمَّا في أيديهم، ولولا بقيةٌ منهم لهلك العالم أجمع!

هؤلاء هم مصابيح الظلام، وهُداة الأنام؛ يَبْنون الأمم، ويُحيون الهمم ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ﴾ (١).

لا جَرَم أنَّ حياة العالم بهؤلاء فوق حياته بالماء والشَّمس والهواء، لأنَّ حياته بتلك الثلاثة عاجلة فانية، وحياتهُ بالأنبياء والمجدِّدين دائمةٌ باقية، وَشتَّان ما بين باقٍ وفان.

وَحَذارِ أن تَعدَّ منهم أربابَ المناصب والشَّهادات، مالم يكونوا أسْبَقَ الناس إلى الخيرات، وإنْ أُوتوا علم الأوَّلين والآخرين؛ فإنَّ إبليس مُنْفرداً أعلم منهم أجمعين.

عبَّاد الدنيا :

إنَّ الذين يقولون مالا يفعلون ليسوا من الأنبياء، ولا ورثتهم في شيء، إنْ هم إلا فتنة الله في الأرض، يُضلُّ بِهَا مَنْ يشاء، ويهدي مَنْ يشاء ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُۗ﴾ (٢).

ولا تُسمِّ هؤلاء علماء الدنيا، لأنهم لا يعلمون ظاهراً منها – كما يعلم المخترعون والمُستكشفون – ولكن سمِّهم عُبَّادها، لأنهم أحرصُ الناس عليها، وأشدُّهم خشوعاً لها. وحَسْبهم من مقْت الله لهم، أنْ صرَف القلوبَ عنهم، لما انصرفت عن الله قلوبهم! وهم يوم القيامة أشدُّ مَقْتاً وخِزْياً، يوم يدورون في

---

(١) اقتباس من الآية ٥٤ من سورة المائدة.

(٢) اقتباس من الآية ٦٨ من سورة القصص.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

النار كما يدور الحمار في الرَّحى[١]! وإنْ شئتَ فسمِّهم كما يسمِّيهم الناس قديماً وحديثاً:

علماء السوء: لأنهم أساؤوا إلى أُممهم فغشوهم! وإلى أنفسهم فضيَّعوها! وإلى دُستورهم الذي استُحفِظوه فلم يرعوه حقَّ رعايته.. حتى غزته في أعماق الديار ووضح النهار؛ قوانينُ أرضيَّة أتت عليه إلا بقية هزيلة نحيلة سَمَّوها "الأحوال الشخصيَّة" وهي في طريق اللحاق به، بفضْل الدعاة إلى توحيد القضاء، في أمم دينها الإسلام، ونبيُّها رسول العدل والرحمة والسلام، ودُستورها منهاج الحقِّ والجمال والخير العام!

وإذا عَذَرنا بعض العُذر مَنْ يَنْصر دستوره الذي نُشِّئ عليه، وأُشربه وهو يجهل أنَّ فيه شقاوته، فكيف نعذر مَنْ يخذل دستوره الذي استُودعه، وهو يعلم أنَّ فيه مَجْدَه وسعادته؟!

أما بعد، فإنَّ "علماء الكلام" [٢] ليعلِّمون ويقرِّرون أنَّ فاقد الشيء لا يعطيه، وأنَّ مَنْ دعَا إلى خير وَجَبَ أن يكون مثالاً فيه، وإلا فهم سُخْرة الساخرين، وضحكة الهازئين، وقلَّما يستجيب الناس لمن يسخرون منه؛ ومن أجل ذلك ذمَّ الله اليهود وأمثالهم، لأنهم يأمرون الناس بالبر، ويَنْسَوْن أنفسهم، ويحبُّون أن يُحْمَدوا بمالم يفعلوا، وإذا نهيتهم عمَّا فعلوا تنصَّلوا وتأوَّلوا ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ [٣].

ألا إنَّ هذه موعظة من الله في دينهم، وإنها نعمة من الله سيقَت إليهم، فإنْ قبلوها بشكرٍ، وإلا كانت حُجَّةً من الله عليهم؛ ليزدادوا بِهَا إثماً، ويزداد الله

---

(١) إشارة إلى حديث الصحيحين [البخاري ٣٢٦٧، ومسلم ٢٩٨٩]، وألف الرحا دائرة بين أصليها: الياء والواو (طه).

(٢) تسمية ثالثة لأشباه العلماء، وهم حريُّون بِهَا لكثرة كلامهم وقلة عملهم (طه).

(٣) اقتباس من الآية ٤٤ من سورة النساء.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

عليهم بِهَا سَخَطاً " (١) انتهى.

تقريظ مجلة الأزهر للكتاب :

هذا وقد قرَّظت مجلة الأزهر في تعريفها بالكتب التي تصلها، الكتابَ المذكور، ومِمَّا جاء في تقريظها للطبعة الثانية والثالثة: " هو كتابٌ نفيسٌ لفضيلة الأستاذ الشيخ طه محمد الساكت، وهو أعرف من أن نُعرِّفه إلى قُرَّاء مجلة الأزهر، لأنه من أركان تحريرها من سنين كثيرة، وهو يتَّصل بقرَّائها في كلِّ شهرٍ حَوْل سنَّة رسول الله ﷺ، فإذا أَلَّف كتاباً ليتكلَّم فيه على دَرَجات الناس، فإنَّ أول ما ينظر به إلى درجاتهم، المقاييس التي قرَّرتها سُنَنُ الإسلام، وعمل بِهَا أهله الأوَّلون من الصحابة والتابعين.

والمؤلف: يرى أنَّ سببَ مصائب المسلمين، أنهم فقدوا قاعدة التناصح والتواصي بين الراعي والرعية، إلا رسوماً ومظاهر لا تُغني فتيلاً، وقد ضرب الأمثلة لذلك من التاريخ، وقرر قاعدة الإسلام ": كما تكونون يُوَلَّى عليكم ".

وقال في درجات الأفراد ما قالته فيهم السنة المحمديَّة: " الناس كالإبل المائة لا تجد فيها راحلة " وَوَصَفَ المثل الكامل الذي رسمه الإسلام، وقال: إنَّ الكمال درجات، والأمم أيضاً درجات، كما أنَّ الأفراد درجات، وذكر فضل الصحابة والأدب معهم، ونوَّه بمقام التابعين وأتباعهم.

ولو شئنا أن نمضي في كلِّ ما تعرَّض له المؤلف ممَّا به صلاح الراعي والرعية لاحتجنا إلى نشر كتابه كلِّه، ولكننا نُحيل القارئ عليه، وننصح له

---

(١) اقتباس من حديث رواه ابن عساكر عن عطية بن قيس، وأوله: " أيما عبدٍ جاءته موعظةٌ من الله في دينه ..." الخ قال شارح الجامع الصغير: وهو حديثٌ حَسَنٌ (طه). والحديث رواه البيهقي في "الشعب"، وابن أبي الدنيا في "مواعظ الخلفاء". قال الحافظ العراقي في " تخريج أحاديث الإحياء " ٢: ٣٤٨: وفيه أحمد بن عبيد بن ناصح، قال ابن عدي: يحدّث بمناكير، وهو عندي من أهل الصدق.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بإطالة التأمُّل فيه " انتهى.

مقالات الأستاذ طه الساكت :

لفضيلة الشيخ طه مقالاتٌ كثيرة منشورة في المجلات الإسلامية الشهيرة التي كانت تصدر بمصر، ولاسيما مجلة " الإسلام " لصاحبها أمين عبد الرحمن(١)، ومجلة " الفتح " لصاحبها الأستاذ محب الدين الخطيب، ومجلة " الهداية الإسلامية " التي كان يرأس تحريرها الإمام محمد الخضر حسين، ومجلة " الأزهر " في شرح الأحاديث النبويَّة، والتي سيأتي الحديث عنها بعون الله عزَّ وجل.

ولو تمَّ جمع مقالاته في مجلات "الإسلام"، و"الهداية الإسلامية"،

---

(١) ابتدأ صدور هذه المجلة سنة ١٣٥١ = ١٩٣٣، واستمرَّت أكثر من أربعين سنة، وكتب فيها عدد كبير من الأعلام كمفتي مصر الأسبق العلامة الشيخ محمد بخيت المطيعي، ومحمد زاهد الكوثري، ومصطفى الحمامي، ويوسف الدجوي، وعبد الله بن الصِّدِّيق، وعبد العزيز بن الصِّدِّيق، والأشقاء الثلاثة: عبد الفتاح وعبد الرحمن ومحمود خليفة، رحم الله الجميع.

وكنت أرسلت رسالةً لشيخنا العلامة المحدِّث الأصولي السيد عبد الله بن الصِّدِّيق رحمه الله تعالى أقترح عليه جمع مقالاته وبحوثه في مجلة "الإسلام"، وأسأله عن تلك المجلة وصاحبها، فأجابني بتاريخ ١٦/شوال/١٤١١: "... وأمين عبد الرحمن كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وكان عنده مطبعة يطبع عليها الدفاتر والأوراق وغيرها. وأرشده بعض الموظفين عنده إلى إنشاء مجلة دينيه، وأنها تدرُّ عليه ربحاً كثيراً كثيراً، وشجَّعه، وتقدَّم هذا الموظف بطلب باسمه لإنشاء "مجلة الإسلام "، ونجحت إذ لم يكن غيرها، وكان نجاحها كبيراً، ولا سيما وقد اتَّجه إليها كتَّاب ممتازون، وهم نخبة من علماء الأزهر، وتولَّى الإشراف عليها الأستاذان الجليلان الشيخ عبد الرحمن خليفة، وشقيقه الشيخ محمود خليفة، وعاش أمين عبد الرحمن أمياً لا يدري شيئاً عن المجلة، وما يُكتب فيها، وكان الشيخ محمد أمين هلال من علماء الأزهر، يكتب كلمة باسم صاحب المجلة في بعض المناسبات... ".

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة
شبكة الألوكة www.alukah.net

و"الفتح" والمجلات الأخرى لخرجت في مجلدين كبيرين.

مقالاته في مجلة "الإسلام":

وهذه عناوين بعض مقالاته في مجلة " الإسلام " رأيت بعضها مخطوطة بخطِّه، وأشار فيها إلى تاريخ نشرها بالمجلة المذكورة:

خطوةٌ مباركةٌ، حول تعليم النِّساء وتفقيههنَّ، ضَيْفٌ كريم، ليالي رمضان، في الأعداد ٣٣ و٣٥ و٣٨ من السنة الخامسة (١٣٥٥).

أشباه الوعَّاظ، إهانةٌ وتَهَاون وإلى متى؟ أدبُ الحِجَاج، في الأعداد ٧ و٩ و٢٦ من السنة السادسة (١٣٥٦).

من عجائب الخلوة، أصلحوا العامة أولاً، الله أكبر، في الأعداد ٤٢ و٤٣ من السنة السابعة (١٣٥٧).

من أعلام النبوة: هل تعقل الجمادات، أضلالٌ أم تَضْليل؟ فتنة الحديث، في الأعداد ١٨ و٣٠ و٤٨ من السنة الثامنة (١٣٥٨ = ١٩٣٩).

اتقوا الله في علمائكم، التكرار وفضله وحكمته، أدب البحث، هجرة في سبيل الله، في الأعداد ١٥ و١٩ و٢٣ من السنة التاسعة (١٣٥٩ = ١٩٤٠).

العقوبة بالمال، من ذكريات الحج في أربع حلقات، طعن في غير مطعن (رد على الأستاذ فريد وجدي)، دعوة إلى الوعظ العملي: القدوة الحسنة، والخطة العمليَّة والسياسة الرشيدة، في الأعداد ١٦ و١٧ و٢٠ و٢١ و٢٣ و٣٣ و٣٤ و٤٣ من السنة العاشرة (١٣٦٠ = ١٩٤١).

دعوة إلى الوعظ العملي: الخطة العمليِّة، خطوات الوعظ، التعاون في الحج في الأعداد ٤ و١١ و٤١ من السنة الحادية عشرة (١٣٦١ = ١٩٤٢).

من أدب النقد، عبرة الموت، في العددين ١٠ و ٢٤ من السنة الثانية عشرة (١٣٦٢= ١٩٤٣).

فَوضْى الكرامات، أثر الحج في تربية الأفراد والجماعات، في العددين ١٨

الجديد و طهرة NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

و٣٤ من السنة الثالثة عشرة (١٣٦٣ = ١٩٤٤).

كما أجاب عن بعض الفتاوى التي نُشرت في مجلة "الإسلام"، ومنها:

حول التعاون في الفتوى في العدد ٣٧ من السنة التاسعة (١٣٥٩)، إرضاع اليائس والقرعة في العدد ٢٨ من السنة العاشرة (١٣٦٠)، فصل في مسائل، حقيقة الحرير، حقيقة الذكر، في الأعداد ١٥ و١٨ و١٩ من السنة الحادية عشرة (١٣٦١)، و"منثورات" وهي مجموعة فتاوى في حكم المسح على العِمَامة والجَوْرب، وإجابة المؤذِّن، والصلاة بالنعال، والمسافة التي تبيح الفطر، والجمع في السفر، وإرضاع اليائس، والقرآن والإلهام، واسم ملك الموت، في الأعداد ٢٠ و٢١ و٢٢ و٣٧ من السنة الثانية عشرة (١٣٦٢ = ١٩٤٣)، والثالثة عشرة (١٣٦٣ = ١٩٤٤).

ثم أُسندت إليه الفتوى في مجلة "الإسلام"، وقال في مقدمة هذا الركن من المجلة: " بين يدي الآن طوائف شتَّى من رسائل الاستفتاء إلى مجلة (الإسلام) الغرَّاء: طائفة منها حديثيَّة، وأخرى تفسيريَّة، وثالثة فقهيَّة في العبادات والمعاملات، ورابعة في الأحول الشخصيَّة، في النكاح والطلاق والميراث.

تراكمت هذه الرسائل نظراً إلى سفر فضيلة الأخ الأستاذ الكبير العلامة الشيخ علي حسن البولاقي مفتي المجلة؛ سافر إلى دولة الكويت للعمل في الموسوعة الفقهية هناك [1]، والله يوفِّقه ويُسدِّده، وينفع به البلاد والعباد أينما حلَّ وارتحل.

بعد سفر الأستاذ رأت إدارة المجلة أن تُحوِّل على شخصي الضعيف الإجابة عن هذه الرسائل المتراكمة، ظناً منها أني أقوم مقام أخي الأستاذ الكبير.

---

(١) عمل في "الموسوعة الفقهية" في الكويت بصحبة أستاذنا الفقيه الكبير العلامة الشيخ مصطفى الزرقا، وكان شيخنا كثير الثناء عليه؛ شديدَ الإعجاب به، رحمهما الله تعالى.

شبكة الألوكة
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وهذا ظنٌّ ما أراني أهلاً له، ولكني أستعين بالله جلَّت قدرته على القيام بهذا العبء العظيم، ثم بصفوةٍ من العلماء والأماثل، والزملاء الأفاضل، وفي مقدِّمتهم لجنة الفتوى من كبار العلماء، ومفتشو العلوم الشرعيَّة، وأساتذة الدراسات العليا بالأزهر المعمور. ولن نضلَّ الطريق أبداً ما دمنا متعاونين على البرِّ والتقوى، مُبْتغين الحقَّ وحدَه، راجعين إن نسينا أو أخطأنا، والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل.

مقالاته في مجلة "الإيمان" و "نور الإسلام" و "الرسالة" :

ومن مقالاته المنشورة في مجلة "**الإيمان**": إنَّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، العزَّة الخلقية الإسلامية، حديث عيان، في الأعداد ٩ و١١ و١٢ من السنة الثانية (١٣٥٤).

يوم مشهود، في العدد ٣ من السنة الثالثة (١٣٥٥).

ومن مقالاته في مجلة "**نور الإسلام**": اعترافٌ بالجميل: من تلميذ إلى أستاذه، في العدد ٨ من السنة الرابعة (١٣٥٧)، تخلَّقوا بأخلاق الله، في العدد ٧ من السنة التاسعة (١٣٦٢ = ١٩٤٣).

ومن مقالاته في مجلة "**الرسالة** ": حول القراءات السبع في العدد (٣٨٠)، وإلى طلاب النحو في جميع الأقطار: جواب عن أسئلة الأستاذ مصطفى إبراهيم في العدد (٣٨١)، حول ربيع وجمادى في العدد (٤١١)، وحول مكتبة الحرم النبويِّ الشريف في العدد (٤١٦)، فتوى واستفتاء في بعض المباحث الأدبية في العددين (٤١٨) و (٤٢٣)، تراث بني إسرائيل في العدد (٥٠٥).

ومن جملة بحوثه المكتوبة التي رأيتها بخطه : خلاصة محاضرات دينيَّة متنوِّعة في أصول الدين. كتبها سنة ١٣٥٣= ١٩٣٤ كتب فيها عن الإنسان وحاجته إلى الدين، وأنَّ العقل لا يكفي في التشريع.

وكلمات مُوجَزَة في فقه الإمام مالك في الطهارة والصلاة، كتبها سنة ١٣٥٣.

الجديد و الطريف NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وبحث في "التعاون في الإسلام" في ٦٠ صفحة.

وبحث في " الإيمان وأثره في النفوس" في ٣٨ صفحة، وهو في الأصل محاضرة أُلقيت بجمعية الإخوان المسلمين بسوق السلاح بمصر في ٢٠من رجب سنة ١٣٥٠ = ١٩٣١ م.

وبحث في " الصوم وحكمته وفضائله وبعض أحكامه ".

وبحث في " حياة الإمام البخاري ومكانته في المجتمع الإسلامي " شارك فيه في ذكرى الإمام البخاري بمناسبة مرور ألف ومائتي عام على ولادته في ١٣من شوال سنة ١٩٤، ألقاها في ٧ من شوال سنة ١٣٩٤ في أسبوع الإمام البخاري بدعوة من الأمانة العامة للشؤون الدينية والأوقاف بالسودان.

وبحث في " الفتيا وآدابها " تكلَّم فيها عن معنى الإفتاء، وأهمية مَنْصب الإفتاء، والخوف من الفتيا، وشروط الفتيا، وآداب المفتي والمستفتي.

ومذكرة في مقرَّر الحديث للفرقة الثانية من أصول الدين بجامعة أم درمان الإسلامية، كتبها سنة ١٣٩٣ - ١٣٩٤.

ومن جملة جهوده العلميَّة في الحديث النبوي: اسْتِنْسَاخُه بعض الكتب الخطيَّة المهمة مثل كتاب " التنكيت والإفادة في تخريج أحاديث خاتمة سِفْر السعادة " لابن هِمَّات الدمشقي، من مخطوطة في دار الكتب برقم ٥٢٦٦ استنسخها على نفقته في المحرم ١٣٦٥.

وقد أثنى على أبحاثه العلميَّة الأستاذ " ولفركانتول سميث " أستاذ علم الأديان المقارن في معهد الدراسات الإسلامية بجامعة ماكجل – كندا في كتابه "الإسلام في التاريخ الحديث" ص ١٣٥ فقال: " وبعد عام ونصف انقطع فيها الموضوع [١]، وظهر مرةً أخرى بقلم كاتب ظلَّ يكتب عنه ويعالجه، وكان ذلك

---

(١) لم يتبيَّن لي الموضوع الذي يشير إليه لأنني لم أقف على الكتاب المذكور، وإنما =

الجديد و طريف NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

بعد زيارتي للقاهرة زهاء الخمس سنوات، وكان هذا الكاتب هو العالم الجليل طه الساكت، وقد تخصَّص هذا العَلَم في معالجة النواحي الخلقيَّة الشخصيَّة، والدعوة إلى الفضيلة والإنسانية والخُلق الديني القويم. كما كرَّس جهده في غرس الإحساس العالي بالمسؤولية والخلق الرفيع والتقوى الخالصة، وذلك في المسائل الحيويَّة الخاصَّة منها والعامة، والواضح في كتابه أنها تَنْبَعُ من روح دينيَّة أصيلة ".

* * * * *

نقد الكتب والمؤلفات المعاصرة:

من الأعمال العلميَّة التي قام بِهَا الشيخ طه محمد الساكت دراسة بعض المؤلفات المعاصرة، وذكر بعض المآخذ عليها، وكانت دراسته لتلك الكتب المقدَّمة إِلَيْهِ تتَّسم بالإيجاز والإنصاف والموضوعية.

وقد سبق ذكر بعض النَّماذج من نقده لبعض الكتب الثقافية المعاصرة في كتابه "درجات الناس": " لها - كما قال الأستاذ الساكت — في الجامعة الثقافية مكان، ونرجو أن يكون لها موضع في الميزان. ومن آي التنويه بها، أن نُنبِّه، على نقدها، وكفى بِهَا تنويها أن تُعدَّ مساويها "!!

وبين يديَّ عددٌ من الخطابات الموجَّهة من الإدارة العامة للثقافة الإسلامية في الجامع الأزهر، تُحيل إليه بعض الكتب لإبداء رأيه فيها... ومن تلك الكتب التي طُلب منه كتابة تقرير عنها والإدلاء برأيه فيما يتعلَّق بتداولها وعدمه حسب تاريخ إرسالها إِلَيْهِ: كتاب "المنتقى في تاريخ القرآن "، و" الإنجيل في القرآن"،

نقلت كلامه من ورقة فيها تقرير باللغة الإنجليزية وترجمته باللغة العربية.

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

و" القول الصريح في ظهور المهدي والمسيح " لنذير أحمد السيالكوتي، و "الشكوك التي تعتري العقل في العقيدة الإلهية وتفسيرها من كتاب الله والعقل"، وكتاب " الله والعقل"، و" دفاع عن السنة ورد شبهات المستشرقين والكتَّاب المعاصرين "للأستاذ محمد أبو شهبة، وكتاب "قصة يوسف" للأستاذ إبراهيم علي أبو الخشب، وكتاب " يوسف الصِّدِّيق " للأستاذ محمد طلبة رزق، ونقد سيناريو فيلم الاشتراكي الأول أبو ذر الغفاري، وكتاب "تبويب القرآن "، و"القاموس القرآني الجامع لألفاظ القرآن وتفسيرها "، وكتاب "نحو آفاق جديدة"، و " فقه الإسلام المُيَسَّر من المذاهب الأربعة "، وقد وقفتُ على بعض الأجوبة العلميَّة حول الكتب المقدَّمة إليه، ومن هذه التقارير:

١- " **أضواء على السُّنَّة المحمديَّة** " : تَتَبّعه نظراتٌ في كتابين آخرين تصدَّيا لنقده والردِّ عَلَيْهِ، وهما: " ظلمات أبي رَية "، و"الأنوار الكاشفة ".. وفي كتب أخرى ومقالات تنقض الكتاب الأول..

تكلَّم في تقريره عن المؤلِّف محمود أبو ريَّة، ومنهجه في البحث، وجناياته باسم التحقيق، وتزويره وكَيْده للسنة.. ويخلص إلى بيان قيمة الكتاب العلميَّة والدينية والحكم عَلَيْهِ بأنَّ أساسه الغشُّ لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.. ولا رَيْبَ أنَّ من أعظم القُرب إلى الله منع تداول هَذَا الكتاب مَعَ تطهير النفوس التي تلوَّثت بخبثه ورجْسه بنشر مَا يمكن نشره من كلِّ كتابٍ قويّ أمين، وكلِّ بحثٍ حفيظٍ عليم.

ثم استعرض الردود على كتاب أبي رية: " **ظلمات أبي رية** " لمحمد عبد الرزاق حمزة، وقال فيه: " وَهُوَ أول مَنْ نقض كتاب المؤلف نقضاً مُفَصَّلاً في كتاب مُستقل، يشهد لَهُ بسَعَة الباع، وبَسْطة الاطِّلاع، واسم كتابه يدلُّ على رأيه في المؤلف، وطريقته: نقض كتاب المؤلف مسألة مسألة بالبرهان السَّاطع، والبيان اللاذع "، ثم أورد الشيخ الساكت بعض نماذج تُعطي صورة مجملة عن الكتاب.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

والكتاب الثاني، " **الأنوار الكاشفة لما في كتاب أضواء على السنَّة من الزَّلل والتضليل والمجازفة** " للشيخ عبد الرحمن بن يحي المعلمي اليماني، وقال الأستاذ الساكت عن المؤلِّف والمؤلَّف: " صاحب هَذَا الكتاب عَلَمٌ من الأعلام المشتغلين بعلوم السنة، ويدلُّ كتابه على بُعْدِ غَوْره، وثقوب نظره، ورحابة فكره، وسَعَة أفقه، في البحث والدرس والاطلاع على تواضع عظيم، وغَيْرة خالصة على الدين والحق ".

واستعرض بَعْدَ ذَلِكَ كتباً ومقالات أخرى تنقض كتاب "أضواء على السنة" لأبي رية، ومنها مقالات الأستاذ أبو شهبة في مجلة الأزهر، وكتاب " الحديث والمحدِّثون " للأستاذ محمد أبو زهو، و" السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي " للدكتور مصطفى السباعي، الذي نقد أبا ريّة في قرابة ستين صفحة. وقد كتب الأستاذ الساكت تقريره العلمي الرصين في ٢٥ صفحة.

٢- كتاب "**الإنجيل والقرآن**" و "**القرآن والكتاب**" للأستاذ الحداد... وهما كتابان فيهما دعوة إلى النصرانية.

عرض الأستاذ الساكت في تقريره المقدَّم للمدير العام للثقافة الإسلامية عرضاً سريعاً موجزاً للكتابين، وبيّن أن الكتابين الهدف البعيد منهما، هدم الإسلام والقضاء عليه تحت ستار خدَّاع من الدعوة إلى الوحدة الدينية، والقومية العربية، ومحاربة الجبهات الإلحادية إلى أمثال أولئك من كلمات الحق الذي يراد به الباطل، والصدق الذي يُنْصَب شَرَكاً لاصْطِياد الحمقى والمغفَّلين.

وخَلَصَ الأستاذ إلى أنَّ الكتاب ساقطٌ سقوطاً ذريعاً من الناحية العلميَّة؛ لأنه ضلال وإضلال، وخيانة ونفاق، وأما من الناحية الدينية فهو أشدُّ سقوطاً، لأنه فوق الضلال والإضلال، والفساد والإفساد، مثارُ فتن وضغائن، كقطع الليل المظلم. ولا يعلم إلا الله ماذا يكون من مخاطر ومهالك حينما يرى المسلمُ نبيَّه ﷺ وقد طُعن بأنه مزوِّر ومدلِّس، يلفظ قرآنه على آثار نوبات من الشكِّ تَنْتَابُهُ وتُسَاوِرُهُ. وقدكتب تقريره في ١٠ صفحات في ٦ من جمادى الآخرة سنة ١٣٨٠.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

٣- "حَوْل الحجر الأسود" عرض فيه لمواضيع الكتاب، وأنَّ غرض المؤلف الذي يرمي إليه: إنكار تقبيل الحجر الأسود، بعد الشكِّ والتشكيك فيه، حتى جعله شِركاً من قبيل عبادة الأصنام... وبيَّن الأستاذ قيمة الكتاب العلميَّة، الذي يقوم على الشك والتشكيك، وعلى إنكار سنة ثابتة مؤيَّدة بالتواتر العملي... ثم ذكر نماذج من أخطاء الكتاب، وأنه - على كثرة أخطائه - يثير شكاً وتشكيكاً في سنة ثابتة، ثم يمتدُّ تشكيكه هذا إلى كثير من السُّنن والشعائر، ثم يُجرِّيء الناس على أبعد من هذا، ممَّا يُحدث بَلْبلة واضْطراباً في العبادات والعقائد، ويُحكِّم الأهواء في دين الله تعالى، ويفتح باب شرٍّ إلى أبواب كثيرة... "

كتب الأستاذ تقريره في ست صفحات في ٢٢ من ذي الحجة سنة ١٣٨٣ هـ.

٤- " ضياء النَّيِّرَيْن الجامع بين علمي الطائفتَيْن " لمؤلفه الشيخ أحمد دم من أعيان علماء جمهورية السِّنغال، والكتاب ينتظم تفسير القرآن كُلّهُ في عشرين مجلداً من الحجم الكبير، كُلُّها مخطوطة عدا الأول منها، فقد طبع بمطبعة طنجة بالمغرب، طبعة اشتملت على أغلاط كثيرة، وسَقَطات شوَّهت المعاني.

وذكر مراجع المؤلف من كتب التفسير والأصول والصوفية. وقال الأستاذ بَعْدَ أن تحدَّث عن منهج المؤلف: "ويشهد التفسير لصاحبه بجهد محمود، وبلاء مشهود، واتِّجاه خالص لوجْه الله، يستأهل بِهِ منه سبحانه مَثُوبة العاملين، وجزاءَ المخلصين. على أنَّ اجتهاد الشيخ لا يتجاوز - فيما نرى - الترجيح لرأي، أو الانحياز لفريق، أو التعزيز لرواية، أو محاولة لتوفيق بين خلاف، أو الإشادة بمذهب، أو الإلماع إلى طرفة، أو الاستطراد في قصة شائعة.. ثم ذكر سبعة عشر نموذجاً في تفسيره أحسن في عرضها، وإن كَانَ اجتهاده لا يتجاوز كلام المتقدِّمين، ثم عرض مآخذه على المؤلف، وسقطاته في مواضع شتى من التفسير،.. ومنها مَا هُوَ خطير لما فيه من الإضْرار بعقائد العامة، وبَلْبلة أفكار الجماهير فَضْلاً عن مُجَانَبَة الحق. ثم ذكر أدلة غُلوِّ المؤلف كقوله بتصرُّف

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الأولياء بذواتهم، وسؤال غير الله عزَّ وجل؟!

وخَلَص إلى أنَّ الكتاب في حاجة إلى مراجعه واعية، تقيم معوجه، وتعالج سفهه، وَذَلِكَ: بإصلاح الأخطاء النحوية والبلاغية، وتخريج الأحاديث المهملة، والتنبيه على الضعيف والموضوع منها، والتعليق على بعض العبارات والنقول لتحريرها و إيضاحها، وحذف القصص الإسرائيلية والحكايات التافهة والشطحات التي لا تليق بتفسير الكتاب المجيد، وحذف الاستطراد الكثير الَّذِي يخرج بالتفسير عن طابعه، وخلص إلى أن التفسير لا يجيز طبعه بالوضع الراهن، حفظاً لكتاب الله من المساس بحرمته، وتَنْزِيهاً عَمَّا لا يليق بقدسيته.

ومن الكتب التي راجعها، وكتب تقارير علمية عنها إلى المراقبة العامة للبحوث والثقافة بجامعة الأزهر أيضاً:

٥- " **دعوة الأحرار** " لأحد علماء جماعة أنصار السنة المحمديَّة، انتقد فيه منهج الجماعة، وبيَّن غرض الكتاب والباعث على تأليفه، وما فيه من هجوم على الأزهر والمذاهب الأربعة.

وخلص الأستاذ إلى الحكم على الكتاب بقوله: " وجملة القول: أنَّ إثم هذا الكتيِّب أكبر من نفعه، وأنَّ شرَّه أكثر من خيره، وأنه يجب وضع حدٍّ له ولأمثاله من هذه المؤلَّفات التي توقظ الشَّغَب، وتُحرِّك الخصومات، وتُؤْثر مذاهب التنفير ".

٦- "**القنبلة الذريَّة الشَّرعيَّة الشِّعريَّة الأزهريَّة** " صاحب هَذَا الكتيِّب داعٍ إلى الطريقة التيجانية، ويصف الشيخ الساكت الكُتيِّب بأنه صفحات مظلمة مبتذلة عريقة في السِّباب والسَّفاهة وشَتْم المخالفين، وهي أبعد مَا تكون عن الردِّ العلمي الَّذِي يقصد إلى الحق أينما كَانَ.

٧- " **هَؤُلاءِ مثلُنا الأعلى** " للشيخ عبد الحميد بخيت " أستاذ التاريخ، ضمَّن كتابه شذرات من تاريخ أبطال الإسلام الَّذِينَ ساروا على تعاليمه، فكانوا خير أمة أخرجت للناس. وقد دافع الأستاذ الساكت عن الكتاب الَّذِي طعن فيه

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

بعضهم ظلماً بأن فيه مساً للرسالات السماوية، والكتب الإلهية. وقَدْ كتب تقريره في ثلاث صفحات بتاريخ ٢٦ من شعبان ١٣٧٣.

وهناك تقارير علمية أخرى لم تتوفَّر لديَّ، لَوْ جُمعت لظهرت في كتاب، يتجلَّى فيه منهج المؤلف في النقد العلمي المنصف النَّزيه، وآراؤه في كثير من المؤلِّفين والكُتب.

* * * * *

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

موقفه من تدريس الفقه الشيعي وفكرة التقريب بين السنة والشيعة

وقد انتقد رحمه الله تعالى إدخال الفقه الشيعي في مواد الدراسة في كلية الشريعة بجامعة الأزهر، وفكرة التقريب بين السنة والشيعة الإمامية التي كان يتزعَّمها في القاهرة الشيخ الرافضي الإيراني محمد القُمِّي، ويُؤازره فيها شيخ الأزهر، وشيخ كلية الشريعة آنذاك، ورفع خطاباً إلى رئيس الجمهورية قال فيه:

" والمعروف أنَّ المذهب الشيعي كان يدرَّس بالأزهر في أول نشأته، وقد تبيَّن للأمة ما في هذا المذهب من أباطيل، فنفرت منه أشد النفور، وهيأ الله لها من يحقِّق أمنيتها هذه، وهو بطل الإسلام والعروبة "صلاح الدين الأيوبي"، فألغى المذهب الشيعي، وأحلَّ محله مذاهب أهل السنة والجماعة، وبهذا العمل المجيد أحرزت مصر الزعامة الإسلامية إلى يومنا هذا.

وقد كَبُر على الشيعة أن يزهق باطلهم، وأن تكون لمصر هذه الزعامة الإسلامية العربية، فعملوا على تجديد مركزهم المفقود بإنشاء "جماعة التقريب" بالقاهرة، واستطاعوا بدعايتهم الخدَّاعة ونفاقهم البارع أن يستدرجوا نُخبةً من رجال العلم في مصر لم يفطنوا إلى ما يهدف إليه داعية الشيعة بمصر، "الشيخ محمد القمِّي".

وفي هذه الأيام استطاع هذا الداعية الداهية أن يُدخل الفقه الشيعي بين مواد الدراسة في الأزهر على يد " الشيخ محمود شلتوت "، كما أدخله من قبل في معهد الدراسات العليا التابع للجامعة العربية بدعوى توحيد الصفوف، وإزالة ما بيننا من جَفْوَة وتعصُّب عمل عليها المستعمر، وبهذا يكون الأزهر قد تراجع وتنازل إلى العهد الفاطمي المظلم عن ثقة المسلمين به وبمِصْر.

ونحن لا نحبُّ أن يتعرَّض الأزهر لهذه النكسة في عهد النهضة الحاضرة...

ولا نرضى أن تكون في مصر مجلة للشيعة تُدعى مجلة " رسالة الإسلام "

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تقوم بنشر الدعاية الباطلة للمذهب الشيعي، وتشعر الناس هنا وهناك أننا راضون عما فيها، وفي هذه مَجْلَبَةٌ لسوء الظن ".

أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ونصحه للحاكم:

كما كان رحمه الله يُسْدي النُّصح للحاكم في زمانه، وقد سبق الحديث عن كثير من مواقفه مع العامة والعلماء، ووقوفه بعد صلاة الجمعة أمام الملك فاروق في مسجد يحيى باشا بالرمل يدعو إلى الله بثباتٍ واطمئنان، ويدعوه إلى تحكيم كتاب الله، واستمرَّ رحمه الله تعالى في نصحه وتذكيره، وإرساله الرسائل للحاكم في عصره، ومن ذلك خطابه في ٢٨ من شهر رمضان سنة ١٣٧٩ الذي سلَّمه لعبد الناصر في يوم عيد الفطر سنة ١٣٧٩ بالمقام الحُسَيْني بعد الصَّلاة، وقد قال في رسالته:

" أما بعد، فقد قَدِمتَ لصلاة الجمعة اليوم، والقارئ يقرأ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [١].

تلك بشارة مولاك: أن ينصر الله مَنْ ينصُره بإعزاز دينه وإقامة كتابه... فكلُّ محاولة للنصر بغير نصره، ولإقامة دينه فهي كرماد اشتدَّت به الريح في يومٍ عاصفٍ، أو كَسَرابٍ بقيعة...

وإنك في هذه الأيام العصيبة مُقْدِمٌ على أمورٍ جِسَام، فَمَا أَحْوَجَك إلى نصر الله، لينصرك، واستجابتك له، ليستجيبَ لك.

ما أحوجك وأنت تطلب النصر في حِلِّك وتَرحالك إلى أن تسارع بالضرب على أيدي السفهاء الذين أضاعوا الصلاة، واتَّبعوا الشهوات، وانتهكوا المحرَّمات، وملئوا الأرض إلحاداً وفساداً.

(١) سورة الحج: ٤٠ – ٤١.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ماذا بقيَ من الحُرُمات والآداب، والشابة تحت الشاب عاريَيْن عاهرَيْن، في الميادين والشوارع، وفوقهما الإعلان السافر الفاجر: " معاً إلى الأبد " في هذا الشهر المعظَّم الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان.

إنَّ الله غيورٌ، ومن أجل غَيْرته حَرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ومن أجل غيرته انتقم ﴿عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ (١).

ولقد حاول داعٍ إلى الله أن يدعو الملك السابق، ويبيِّن له وفاءً بعهد الله وميثاقه الذي أخذه على العلماء... فلما يئس من الملك شكاه إلى مالك الملك سبحانه؛ يُؤْتي الملك مَنْ يشاء وينزِع الملك ممَّنْ يشاء.. فلمَّا نزعه الله واستخْلَفَك من بعده، كتب إليك مراراً، ثم بايعك في مثل اليوم بهذا الجامع الأزهر عام ١٣٧٦ يدك في يده... واليوم صافحك بعد صلاة الجمعة، وبشَّرك بنصر الله إنْ نصرتَهُ... ثم فصَّل البشارة المُجْمَلة في هذا الكتاب، ولا يزال جادّاً غير يائس في رفع الحجاب بينك وبين العلماء، فذاك بشير النصر والعزَّة والتمكين في الأرض.

لعلِّي بهذا، وبما كتبتُ إليك من رسائل أكثرها مُسَجَّل بعلم الوصول، قَضَيْتُ بعض حقِّكَ عليَّ، وأدَّيتُ بعض الأمانة التي عَرَضها الله على السَّموات والأرض والجبال، فأبَيْنَ أن يحملنَها وأشْفَقْن منها، وسواءٌ عليك أبلَّغتك البطانة أم أخفَوْا عليك...

وفي الخاتمة: لا أنسى أن أقول لك ما قال القائد الأعظم محمد ﷺ: " إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين "، فاعمل على رفعته وحفظه، واعتماد مدارسه كلها، يرفعك الله، وينصرك نصراً عزيزاً، وهو خير الناصرين،

---

(١) اقتباس من الآية ٥٥ من سورة آل عمران.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كتبه بخط يده: داعٍ إلى الله مِمَّن لا يخافونك ولا يرجونك، ولكنهم أخوف الناس من الله عليك، وأرجاهم للخير منه إليك: طه محمد الساكت، المفتش بالأزهر ".

وقد تلقَّى فضيلة الشيخ برقية شكر على رسالته هذه من مدير مكتب نائب رئيس الجمهورية للشؤون العامة بتاريخ ١٩٦٠/٤/٥ جاء فيها: " السيد طه محمد الساكت... كان لوصول رسالتكم أطيب الأثر في نفوسنا، لما جاء فيها من تعبير عن وطنيَّتكم الصَّادقة، ومشاعركم الطيِّبة، جَعَلكم الله ذُخْراً للوطن العربي... " وإن كانت هذه الرسالة لم تُغيِّر من واقعهم شيئاً، ولم تُحْدِث في نفوسهم أثراً، ولكن معذرةً إلى ربِّكم، ولعلَّهم يرجعون !!.

* * * * *

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

شرح الأحاديث النبويَّة

ابتدأ الشيخ طه السَّاكت رحمه الله تعالى الكتابة في ركن السنَّة في مجلة الأزهر في العدد السادس من السنة الرابعة عشرة في شهر جُمادى الآخرة من سنة ١٣٦٢ الموافق لسنة ١٩٤٣ في أَوْج نشاطه العلمي والأدبي، وهو في الأربعين من عمره... واستمرَّ في الكتابة إلى العدد الثامن من السنة الثلاثين [١] في شهر شعبان ١٣٧٨ الموافق ١٩٥٩ أي: ما يقارب ستة عشر عاماً على انقطاع عن الكتابة في بعض الأعداد [٢].

---

(١) وكان انقطاعه المفاجئ عن الكتابة بسبب تغيُّر إدارة المجلة ومنهجها، حيث استلم رئاستها الأديب المشهور والكاتب البليغ الأستاذ أحمد حسن الزيَّات، بعد أن كان يرأس تحريرها الأستاذ محب الدين الخطيب.

(٢) انقطع عن الكتابة عند ابتعاثه إلى مكة المكرمة سنة ١٣٦٧ من العدد الثاني من السنة العشرين ١٣٦٨ ثم عاد إلى الكتابة في العدد السادس من السنة الثانية والعشرين ١٣٧٠، وكذلك انقطع عن الكتابة لشهرين في العدد الأول والثاني من السنة الثلاثين ١٣٧٨، ثم عاد إلى الكتابة في العدد الثالث من السنة نفسها.

قال في آخر العدد العاشر من السنة التاسعة والعشرين ١٣٧٧: "أما بعد؛ فمنذ عهدٍ غير قريب، وأنا أستخير الله تعالى، وأترضَّى رسوله ﷺ أن أُودِّع الكتابة في هذا المكان إلى أجلٍ مسمَّى عند الله عز وجل، وهأنذا أستأذن أسرة المجلة وقراءها حتى يأذن الله لي بالعَوْد. والعَوْدُ أحمد، وما توفيقي إلا بالله ".

ثم يقول في بداية العدد الثالث من السنة الثلاثين في شرح حديث "الواصل والمكافئ": "ودَّعتُ الكتابة إلى أجلٍ كنت قدَّرتُه عاماً أو عامين، ولكن قدَّر الله ألا يزيد على شهرين....فإن يكن العَوْد أحمد، فالفضل لمن بيده الفضل سبحانه، ثم لأسرةِ هذه المجلة وقرائها، فما فتئوا يذكِّرونني أن أصل رحماً ربطتها المجلة بيننا، ثم جاءت السنة فشدَّت =

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وإنه لمن يُمْنِ الطالع وحُسْن الخاتمة، أن يفتتح كتابته بشرح حديث: " من حُسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه "، وأن يختتمها بحديث عمل المرء لغيره شَرَحَ فيه حديث: " إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: إلا من صَدَقَةٍ جاريةٍ، أو علمٍ ينتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له... " بعد أن سبقه شرح حديث عمل المرء لنفسه: " يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان ويبقى معه واحد: يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهلُهُ ومالهُ، ويبقى عملُه ".

منهاج السنة في مجلة الأزهر:

وقد كتب رحمه الله تعالى يبيِّن منهاجه في شرح الأحاديث، ويذكر جهد السَّابقين له في هذا الميدان.

قال في شرحه لحديث جرير بن عبد الله ﷺ: " بايعتُ رسولَ الله ﷺ على إقام الصَّلاة، وإيتاء الزكاة، والنُّصح لكلِّ مسلم"[1] تحت عنوان "مكانة النُّصْح في الإسلام ":

" أما بعد، فقد وعدنا بعرض منهاج " السنَّة " في هذه المجلة منذ صدروها إلى وقتنا هذا، رغبة الاسترشاد بآراء النَّاصحين في تسديد خطَّتها، واستدراك ما وقع من تقْصير في حقِّها.

وللسنَّة - وهي ثاني الأركان التي بُنيَ عليها الدين – حقُّ العناية بها، وبَذْلُ الجهد في نشرها، وتيسير الطرق إليها، وإلى الفقه فيها، والذبِّ عنها، وكشف الدسائس التي يدسُّها أعداء الله ورسوله للنَّيْل منها، تَذَرُّعاً إلى النَّيْل من كتاب

رباطها، وكأنَّ الرحمن جلَّت آلاؤه، ألهم عبده مدير المجلة أن يكتب حديث السنة السابق في صلة الرحم، تجديداً للتذكرة، وتوكيداً لما بيننا من آصرة....".

(١) مجلة الأزهر، العدد الثاني، السنة التاسعة والعشرون (١٣٧٧ = ١٩٥٧).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الله الحميد... ومَنْ أحقُّ بهذا كلِّه من الأزهر: شيخِه، ورجالِه، ومجلتِهِ، وحَمَلةِ لوائه في مصر خاصَّةً والعالم الإسلاميِّ كافَّة؟.

كُتَّاب السنَّة في مجلة الأزهر:

لقد أُسِّست هذه المجلة على الكتاب والسُّنَّة من أول يوم:

فكتب فيها الأستاذ **حسن منصور**(١) منذ صُدورها (٢) حتى الجزء السابع من المجلَّد الثاني (٣).

ثم كتب فيها شيخنا **إبراهيم الجبالي**(٤) من المجلد الثالث(٥) حتى الجزء

---

(١) هو العلامة الشيخ حسن منصور، ولد في مدينة الإسكندرية، ونشأ بها، وحفظ القرآن الكريم، وجوَّد قراءته على أشهر قرَّاءِ الإسكندرية الشيخ إبراهيم إدريس، والتحق بالأزهر، وتلقى العلم فيه نحو سبع سنين، ثم دخل دار العلوم، ولما تخرَّج اشتغل بالتدريس بمدرسة القضاء الشرعي، ولما أُلغيت مدرسة القضاء، وأُنشئت تجهيزية دار العلوم، عُيِّن ناظراً لها، ثم وكيلاً ومدرساً بِهَا. وكان من المشتغلين بالعلم، مهذَّب الأخلاق، قويَّ الإيمان، محمود السيرة، وقد اشتغل بتحرير مجلة "الأزهر" وله فيها مقالات كثيرة، توفي في شهر شعبان سنة ١٣٥٠هـ = ١٩٣٢م كما في "الأعلام الشرقية" ١: ٣٠٠ لزكي مجاهد.

(٢) صدرت مجلة "الأزهر" أولاً باسم نور الإسلام، وصدر العدد الأول في المحرم سنة ١٣٤٩.

(٣) في رجب سنة (١٣٥٠) بعنوان "الترغيب في تأديب الأولاد". ومجموع الأحاديث التي شرحها سبعة عشر حديثاً.

(٤) قال الأستاذ أحمد شاكر في مقدمة " الباعث الحثيث " ص ٥: " توفي أستاذنا الكبير: الشيخ إبراهيم الجبالي ليلة الاثنين ١٧ صفر سنة ١٣٧٠ الموافق ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٥٠ بالقاهرة ".

(٥) في المحرم سنة (١٣٥١)، وافتتح كتابته بشرح حديث: "سبعة يظلهم الله في ظِّله ".

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الأخير من المجلَّد الخامس (١).

ثم كتب فيها الأستاذ **عبد الرحمن الجَزيري**(٢) من المجلَّد الثامن حتى الجزء الأخير من المجلَّد الثاني عشر (٣).

ثم كتبتُ فيها منذ صدور الجزء السادس(٤) من المجلَّد الرابع عشر حتى الجزء الأول من المجلَّد العشرين.

ثم كتَبَ فيها الأستاذ **فكري يس** (٥) من المجلَّد العشرين إلى منتصف

---

(١) ومجموع الأحاديث التي شرحها ثلاثون حديثاً.

(٢) نعته مجلة الأزهر في الجزء العاشر من المجلد الثاني عشر (١٣٦٠ = ١٩٤١)، وقالت: " ننعى إلى قرَّاء مجلة الأزهر واحداً من العلماء العاملين، هو المرحوم الأستاذ الجليل، الشيخ عبد الرحمن الجزيري أحد محرِّريها الممتازين، توفَّاه الله في أوائل شهر رمضان بعد مرضٍ مُزْمن لازمه سنين، ولكنه ما كان يقعده عن الإفادة والتأليف، وكان رحمه الله كبير مفتشي المساجد بوزارة الأوقاف، ثمَّ استقال منها بعد قيامه بمهمته سنين، واشتغل بتدريس الفلسفة في كلية أصول الدين، فكان أحرصَ المدرِّسين على الاضْطلاع بما عُهد إليه، وكان يُحمِّل نفسه في هذا السبيل جهداً باهظاً، تحت ضغط علَّته التي كانت تَتَقَاضاه الراحة المطلقة، ولما عُيِّن مُحرِّراً لباب السنة من هذه المجلة كان لا يألوها مثابرةً وعنايةً.

وله رحمه الله كتابٌ ضخم في الفقه يقع في أربعة مجلدات، يُعتبر مرجعاً قيِّماً لمسائله، وله كتب أخرى في أغراضٍ شتَّى كلُّها ممتعة، تغمَّده الله برحمته ". انتهى. وانظر كلمة في رثائه في الجزء الأول من المجلد الثالث عشر من مجلة "الأزهر" (١٣٦١ = ١٩٤٢) بقلم الأستاذ أبي الوفا المراغي.

(٣) افتتح كتابته رحمه الله في الجزء الثاني من هذا المجلد صفر ١٣٥٦ : (الإخلاص)، واختتمها بـ(زيارة القبور) (طه) ومجموع الأحاديث التي شرحها: ثمانية وأربعون حديثاً.

(٤) بدأتُ أحاديث هذه الفترة بحديث: " مِنْ حُسْن إسلام المرء تركُهُ ما لا يعنيه "، واختتمتُها بحديث (البعوث في الإسلام) حيث كنتُ مبعوثاً من الأزهر إلى البلد الحرام (طه).

(٥) نعته مجلة الأزهر رحمه الله في الجزء السادس من هذا المجلد – الثاني والعشرين =

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

المجلد الثاني والعشرين"[(١)].

ثم استأنفتُ الكتابةَ في العهد الأخير منذ صُدور المجلَّد الرابع والعشرين.

وإلى جانب أولئك الكاتبين، كَتَبَ كُتَّاب أفاضل في السنَّة والسيرة والشمائل، ما لو جُمع لكان مجلداً ضخماً في الهدي النبوي، ودستوراً مُشْرِقاً في أحكام الإسلام وآدابه، ثم في عناية سلفنا الصالح بالسُّنَّة، ومكانتها من الدين الحنيف.

هذا عرضٌ مُوجَزٌ سريع، لم نطل فيه خشية الإملال، نُذكِّر به أُولي الغيرة على الكتاب والسنة، راغبين إلى الله تعالى وضارعين، أن يُسدِّدهم ويوفِّقهم، لتأدية دَيْن عليهم، يعلمون أنهم مسؤولون عنه بين يدي الله عزَّ وجل، وأنه لن يُؤدِّيه عنهم مجرَّد الكتابه، بالغةً ما بلغت من بلاغة القلم، وفصاحة اللسان " انتهى.

عدد الأحاديث المشروحة ومنهجه في اختيارها :

بلغت الأحاديث التي شرحها المؤلف رحمه الله تعالى حسب ترقيمي لها (١١٩) حديثاً نبوياً.

- (١٣٧٠ = ١٩٥٠)، وفي هذا الجزء نفسه كتبتُ في السنة بعنوان: (بركة المسلم حيّاً وميتاً)، ثم كتبت في الجزء الثامن من هذا المجلد بعنوان: (عيد الدستور). وظلَّت المجلة خالية من الكتابة في السنَّة إلى آخر المجلد الثالث والعشرين، إلى أن استأنفت الكتابة فيما بعد عودتي من الحجاز. وقد تبيَّن من هذا العرض أن أطول فترة خلت المجلة من كتابة السنَّة فيها، هي ما بين الشيخين الجليلين رحمهما الله: الجبالي والجزيري، ثم الفترة التي بيني وبين الشيخ الجزيري، ثم الأخيرة بيني وبين الأستاذ فكري (طه).

(١) ومجموع الأحاديث التي شرحها ثلاثة وعشرون حديثاً. وقد قمتُ بجمع هذه الأحاديث النبويَّة للأساتذة: حسن منصور، وإبراهيم الجبالي، والجزيري، وفكري يس، وستصدر–بعون الله تعالى– بعد هذا الكتاب.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وجميع الأحاديث التي شرحها، انتقاها من الصحيحين أو أحدهما، سوى حديثَيْن فقط، وهما حديث: "مِنْ حُسْنِ إسلام المرء تركه مالا يعنيه"[(١)]، وحديث: "التماس رضا الله وإن سخط الناس"[(٢)].

وقد انتقى الأحاديث التي قام بشرحها من جوامع كلمه ﷺ، وروائع توجيهاته، حسب المناسبات المُقْتضية لذلك[(٣)].

ففي افتتاح السنة الهجرية يختار - غالباً - حديثاً يتعلّق بالهجرة النبويَّة المباركة، مثل حديث: "لا هجرة بعد الفتح"[(٤)].

وحديث: "خير القرون"[(٥)]، وربطه بمناسبة الهجرة بقوله: "في مطلع كلِّ عام هجريٍّ يذكر المسلمون أصحابَ رسول الله ﷺ، وكيف أُوذوا في سبيل الله، وأُخرجوا من ديارهم بغير حقٍّ...، ثم أفاض في الحديث عن فضل المهاجرين والأنصار.

وحديث: "إنما الأعمال بالنيات فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله..."[(٦)].

وحديث: "بدل من الهجرة"[(٧)]، ويقول في مقدمته: "قد يبدو جديداً في هذا العهد الجديد أن ننتقل من أحاديث الهجرة وشؤونها وحِكَمِها وأحكامها، وما يتَّصل بِهَا من روائع أخبارها وأسرارها، وبدائع إيثارها وآثارها، إلى ما

---

(١) وهو أول حديث شرحه في العدد السادس من السنة الرابعة عشرة ١٣٦٢.

(٢) في العدد العاشر من السنة الخامسة عشرة ١٣٦٣.

(٣) ذكرت طريقته في اختيار الأحاديث وشرحها، وفصَّلتُ فيها، لأنني لم أسردها في الكتاب حسب مناسباتها وترتيبها في المجلة، وإنما رتبتها حسب الموضوعات.

(٤) في افتتاحية السنة الخامسة عشرة، محرم ١٣٦٣.

(٥) في افتتاحية السنة السابعة عشرة، محرم ١٣٦٥.

(٦) في افتتاحية السنة التاسعة عشرة، محرم ١٣٦٧.

(٧) في افتتاحية السنة الخامسة والعشرين، محرم ١٣٧٣.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

يُعادلها من صالح الأعمال، وحميد الخصال، فقد أسهمت هذه المجلة في مجلداتها الأربعة والعشرين بنصيبٍ غير قليلٍ من تلك الشؤون، ومنها ما كتبناه في حديثَيْ الصحيحين: "لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية.."، و "إنما الأعمال بالنيات...".

وفي شهر رمضان يختار في بعض السنوات الأحاديث المتعلِّقة بالصيام وفضْله كحديث: "كلّ عمل ابن آدم له إلا الصوم..." [١].

وحديث: "كان الرسول ﷺ أجود الناس، وأجود ما يكون في رمضان" [٢].

وفي شهر ذي الحجة يشرح حديث: " أحبُّ الأيام إلى الله.." [٣].

وفي الشهر نفسه يشرح حديث: "شهران لا ينقصان" [٤].

وفي شهر صفر يشرح حديث: " إبطال مزاعم الجاهلية": " لا عَدْوى، ولا طِيَرة، ولا هَامَة، ولا صَفَر..." [٥].

وفي شهر ربيع الأول يختار – غالباً – أحاديث تتعلَّق بالمولد النبويِّ الشريف، وأخلاقه الحميدة وشمائله المجيدة ﷺ.

فيشرح حديث عبد الله بن عمرو في "صفته ﷺ في التوراة" [٦].

ويشرح حديث عمر بن أبي سَلَمة بعنوان: "من أدب النبوة"، ويقول: "من أجل ذكرى المولد النبوي الكريم أحببنا أن نذكر طرفاً من تأديبه ﷺ لربيبه

---

(١) في رمضان في العدد التاسع من السنة الرابعة والعشرين ١٣٧٢.

(٢) في العدد التاسع من السنة التاسعة والعشرين ١٣٧٧.

(٣) في العدد العاشر من السنة الثالثة عشرة ١٣٦٦.

(٤) في العددين ١٩ و٢٠ من السنة السادسة والعشرين ١٣٧٤.

(٥) في العدد الثاني من السنة السادسة عشرة ١٣٦٤.

(٦) في العددين ٣ و٤ من السنة الخامسة عشرة ١٣٦٣.

الجديد و الطريف NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الناشئ اليتيم.." [١].

وفي نفس الشهر يشرح حديث: " مَثَلٌ من حِلْم النبي ﷺ " [٢] في قصة غزوة حُنين، ويقول: "من أجل ذكرى الميلاد النبوي الكريم ضربنا هذه القصة مثلاً لحلم النبي ﷺ واحتماله، وصبره وكظمه للغَيْظ، وتسلِّيه بإخوانه النبيين..."

وفي الشهر نفسه يتكلَّم عن "الحياء النبوي" [٣]، ويشرح حديث أبي سعيد الخدري: " كان رسول الله ﷺ أشدَّ حياءً من العذارء في خِدْرها " .

وفي الشهر نفسه أيضاً يشرح حديث "خاتم النبيين" [٤]، ويتكلَّم عن الأسماء النبويَّة، ثم يتابع الكلام حول هذا الموضوع في ثلاث حلقات أخرى.

وممَّا يتعلَّق بالمناسبة التي تدعوه إلى شرح الحديث ما ذكره في شرحه لحديث " الوصاة بكتاب الله عزَّ وجل" [٥]: " بمناسبة إشراف الأزهر المعمور على جمعيات تحفيظ القرآن الكريم بأرض الكنانة، أعزَّها الله وسائر بلاد المسلمين بكتابه... ".

وفي حديث: "الرحلة في طلب العلم" [٦] يرد فيه على من تهجَّم على الأزهر، ويقول: "فإذا رأيت شرذمة من أشباه المسلمين، أو أدعياء العلم يقومون في وجه الأزهر: من عدوٍّ حاقد، أو طريد حاسد، أو ملحد كائد، أو ابن جاحد لأبيه عاق، أو كاتب مداده النفاق والشقاق، فلا يهولنَّك أمره..." إلى

---

(١) في العدد الثالث من السنة السابعة عشرة ١٣٦٥.

(٢) في العدد الثالث من السنة الثامنة عشرة ١٣٦٦.

(٣) في العدد الثالث من السنة الخامسة والعشرين ١٣٧٣.

(٤) في العدد الثالث من السنة السابعة والعشرين ١٣٧٥.

(٥) في العدد الأول من السنة التاسعة والعشرين ١٣٧٧.

(٦) في العدد الرابع من السنة السابعة والعشرين ١٣٧٥.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

آخر ما كتب في ردِّه على هؤلاء.

ويكتب حول الجهاد عدَّة أحاديث في: "حي على الجهاد " [١] بمناسبة الغارة على مصر.

وهكذا ينوِّع اختياراته للأحاديث النبويَّة، باختلاف الدواعي والمناسبات.

يقول في شرحه لوصيَّة النبي ﷺ: " بشِّروا ولا تنفِّروا..."، في "البعوث في الإسلام" [٢]، بمناسبة ابتعاثه إلى مكة المكرمة: "نحاول هنا ونحن في بعثٍ إلى البلد الحرام أن نقتبس من الهدي النبوي في البعوث الإسلامية، ما نرجو أن يكون للدعاة مناراً، وللهادين ضياءً.."

ويقول في شرحه لحديث: " كلُّ مولود يولد على الفطرة.." [٣]: " ليس بِدْعاً من الأمر أن نتصرَّف في اختيار الحديث تَبَعاً لتصرُّفه صلوات الله وسلامه عليه في ضروب العلم والحكمة، وفنون التَّزكية والهداية، فقد آتاهُ الله الكتابَ ومثلَه معه، وَجَمَعَ له فيهما علوم الأوَّلين والآخرين، ما يكفل بعض السَّعادة للناس أجمعين...".

وأحياناً يشرح بعض الأحاديث استجابةً لرغبة بعض أساتذته وإخوانه.

ففي حديث "شهران لا ينقصان" [٤] يقول: " كتبنا هذا الحديث إجابة لرغبة أستاذنا الكبير الشيخ عبد الرحمن حسن، وكيل الجامع الأزهر السابق ".

ويعود أحياناً لشرح بعض الأحاديث باستيعاب وتفصيل سَبَق له أن تعرَّض

---

(١) في العدد الخامس من السنة الثامنة والعشرين ١٣٧٦.

(٢) في العدد العاشر من السنة التاسعة عشرة ١٣٦٧.

(٣) في العدد الثامن من السنة الرابعة عشرة ١٣٦٢.

(٤) في العددين ١٩ و٢٠ من السنة السادسة العشرين ١٣٧٤.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لبعض جوانبها بإيجاز واختصار، كما في شرحه لحديث "العين حق" [١] يعود إلى شرحه بعنوان: "عَوْدٌ إلى علاج العين" [٢] ويقول: " إجابة لرغبة مشكورة من قراء أفاضل، لاحظوا إجمالاً شديداً، في شرح الحديث الأسبق، ولا سيما في علاج العين..".

ثم يقول: " من تأدية الأمانات إلى أهلها، ومن الاعتراف بالفضْل لذويه أن ننبِّه على أن مرجعنا الأول في شرح هذين الحديثَيْن هو "الطبُّ النبوي"، وأنَّ الذي أشار عليَّ بتفصيل ما أجملت في الحديث الأسبق، أخونا الواعظ الفاضل إبراهيم أبو سَعدة، وشيخنا الكبير الأستاذ محمد عرفة...".

طريقته في الشرح :

يختار الكثير من العناوين من تراجم البخاري رحمه الله تعالى في "صحيحه" كما في "قصة أبي طالب" [٣] وقال: "هذا عنوان أبي عبد الله البخاري لثلاثة أحاديث في كتاب المناقب: هذين الحديثَيْن، وثالثٍ بينهما في وفاته ".

و" الوصاة بكتاب الله عز وجل" [٤] وقد اختار عنوان الحديث من ترجمة البخاري في فضائل القرآن، و" كيف يقبض العلم " [٥] وقال: "هذه ترجمة الإمام البخاري "، و" العين حقٌّ" [٦].

---

(١) في العدد الرابع من السنة الثلاثين ١٣٧٨.

(٢) في العدد السابع من السنة الثلاثين ١٣٧٨.

(٣) في العددين ٧ و٨ من السنة السادسة والعشرين ١٣٧٤.

(٤) في العدد الرابع من السنة التاسعة والعشرين ١٣٧٧.

(٥) في العدد الثامن من السنة التاسعة والعشرين ١٣٧٧.

(٦) في العدد الرابع من السنة الثلاثين ١٣٧٨.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد يختار عنوان الحديث من لفظة الحديث نفسها كما في أول حديث شرحه: "من حُسْن إسلام المرء تركه مالا يعنيه "[١]، و "لا هجرة بعد الفتح"[٢]، و " مَنْ لا يَرْحم لا يُرْحم"[٣].

ويُحسن اختيار العناوين التي يربط فيها الماضي بالحاضر، ويطبِّقه على الواقع، كما في شرحه لحديث عمر ﷺ في نزول قوله تعالى: ﴿اليومَ أكملتُ لكُم دينكُم..﴾، ويختار لها عنواناً مناسباً " عيد الدستور"[٤].

وكما في شرحه لحديث: "إجلاء اليهود من جزيرة العرب"يختار له عنوان: " عيد الجلاء الأول"[٥].

وانظر إلى حُسن اختياره لهذه العناوين: خصومة الأكابر، الإصلاح بين الأكابر، من المروءات سَتْر العورات، عزَّة الكمال للناس، وبركة المسلم حياً وميتاً.

شرحه لعدة متون في موضع واحد :

ويقتصر في أكثر الأحاديث التي يشرحها على متن حديثٍ واحد، وقد يضيف في بعض الأحيان متوناً أخرى يشرحها في مكانٍ واحد.

مثل حديث "الفرار من الفتن " [٦] أورد حديثَيْ أبي هريرة وأبي سعيد:

---

(١) في العدد السادس من السنة الرابعة عشرة ١٣٦٢.

(٢) في العدد الأول من السنة الخامسة عشرة ١٣٦٣.

(٣) في العدد الرابع من السنة السابعة عشرة ١٣٦٥.

(٤) في العدد الثامن من السنة الثانية والعشرين ١٣٧٠.

(٥) في الأعداد ١ و٢ و٣ من السنة الثامنة والعشرين ١٣٧٦.

(٦) في العدد الثاني من السنة الخامسة عشرة ١٣٦٣.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

"ستكون فتن.."، "يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم...".

وحديث " خير القرون " (١) أورد حديثَيْ ابن مسعود وعِمْران بن حصين.

وحديث: " مَنْ لا يَرحمَ لا يُرحم" (٢) أورد حديثَيْ أبي هريرة وعائشة رضي الله عنهما.

وحديث " من المروءات ستر العورات " (٣) أورد ثلاثة أحاديث عن أبي هريرة: " كلُّ أمتي معافى إلا المجاهرين.."، " لا يستر الله على عبد في الدنيا.."، " لا يستر عبدٌ عبداً".

وحديث: "الإحسان إلى البنات" (٤) أورد حديث عائشة، وقال: " هذان حديثان صحيحان، اتفق الشيخان على رواية أولهما، وانفرد مسلم عن البخاري برواية آخرهما، ويبدو لمن تأمَّل أنهما قصَّتان مختلفتان، وإن تقاربتا لفظاً ومعنى".

وحديث: " البعوث في الإسلام" (٥) أورد حديث أبي موسى بلفظيه المُخْتلفَيْن.

وحديث: "تخيُّر العاملين" (٦) أورد حديثَيْ أبي موسى الأشعري، وأُسيد بن حضير "إنا والله لا نولِّي على هذا العمل أحداً سأله..."، و " إنكم ستلقون بعدي أَثَرة..".

---

(١) في العدد الأول من السنة السابعة عشرة ١٣٦٥.

(٢) في العدد الرابع من السنة السابعة عشرة ١٣٦٥.

(٣) في العدد الخامس من السنة الثانية عشرة ١٣٦٦.

(٤) في العدد التاسع من السنة الثامنة عشرة ١٣٦٦.

(٥) في العدد العاشر من السنة التاسعة عشرة ١٣٦٧.

(٦) في العدد الخامس من السنة الرابعة والعشرين ١٣٧٢.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وحديث: " من أدب النبوّة" [١] أورد حديثَيْ ابن عباس وأبي هريرة.

وحديث: "جهاد النساء" [٢] أورد حديثَيْن عن عائشة رضي الله عنها.

وحديث: "مكان النُّصح في الإسلام" [٣] أورد حديثَيْن عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه.

شرحه لمتن واحد في عدة مواضع:

وفي بعض الأحيان لا تَتَّسع الصفحات المحدودة في المجلة لشرح الحديث في حلقةٍ واحدة، فيشرحه في موضعين أو ثلاثة، وهذه مواطن الأحاديث التي شرحها في عددين فما فوق.

حديث: " صفة النبيِّ ﷺ في التوراة" شرحه في عددين [٤]. وهو حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: "إنه لموصوفٌ في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيها النبيُّ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً...".

حديث: "إبطال مزاعم الجاهلية" شرحه في ثلاثة أعداد [٥]، وهو حديث: "لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة..".

حديث: " خير القرون" شرحه في عددين [٦]، وهو حديث: "خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم...".

---

(١) في العدد الثاني من السنة السابعة والعشرين ١٣٧٥.

(٢) في العدد الثامن من السنة الثامنة والعشرين ١٣٧٦.

(٣) في العدد الأول من السنة التاسعة والعشرين ١٣٧٧.

(٤) في الثالث والرابع من السنة الخامسة عشرة ١٣٦٣.

(٥) في الثاني والثالث والرابع من السنة السادسة عشرة ١٣٦٤.

(٦) في العددين الأول والثاني من السنة السابعة عشرة ١٣٦٥.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

حديث: " البعوث في الإسلام " شرحه في عددين [(١)]، وهو حديث: "بشِّروا ولا تنفِّروا..".

حديث: "التطهير في الإسلام" شرحه في ثلاثة أعداد [(٢)]، وهو حديث: "بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا ...".

حديث: "خاتم النبيِّن" شرحه في ثلاثة أعداد [(٣)]، وهو حديث: "إنَّ مثلي ومثل الأنبياء من قبلي..".

حديث: "سيِّد الأزواج" شرحه في ثلاثة أعداد [(٤)]، وهو حديث عائشة رضي الله عنها: " ما غِرت على أحدٍ من نساء النبيَّ ﷺ ما غرت على خديجة..".

حديث: " عيد الجلاء الأول " شرحه في ثلاثة أعداد[(٥)]، وهو حديث: "انطلقوا إلى اليهود..".

وهذه النماذج كُلها التي امتدت لأكثر من حلقة هي شرح لحديث واحد فقط.

ومن منهجه في الشرح أن يكتب عدَّة أحاديث متنوِّعة في حلقات متتابعة يجمعها موضوع واحد.

مثل موضوع: "خصومة الأكابر" شرح تحت هذا العنوان عدَّة أحاديث

---

(١) في العدد العاشر من السنة التاسعة عشرة ١٣٦٧، والعدد الأول من السنة العشرين ١٣٦٨.

(٢) في الأعداد السادس والسابع والثامن من السنة الرابعة والعشرين ١٣٧٢.

(٣) في الأعداد الخامس والسادس والسابع من السنة السابعة والعشرين ١٣٧٥.

(٤) في الأعداد الثامن والتاسع والعاشر من السنة السابعة والعشرين ١٣٧٥.

(٥) في الأعداد الأول والثاني والثالث من السنة الثامنة والعشرين ١٣٧٦.

الجديد و حصري NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

مختلفة، فابتدأها بحديث اختصام عمر وأبي بكر رضي الله عنهما [(١)]، ثم حديث اختصام عبد الله بن الزبير مع خالته السيدة عائشة رضي الله عنهم [(٢)].

ثم يُتبعه بحديث: "الإصلاح بين الأكابر"، ويشرح حديث: " إنَّ ابني هذا سيِّد.." [(٣)].

ثم يُتبعه بشرح حديث: " اشْفَعوا تُؤْجروا " [(٤)] وهذه الأحاديث الأربعة كلُّها تدور في موضوع الخصومة والإصلاح بين المتخاصمين على تنوُّع موضوعاتها واختلاف متونها.

ومثل ذلك موضوع "**الجوار في الإسلام**" يشرح تحت هذا العنوان عدَّة أحاديث مختلفة، فيشرح حديث أم هانئ في إجارة مَنْ أجارتهُ رضي الله عنها[(٥)].

ثم يُتبعه بحديث: " مَنْ قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة..."، ووصية عمر للخليفة بعده: "وأُوصيه بذمّة الله وذمّة رسوله ﷺ أن يوفي لهم، وأن يقاتل من ورائهم..." [(٦)]. ثم يُتبعه بشرح حديث: " إنكم ستفتحون مصر.." [(٧)].

تخريج الأحاديث:

يخرِّج المؤلف الأحاديث بإجمال دون ذكر الكتب والأبواب، ولا سيما أنَّ

---

(١) في العدد الرابع من السنة الخامسة والعشرين ١٣٧٣.

(٢) في العدد الخامس من السنة الخامسة والعشرين ١٣٧٣.

(٣) في العدد السادس من السنة الخامسة والعشرين ١٣٧٣.

(٤) في العدد السابع من السنة الخامسة والعشرين ١٣٧٣.

(٥) في العدد الثامن من السنة الخامسة والعشرين ١٣٧٣.

(٦) في العدد التاسع من السنة الخامسة والعشرين ١٣٧٣.

(٧) في العدد العاشر من السنة الخامسة والعشرين ١٣٧٣.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أكثر الأحاديث التي انتقاها من الصحيحين أو أحدهما.

وقد يذكر في بعض الأحيان فروق الألفاظ كما في حديث: "الحب الإلهي"[١]: "إذا أحبَّ الله عبداً نادى جبريل..." قال: "رواه الشيخان غير أنَّ مسلماً انفرد بذكر الشطر المقابل: " وإذا أبغض عبداً دعا جبريل..".

كما يذكر في بعض الأحيان مواضع رواية الحديث.

ففي حديث: " عيد الجلاء الأول " [٢] يذكر مواضع رواية البخاري للحديث.. لينبِّه إلى دقَّته في تراجمِه، واستنْباطه المعاني الدقيقة الجمَّة من الحديث الواحد، إذ يُكرِّره في أكثر من موضع.

وفي حديث: "مكان النُّصح في الإسلام"[٣] يذكر رواية البخاري له ويحدِّد مواضعه، ثم يقول: "وإنما ذكرنا مواضعَهُ من صحيح الإمام البخاري تبْييناً لجانبٍ من فقه البخاري رحمه الله، ودقيق صُنعه في تكرير الحديث الواحد في غير موضع من كتابه، وتحقيقاً لرغبة المستزيدين من فقه الحديث وشرحه ".

ومثل ذلك في الإشارة إلى ألفاظ الحديث ومواضعه ما أشار إليه في "آخر الوصايا النبويَّة" [٤]، و"كيف يقبض العلم "[٥]، و " مدرسة الصيام" [٦].

ويلاحظ أن اهتمامه بهذا الجانب من ذكر مواطن الحديث والإشارة إلى دقَّة البخاري في تراجمه، جاء متأخراً، ولم يكن في السنوات الأولى من شرحه.

---

(١) في العدد الثالث من السنة الرابعة والعشرين ١٣٧٢.

(٢) في العدد السادس من السنة الثامنة والعشرين ١٣٧٦.

(٣) في العدد الأول من السنة التاسعة والعشرين ١٣٧٧.

(٤) في العدد السادس من السنة التاسعة والعشرين ١٣٧٧.

(٥) في العدد الثامن من السنة التاسعة والعشرين ١٣٧٧.

(٦) في العدد التاسع من السنة التاسعة والعشرين ١٣٧٧.

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

تفسير الحديث بالحديث :

يبدأ شرحه في بيان المفردات، ثم المعنى الإجمالي، ويشير إلى لطائف الحديث وأسراره.

ويشرح الحديثَ بالحديثِ، ويورد الرواياتِ المتعدِّدة التي تُبيِّن معناه.

ففي شرحه لحديث " خصومة الأكابر " [١]، يقول: " رواه البخاري في مناقب قريش، ورواه مطوَّلاً في باب الهجرة من أواسط كتاب الأدب. وفي الرواية المطوَّلة تفصيلٌ لكثير ممَّا أُجمل في هذه الرواية المختصرة استعنَّا به في الشَّرح ".

وفي حديث "سنة حسنة" [٢]يورد حديث جرير بن عبد الله ﷺ قال: " كنا في صدر النهار..." الذي رواه مسلم في كتاب الزكاة، وفي كتاب العلم، ويقول: "ومع أنَّ الرواية الثانية أخصرْ، ففيها فوائد مُتمِّمةٌ انتفعنا بِهَا في الشَّرح".

وفي حديث: "النساء في العهد النبويِّ" [٣]، يقول: " نستعين في شرح الحديث إجمالاً وتفصيلاً برواياته المختلفة، قَصْداً إلى الجمع والإفادة، وخيرُ ما فُسِّر الواردُ بالوارِدِ ".

الفوائد الحديثيَّة :

يشير في شرحه إلى بعض الفوائد الحديثيَّة، ومن ذلك: الفرق بين الحديث القدسي والقرآن الكريم في شرحه لحديث: "ظنّ العبد بربِّه" [٤].

---

(١) في العدد الخامس من السنة الخامسة والعشرين ١٣٧٣.

(٢) في العدد السابع من السنة الثامنة عشرة ١٣٦٦.

(٣) في العدد الثامن من السنة الثامنة عشرة ١٣٦٦.

(٤) في العدد العاشر من السنة السادسة عشرة ١٣٦٤.

الجديد والحصري NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

فَضْل خواصِّ أعلام الدين على عوام الصحابة :

كما يختار في بعض المسائل الاصْطلاحية كتفضيله خواصّ الأمة من أعلام الدين على عوامِّ الصَّحابة رضي الله عنهم.

يقول في شرح حديث "خير القرون" [١]: "والذي نختاره أنَّ هؤلاء – أي: عوام الصحابة ومَنْ ليس لهم فضيلةٌ إلا المُشَاهَدة – مع عظيم فضلهم، لا يستوون وخواصّ الأمة من أعلام الدين، وأئمة الهدى، والقائمين في الناس بالقسط، فإنَّا لا نستطيع أن نُسوِّي بعمر بن عبد العزيز مَنْ لا يملك من فَضْل السَّبق إلا صُحبةَ يومٍ أو بعض يوم " [٢].

كما أنه دافع عن الصَّحابة رضي الله عنهم، وبيَّن فضلهم ومنْزلتهم[٣]، ولا سيما أحفظ الصحابة للحديث: أبو هريرة ﷺ [٤].

تحرِّي الصحابة والتابعين في الرواية :

ويُشير في أكثر من من موضع إلى تحرِّي الصحابة والتابعين فيما يروون عن النبي ﷺ، وحرصهم على الأمانة والحيْطة، حتى ليروون اللفظة بصيغة الشك (أو) إن لم يَسْتَيْقنوها، تبرُّؤاً من شُبهة التحريف في كلام من لا ينطق عن الهوى. كما أشار إلى ذلك في حديث: " خير القرون" [٥]، وفيه قول عمرانَ بن

---

(١) في العدد الأول من السنة السابعة عشرة ١٣٦٥.

(٢) انظر الشواهد التي تؤيده فيما ذهب إليه عند شرحه لهذا الحديث ص٨٥٨ ـ ٨٦٠. وهذا المذهب الذي رجحه المؤلف هو مذهب ابن عبد البر الأندلسي.

(٣) في شرحه لحديث:"خير القرون" ص٨٥٥، وفي "الحبِّ الإلهي" في العدد الثالث من المجلد الرابع والعشرين ١٣٧٢. انظر: ص ٤٣٤ ـ ٤٣٦.

(٤) انظر شرحه لحديث:"مثل من الحيطة في رواية الحديث" في العدد الثامن من السنة التاسعة عشرة ١٣٦٧. ص ٢٢٩.

(٥) في العدد الثاني من السنة السابعة عشرة ١٣٦٥. ص٨٦٥.

الجديد و حصري NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

حُصَيْن ﷺ: " فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة ".

وكذلك في حديث "الجزاء من جنس العمل" [(١)]: " من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون أو يفرُّون منه " قال: " و (أو) في مثل هذا الموضع للشَّكِّ من الراوي في أيِّ الجملتين قال النبي ﷺ، وهي من دلائل التحرِّي في الرواية والعناية بضبطها، والمحافظة على ألفاظ الحديث ".

وقال أيضاً في "الإصلاح بين الناس" [(٢)] عند إيراد حديث أم كلثوم بنت عُقْبة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " ليس الكذَّاب الذي يُصلح بين الناس فيُنْمي خيراً أو يقول خيراً...": (أو) للشكِّ من الراوي في أيِّ اللفظَيْن قال النبي ﷺ، وهي تدلُّ كما قلنا في أمثالها على العناية والضَّبْط، وتحرِّي ألفاظه صلوات الله وسلامه عليه، وفي هذا أبلغ ردٍّ على مَنْ زَعَمَ أن الأحاديث المرويَّة بألفاظها قليلة معدودة ".

وقال عندما ساق حديث الاستخارة: " اللهمَّ إنْ كنتَ تعلمُ أنَّ هذا الأمر شرٌّ لي في ديني ومعاشي، وعاقبة أمري، (أو قال: عاجل أمري وآجله) فاصْرِفْهُ عني...

وإن كنت تعلم أنَّ هذا الأمر شرٌّ لي في ديني ومعاشي، وعاقبة أمري، (أو قال: عاجلِ أمري وآجله) فاصْرِفْهُ عني.. ".

قال: " و (أو) في الموضعَيْن للشكِّ من الراوي في أيِّ اللفظين قال النبيُّ ﷺ، ممَّا يدل على تمام التحرِّي والضَّبْط، ولذا قال بعضُ العلماء: يُستحبُّ للمستخير أن يجمع بين العبارتَيْن، ليصيب بيقينٍ، مقالةَ النبي ﷺ " [(٣)].

---

(١) في العدد السادس من السنة السابعة عشرة ١٣٦٥. انظر: ص٦٢٠.

(٢) في العدد الأول من السنة الثامنة عشرة ١٣٦٦. انظر: ص٥٥٤.

(٣) في العدد السادس من السنة الثامنة عشرة ١٣٦٦. انظر: ص٢٩٦.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وفي حديث: "دعاء واستعاذة" [١] يورد قول زَيْدٍ ﷺ: " لا أقول لكم إلاَّ كما كان رسول الله ﷺ ".

قال الأستاذ الساكت مُنبِّهاً على بعض فوائد الحديث: " منها: شدَّة الصحابة رضي الله عنهم في تحرِّي الرواية عن رسول الله ﷺ أخذاً من قول زيدٍ رضي الله عنه: لا أقول لكم إلاَّ كما كان رسول الله ﷺ يقول... ".

وفي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: أمرني رسول الله ﷺ - أو أمر - أن يُسْتَرقى من العين [٢]... قال: " و (أو) في الحديث لشكِّ الراوي: هل قالت أمُّ المؤمنين رضي الله عنها: أمرني رسول الله ﷺ بإضافة الأمر إليها. أو قالت: أمر.. من غير إضافة. وهذا الشكُّ – كما قلنا – في مناسبات شتَّى من أعظم الأدلة وأقواها على تحرِّي الرواة، وبلوغهم في ضَبْط الأحاديث والحرص على ألفاظها فضلاً عن معانيها مَبْلغ الذين ائتمنهم الله على دينه، فأقاموا الدين للهِ خالصاً، وأدوا أمانة الله كاملة غير منقوصة... "

كما نبَّه إلى كثير من الأحاديث الموضوعة، ومالا أصل له ممَّا اشتهر على ألسنة الناس.

ومن ذلك حديث: "نحن قوم لا نأكل حتى نجوع"، وانتهى إلى أنه صحيح المعنى غير ثابت اللفظ [٣]، وحديث: "اختلاف أمتي رحمة" [٤]، وحديث: "تخلَّقوا بأخلاق الله عز وجل" [٥].

---

(١) في العدد الثاني من السنة الرابعة والعشرين ١٣٧٢. انظر: ص٣٨٨.

(٢) العدد السابع من السنة الثلاثين ١٣٧٨. انظر: ص١٩٥.

(٣) في العدد السابع من السنة الرابعة عشرة ١٣٦٢، انظر حديث: الصحة والفراغ ص٤٧٥.

(٤) في العدد السابع من السنة الخامسة عشرة ١٣٦٣، انظر حديث: مثل من اختلاف الصحابة ص٨٧٣.

(٥) في العدد التاسع من السنة السادسة عشرة ١٣٦٤. وقد أفضت في تخريج هذا =

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وحديث: "دفن البنات من المكرمات"(١)، وحديث: "نيَّة المرء خيرٌ من عمله"(٢).

الجَمْع بين مختلف الحديث:

ويجمع في شرحه لبعض الأحاديث ما يُوهم ظاهرهُ التعارض.

مثل قوله ﷺ: " لا يُلدغ المؤمن من جُحْر مرتين"، وقوله ﷺ "المؤمن غِرٌّ كريم" (٣).

وطريقة التوفيق بين الروايتين في قوله ﷺ: "لا يُصلينَّ أحدكم العصر إلا في بني قُريظة" وهل كانت الصلاة عصراً كما روى البخاري، أم كانت ظهراً كما روى مسلم (٤)؟

وطريقة التوفيق بين حديث عليٍّ ﷺ: "كان آخر كلام النبيِّ ﷺ: **الصَّلاةَ الصَّلاةَ**"، وحديث عائشة رضي الله عنها: " إنه لم يقبض نبيٌّ قط حتى يرى مَقْعَدَه في الجنة، ثم غشي عليه ساعة، ثم أفاق، فأشخص بصره إلى السقف، ثم قال: " **اللهمَّ الرفيقَ الأعلى** " (٥).

الحديث والكلام عنه، ونقلت من كلام المؤلف ما لا تجده في غير هذا الكتاب، فانظره في: "دعاء الله بأسمائه" ص ٣٦٦ ـ ٣٦٨.

(١) في العدد التاسع من السنة الثامنة عشرة ١٣٦٦، وانظر تخريجي لهذا الحديث في "الإحسان إلى البنات" ص ٤٠٨ ـ ٤٠٩.

(٢) في العدد الثاني من السنة التاسعة عشرة ١٣٦٧. ومما ينبَّه إليه أنه يحيل في أكثر تخريجاته للأحاديث المشهورة إلى: "كشف الخفاء" للعجلوني.

(٣) في العدد الثامن من السنة السادسة عشرة ١٣٦٤، وانظر حديث: "كياسة المؤمن" ص٤٤٩.

(٤) في العدد السادس من السنة الخامسة عشرة ١٣٦٣، وانظر حديث: "مَثَل من اختلاف الصحابة" ص٨٦٩.

(٥) في العدد العاشر من السنة التاسعة والعشرين ١٣٧٧، وانظر حديث: "آخر الكلام النبوي" ص٧٨٠ ـ ٧٨١.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وطريقة الجمع بين الأحاديث التي تُثْبت العَدْوى كما يثبتها الطبُّ والواقع، والأحاديث التي تنفيها (١).

ودحض شبهة التعارض بين الأحاديث الصَّريحة في نفي الشُّؤْم، والتحذير منه، وبين الأحاديث الأخرى التي قد يفهم منها أنها تثبته (٢).

الإحالة إلى كتب وبحوث استوعبت شرح الحديث:

ومما يمتاز به شرحه للأحاديث الإيجاز المؤدِّي للمعنى المراد بعبارة جزلة رصينة، ويحيل في كثير من الأحيان على كتب وبحوث استوعبت شرح الحديث، ولا يعيد ما سبق ذكره خشية من الإملال والإثقال.

يقول في شرح حديث جابر بن عبد الله ﷺ في وصْفِه ﷺ بيت المقدس: "وليس من قصدنا أن نفصِّل أنباء هاتين الرحلتين، وما كان فيهما من أسرار وعجائب، ولا أن نُبيِّن زمنهما سنةً وشهراً وليلةً، ولا أن نعرض لما انْتَابهما قديماً وحديثاً من خلاف وآراء، وهل كانت يقظةً بروح النبي ﷺ وجسمه كما هو قول المحقِّقين من العلماء سَلَفاً وخلفاً، أو كانت مناماً، أو بالروح دون الجسم كما يرى شذوذ من الناس!! ليس هذا من قصدنا، فإن ذلك كله مدوَّن مسطور، خصَّه كثيرٌ من المؤلفين والباحثين بكتبٍ ورسائل، لم تَدَع قولاً لقائل. وإنما نقصد بعون الله إلى بيان شيءٍ من الحِكَم والأسرار في هاتين الرحلتين، وإلى موقف الناس منهما، ثم إلى بيان المنهج القويم إزاء معجزات الرسل كافَّة، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد".

---

(١) في "إبطال مزاعم الجاهلية" -١-، في العدد الثاني من السنة السادسة عشرة ١٣٦٤. وانظر ص ٢٠٤ من هذا الكتاب.

(٢) في "إبطال مزاعم الجاهلية" -٣-، في العدد الرابع من السنة السادسة عشرة ١٣٦٤. وانظر ص٢١٦ ـ ٢١٧ من هذا الكتاب.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وفي حديث: "العين حقٌّ" [١] يتكلَّم عن العين وإصابتها وتأثيرها بإذن الله تعالى، وعلاجها بالرُّقية الشَّرعية، ثم يقول: " وأكبرُ العلم أنَّ أجمع العلماء بياناً في ذلك كله صاحب "زاد المعاد" في الطب النبويِّ، وكَفَى وَشَفَى، ولم يدع زيادةً لِمُسْتزيد، ولا قولاً لقائل، ولقد هممت أن أُلخِّص هنا بيانه، ولكنِّي آثرتُ الإشارةَ على العبارة، والقَصْدَ على الإطالة.."

وفي شرحه لحديث "بلوغ الدعوة المحمديَّة" [٢] يتحدَّث عن حكم مَنْ بلغتهم الدعوة الإسلامية مشوَّهةً بالأباطيل والمفتريات، وَصِلة هذا البحث بأهل الفترة، ويقول: " لهذا الحديث صِلةٌ وثيقة بالبحث في "أهل الفترة"، وكنا وعدنا القرَّاء بأن نتحدَّث إليهم فيها، إجابةً لرغبات جاءتنا من العراق... غير أنا وجدنا مَنْ سبقنا إلى الإفاضة في هذا البحث قديماً وحديثاً، ممَّا يجعل كلامنا بعده حديثاً مُعاداً.

فإلى هؤلاء الذين رغبوا مُلحِّين أن نتكلَّم في أهل الفترة عامَّةً، وأبوي النبيِّ ﷺ خاصَّة، نسوق هذه المراجع السهلة اليسيرة:

١- روح المعاني، للعلامة الآلوسي العراقي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾.

٢- مجلة "الأزهر" في مجلدها الثامن ص ٦٠٦ في الدعوة إلى الله تعالى، وأهل الفترة، للأستاذ الجزيري مُحرِّر السُنَّة حينئذ.

٣- مجلة "لواء الإسلام" في جزئها الأول، جزء رمضان المبارك من عامنا هذا ١٣٧٤، وقد تناولت في ندوتها بحثاً في الدعوة والفترة مُستفيضاً. أما نحن فقد اكتفينا إذ كُفينا ".

---

(١) في العدد الرابع من السنة الثلاثين ١٣٧٨. انظر: ص ١٩٤ من هذا الكتاب.

(٢) في العددين ١٧ و١٨ من السنة السادسة والعشرين ١٣٧٤. انظر: ص ١٧٦ ـ ١٧٧.

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وعند كلامه عن حديث: " اجتماع الأنبياء على دين واحد "[١] يتحدَّث عن سنة التدرُّج في الشرائع الإلهية، ويُحيل لتتمة هذا البحث إلى حُجَّة الله البالغة، ورسالة التوحيد، وتفسير المنار في قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾.

وعند شرحه لحديث: " مثل من اختلاف الصحابة "[٢] يتحدَّث عن الخلاف الجائز في الفروع ويقول: ضَرَبْنا عن ذكر الأمثلة صَفْحاً؛ لأنها كثيرةٌ معروفةٌ في كتب الأئمة. انظر: "إعلام الموقعين"، و"حجة الله البالغة"، و"رسالة ابن تيمية في اجتهاد الصحابة والتابعين".

وعند شرحه لحديث: " أحبُّ الأيام إلى الله "[٣] ذكر فضل العشر من ذي الحجة، والخلاف في المفاضلة بينه وبين العشر الأخيرة من رمضان، وقال: انظر أول "زاد المعاد" في اختيار الله تعالى وتفضيله بعض الأشياء على بعض.

ويقول عند شرحه لحديث: "شَهْران لا ينقصان"[٤]: " بَسَطَ هذا البحث وَوَفَّاه بما لم يُسبق إليه صاحب "زاد المعاد" في أوَّله، فتزوَّد منه ".

ويقول عند شرحه لحديث: "كيف يُقبض العلم"[٥] مُبيِّناً شرفَ الفتوى ومكانتها وخطرها وجلالتها: انظر تفصيل هذا الإجمال في "إعلام الموقِّعين عن ربِّ العالمين".

منهجه في عرض الأحكام الفقهية :

اختار الشيخ الساكت أكثر أحاديثه التي شرحها فيما يرتبط بالمناسبات، وما

---

(١) في العدد الخامس من السنة الخامسة عشرة ١٣٦٣. انظر: ص١٢٣.

(٢) في العدد السادس من السنة الخامسة عشرة ١٣٦٣. انظر: ص٨٧٢.

(٣) في العدد العاشر من السنة الثامنة عشرة ١٣٦٦. انظر: ص٣٤٦.

(٤) في العددين ١٩ و٢٠ من السنة السادسة والعشرين ١٣٧٤. ص٣٣٦.

(٥) في العدد الثامن من السنة التاسعة والعشرين ١٣٧٧. ص٢٤٨.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

يتَّصل بالأخلاق والآداب والاجتماع، ولم يتعرَّض في اختياراته لأحاديث الأحكام، وقد يَعرض له أثناء شرحه للحديث بعض الأحكام الفقهية، فيتكلم عنها باختصار.

قال رحمه الله تعالى في شرحه لحديث : " وإذا حَلفْتَ على يمينٍ، فرأيت غيرها خيراً منها، فكفِّر عن يمينك وأْت الذي هو خير" تحت عنوان "وصيَّة نبوية" (١): " وللفقهاء هنا بحثٌ طويل في أيِّ الأمرين يقدَّم: التكفير أم فعل ما هو خير؟ وقد كفانا الإمام النووي المؤنة؛ إذ جمع أطراف المسألة رحمه الله.." وبعد نقله كلام الإمام النووي رحمه الله تعالى، قال: " وإذا جاز لنا أن نُقرِّب شقَّة الخلاف ذهبنا إلى ما ذهب إليه ابن القيم رحمه الله من تخيير الحالف: إن شاءَ قدَّم الكفارة على الحنث، وإن شاء أخَّرها؛ فالتقديم والتأخير كلاهما في روايات الصحيحين، وهي تقتضي عدم الترتيب، فالأمر واسعٌ ولا حَرَجَ فيه.

والذي يقصد إليه صاحبُ الشَّرع صلوات الله وسلامه عليه، ألا يَتَنطَّع مُتنطِّع بَدَرَتْ منه يمين، فيجعلها حائلاً دون البرِّ والتُّقى والإصلاح بين الناس. وأما طريق التحلُّل منها فسهل يسير.

وبعد؛ فلعل في هذه الإلمامة من الأحكام الفقهية التي تُستنبط من الحديث مَقْنعاً لأفاضل القرَّاء الذين يرغبون إلينا أن نبسط الأحكام الشرعيَّة في باب السنَّة، ونتوسَّع فيها إلى أمد بعيد، وعُذْرنا إليهم في الإيجاز أنَّ الأحكام مبسوطة في كتبها، مَيْسورة لراغبيها .

وأكبر العلم أنَّ من توسَّع في الأحكام قصَّر في نواحٍ مهمة من الأخلاق والآداب، والسياسة والاجتماع، ممَّا يجدر بخَلَف هذه الأمة أن يثيروها من كنوز السُّنَّة كما أثار سلفهم من قبل ثروتها الواسعة في الفقه والأحكام ".

---

(١) في العدد الخامس من السنة السابعة عشرة ١٣٦٥. انظر: ص٦٠٨.

شبكة الألوكة
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وعند شرحه لحديث ابن عمر رضي الله عنهما في "الصَّلاة سلاح النصر"[١]: " غزوتُ مَعَ رسول الله ﷺ قِبَل نجد، فوازَيْنا العدو، فصافَفْنا لَهُمْ، فقام رسول الله ﷺ يُصلِّي لنا، فقامت طائفة تصلِّي معه، وأقبلت طائفة على العدو ، وركع رسول الله ﷺ ركعتين، وسجد سجدتين، ثم انصرفوا مكان الطائفة التي لم تُصل، فجاؤوا، فركع رسول الله ﷺ بهم ركعة، وسجد سجدتين، ثم سلَّم، فقام كلُّ واحد منهم، فركع لنفسه ركعةً، وسجد سجدتين ". قَالَ بَعْدَ أن تكلم عن مكانة الصلاة في الإسلام، وعن واجب الإعداد للمعركة بتجهيز النفوس وتطهيرها بدعم صلتها بالله: " وَقَدْ صلَّى النبيُّ ﷺ هَذِهِ الصلاة - صلاة الخوف - في مواطن مختلفة، على صفاتٍ شتَّى، يتحرَّى في كلِّ موطن مَا هُوَ أحوط للصلاة، وأحفظ للجيش، وأبلغ في الحذر والحراسة ".

ثم قَالَ رحمه الله تعالى: " وَلَيْسَ يعنينا هنا أن نفصِّل كيفيات هَذِهِ الصلاة، فإنَّ لهذا التفصيل موضعه من كتب الحديث والفقه، وَإِنَّمَا الَّذي يعنينا أن نُنوِّه بالصلاة (سلاح النصر) تنويهَ الله بِهَا، ونعظِّمها تعظيم الله إيَّاها، في السِّلم والحرب، والفرح والكَرْب، .. ولا سيما في ساحة النضال، وميدان القتال، وأحرج سُوَيعات الفصل ".

ويحيل من يريد التوسُّع في الأحكام الفقهيَّة إلى المراجع التي اهتمت بذلك.

في حديث: "الجزاء من جنس العمل"[٢] يتحدث عن مفاسد التصوير في العقيدة والأخلاق والآداب، ويشير بإيجاز إلى حكم التصوير، ويحيل إلى ما كتب حول هذا الموضوع في مجلة "الأزهر" فيقول: "وقد كفتنا مجلة الأزهر مئونة البسط في أحكام التصوير وتفصيله، ولا نحب أن

---

(١) في العدد السادس من السنة الثامنة والعشرين ١٣٧٦. انظر: ص٢٩٣.

(٢) في العدد السادس من السنة السابعة عشرة ١٣٦٥. انظر: ص٦٢٥.

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

نعيد حديثاً".

وفي حديثه عن حكم القرعة عند شرحه لحديث: "مثل القائم على حدود الله" [(١)] يقول: "وقد وفَّى الكلام على القرعة وحكمها وكيفيتها ابن القيم في كتابه "الطرق الحكمية".

مراجعه في شرح الأحاديث:

وأما مراجعه في شرحه فهي متنوِّعة وكثيرة، ويصرِّح ببعضها ولا سيما "الفتح" للحافظ ابن حجر، و"شرح النووي على صحيح مسلم"، و "شرح المواهب" للزرقاني، و"زاد المعاد"، و"الإحياء" للإمام الغزالي...

وقد يذكر في بعض الأحيان المصادر التي استفاد منها في نهاية شرحه للحديث.

ففي خاتمة شرحه للحديث الثالث من أحاديث: "الجوار في الإسلام" [(٢)]: "إنكم ستفتحون مِصْر..." قال: من أهم مراجعنا في هذا الحديث بعد الصحيحين:

١- حُسْن المحاضرة ٢- الرسالة الخالدة للدكتور عبد الرحمن عزَّام.

٣- فتح العرب لمصر للدكتور بتْلر، ترجمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد.

وفي خاتمة شرحه لحديث: " الإصلاح بين الأكابر" [(٣)]: " إن ابني هذا سيِّد.." قال: من أهم مراجعنا في شرح هذا الحديث: كتاب "العواصم من القواصم" في تحقيق مواقف الصحابة، للقاضي أبي بكر العربي، بتحقيق السيِّد

---

(١) في العدد الثامن من السنة السابعة عشرة ١٣٦٥، انظر: ص٦٢٨.

(٢) في العدد العاشر من السنة الخامسة والعشرين ١٣٧٣، انظر: ص٦٠٣.

(٣) في العدد السادس من السنة الخامسة والعشرين ١٣٧٣، انظر: ص٨٩٧.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

محب الدين الخطيب.

أسلوبه وكثرة اقتباسه من الكتاب والسنة :

تمتاز الأحاديث التي شَرَحها بأسلوبه الرائع البليغ، وبيانه الأخَّاذ، وتوجيهاته التربويَّة، وتنوُّع الموضوعات التي اختارها من الأحاديث التي شرحها في العقائد والعبادات والأخلاق والسيرة والشمائل والمناسبات الإسلامية، والأحكام الشرعيَّة الفقهية.

كلُّ ذلك بأسلوب موجز ممتع، ولغة سهلة مشرقة، ولفتات تربوية رائعة، وومضات تاريخية نافعة..

ويكثر في شرحه من الاقتباس [١] من الكتاب والسنة[٢]، ولايكاد يخلو حديث من اقتباسه من آي الكتاب، أو أحاديث الرسول ﷺ.

---

(١) الاقتباس هو: " أن يُضمِّن المتكلِّمُ كلامه من شعر أو نثر كلاماً لغيره بلفظه أو بمعناه، وهذا الاقتباس يكون من القرآن المجيد، أو من أقوال الرسول ﷺ، أو من الأمثال السائرة، أو من الحكم المشهورة، أو من أقوال كبار البلغاء والشعراء المتداولة، دون أن يعزو المقتبس القول إلى قائله ". كما في "البلاغة العربية" للشيخ عبد الرحمن الميداني ٢: ٥٣٦.

(٢) سُئل العلامة محمد الخضر حسين: رأيناكم كثيراً ما تقتبسون من القرآن في مقالاتكم، فهل يجوز ذلك؟

فأجاب: نعم، ودليله قوله ﷺ: "الله أكبر خربت خيبر، وإنا إذا نزلنا بساحة قوم ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات: ١٧٨]". وقد ألَّف في جوازه قديماً أبو عُبيد القاسم بن سلام كتاباً جمع فيه ما وقع للصحابة والتابعين من ذلك بالأسانيد المتصلة إليهم، وألف فيه من المتأخرين داود الشاذلي (ت ٧٣٢)كراسة قال فيها: لا خلاف بين الشافعية والمالكية في جوازه، ونقله عن عياض والباقلاني، وقال: كفى بهما حجَّة غير أنهم كرهوه في الشعر خاصة. نعم، هو محرم في المجون والخلاعة وهزل الفساق وشَرَبَة الخمر، ولا ينبغي أن يختلف فيه " كما في مجلة "السعادة العظمى" ص ١٧١.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وانظر أمثلة لاقتباسه من القرآن الكريم في شرحه للأحاديث الآتية: "دعاء واستعاذة" ص ٣٨١ و ٣٨٢، "كياسة المؤمن" ص٤٥٢، و"من حسن إسلام المرء" ص٤٦٤، و"الصحة والفراغ" ص٤٧٥، و"من المروءات ستر العورات" ص٥١٥، و"الإصلاح بين الناس" ص٥٥٥، و"اشفعوا تؤجروا" ص٥٦٦، و"وصية نبوية" ص٦٠٧، و" تخيُّر العاملين" ص٦١٣، و"الجزاء من جنس العمل" ص٦٢٢، و"صفته في التوراة" ص٦٥٠، و"الجوار الأعظم" ص٦٨٠، و"بدل من الهجرة" ص٦٩١، و"رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه" ص٦٩٤، و"راية الإسلام" ص٧١٠، و"عيد الجلاء الأول" ص٧١٢ و٧١٥، و"آخر الكلام النبوي" ص٧٨٣، و"من صفات القائد" ص٧٩٢، و"خير القرون" ص٨٥٦ و٨٦٠، و" أخذ الله للظالمين" ص٩٢٢.

وانظر أمثلة لاقتباسه من الحديث النبوي [(١)] في الأحاديث الآتية: "عمل المرء لغيره" ص١٨٧، "عوْد إلى علاج العين" ص١٩٦، و"الرحلة في طلب العلم" ص٢٤١، و"أدب الدعاء" ص٣٦٠، و"دعاء واستعاذة" ص٣٨٤ و٣٨٩، و"الحب الإلهي" ص٤٣٤ و٤٣٧، و"بركة المسلم حياً وميتاً" ص٤٤٤، و"من حسن إسلام المرء" ص٤٦٣ و٥١٥، و"التماس رضا الله" ص٤٨٢، و"سنة حسنة" ص٥٠١، و"من المروءات ستر العورات" ص٥١١، و"اشفعوا تؤجروا" ص٥٦٥، و"خير القرون" ص٣٨٤، و"مثل من اختلاف الصحابة" ص٨٧٥، و"اتباع سنن السابقين" ص٩١٣، و"سبيل المؤمنين" ص٩٤٣ و٩٤٤.

عملي في هذا الكتاب:

وأما عملي في هذا الكتاب ـ وهو بين يدي القارئ الكريم ـ فهو يتجلَّى في الخطوات التالية: الجمع والترتيب، ثم الترقيم والتصحيح، ثم التخريج

(١) وقد قمت بتخريج جميع الأحاديث التي اقتبس منها دون أن يعزوها.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

والتعليق، ثم التقديم والفهرسة.

١- أما الخطوة الأولى في الجمع، فقد قمت بتصوير هذه المقالات من مجلة الأزهر، واجتهدت أن لا يفوتني منها شيء، وجمع المتفرِّق نوعٌ من أنواع التصنيف، ويحسب بعض الناس أن الأمر لا يحتاج إلا إلى نظرةٍ عابرةٍ في الفهارس وتصوير ما تيسَّر من المقالات..

والواقع أنَّ الجَمْع يحتاج إلى أناة وتتبُّع وتثبُّت وتحرٍّ، ثم مايتبع الجمع من عناية متعدِّدة النواحي...

٢- قمت بوضع العناوين الجانبية المضيئة للمعنى، والتي يقف عندها القارئ ليتهيَّأ لفهم ما سيقرؤه، وليختار من الموضوعات ما يناسبه، ثم قمت بترتيب هذه الأحاديث حَسَب الموضوعات، وقد جعلتها في عشرة فصول كما هو مُبيَّنٌ في الفهرس الإجمالي، وجعلتُ تحت كلِّ فصل ما يتعلق به من الموضوعات التي تترابط فيما بينها بوحدةٍ موضوعيَّة متآلفة.

٣- اعتنيتُ بعلامات الترقيم وسمِّها ـ إن شئت ـ: علامات التفهيم، وضبطتُ النصَّ بالشَّكل..

٤- وعَزَوْتُ جميع نقول المؤلف إلى مصادرها، وعلَّقت الكثير من الفوائد، واستدركت على المؤلف رحمه الله تعالى بعض الأوهام التي وقفت عليها برجوعي إلى المصادر الأصلية.

٥- خرَّجْتُ جميع الأحاديث النبويَّة، وبيَّنْتُ درجتها، واجتهدتُ في إعطاء خُلاصةٍ مركَّزة للقارئ تُغنيه عن الرجوع والبحث عن الأحاديث التي استشهد بِهَا المؤلف رحمه الله تعالى.

٦- وبعد أن انتهيْتُ من هذه الأعمال جمعاً وترتيباً وتصحيحاً وترقيماً وتعليقاً قمتُ بكتابة مُقدِّمة وافية، ترجمتُ فيها للمؤلف، وقد فصَّلت في الترجمة، واستوعبتُ الكثير من أخباره؛ لأنني لم أقف على ترجمة تُعرِّف به، فبقي مغموراً لدى جمهرة المشتغلين بالسنة النبويَّة، مع أنه خَدَم السنَّة تدريساً

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وتأليفاً، وأمضى عمره في الوعظ والدعوة والتعليم والتأليف... وأرجو أن أكون قد وُفِّقت في تقديم ترجمة وافيةٍ عنه.

ثم أتْبَعْتُ الترجمة بالتعريف ببعض آثاره العلميَّة ومقالاته المتنوِّعة، ثمَّ انتقلت للحديث عن منهجه في شرح الأحاديث النبويَّة في ركن السنَّة بمجلة الأزهر، ممَّا سبق تقديمه من صفحات، ثم صنعتُ فهارس متنوِّعة: فهرساً لأطراف الأحاديث، وفهرساً لأسماء الرواة من الصحابة، وفهرساً للكتب ومؤلِّفيها، وفهرساً إجمالياً للكتاب، ثم فهرساً تفصيلياً له.

وقد أجْهدتُ نفسي في خدمة هذا الكتاب، واستغرق مني وقتاً طويلاً، حتى خرج جامعاً – بفضل الله وتوفيقه – بين حُسْن المَظْهَر والمَخْبر...

ولعلَّ سائلاً يقول: لِمَ أجهدت نفسك، وأتعبتها في جمع هذه المقالات وترتيبها، والتعليق عليها، وخدمتها، ولو أنك قمتَ بشرحِ هذه الأحاديث استقلالاً على منهج ترتضيه، ونسبْتَهُ لنفسك، لكان أعوَدَ نفعاً، وأكثر فائدةً.

والجواب: " أنَّ إتمام بناء الآباء، خيرٌ مئةَ مرَّةٍ من إنشاء البناء من الأبناء، فضلاً عن أنه جزءٌ من الحقِّ الذي لهم علينا، والوفاء، فهم الأصل الأصيل، والنور الدليل، والفهم المستقيم، والعلم القويم، وما تركوا في آثارهم من بقايا فَجَوات طفيفة، لا يقتضي منا تخطِّيهم والإعراض عن آثارهم النفيسة" [١].

وأرجو أن أكون قد وُفِّقت في إتمام ما شادَهُ فضيلة الأستاذ الشيخ طه الساكت، وعرَّفت به الكثير من طلاب العلم، وقرَّبت هذا الكتاب ليكون مَنْهَلاً

---

(١) من كلمة كتبها أستاذنا العلامة المحقق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى في مقدمته لتحقيق كتاب "الرفع والتكميل في الجرح والتعديل " للكنوي ص ٦.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

عَذْباً للواردين، ومرجعاً سهلاً للخطباء والواعظين، ودرساً نافعاً للطلبة والمستفيدين..

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيِّه سيِّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

تمت كتابه هذه المقدمة ومراجعة الكتاب

بعد صلاة الظهر من يوم الخميس ١٣ من المحرم ١٤٢٥[١]

(١) يلاحظ بين تاريخ المقدمة الأولى المؤرخة في ٢٨ محرم سنة ١٤٢٤هـ والثانية مدة عام، وذلك لانشغالي بأكثر من عمل حال دون إنجاز هذا الكتاب في وقته المقدَّر له، إذ تعدَّدت جهودي في أعمال علمية كثيرة، ستصدر بإذن الله قريباً، ومنها: "المرشد الوجيز إلى تدبر الكتاب العزيز"، و"الندوات القرآنية" في ثلاث مجلدات، و"فتاوى محمد أبو زهرة " في ثلاث مجلدات، و"زهرة التفاسير"، و"التفسير المكي" للخطاط الشيخ محمد طاهر الكردي المكي، بعنايتي. والله وحده هو الموفق والمعين لإتمام الأعمال، وتحقيق الآمال.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفصل الأول

العقيدة والغيبيَّات

١ـ شعب الإيمان.

٢ ـ دين الفطرة.

٣ ـ اجتماع الأنبياء على دين واحد.

٤ ـ خاتم النبيِّين ﷺ (١ ـ ٤).

٥ ـ جزاء الصَّالحات (١ ـ ٤).

٦ ـ بلوغ الدعوة المحمدية.

٧ ـ عمل المرء لنفسه.

٨ ـ عمل المرء لغيره.

٩ ـ العين حقٌّ.

١٠ ـ علاج العَيْن.

١١ إبطال مزاعم الجاهليَّة (١ ـ ٣).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

شُعَبُ الإيمان *

١ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمانُ بِضعٌ وسَبعُونَ ـ أو بِضعٌ وستُّون ـ شُعبةً، فأفضَلُها قولُ: لا إله إلا الله، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطَّريق؛ والحياءُ شُعبةٌ من الإيمان». رواه الشيخان واللفظ لمسلم[١].

زاحمني في الكتابة على هذا الحديث رئيسُ تحرير هذه المجلة في جزئها السابق؛ فبينا أنا ماضٍ في إعداد العُدَّة لشرحه، ووقفِ النظر والفكر والجهد له، طلعت علينا المجلة بمقالته المؤمنة الصادقة الخيِّرة.. فما أن قرأتُها حتى أزمعتُ الكتابة في حديثٍ غيره.. بَيْد أنه ـ وقد عتبتُ عليه في هذه المزاحمة ـ أقنعني بالمُضيِّ في تبيان هذا الحديث الجامع، الذي يعدُّ بحقٍّ أساساً للدين كلِّه فرائضهِ وشرائعه، وحدودهِ وسننِه؛ وينبوعاً قوياً فياضاً لبيان رسول الله ﷺ وهديه[٢].

المنهاج النبويُّ في التربية

أنزل الله إلى نبيِّه الذكر ليبيِّن للناس ما نُزِّل إليهم، وقد فعل؛ فبيَّن لهم، وعلَّمهم كلَّ ما يحتاجون إليه ممَّا فيه سعادتُهم ومجْدُهم وارتفاع درجاتهم في

---

* مجلة الأزهر، العدد الثاني، المجلد الخامس والعشرون (١٣٧٣).

(١) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) كلاهما في الإيمان.

(٢) ولجلالة شأن هذا الحديث صنَّف العلماء في شرحه وتعيين شعبه كُتباً كثيرة، ومنها: كتاب «شعبُ الإيمان» للحافظ الفقيه أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي المتوفَّى سنة (٤٥٨) ألَّفه في ستِّ مجلَّداتٍ؛ ثمَّ اختصره أبو جعفر عمر القزويني المتوفى سنة (٦٩٩) وطبع المختصر مرتين بالمطبعة المنيرية (طه).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الدنيا والآخرة. لم يَدَع شأناً من شؤون العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق والبرِّ والتُّقى في الحِلِّ والتَّرحال، والمطْعَم والمشْرب والملبس والمنكح، والنوم واليقظة، والاجتماع والانفراد، حتى دخول الخلاء والخروج منه، إلا بيَّنه بياناً شافياً ... فكان من بيانه وهديه هذا المنهاج المنير، وتلك التربية القوية المُثْلى الصَّالحة لكلِّ زمان ومكان، ولكلِّ جيل وقبيل، تلك التي لو اجتمعت الإنس والجنُّ على أن يأتوا بمثلها، لا يأتون بمثلها، ولو كان بعضُهم لبعض ظهيراً.

وكانت طريقتُه ﷺ في هذا المنهاج أمثلَ طرائق التعليم والتربية، ممَّا يدع المعلمين والمربِّين مشدوهين متسائلين حَيارى: أنَّى لهذا الأمي تلك الطريقة العجيبة في التقويم والتربية؟!.

نعم، إنه لم يتلقَّ علماً من بشر، ولم يجلس ـ حياته ـ بين يَدَي مُرَبٍّ ولا معلِّم، ولكن علَّمه العليم الخبير الذي وَسِع كلَّ شيء علماً، وجلس بين يدي الرُّوح الأمين، بأمر ربِّ العالمين، حتى أتمَّ هذا المنهاج الذي أعجز الأوَّلين والآخرين أن يأتوا بمثله، أو أن يجدوا سعادتهم ـ حتى الدنيوية منها ـ في غيره!!.

البيان الإجمالي والتفصيلي

ومن منهاج هذه الطريقة المُثلى: أن يحدِّث أصحابه بمثل هذا الحديث الجامع، ثم يفصِّله بعض التفصيل بمثل حديث جبريل في سؤاله عن الإسلام والإيمان، والإحسان، ثمَّ عن الساعة.. فيجيبه صلوات الله وسلامه عليه بأمَّهات هذه الشعب البضع والسبعين.. ثم يقول لهم: «هذا جبريلُ عليه السلام أتاكم يعلِّمكم دينكم»[1].

(١) أخرجه مسلم (٨).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أمُّ السنة

وحديث جبريل من الشُّهرة بالمكان الذي لا يجهلُه أحدٌ، وقد جمع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة: من عقود الإيمان، وأعمال الجوارح، وإخلاص السرائر، والتحفُّظ في الأعمال، حتى سُمِّي ـ بحقٍّ ـ أم السنة، كما سُمِّيت الفاتحة بأمِّ الكتاب.

ثمَّ يفصِّل حديثَ جبريل ويبسطه، في هديه وتعليمه وإرشاده، وشرحه لهذه الشعب في مختلف المقامات والمناسبات.

حَصْر الشُّعب وتحديدها

وقد جَدَّ كثير من العلماء وتكلَّفوا حَصْر هذه الشُّعب وتحديدها ... ولخَّصها صاحب «الفتح» في تسع وستين خَصلة طباقاً لإحدى روايتي الحديث، ثم قال: ويمكن عدُّها تسعاً وسبعين خصلة باعتبار إفراد ما ضمَّ بعضه إلى بعض[١].. أيريد بهذا مطابقةَ الخصال للرواية الثانية. وكلتا الروايتين واردة في الصحيح؟!

ولا تخرج هذه الشعب ـ كما قال صاحب «الفتح» ـ عن أعمال القلب، وأعمال اللسان، وأعمال البدن.

فأعمال القلب: المعتقدات والنيَّات، وتشتمل على أربعٍ وعشرين خصلة، أعلاها إيمانٌ بالله وتوحيده وتنزيهه؛ وأنه ليس كمثله شيء.. وعن التوحيد يصدر كلُّ خير.

وأعمال اللسان: سبع منها: الدعاء، والذكر، والاستغفار، واجتناب اللَّغو.

وأعمال البدن: ثمان وثلاثون، منها التطهير حسًّا وحكماً، ومنها: إطعام

---

(١) الفتح١: ٦٨، ٦٩.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الطعام، وإكرام الضيف، ومنها: تربية الأولاد، وصِلة الرحم، ومنها: ردُّ السلام، وتشميت العاطس، وكفُّ الأذى عن الناس، واجتناب اللَّهو، وإماطة الأذى عن الطريق.

من عجائب التربية النبوية

وأيّاً ما كان الأمر، فقد اكتفى النبيُّ بذكر أفضلها وأعلاها، وأيسرها وأدناها، ثم بذكر شعبةٍ من أمَّهاتها تبعث عليها وتيسِّر الطريق لها. وهذا الإجمال من عجائب التربية النبوية؛ فإنه صلوات الله وسلامه عليه لو فصَّل الشُّعب وعدَّها، وهو قادرٌ على عدِّها، لَشقَّ على أمته، ولسدَّ عليهم طريق الاجتهاد فيها، ولَوقفوا عند الذي عدَّه وفصَّله، مع أنَّ كثيراً منها يُراد منه نوعُه ومثيله، لا عينه وذاته، ويتجلَّى ذلك في نوافل الخير وأعمال البرِّ، وهي كثيرةٌ لا تحصى، كما يتبيَّن في آفاتٍ من الشرِّ لم تكن معروفةً في عهده ﷺ، فتفصيل هذه الشعب ـ فضلاً عما فيه من الإضْجَار والإملال ـ يوقعُ في حَيْرةٍ لا فكاك منها! ثمَّ في اختلاف لا رحمةَ فيه، ولا ثمرة منه!.

مفتاح شُعَب الإيمان

بدأ ﷺ بمفتاح هذه الشُّعب التي لا يقبل شيءٌ منها إلاَّ به، وهو كلمة التوحيد، وليس المراد مجرَّد النُّطق بها، وإلاَّ كان المنافقون وكثيرٌ من الكافرين، من أهل الإيمان ... إنما المراد النطق المُنْبعث عن الإيمان بالله وربوبيَّته، والطُّمأنينة، التي لا تَشُوبها شائبةُ ريبة في وحدانيته، الإيمان الذي خالطت بشاشتُه القلوب، ومَلأت حلاوتُه النفوس، فطربت الألسنة بالشهادة الخالصة، وتحرَّكت الجوارح بالأعمال الصالحة.

ونظير هذا، قولُه ﷺ لسفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه حينما قال له: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك، قال: «قل:

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

آمنت بالله، ثم استقم»(١).

لم يقل له: آمن بالله؛ لأن الإيمان بالله ـ وإن كان أساسه التصديق الذي لا شكَّ فيه ـ يتفاوت بحسب مراتب اليقين والطمأنينة، ومَحَالٌ أن تكون مرتبة عوام المؤمنين، كمرتبة النبِّيين والصِّدِّيقين، ولا شكَّ أنَّ النبيَّ ﷺ يريد هنا الإيمان الكامل، الذي يفيض على اللسان، فينطق بكلمته صادقاً موقناً، ثم يفيض على الجوارح، فتعمل الصَّالحات راضيةً مطمئنةً، وهذا شأن المؤمنين الصادقين، الذين قالوا: ربُّنا الله، ثمَّ استقاموا.

أدنى مراتب شُعَب الإيمان

وقفَّى صلوات الله وسلامه عليه بذكر إماطة الأذى عن الطريق؛ ليبيِّن أنَّ إزالة الضَّرر عن المارَّة كبيراً كان أو صغيراً، ولو غُصْن شوك، من شُعَب الإيمان التي لا ينبغي الاستهانةُ بها؛ فقد يكون فيها رضا الله عزَّ وجل.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يمشي بطريق، وجد غصن شوك على الطريق، فأخَّره، فشكر الله له فغفر له»(٢)؛ ثم ليبيِّن أنَّ هذه الشُّعب على مراتب مختلفة، ودرجات متفاوتة، لكنَّ الذي يقدِّرها، ويُحصي ثوابها هو الله عز وجل.

مكانة الحياء من شعب الإيمان

وختم الحديث صلوات الله عليه بشعبةٍ من أمَّهات الشُّعب وأجلِّها، وهي الحياء.

وإنما اختاره ﷺ ختاماً؛ لأنه يحضُّ على الشُّعب جميعها، ويتّجه بصاحبه

---

(١) أخرجه مسلم (٣٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٢)، ومسلم (١٩١٤).

الجديد والحصري NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وِجْهَة الخير والاستقامة، ثمَّ هو حِلْية الأخلاق وزينتها، وماء الحيوية الذي يترقرق فيها[١]، بل هو خُلق هذه الحنيفيَّة السَّمْحة، كما روى مالك عن زيد بن طلحة بن رُكانَةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ لكلِّ دينٍ خُلُقاً، وخُلُق الإسلام الحَيَاءُ»[٢].

فكأنه ﷺ يشير بهذا الختام العجيب إلى أنَّ الحياء مُهَيْمنٌ على هذه الشُّعب ومُسَيْطرٌ عليها، فلن يُقْبل منها، أو لن يكون واقعاً موقع الكمال والرِّضا إلاَّ ما اتَّسم بسيما الحياء، فمن هنا يخرج المنافقون والمراؤون والكذَّابون الذين يتظاهرون بعمل الصَّالحات، وهم عنها مُبْعدون.

الحياء الشرعي المحمود

ومن هنا يَسْتبين لمن تأمَّل، أنَّ المراد الحياء الشرعي المحمود الذي يبعث على اجتناب القبيح، ويمنع من التقصير في حقِّ ذي الحق.

وأما الحياء الذي يحمل صاحبه على الإخلال بالحقوق والتقصير في الواجبات، فليس حياءً في حقيقة الأمر، وإنَّما هو عَجْزٌ ومَهَانةٌ وخوَر، وإن سُمِّي بالحياء مَجَازاً، لمشابهته له؛ وليس هذا مراداً في الحديث البتَّة، كما أنه ليس المراد الحياء الغَرَزي، وإنما المراد الحياء المكتسب الذي يستعمله صاحبه على قانون الشرع، لا يختلف عنه.

الحياء من الحياة

قال العلماء: والحياء مشتقٌّ من الحياة، فهو من قوَّة الحِسِّ ولطفه، وعلى

---

(١) تلميح واقتباس من المقالة التي أشرنا إليها أولاً(طه).

(٢) رواه مالك في الموطأ ٢: ٩٠٥، ورواه ابن ماجَه (٤١٨١) وغيره عن أنس مرفوعاً، ورواه أيضاً من طريق صالح بن حسان عن محمد بن كعب القرظي عن ابن عباس قال: قال: رسول الله ﷺ فذكره.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

حسب حياة القلب، ولُطف الحسِّ يكون الحياء قوةً وضعفاً.

وذكر الماورديُّ في «أدب الدنيا والدين» أنَّ الحياء في الإنسان قد يكون على ثلاثة أوجه: حياؤه من الله تعالى، وحياؤه من الناس، وحياؤه من نفسه.. وبيَّنها كلها، ثم قال: فمتى كمُل حياء الإنسان من وجوهه الثلاثة، فقد كملت فيه أسباب الخير، وانتفت عنه أسباب الشرِّ، وصار بالفَضْل مشهوراً، وبالجميل مذكوراً[١].

وأما ابن القيم في «مدارج السالكين» فقد ذهب ـ ولله درُّه ـ إلى أنَّ الحياء عشرة أوجه[٢]، ثم فصَّلها تفصيلاً ... وقد نعرض لها كلها أو بعضها لمناسبة «الحياء النبوي»، الذي نرجو أن يكون موضوع حديثنا في الجزء الآتي بمشيئة الله تعالى ومعونته وتوفيقه[٣].

* * * * *

---

(١) أدب الدنيا والدين ص١٨١ ـ ١٨٢.

(٢) مدارج السالكين ٢ :٢٦١_٢٦٣.

(٣) انظره في «الحياء النبويِّ» ص٨٠٣ ـ ٨١٢.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

دين الفطرة *

٢ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ مولود يولد على الفطرة؛ فأبواه يُهوِّدانه، أو يُنصِّرانه، أو يُمَجِّسانه؛ كَمَثَلِ البهيمة تُنتَجُ البهيمَةَ، هل ترى فيها جَدْعاء»؟ رواه الشيخان(١).

ليس بِدْعاً من الأمر أن نتصرَّف في اختيار الأحاديث النبويَّة، تِبعاً لتصرُّفه صلوات الله وسلامه عليه، في ضروبِ العلم والحكمة، وفنونِ التزكية والهداية؛ فقد آتاه الله الكتاب ومثلَه معه، وجَمَعَ له فيهما، من علوم الأوَّلين والآخرين، ما يكفل بعضُه السعادة العليا للناس أجمعين: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾(٢).

المفردات:

الفِطْرة: أصل الفِطرة الشقّ، ثم أُطلق على الابتداء والاختراع؛ والفطرة: هيئة الخلق وحاله. والمراد بها في الحديث: ما فطر الله عليه الخلق، من معرفته والإقرار به.

يُهَوِّدانه؛ أو يُنَصِّرانه، أو يمجِّسانه: أي يَجْعلانه يهودياً، أو نصرانياً، أو

* مجلة الأزهر، العدد الثامن، المجلد الرابع عشر، شعبان (٥) (١٣٦٢).

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٥) في الجنائز، ومسلم (٢٦٥٨) في القدر.

(٢) سورة النساء: ١١٣.

شبكة الألوكة
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

مجوسياً، بالتعليم والتلقين.

واليهود: مِن هادَ الرجل، إذا رجع وتاب، وإنَّما لزمهم هذا الاسم لقول موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾[(١)].

والنَّصارى: أُمَّة المسيح ابن مريم عليه السلام؛ سُمُّوا بذلك لأنّهم نصروه أو نصر بعضُهم بعضاً. وقال الجوهري: أُخِذَت هذه التسمية من قرية «ناصرة» التي أقام بها عيسى عليه السلام.

والمجوس: قومٌ يعبدون الشمس والقمر والنار، واقتصر بعضُهم على وصفهم بعبادة الشمس والقمر، وآخرون على وصفهم بعبادة النار. وهم طوائف، يُثبتون أصلَين اثنين مدبِّرين قديمَيْن، يقْتَسِمَان الخير والشر؛ يسمّون أحدهما النور، والآخر الظلمة.

البهيمة: هي كلّ ذات أربع قوائم ولو في الماء؛ أو كلّ حي لا يميِّز.

تُنتَج: يقال نَتِجَت الناقة، فهي منتوجة، وأنتجت فهي مُنتجة، إذا وَضَعَت.

جَدْعاء: جدع الأنف قطعه؛ وكذا الأذن، واليدَ، والشفة، وَجُدِعَ البعير: قُطع فهو أجدع، وجُدِعَت الناقة فهي جدعاء.

* * * * *

معرفة الله وتوحيده

فطر الله الناس جميعاً على معرفته وتوحيده ودينه الحق، وأعدَّهم لقَبوله؛

---

(١) سورة الأعراف: ١٥٦.

الجديد و طرح NEW & EXCLUSIVE

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فما يُولد مولود إلا وهو مُستعدٌّ لهذا الدين الحنيف حتى لو تُرِك وشأنه، لما ابتغى غير الإسلام ديناً؛ ذلك بأنه مُجَاوِبٌ للعقل السليم، مُسَاوِقٌ للنظر المستقيم، مُشَاكِلٌ للطبائع النقيَّة والنفوس الزكيَّة التي كُتب لها أن ترقى في مراقي الكمال، ويصدِّقُ هذا قولُ الله جلَّ ثناؤه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١].

المراد بولادة المولود على الفطرة

وَجَليٌّ أن ليس المراد بولادة الطفل على الفطرة، أنه حين يخرج من بطن أمه يعلم هذا الدين الحق، إنما المراد أنَّ كلَّ مولود فإنه يولد على محبَّته لفاطِره، وإقراره له بالربوبية، حتى إذا خُلِّي ونفسه لم يعدل عن الإسلام إلى غيره؛ وذلك كما يولد على محبته لما يلائمه من الأغذية والأشربة، وعلى اهتدائه إلى ما ينفعه ودفع ما يضره.

لم اقتصر ﷺ على الأبوين في إضلال الطفل؟

ولا يزال الطفل نزَّاعاً إلى الخير، سائراً في طريق الهدى حتى يصلَ إلى الكمال المُقَدَّرِ له، ما لم تُصبه القوارع، وتصرفه عن الحق الصَّوارف؛ من وليٍّ يُضلّه، أو بيئةٍ تفسده، أو شيطانٍ من شياطين الإنس والجنِّ يستهويه، فيهلكه.

وإنما اقتصر ﷺ على الأبوين في إضلال الطفل وإفساد فطرته ـ بالتهويد والتنصير والتمجيس ـ؛ لأنهما أسبق الناس إلى رعايته والقيام عليه.

من روائع التشبيه

ومن روائع التشبيه أن يمثِّل النبيُّ ﷺ الطفل المسكين ـ وقد جنى عليه أبواه

---

(١) سورة الروم: ٣٠.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

هذه الجناية النكراء ـ بالبهيمة؛ ينتجها أهلها تامَّة الخَلْق، ثم يَعدون عليها. فَيَجْدَعُونها، ويُغيِّرون خِلْقَتَها.

العبرة بالإيمان الشرعي

ولا يعزبنَّ عن الفؤاد أنه لا عبرةَ بهذا الإيمان الفطري في أحكام الشريعة الغرّاء، وإنما العبرة بالإيمان الشرعي المكسوب بالنظر والاختيار؛ ولهذا توارث الكفار وأبناؤهم الذين لم يبلغوا الحلم؛ لأنهم ـ وإن أسلموا إسلاماً فِطرياً ـ لم يسلموا إسلاماً شرعياً يُعتدُّ به.

السرُّ في إسلام الكثير من الأجانب

ولقوَّة هذا الدين ومتانته لا نزال نلمس سلطانَه على النفوس ـ وإن تبدَّلت ـ أثراً ظاهراً؛ ولعلّ هذا هو السرُّ في إسلام الكثير من الأجانب عنه، رجوعاً إلى فطرتهم الأولى، على حين لا يرتدُّ سخطةً لدينه من خالطت بَشَاشة الإسلام قلبَه.

هل جميع الأطفال وُلدوا على الفطرة؟

وبعد؛ فهل العموم المستفاد من القضية الكليَّة مرادٌ في الحديث؟ وبعبارة أوضح: أوَلَدُ آدم كلهم هُيِّئوا للإسلام وأُعِدُّوا له؛لم يشذَّ منهم أحد، أم أنّ فيهم من وُلد غير قابل له؟ سؤالٌ مهمٌّ، لا ينبغي أن نجاوز هذا المكان قبل أن نجيب عنه.

لقد ذهب إلى الرأي الأول أكثر العلماء؛ ولكنَّ الذي يطمئن له القلب، ويشهد به الحسّ، وتعضده دلائل النقل والعقل، هو الرأي الثاني؛ وأنَّ من بني آدم من ولد مطبوعاً على الكفر، نائياً عن الحقِّ غير مُهيَّأً له، ولكنه شاذ نادر لا يضر عموم الحكم في شيء. على أنَّ صيغة «كل» تُستعمل أحياناً بمعنى الكثير الغالب.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وبهذا التأويل اليسير نُجيب عن مثل غلام الخضر، الذي جاء في مسلم[١] «أنه طُبع على الكفر، ولو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفراً»، وبهذا التأويل نقضي على شبهاتٍ ثائرة، وهواجس مُتَردِّدة حائرة، وسبحان من لا يُسأل عن ما يفعل؛ ومَنْ لو شاء لآتى كلَّ نفس هُداها.

تحديد المراد بالفطرة

أجملنا القول في المراد بالفطرة، ثم أحببنا أن نفصِّله هنا بعض التفصيل؛ إذ أنَّ الفطرة هي أساس البحث في علوم النفس والتربية، والأخلاق والاجتماع.

اختلف العلماء في تحديد المراد بالفطرة، وأشهرُ الأقوال وأصحُّها ـ وهو الذي اعتمدنا عليه في معنى الحديث ـ أنَّ المراد بها الإسلام.

قال ابن عبد البَر: إنه المعروفُ عند عامة السَّلف، وأجمع أهلُ العلم بالتأويل على أن المراد بقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[٢] الإسلام، واحتجُّوا بقول أبي هريرة في بعض روايات الحديث: اقرؤوا إنْ شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ الآية. وقد قدَّمنا أنَّ معنى ولادةِ الطفل على الإسلام: استعداده له، فلسنا إذاً بحاجة إلى أن نعدَّ هذا رأياً ثانياً.

وذهب قومٌ إلى أنَّ المراد بالفطرة: العهد الذي أخذه الله تعالى من بني آدم حين أشهدهم على أنفسهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾[٣].

والحقُّ أنَّ هذا ـ كما قال صاحب «الكشاف»[٤] ـ من قبيل التمثيل

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦١) في كتاب القدر.

(٢) سورة الروم: ٣٠.

(٣) سورة الأعراف: ١٧٢.

(٤) الكشاف، للزمخشري ٢: ١٧٦.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

والتصوير، ومعناه: أنه نَصَبَ لهم الأدلة على ربوبيَّتِه ووحدانيَّتِه، حتى شَهِدَت أبصارُهم وبصائرهم، وميَّزت بين الضلال والهدى، والحق والباطل، فكأنَّه أشهدهم على أنفسهم، وكأنهم قالوا: بلى؛ وهذا القول قريب من سابقه.

ورجَّح ابن عبد البر أن المراد بالفطرة: الخِلقة، أي: يولد سليماً لا يعرف كفراً ولا إنكاراً، ثمَّ يعتقد إذا بلغ الحُلُم.

وقال ابن المبارك: إنَّ المراد أنه يولد على ما يصير إليه من شقاوةٍ أو سعادة، فكأنه أوّل الفطرة بالعلم، وهو مردودٌ بأنه لو كان كذلك لم يكن لقوله: «فأبواه يهوِّدانه...» معنى؛ لأنهما فعلا به ما هو الفطرة التي ولد عليها[١].

سبب ورود الحديث

وإذا كان سبب ورود الحديث مُرجِّحاً للمراد ـ إن لم يكن نصًّا فيه ـ فقد روى الإمام أحمد وغيره في سبب هذا الحديث أنَّ النَّبيَّ ﷺ بعث سريَّةً، فأفضى بهم القتل إلى الذرِّيَّة، فقال لهم: «ما حملكم على قتل الذرِّيَّة؟» قالوا: يا رسول الله! أليسوا أولاد المشركين؟ قال: «أوَليس خياركم أولاد المشركين؟» ثمَّ قام النبيُّ ﷺ خطيباً، فقال: «ألا إنَّ كل مولودٍ يولد على الفطرة حتى يُعرب عنها لسانها»[٢].

فهذا دليلٌ على أنهم ولدوا غير كفار، ثم طرأ عليهم الكفر بعد.

---

(١) بقيت آراء أخرى في «شفاء العليل» لابن القيم، وفي كتاب الجنائز، من «فتح الباري» لم نجد حاجة إلى ذكرها (طه).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» ٣: ٤٣٥ (١٥٥٨٨) من حديث الأسود بن سريع. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٥ :٢١٦ : رواه أحمد بأسانيد، والطبراني في «الكبير» (٨٣٣)، و «الأوسط» (٢٠٠٥)، وبعض أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

نزعات الفطرة و اتِّجاهاتها

وكما اختلف العلماء في معنى الفطرة، اختلفَ المربُّون في نزعاتها واتجاهها. فمنهم من ذهب إلى أنها خيرٌ محض، ومنهم من ذهب إلى أنها شرٌّ محض، ومنهم من رأى استعدادها للخير والشر جميعاً، ومنهم من رأى خلوَّها منهما جميعاً.

والذي يشير إليه الحديث ـ وهو ما رجَّحناه من قبل ـ أنَّ النفوس في جبلَّتها إلى الخير أميَل، ما لم تعرضْ لها الآفات وتصرفْها الصوارف(١).

حكم من مات من غير أطفال المسلمين

ومن هنا رجَّح المحقِّقون من العلماء نجاةَ مَنْ مات من أطفال غير المسلمين، خلافاً لمن قال: هم مُلحقون بآبائهم، وخلافاً لمن توقَّف في شأنهم.

قبول النفوس للتغيير والتهذيب

وفي قوله: «فأبواه يُهَوِّدانه» إلخ دليلٌ على قَبول الفطر للتغيير والتهذيب، واستعداد النفوس للتعليم والتأديب، خلافاً لمن قاس الخُلُقَ على الخَلْق، والصورةَ الباطنة على الصورة الظاهرة، وزعم أنَّ الأخلاق لا يُتصوَّر تغييرها البتة. وقد عقد الغزالي لتغيير الأخلاق بالرياضة فصلاً ممتعاً في كتاب رياضة النفس من «الإحياء»؛ لم يدع مقالاً لقائل(٢).

---

(١) للأستاذ الكبير محمد فريد وجدي صفحات ممتعة، في تقسيم الفطر واستعداد النفوس للعقيدة السليمة، أو عدم استعدادها، من كتاب «الإسلام في عصر العلم» (طه).

(٢) إحياء علوم الدين ٣: ٥٦ بيان قبول الأخلاق للتغيير بطريق الرياضة.

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

من فوائد الحديث

وفي الحديث: تقدير للأسباب، وأنها لا تُنافي قضاءَ الله وقدَرَه، وكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلق له.

وفي الحديث: إشارة إلى وجوب العناية بأمر الأطفال منذ الولادة إلى أن يبلغوا الحُلُم.

وفي الحديث: رمزٌ إلى يُسْر هذا الدين وسَمَاحته، وأنَّ الأنبياء وَرَثةُ الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم إذ يدعون عباد الله إلى الله، ويخرجونهم من الظلمات إلى النور؛ فإنما يعيدون الفطر سيرَتها الأولى، ويرفعون النفوس إلى محلِّها الأرفع.

* * * * *

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

اجتماع الأنبياء على دين واحد*

٣ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة؛ والأنبياء إخوة لِعَلَّات، أُمَّهاتُهم شتَّى ودينُهم واحد» رواه الشيخان[1].

أقرب النبيين أخوَّة إلى المسيح

ممَّا يسترعي النظر في هذا الحديث أنه مَصْدرٌ من أَجَلِّ مصادر السُّنة، في تاريخ الأديان، وأصول الشرائع، ورسالات الأنبياء، ودعوتهم إلى الله تعالى متعاقبين على أمرٍ واحد، هو دين الله الحق.

وجملة القول فيه: أن هذا النبيَّ الأُميَّ محمد بن عبد الله، أقربُ النبيين أخوَّةً إلى المسيح عيسى ابن مريم ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ في الأولى والآخرة؛ لأنه خاتم الرسل الذين بشَّروا برسالته، ومهَّدوا لقواعد مِلَّته، وأخذوا العهدَ والميثاق على أمتهم لَيُؤْمِنُنَّ به ولَيَنصرنَّه ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾[2].

الدينُ الحقُّ

وأنَّ المرسلين قاطبةً ينتسبون إلى أصل واحد، هو الدين القيِّم، الذي

* مجلة الأزهر، العدد الخامس، المجلد الخامس عشر، جمادى الأولى (١٣٦٣).

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٣) في كتاب الأنبياء، ومسلم (٢٣٦٥) في كتاب الفضائل. وأولاد العَلّات: الذين أمَّهاتهم مختلفة، وأبوهم واحد، أراد أن إيمانهم واحدٌ، وشرائعهم مختلفة. كما في «النهاية» ٣ :٢٩١.

(٢) سورة الصف: ٦.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ارتضاه الله لنفسه، وشرعه لعبده، ثم وصَّى به رسله، وكتب ألاَّ يَقبلَ غيره، وألا يجزيَ إلا به.

تعاقب الأنبياء على هذا الدين الحق، أصوله: توحيد الله وتنزيهه، وفروعه: صور من العبادات، وضُروبٌ من التكاليف، تختلف باختلاف الأمم سذاجةً وحَصَافة، وطفولةً ورجولة، وطبيعةً وزمناً؛ كمثل القانون المهيمن على ممالك شتَّى يتفق فيها كلها أصولاً وقواعد، ويختلف فيها فروعاً ومناهج، تَبَعاً لاختلاف الطبائع والمدارك.

وذلك هو تشبيهُ النبيِّ ﷺ الأنبياء كافة بأولاد العَلاَّت ـ وهنَّ الضرائر[(١)] ـ لأنَّهن اجتمعوا في أب واحد هو الإسلام، وافترقوا في أمهات كثيرة؛ هي الأوعية الحافظة لهذا الدين في عهوده المختلفة، والمناهج الجامعة له في عصوره المتعاقبة.

وفي هذا الحديث على وجازته أصولٌ لمباحث كريمة، ولفتات إلى معان سامية، سنحاول كشف الغطاء عنها بعون الله وتوفيقه.

أصول الدين وفروعه وآدابه

ينتظم ما جاء به كلّ نبي من الأنبياء أموراً ثلاثة:

الأول: ما يتصل بالعقيدة وأعمال القلوب من إفراده تعالى بالربوبية، والاستسلام له بالعبودية، والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقضاء والقدر خيره وشره، حلوه ومره. ويُعرف ذلك وما إليه بأصول الدين، وقد يعرف بالتوحيد لأنه ملاك هذه الأصول وعمادها، لا تقوم إلا به، ولا تنهض إلا عليه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن

(١) والعَلّة: الضَّرَّة، من العَلَل وهو الشُّرب بعد الشُّرب، كأنَّ الأبَ لمَّا تزوج امرأة بعد أخرى شرب مرةً بعد مرة، وأولاد الأخياف عكس أولاد العَلاَّت، أمهم واحدة وآباؤهم شتى، وأولاد الأعيان هم الأشقاء. (طه).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

﴿قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾(١)، اتفقت على هذه الأصول جملةً وتفصيلاً كلمةُ الأنبياء، ونزلت بها كتب السماء، وأشار إليها قوله عزّ وجل: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾(٢).

والثاني: ما يتّصل بأعمال الجوارح، كالصَّلاة والزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبر الوالدين، وغير ذلك من سائر الأوامر والنواهي، ممَّا يُعرف بأصول الأحكام وفروع الإيمان.

والثالث: ما يرتبط بالنفوس وتزكيتها، والأرواح وترقيتها، كإغاثة الملهوف، والتنفيس عن المكروب، واحتمال الأذى في الله، والمسارعة إلى الخير ابتغاء رضاه، وما إلى ذلك مما يعدُّ من نوافل الأعمال، وكرائم الخصال، وإنْ لم يبلغ مبلغ الفرائض المحتومة والواجبات المفروضة.

وقد جاءت الأديان كلها بهذين القسمين كذلك، إلا أنها تختلف فيهما ـ ولا سيما أوّلهما ـ اختلافاً كثيراً في الصور والأشكال، لا في المقصد والمآل. وإلى هذين يشير قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾(٣).

تشابك الشُّعب الثلاث

على أنَّ تقسيم الدين إلى أصولٍ، وفروع، ومكارم؛ إنما هو للإيضاح والتقريب، وإلاَّ فلا جدال أنَّ هذه الشعب الثلاث كلها متَّصلة متشابكة، يقوّي

---

(١) سورة الأنبياء: ٢٥.

(٢) سورة الشورى: ١٣.

(٣) سورة المائدة: ٤٨.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

بعضها بعضاً، ويشدُّ بعضها أزر بعض، ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ﴾(١).

وإذا كان من سُنَّة الله التدرُّج في الأشياء كلِّها، فليس بدْعاً أن تنشأُ الشرائع الإلهية نشأة الإنسان في أفراده وجماعته، ويربي الجماعات أنبياءُ الله، كما يربي المرءَ أبواه، حتى إذا بلغ العالَمُ رُشْدَهُ، أرسل إليه من لا نبيَّ بعده، بخير الملل وأوْفاها، وأدومِ الشرائع وأبقاها، لا يضرُّ أهلها مَنْ خالفهم حتى يأتي أمر الله(٢).

وحدة الإيمان بالرسل

أهم غايةٍ يرمي إليها الحديث هي: الإيمان بأنبياء الله جميعاً، وبأنهم مُتَّحدون متعاونون ينصر آخرُهم أوَّلَهم، ويؤيِّد بعضهم بعضاً، ولا يتمُّ التصديق بهم أجمعين؛ بل لا يتم الإيمان بالله عزَّ وجل مع الكفر بواحد منهم إلاَّ في زعم من سَفِه نفسَهُ وأضلَّ عقله.

وقد تردَّى أهل الكتابَيْن في هاوية الكفر بمحمد ﷺ، وازداد اليهود تردّياً بالكفر بعيسى عليه السلام، وهما ـ صلوات الله عليهما ـ ممَّا يقول الخرَّاصون جدُّ بريئَين.

الرسل مراتب ودرجات

وليس من التفريق بين الأنبياء تفضيل بعضهم على بعض، فقد أجمعت الأمة سلفاً وخلفاً على أن الرسل درجات، وعلى أنَّ أفضلهم أُولو العزم.

---

(١) اقتباس من الآيتين ٢٤ ـ ٢٥ من سورة إبراهيم.

(٢) انظر لهذا البحث: «حجة الله البالغة» [١: ٢٨٥_٢٩٧]، و«رسالة التوحيد»، و«تفسير المنار» في قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾(طه).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وحَسْبُنا في دلائل هذا الفضل قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾[1].

غير أنّه لا يَجْمل بالمؤمنين أن يشتغلوا بهذا التفضيل؛ خشية الزلل والهفو. وقد يجرُّ التفضيل إلى الثَّلْبِ والطَّعن وهما من صريح الكفر، ولهذا نهى النبيُّ ﷺ أمته أن تُفضِّلَه على يونس بن متّى صلوات الله وسلامه عليه، على حين أنه ـ كما قال ـ: «سيّد وَلَدِ آدم ولا فخر»[2].

ردُّ فرية

وفي الحديث ردُّ فِريَةِ اليهود في عيسى؛ ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾[3]، وردُّ فريَةِ النصارى في تأليههم إيّاه وهو عبد الله ورسوله؛ الأولى: أثر الغلوِّ في الظنِّ والطعن، والثانية: أثر الغلوِّ في الإطراء والمدح.

لا نبيَّ بين البعثتَيْن

والحديث شاهدٌ بأن لا نبيَّ بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وفترة ما بينهما قرابة ست مئة عام.

أما الثلاثة الذين أُرسلوا إلى أصحاب القرية، فإنهم رُسُلُ عيسى وبعضُ حواريه، أرسلهم بأمرٍ من الله عز وجل.

وأما مَنْ دعا قريشاً إلى ملّة إبراهيم من العرب، فإنّما هم بقيَّةٌ من أتباع إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٣.

(٢) رواه أحمد ٣: ٢(١٠٩٨٧)، والترمذي (٣١٤٨)، وابن ماجَهْ (٤٣٠٨) عن أبي سعيد من حديث طويل بلفظ: «وأنا سيد الناس يوم القيامة ولا فخر».

(٣) اقتباس من الآية ١٥٦ من سورة النساء.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وإذ لم تكن هذه الرواية فيصلاً فيما نقول، ففي رواية أخرى للشيخين: «**أنا أولى الناس بابن مريم، الأنبياء أولاد عَلات، وليس بيني وبينه نبي**»[١].

* * * * *

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٢)، ومسلم (٢٣٦٥).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

خاتم النبيين *

ـ ١ ـ

٤ـعن جُبَيْر بن مُطْعم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لي خمسةُ أسماء: أنا محمد، وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشِرُ الذي يُحْشَرُ الناس على قَدَمي، وأنا العاقِبُ». رواه الشيخان واللفظ للبخاري(١).

الأسماء النبويَّة

لا يريد النبيُّ ﷺ أن يُحدِّد أسماءه الشريفة بهذا العدد، تحديد أصابع اليد، وإلاّ لم يُحدِّثنا بأنَّ له أسماءً غيرها كثيرة؛ وإنما أراد أنَّ لها من الفضائل والمزايا ما ليس لغيرها، كما يُنْبئ عن ذلك تفسيرها، أو أنه اختُصَّ أو اشتهر بها، في أمته والأمم التي قبلها.

ولا يريد ﷺ بذكر أسمائه أن نُعدِّدها ونردِّدها ونتباهى بها، وإنما أراد أن نتدبَّر ما احتوت عليه من معانٍ سامية، أو أشارت إليه من آداب عالية، فنسموَ بها، ونتحلَّى بأخلاقها، حتى نرفع رؤوسنا، ونكون جدراء بالانتساب إليه...

خصوص الأسماء النبويَّة وعمومها

فأما الخاصُّ فهو الذي لا يشركه فيه غيره من الرسل، كهذه الأسماء

---

* مجلة الأزهر، العدد الثالث، المجلد السابع والعشرون، سنة ١٣٧٥ هـ.

(١) أخرجه البخاري (٣٥٣٢) في المناقب، ومسلم (٢٣٥٤) في كتاب الفضائل.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الخمسة، والمُقَفَّى[1]، وهو الذي قفى من قبله فكان آخرهم، ونبيُّ المَلْحَمَة[2]، وهو الذي بُعث ليجاهد أعداء الله جهاداً كبيراً.

وأما العام، فهو الذي يشاركه في معناه غيره من الرسل، ولكن له منه ذِرْوتُه وكماله، فَضْلاً من الله عظيماً، وذلك كرسول الله ونبيِّه وعبدِه، والشَّاهدِ والبشيرِ والنذيرِ، ونبيِّ الرحمة، ونبيِّ التوبة.

كثرة أسمائه الشريفة وأوصافه المنيفة ﷺ

فإذا جُعل له من كلِّ وصفٍ من أوصافه اسمٌ تجاوزت أسماؤه المائتين عدّاً، كالصَّادق والمصدوق، والرؤوف والرحيم وأمثالها، ومن هنا قال من قال من الصوفية: إنَّ لله تعالى ألف اسم، وللنبيِّ ﷺ ألف اسم مثلها!!

على أنَّ مَنْ تدبَّر أسماءَه صلوات الله وسلامه عليه لم يجدها أعلاماً محضة لمجرَّد التعريف، كما هو الشأن في أسماء الناس؛ بل يجدها مشتقة من صفات قائمة به، تُوجب مَدْحَه، وتشيرُ إلى كماله، شأن الربِّ تعالى جدُّه، وأسماءِ كتابه، وأسماءِ أنبيائه، ليست أعلاماً مجرَّدة؛ ولكنها مع العَلَميَّة نعوتٌ وصفاتٌ تُوجب لموصوفها السَّناء والثناء كما يليق به. وكثرة الأسماء والصفات دليلٌ على العناية بأصحابها، ومن هنا قيل: إنَّ كثرة الأسماء برهانٌ على شرف المُسمَّى.

أمهات الأسماء النبوية وأصولها

وَحَسْبُنا في حديثنا هذا أن نُلمَّ بمعاني هذه الأسماء الخمسة؛ فإنَّها أمهات الأسماء النبوية وأصولها. ومن ابتغى زيادةً في البسط والتفصيل، فليرجع إلى

---

(١) أخرجه أحمد ٤: ٣٩٥ (١٩٥٢٥)، ومسلم (٢٣٥٥) كلاهما من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد ٤: ٣٩٥ (١٩٥٢٥) و٤: ٤٠٣ (١٩٦٢١).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

«زاد المعاد»[١]، و«جلاء الأفهام»[٢] وكلاهما لشمس الدين ابن القيِّم، ثمَّ إلى «المواهب اللَّدنيَّة وشرحها»[٣].. وعلى هذه الثلاثة أكثرُ تعويلِنا في شرح هذه الأسماء.

مُحَمَّدٌ ﷺ

فأمَّا محمد، فقد استفاضت الأنباء بأنه لمَّا حَمَلت به ﷺ السيدة آمنة، بُشِّرَت في منامها، بأنها تحمل سيِّدَ هذه الأمة ونبيَّها، وأُمِرَتْ أنْ تُسمِّيه إذا وَضَعَتْهُ محمَّداً، وأنه لمَّا كان سابعَ ولادته ﷺ عقَّ عنه بكبش جدُّه عبدالمطلب، وألهمه الله تَبَاركت أسماؤه على أن يصدِّق رؤيا أمِّه، فيسمِّيه تسميتها، فلما قيل له: يا أبا الحارث، ما حملك على أن تسمِّيه محمداً، وليس من أسماء آبائك ولا قومك؟! قال: أردت أن يحمدَه الله في السماء، ويحمده الناس في الأرض.

فمحمدٌ اسمه الأول الذي سمَّاه الله به في عالم الرُّؤْيا، على لسان البشير الذي بَشَّر به أمه، ثم سمّاه به في عالم الرؤية على لسان جدّه وكافلِه عبد المطَّلب.

ومحمَّدٌ اسمه الأشهرُ الذي سمّاه الله به في غير آية من كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾[٤]، ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[٥] ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[١]

(١) ١: ٨٦ ـ ٩٧.

(٢) ص٧٣ـ٨٩.

(٣) ٣: ١١٢ ـ ١١٥.

(٤) سورة آل عمران: ١٤٤.

(٥) سورة الأحزاب: ٤٠.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ومحمدٌ اسمه الأسبق الذي سمّاه الله به في التوراة، على ما حقَّقه وارتضاه ابن القيّم في كتابيه السَّابقين، خلافاً لما ذهب إليه أبو قاسم السُّهيلى والقاضي عياض على ما نشير إليه.

أحمـد ﷺ

وأما أحمد ﷺ، فهو الذي يلي محمداً في فضْله وسبْقِه وشُهرتِه، حتى كأنَّه هو، في كلِّ معنى يتَّصل به أو يرمز إليه[٢]، ولا عَجَبَ إذا كان كلاهما منقولاً من الحَمْد؛ فهو يتضمَّنُ الثناء على المحمود، كما يتضمَّن محبته وإجلاله وتعظيمه واتِّباعه في كلِّ ما جاء به.

وإذا غَلَبَ على الأول أنه المحمود حَمْداً بعد حَمْد، عند الله وعند ملائكته، وعند إخوانه المرسلين من قبله، وعند أهل الأرض جميعاً ـ بَلْهَ الجاحدين والجاهلين منهم ـ وعند الأمم قاطبةً في موقف الحشر؛ فقد غلب على الثاني أنه أحقُّ الناس وأولاهم بأن يُحمد هذا الحمد، فالاسمان ـ كلاهما ـ واقعان ـ كما اختار ابن القيِّم ـ على صيغة المفعول، والفرقُ بينهما أنَّ محمداً كثيرُ الخصال التي يُحمد عليها، وأحمدَ هو الذي يُحمد بحقٍّ أكثرَ مما يُحمد غيرُه؛ فمردُّ الأول إلى الكَثرة والكميَّة؛ ومردُّ الثاني إلى الصِّفة والكيفيَّة، وأيّاً ما كان الأمر، فقد أُوتي ﷺ من خصال الثناء والحمد ما لم يُؤْتَ أحد؛ فكان أعظمَ من حُمِد، وأجلَّ من حُمد، وسبحان من لا ينتهي عطاؤه عند حد.

اسمه ﷺ في الإنجيل

وأحمد هو الاسم الذي سمّاه الله به في الإنجيل على لسان عيسى ابن مريم عليهما السلام، إذ قال:

---

(١) سورة الفتح: ٢٩.

(٢) في الرواية التي اخترناها: «أنا محمد وأحمد» نكتة لطيفة تؤكِّد هذا الاتصال؛ حيث عطف الثاني على الأول من غير الضمير الفاصل (طه).

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾(١) تلك تسميته وبشارته في الإنجيل، بلا خلاف ولا رَيْب.

اسمه ﷺ في التوراة

وإنما الخلاف فيما سُمّي به في التوراة: هل هو محمد أم أحمد؟

قال أبو القاسم السُّهيلي، والقاضي عياض، وصاحب «الفتح»: كان عليه الصلاة والسلام أحمدَ قبل أن يكون محمداً كما وقع في الوجود؛ فإنَّ تسميته أحمد وقعت في الكتب السالفة، وتسميته محمداً وقعت في القرآن الكريم؛ وذلك أنه حَمِد ربَّه قبل أن يَحمدَه الناس، وكذلك في الآخرة يحمد ربَّه فيشفِّعه، فيحمده أهل الموقف، وقد خُصَّ بسورة الحمد، وبلواء الحمد، وبالمقام المحمود، وشُرِع له الحمد بعد الأكل والشرب والدعاء وغيرها، فجُمعت له معاني الحمد وأنواعه ﷺ(٢).

اسمه ﷺ محمدٌ في التوراة وأحمدُ في الإنجيل

وقال ابن القيم في أثناء ردِّه واختياره: إنه صلوات الله وسلامه عليه عُرِفَ عند كلِّ أُمّةٍ بأعْرَف الوَصفَين لديها.. فلما كانت أُمّةُ موسى أوسع علماً ومعرفة وَشِرْعة ومنهاجاً من أمّة المسيح، عُرِفَ عندها بالاسم الجامع للمحامد التي يُحمد عليها حمداً مُتكرِّراً، وهذا إنَّما يُعرَف بعد العلم بخصال الخير، وأنواع العلوم والمعارف والأخلاق والصِّفات التي يستحقُّ تكرار الحمد عليها، ولا ريب أنّ بني إسرائيل هم أهل الكتاب الذي كتب الله فيه من كلِّ شيءٍ موعظةً وتفصيلاً لكلِّ شيء.

ولما كان الإنجيل كأنه مُكَمِّلٌ للتوراة ومُتَمِّمٌ لها، جاء فيها اسمه الدالُّ على

---

(١) سورة الصف: ٦.

(٢) فتح الباري ٦: ٦٤١ ـ ٦٤٢، وانظر: الشفا ١: ٣١٢.

الجديد والحصري NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الفَضْل والكمال، كما جاءت شريعتُهم بالفضل المكمِّل لشريعة التوراة.

ولمّا كان القرآن الكريم مُصَدِّقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل، وجامعاً لمحاسنهما معاً، جاء كذلك بالوَصْفَيْن جميعاً[١].

الماحي ﷺ

وأما الماحي: فهو الذي مَحَا الله بنوره ظلماتِ الكفر، ولم تُمحَ هذه الظلمات بأحدٍ من الخَلْق كما مُحِيَتْ به صلوات الله عليه؛ فإنه بُعث وقد أَطبق الكفر على أهلِ الأرض قاطبةً، إلا بقايا من أهل الكتاب.

والكفار ما بين عُبّادِ أوثان، وعُبّادِ كواكب، وعُبّادِ نار، ويهودٍ ونصارى، وصابئة دهرية ـ لا يعرفون رباً ولا مَعَاداً ـ، وفلاسفةٍ لا يعرفون شرائع الأنبياء ولا يقرُّون بها، فمحا الله بنبيِّه الماحي ﷺ هذه الظلماتِ، وأظهر دينه على كلِّ دين غيره، حتى بلغ مبلغَ الليل والنهار، وسَارَ مَسيرَ الشَّمس في الأقطار.

الحاشر ﷺ

وأما الحاشر: فهو الذي يُحشر الناس على قدمه؛ لأنَّه أوَّلُ مَنْ تنشقُّ عنه الأرض، ثَّم الناس على أثره يُحشرون، وإليه في المحشر يلجئون، وبه عند الفزع الأكبر إلى ربِّهم يتوسَّلون، وهنالك يتجلَّى مقامُه المحمود الذي يحمده له الأوَّلون والآخرون.

العاقب ﷺ

وأما العاقب: فهو في معنى المُقفَّى والآخر؛ لأنّه تَبعَ آثارَ مَنْ سبقه من الرسل، فكان خاتمهم ﷺ.

وهذا الاسم صريحٌ في أنه ﷺ خاتم النبيين، فلا نبيَّ بعده وقد فُسِّر بهذا عند مسلم، ففي إحدى روايتيه لهذا الحديث نفسه: «وأنا العاقب، والعاقب

---

(١) جلاء الأفهام ص٨٩.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الذي ليس بعده نبي»(١) وفي الرواية الأخرى: «وأنا العاقب الذي ليس بعده أحد»(٢) وقد تظاهرت الدلائل القاطعة، والبراهين الساطعة، من صريح الكتاب والسنة، وإجماع الأمة على أنه أتى عَقِبَ جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأنَّ به انتهاء النبوة وحُسْن الختام.

وحَسْبُنا من صريح الكتاب قوله عزَّ وجل: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾(٣).

ومن صحيح السنة قوله صلوات الله عليه فيما رواه الشيخان: «إنَّ مَثَلي ومثلُ الأنبياء من قبلي، كَمَثَلِ رجُل بنى بيتاً، فأحْسَنَهُ وأجْمَلَهُ، إلاَّ مَوْضعَ لَبِنَةٍ من زاوية، فجعل الناسُ يَطُوفونَ به ويَعْجَبون له، ويقولون: هلاَّ وُضِعَتْ هذه اللَّبِنَة. قال: فأنا اللَّبِنَة، وأنا خاتمُ النَّبيين»(٤).

ونرجو أن نُقفِّيَ على هذا بمزيدٍ بيانٍ في الجزء الآتي إن شاء الله.

* * * * *

(١) أخرجه مسلم ١٢٤ (٢٣٥٤).

(٢) أخرجه مسلم ١٢٥ (٢٣٥٤).

(٣) سورة الأحزاب: ٤٠.

(٤) أخرجه البخاري (٣٥٣٥)، ومسلم (٢٢٨٦).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

خاتم النبيين

ـ ٢ ـ

٥ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ مَثَلي ومثلَ الأنبياء منْ قَبلي، كَمَثَلِ رجلٍ بنى بَيْتاً، فأحْسَنَهُ وأجْمَلَهُ، إلا مَوْضعَ لَبِنَةٍ من زاوية، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفونَ بِهِ، ويَعْجَبونَ له، ويقُولونَ: هَلاَّ وُضِعَتْ هذه اللَّبِنَة؟!» قال: «فأنا اللَّبِنَة، وأنا خاتمُ النَّبِيِّينَ». رواه الشيخان، واللفظ للبخاري[١].

الإسلام دين عام خالد

قولٌ حقٌّ، لايُمْتري فيه إلا مَنْ سَفِه نفسَه، وألغى رُشْدَه وحسَّه، ودَخَل مختاراً في غِمار الحَمْقى والمجانين، أو سَقَط مُحتاراً في شَرَك الأفَّاكين المارقين، ولو أنه نظر قليلاً بعين فطرته التي فطره الله عليها، وآدميته التي كرَّمه الله بها ـ في هذا الدين القيِّم، وما جاء به ومَنْ جاء به ـ لازداد به إيماناً وهُدى، ثمَّ كان به من الهُداة الراشدين.

نظرةٌ صادقة في تاريخ هذا النبيِّ الكريم

أرسله الله تعالى على فَتْرةٍ من الرُّسل، وطُموس من السُّبل، وعبادةٍ عَمْياء للأصنام والأشجار، وَجَهَالة جَهلاء غَمَرت جميع القرى والأمصار، برسالةٍ عامة باقية، وشريعة خالدة هادية، قائمةٍ على الآيات البيِّنات، ما قامت الأرض والسموات؛ فكان ـ ولا يزال ـ رحمةً للعالمين، كما كانت شريعته ـ ولا تزال ـ هي النُّور المبين، والمُعْتَصمُ والمَلْجأُ إلى يوم الدين، وليس بينها وبين الإيمان

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب (٣٥٣٥)، ومسلم (٢٢٨٦).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

بها ـ وبأنها لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ـ إلا نظرةً صادقة في تاريخ هذا النبيِّ الكريم ﷺ.

اتحاد الشرائع واختلافُها

لقد بعثَ الله في كلِّ أمةٍ رسولاً بشريعة تلائمها وتصلح لها، إلى أن ينتهيَ أجلُها الذي قدَّره الله لها، ولكلِّ أمةٍ أجل، ولكلِّ أجلٍ كتاب.

تَتَّحد هذه الشرائع في أُسسها وأصولها، من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وما فيه من بَعثٍ وجزاء. وتختلف في فروعها وأشكالها، على حسب ما يلائمها من رُشْدٍ وكمال.

ولا مِراء في أنَّ كلَّ شريعة من شرائع النبيين السابقين كاملةٌ بالنسبة إليه وإلى أمَّته، وإنْ لم تكن كاملةً كمالاً مُطْلقاً يلائمُ كلَّ زمان ومكان إلى يوم البعث والنشور. فذلك الذي خَتَم الله به الشرائع، وأتمَّ به الرسالات، واختَصَّ به من بعثه مُتَمِّماً لمكارم الأخلاق.

مَثَلٌ بديع رائع

ولقد أشار إلى هذه الشرائع في اتِّحاد أصولها، ذلك المثل البديع الرائع الذي ضَرَبه صلوات الله وسلامه عليه، إذْ مثَّلها جميعها بقَصْرٍ واحد منيف مُونِق، يبْنيهِ رجلٌ واحد... فتوحيد القصر وبانيه إشارةٌ إلى اجتماع الرسل وشرائعهم على أصول واحدة، كما أشار إلى الفروع في اختلاف أشكالها، باللَّبنة التي بها تمَّ للقصر بهاؤه، وكَمُل حُسْنُهُ ورُواؤُه.

وإلى اتِّحاد الأصول في الشرائع، يشير قوله تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾[1].

---

(١) سورة الشورى: ١٣.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وإلى اختلافها في الفروع يشير قوله جلَّ ثناؤه: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾(١).

تطلُّع الإنسانية إلى النجاة

هكذا أرسل الله رسلَهُ تَتْرى، حتى إذا برمت الإنسانية بفسادها، وضاقت ذرعاً بغيِّها وسَفَهِها، وآنَ لذوي الفطر السليمة أن يبلغوا كمال رُشْدهم، ويتَسنَّموا ذِروَة مَجْدهم، بعث الله صفوةَ أوليائه، وخاتمَ أنبيائه، بأكمل شرائعه، وأوفى مناهجه؛ ليُخرج الناس من الظلمات إلى النُّور، ومن الضَّلال إلى الهُدى؛ ولينادي فيهم بلسان عربيٍّ مبين، بأمر ربِّ السموات، وربِّ الأرض، ربِّ العالمي: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا...﴾(٢)، ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾(٣)، ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾(٤).

شهاداتٌ من الله تعالى لنبيِّه ﷺ:

شهادةٌ من الله تعالى ـ وهو أكبر شيء شهادة ـ لعبده النبيِّ الأُميِّ، محمد ابن عبد الله، عليه صلوات الله، بأنَّ شريعته أزكى الشرائع وأوْفاها، وأصلحها لكلِّ زمانٍ ومكان، وبأنَّ دينه ناسخٌ لما سبقه من الأديان، تصديقاً لقوله عزَّ سلطانه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾(٥)، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن

---

(١) سورة المائدة: ٤٨ وانظر: حديث اجتماع الأنبياء على دين واحد: «الأنبياء أخوة لعَلاَّت ...» ص١٢٠.

(٢) سورة آل عمران: ١٥٨.

(٣) سورة الأحزاب: ٤٠.

(٤) سورة المائدة: ٣.

(٥) سورة آل عمران: ١٩.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[١].

وشهادةٌ بأنَّه صلوات الله عليه، ليس أباً لأحد من رجال أمته، ولكن رسول الله وخاتم أنبياء الله، بنصٍّ قاطع، وبيانٍ صادعٍ ساطعٍ، لا يَدَع رِيبَةً لمرتاب، ولا حيلة لمُسْرِف كذَّاب.. فمن ادَّعى النبوَّة بعد هذا ـ ومن باب أولى الرسالة ـ فهو أفَّاك دجَّال، ضالٌّ مُضِلٌّ، عليه وعلى الظالمين لعنةُ الله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾[٢].

وفي الشهادة الثانية يردُّ الله تعالى على من يَنْسب زيدَ بن حارثة إليه، صلوات الله عليه، ويُبيِّن لهم أنه ليس أباه، وإن كان قد تبنَّاه، وكان رضي الله عنه يُدعى ـ على عادة العرب في المتُبَنِّى ـ زيد بن محمد، حتى نزلت الآية الكريمة: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾[٣] فدُعِي زيدُ بن حارثةَ... في قصةٍ طريفة ألممنا بها في «حقوق الأكفاء»[٤].

أولاده ﷺ

والمُلمُّ بالقَدْر الضروري من سيرته ﷺ، ولو لم يكن من أُمَّته، يعلم أنه لم يعش له ولدٌ ذكر حتى بَلَغ الحلم؛ فقد وُلد له صلوات الله عليه ثلاثةُ بنين: القاسمُ والطَّيِّبُ والطَّاهر، من أمِّ المؤمنين خديجة رضوان الله عليها، وماتوا كلُّهم صغاراً! ووُلد له إبراهيم من ماريَة القبطية رضي الله عنها، ومات رضيعاً.

وكان له من خديجة أربعُ بنات، كُلُّهنَّ أدْركن الإسلام، وأسلمن وهاجرن

---

(١) سورة آل عمران: ٨٥.

(٢) سورة الأنعام: ٩٣.

(٣) سورة الأحزاب: ٥.

(٤) انظرها: ص٩٠٤.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

معه: زينبُ، وزَوَّجها ابنَ خالتها أبا العاص بن الربيع، ورُقيّةُ، وأمُ كلثوم، وزَوَّجهما ذا النُّورَيْن عثمان بن عفان، أُخراهما بعد وفاة أختها. وكلُّهنَّ تُوُفِّينَ في حياته، ماعدا فاطمة الزهراء، فإنَّها أُصيبت به، ثمَّ ماتت بعده لستة أشهر!.

أُبوَّته ﷺ الروحية المعنوية

وَنَفْيُ أبوَّته الصُّلبيَّة الحسيَّة، لا يُنافي أبوَّته الرُّوحيَّةَ المعنويَّةَ صلوات الله عليه، فإنَّ الثانية أجلُّ من الأولى، وهي ثابتةٌ له على أحسن ما ينبغي لمقامه الكريم، من المحبَّة والتكريم، كما يشير إلى ذلك حديثُ الصحيحين: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين»[١].

وفاة أبنائه في حياته ﷺ كرامةٌ ورحمةٌ

وكأنه تعالى أراد ـ وهو الحكيم الخبير ـ أن يَقْبض أولاد نبيِّه في حياته؛ لِيعلِّم أُمَّته كيف يكون صَبْر الآباء في موت الأبناء، ثم لِيعلموا أنه تعالى هو الذي رفع ذكرَ نبيِّه في العالمين، دون مساعدةٍ من الآباء والبنين، ولهذا شاء ـ جلَّت مشيئته ـ أن يكون يتيماً لِيكون لكلِّ يتيمٍ أباً رحيماً، وليكون فضل الله عليه عظيماً.

وأخرى بينه وبين أمته، وهي ألا يمسَّهم أحدٌ بسوء أو أذى، أو يزعم أحدٌ أنَّ أبناءه من بعده هم وَرَثته في نبوَّته أو رسالته، أو أحقُّ الناس ـ على الأقل ـ بخلافته، فيكون فساداً كبيراً، وشراً مستطيراً! وانظر إلى غُلاة الشِّيعة، وما زعموا لابن عمِّه عليٍّ كرَّم الله وجهه!! فكيف لو عاش ابنٌ له من صُلْبِهِ صلوات الله عليه وسلامه؟!.

ألا إنَّ موت أبنائه قبل وفاته، معجزةٌ من معجزاته في حياته، ورحمةٌ من الله على أمته بعد مماته.

---

(١) أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

آياتٌ بيِّناتٌ

أما بعد، فإنَّه لو لم يَدل الذكر الحكيم على أنَّ محمداً صلوات الله عليه خاتمُ النبيين، لدلَّ على ذلك خُلُقُه العظيم، وهَدْيُه الكريم، وما آتاه الله من آياتٍ بيِّنات، لم يُؤْتِها أحداً من العالمين.

فكيف وقد أنزل الله ذلك الختام نصّاً قاطعاً، يقطع دابر الدجاجِلة الأفَّاكين، ثم وكَّد هذا البيان صلوات الله وسلامه عليه بنصوصٍ صريحة ـ لا تقبل جَدَلاً ولا تأويلاً ـ بأنه لا نبيَّ بعده..

ولولا مخافة السآمة لسقنا بعض هذه الأحاديث الصريحة الصحيحة.. وإذن فموعدنا الجزء التالي إن شاء الله.

* * * * *

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

خاتم النبيين

ـ ٣ ـ

شرُّ الدوابِّ عند الله تعالى

لاجَرَم أنَّ شرَّ الدوابِّ عند الله الصُّمُّ البُكْمُ الذين لايعقلون[١]، ولا جَرَم أنَّ شرَّ هؤلاء إجراماً هم المتنبِّئون.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾[٢].

ولو كان عند هؤلاء مَسكَةٌ من عقل، أو ذرَّةٌ من نُور، لَعَلموا أنَّ دعوى النبوَّة أو تصديقها بعد خاتم النبيين ـ صلواتُ الله وسلامه عليهم أجمعين ـ هو الخَبال كلُّ الخبال، والنَّكال الذي ليس وراءَه نكال!! وكفى به جُرماً وخَبالاً، أنه اتِّهامٌ لأحكم الحاكمين في اختياره واصْطفائه مَنْ يشاء من عباده ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٣].

دجَّالون كذَّابون

ومن حكمة الحكيم العليم، ورحمتِه بأمَّة خاتم النبيين ﷺ، أنْ أنبأه نبأً

---

(١) اقتباسٌ من قوله عزوجل: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال:٢٢].

(٢) سورة الأنعام: ٩٣.

(٣) سورة القصص: ٦٨.

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

هؤلاء الدجاجلة قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى، لتُحذَرَ فتنتُهم، وتُتَّقى ضَلالَتُهم، ونعوذُ به سبحانه من هَمَزات الشياطين.

روى الشيخان وغيرُهما عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «لاتقوم السَّاعة حتى يُبْعَثَ دجَّالون كذَّابون قريبٌ من ثلاثين، كلُّهم يزعم أنه رسول الله»[١].

وروى أبو داود والترمذي عن ثَوبْان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائلُ من أمَّتي بالمشركين، وحتى يعبدوا الأوثان، وإنه سيكون في أمتي ثلاثون كذّابون، كلُّهم يزعم أنه نبيٌّ، وأنا خاتم النبيِّين، لا نبيَّ بعدي»[٢].

ولم يفارق النبيُّ ﷺ هذه الدنيا حتى صَدَق الله رسولَه ما أوحى إليه، فظهر نَفَرٌ من هؤلاء الدجَّالين الذين ادَّعَوْا النُّبوَّة، والتقت وساوسهم في أثناء مرضه الأخير صلوات الله وسلامه عليه، منهم مُسَيلمةُ الكذَّاب صاحب اليمامة، والأسودُ العَنْسي صاحب صنعاء اليمن.

مُسَيْلِمة الكذاب

ومن خبر مُسَيْلمة كما في الصحيحين وغيرِهما: أنّه قَدِمَ على عهد النبيِّ ﷺ المدينةَ، وجعل يقول: إنْ جَعَلَ لي محمدٌ الأمر من بعده تبعتُه. قدمها في بَشَرٍ كثير من قومه بني حنيفة، فأقبل رسولُ الله ﷺ ومعه ثابتُ بن قيسٍ، وفي يده صلوات الله عليه قطعةُ جريدٍ، حتى وقف على مُسَيْلمة في أصحابه، فقال: «لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها، ولن تعدوَ أمرَ الله فيك، ولئن أَدْبرت ليعقرنَّك الله، وإني لأراك الذي أُريت فيه ما رأيت، وهذا ثابتٌ[٣] يجيبك عنِّي»، ثم

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٩)، ومسلم (١٥٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢١٧٧) (٢٢٠٣) (٢٢٢٠) (٢٢٣٠).

(٣) هو خطيب الأنصار، ثابت بن قيس بن شمَّاس بن زهير بن مالك بن امرئ القيس.

=

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

انصرف عنه.

قال ابن عباس: فسألتُ أبا هريرة عن قول رسول الله ﷺ: «وإني لأراك الذي أُريت فيه ما رأيت»، فقال: إنَّ رسول الله ﷺ قال: «بَيْنا أنا نائمٌ رأيت في يدي سوارَيْن من ذهب، فأهمَّني شأنُهما، فأُوحِيَ إليَّ في المنام أن أنفخَهما، فنفختُهما فطارا، فأوَّلتهما كذَّابين يَخْرجان من بعدي: أحدهما العنسي، والآخر مُسَيْلمة»[١].

ظهور شوكة مُسيْلمة الكذاب:

ولم تظهر شوكة مُسَيْلَمة إلا في عهد الصِّدِّيق رضيَ اللهُ عنه، إذْ جمَعَ جُموعاً كثيرةً ارتدُّوا على أعقابهم، وتأهَّبوا لقتال الصحابة، فَجَهَّز لهم الخليفة الأول جيشاً بإمرة سيف الله خالد، فَقَتَل أصحابَ الكذَّاب.. ثمَّ كان الفتح بفَصْل هامة الكفر والضَّلال.

قاتل سيدِ الشهداء يقتلُ ألدَّ الأعداء

وممَّن أبلى في فَصْل هذه الهَامة، وَحْشيٌّ قاتلُ أسد الله، حمزة سيِّد الشهداء قال: «لما قُبِضَ رسول الله ﷺ فَخرج مُسَيلمة الكذَّاب، قلت: لأخرُجَنَّ إلى مُسَيْلمة، لعلِّي أقتله، فأكافىءُ به حمزة، قال: فخرجت مع الناس، فكان من أمره ما كان، فإذا رجلٌ قائم في ثَلْمَةِ جدار، كأنه جملٌ أورق، ثائر الرأس[٢]،

كان من نجباء أصحاب محمد ﷺ، ولم يشهد بدراً، وشهد أحداً، وبيعَة الرضوان، وكان جهير الصوت، خطيباً، بليغاً. بشَّره رسول الله ﷺ بالجنة، وقُتل شهيداً يوم اليمامة رضي الله عنه. «سير أعلام النبلاء» ١: ٣٠٨_٣١٤.

(١) أخرجه البخاري (٤٣٧٣)، (٤٣٧٤)، ومسلم (٢٢٧٣)، (٢٢٧٤).

(٢) الأورق من الإبل: ما في لونه بياض إلى سواد، وهو من أطيب الإبل لحماً لا سَيْراً، والمراد أنَّ لونه مثل الرماد، وكان ذلك من غبار الحرب. وقوله: «**ثائر الرأس**» أي شعره منتفش.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

فرميتُه بحربتي فوضعتها[١] بين ثَدْيَيْه حتى خرَجَت من بين كتفَيْه، قال: ووَثَب إليه رجل من الأنصار[٢]، فضَرَبه بالسيف على هامته»[٣].

وكان وحشيٌّ ـ غفَرَ الله له ـ بعد إسلامه ـ والإسلامُ يجبُّ ما قبله ـ يرهبُ قتلَه حمزة على غِرَّة في غزوة أحد، ويزيدُ في رهبته وخوفه أنَّ رسول الله ﷺ ما كان يحبُّ أن يراه؛ لأنَّ رؤيته كانت تثيرُ في نفسه الرحيمة مأساةَ عمِّه، وحزنَهُ على أحبِّ الناس إليه!! لكنَّ الله الذي يُضِلُّ مَنْ يشاء ويهدي مَنْ يشاء، وفَّق قاتلَ سيِّدِ الشُّهداء، لأن يقتل ألدّ الأعداء..

الأسود العَنْسي

وأما الأسود العَنْسي، فقد خرج بصنعاء، وادَّعى النبوَّة في حياة النبيِّ ﷺ، وغَلَب على عامله هناك: المهاجر بن أبي أميَّة، وعَظُمَت شوكتُه، وحارب المسلمين، وفتَكَ بهم. ولم يزل يعثي في الأرض مُفْسداً، حتى أخذه الله قُبيل وفاة نبيِّه ﷺ أو يومها، وأراح العالم من شرِّه.

المختار بن أبي عُبيد الثَّقفي

ثم ظهر بعد العهد النبويِّ كذَّابون دجَّالون متنبِّئون، منهم المختار بن أبي عُبَيد الثقفي، وقد شَهِدَ عليه بدعوى النبَّوة والكذب الصَّريح جماعةٌ من أهل البيت. بل شَهِدَ عليه حديثُ مسلم في «صحيحه» عن أسماءَ بنتِ أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنهما في قصَّتها مع الحجَّاج، وهي تقول له: «أما إنَّ رسول الله ﷺ حدَّثنا أنَّ في ثقيف كذاباً ومبيراً، فأمَّا الكذَّاب فرأيناه، وأما المُبير فلا إخَالك إلا إيَّاه» فقام عنها، ولم يُراجعها[٤].

---

(١) في رواية الكُشميهني: فأضعها.

(٢) هو عبد الله بن زيد بن عاصم المازني كما في «الفتح» ٧: ٤٢٩.

(٣) أخرجه البخاري (٤٠٧٢).

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٤٥) في فضائل الصحابة من حديث أسماء بنت أبي بكر =

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

والمبير: الجبَّار المُهْلك، والمراد به هنا: الحجَّاج بن يوسُف الثَّقفي، والمراد بالكذَّاب: المختار بن أبي عُبَيد الثقفي، وذلك بإجماع العلماء، كما قال الإمام النووي في «شرحه لصحيح مسلم»[١].

ومن أقبح أكاذيبه: دعواه أنَّ جبريل عليه السلام كان يأتيه بالوحي. وممَّا وَرَدَ في ذلك ما أخرجه الإمامُ أحمد في «مسنده» عن رِفاعة الغسَّاني[٢] قال: دخلتُ على المُختار، فألقى إليَّ وسادةً، وقال: لولا أنَّ أخي جبرائيل، قام عن هذه ـ وأشار إلى أخرى عنده ـ لألقيتُها لك[٣].

والد المختار وأخته

وقد يكون من العَجَب أنَّ أباه أبا عُبيد الثَّقفي، كان رجلاً صالحاً، واستُشْهِد أيام عمر في حرب المجوس، وكذلك أختُه صفيَّة بنت أبي عُبيد امرأةُ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، كانت امرأةً صالحةً، وترجَمَ لها ابن حِبَّان في الصَّادقين الثقات[٤].

وأما المختار، فأجْمَعوا على أنه رأسٌ من رؤوس الكَذب والضلال.. وقد

الصدِّيق، وأخرجه أحمد ٢: ٢٦ الميمنيَّة (٤٧٩٠) الرسالة، والترمذي (٢٢٢٠) و(٣٩٤٤) من حديث ابن عمر، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث شريك. .

(١) شرح صحيح مسلم ٢: ١٠٠.

(٢) الصواب: الفِتْيَاني، بكسر الفاء وسكون التاء وفتح الياء وبعد الألف نون: نسبة إلى فتيان بن ثعلبة بن معاوية بن زيد كما في «المشتبه» «واللباب» و«تبصير المنتبه»، وأخطأ الحافظ رحمه الله في «التقريب» فقال: «القِتْباني» بكسر القاف وسكون التاء بعدها موحَّدة.

(٣) أخرجه أحمد ٥ :٢٢٣ (٢١٩٤٧) وإسناده حَسَن من أجل السُّدي، وباقي رجال الإسناد ثقات، كما في التعليق على «المسند» طبعة مؤسسة الرسالة.

(٤) الثقات، لابن حبان ٤: ٣٨٦، والثقات للعجلي ٢ (٢٣٣٩).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أخذه الله على يد مصعب بن الزُّبير بالكوفة سنة سبع وستين[١].

الحارث بن سعيد

ثم ظهر من بعدِ المختار دجَّالون مُتَنبِّئون ـ من هؤلاء الذين حدَّثنا عنهم الصَّادق المَصْدوق ﷺ ـ مثل الحارث بن سعيد الدمشقي، الذي ظهر في أيام عبد الملك بن مروان، واغترَّ به خلقٌ كثير إلى أن وقع في قبضة عبد الملك، فَسَجَنَه وقَتَله..

إسحاق الأخرس

ومثل إسحاق الأخرس الذي ظهر في خلافة أبي العباس السَّفَّاح. ومن أخباره أنه نَشَأَ بالمغرب، وتعلَّم القرآن، ولم يترك علماً حتى أتقنه، ثم ادَّعى أنه أخرس تمهيداً لدعواه النبوَّة، ثمَّ رَحَل إلى أصفهان، ونَزَل بها عشرَ سنين، ثمَّ زعم أنَّ مَلَكَيْن جاءاه بعد خلوةِ أربعين يوماً، فأيقظاه وغسلاه، وسلَّما عليه بالنبوَّة.. في نبأ نقله صاحب كتاب «الدعاة».

أذنابٌ تتلوى بعد قطع رؤوسها

وآخر هؤلاء الأفَّاكين كأوَّلهم، وكلُّهم أعرقُ الناس ضلالاً، وأسخفُهم أقوالاً، وأبعدُهم عن العقل والفَضْل مجالاً. وقد قطع الله دابرهم، ووَقَى العالمَ شُرورَهم، ولم يبق من أخبارهم ـ عليهم لعنة الله وملائكته والناس أجمعين ـ إلا نوادر وأحاديث تتفكَّه بها كُتب الأدب والتاريخ؛ قصداً إلى الترويح والتسلية..

لكنَّ الحكيم العليم الذي يَبْلو عبادَه بالشرِّ والخير فتنةً[٢]، والذي جعل

---

(١) انظر طرفاً من أخباره في «شرح مسلم» باب «فضائل الصحابة وتحريم سبِّهم»، وفي «الإصابة» لابن حجر، وفي «المتنقى من منهاج الاعتدال» بتحقيق السيد محب الدين الخطيب، ثمَّ في كتاب «الدعاة من المتألِّهين والمتنبِّئين والمهتدين»، لصاحبه وجيه فارس الكيلاني. (طه).

(٢) اقتباس من قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [٣٥].

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لكلِّ نبيٍّ عدواً شياطين الإنس والجن يُوحي بعضهم إلى بعض زُخرُف القول غروراً(١) ـ لايزال يبتلي هذا الدين الحنيف وأهله بأَرْؤُسٍ من هؤلاء المخبَّلين، تتحرَّك ثم تُقطع، ثم تبقى أذنابها تتلوّى حيناً على عمىً وتخبُّطٍ، إلى أن يُتبعها الله أرْؤُسَها بأيدي أولي بأسٍ من عباده.

وميقاتُ حديثنا الختامي عن هؤلاء الأذناب هو الجزء القادم بمشيئة الله تعالى وعونه وتوفيقه.

* * * * *

(١) اقتباس من قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [١١٢].

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

خاتم النبيين

ـ ٤ ـ

من أذناب المتنبِّئين

قلنا في نهاية الجزء الماضي: إنَّ الله ـ جلَّتْ حكمتُه ـ لايزال يَبْتلي هذا الدين الحنيف بأرْؤسٍ من هؤلاء الدَّجَاجلة المتنبِّئين، تتحرَّك ثم تُقطع، ثم تبقى أذنابها تتلوَّى حيناً من الدهر على عمى وتخبُّط، إلى أن يقطعها الله كما قطع أصولَها من قبل، بأيدي أُولي بأس من عباده، ووَعَدْنا أن يكون هذا الحديث الختامي في هؤلاء الأذناب، قطع الله دابرهم، وأراح العالمين من شرِّهم.

أبو منصور العِجْلي والمنصوريَّة

فمن هؤلاء: أذناب أبي منصور العِجْلي، من أهل الكوفة، عاصر محمد الباقر، ولما كَشَفَ الباقر خيانته لأصل الإسلام تبرَّأ منه، وعلى الرُّغم من براءته منه ادَّعى بعد موته أنه وصيُّهُ، وزعم أنَّ علياً والحَسَنَيْن، وعليَّ بن الحسين، ومحمداً الباقر كانوا كلُّهم أنبياء مرسلين، وأنه هو أيضاً نبيٌّ ورسول! وستكون النبوَّة في ستَّةٍ من ولده آخرهم «القائم»!.

وكما أنَّ ابنَ سبأ أوَّلُ من اخترع كلمة «الوصي»، فإنَّ العجليَّ هو أوّل من اخترع كلمة «القائم»، وزَعم العِجْلي ـ فيما زعم ـ أنه عُرِجَ به إلى السماء... وكان يحرِّض أذنابه على خَنْق مُخالفيه. ولم يزل في عَمَاءته حتى أُخذَ وَصُلبَ في وِلاية يوسف بن عمر الثقفي على العراق، لهشام ابن عبد الملك[1].

---

(١) انظر ص ٩٦ من حاشية السيد محب الدين الخطيب على «المنتقى من منهاج =

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

القاديانية

ومنهم مِرْزا غلام أحمد[١] الهندي القادياني زعيم الأحمدية، كان يزعم أنّه ينزل عليه الوحي، وأنه نبيٌّ ورسول، وزعم أصحابه ـ فيما سموه «البشارة الإسلامية الأحمديَّة» ـ أنَّ الله كلَّمه بجميع الطُّرق التي يُكلِّم بها أنبياءَهُ؛ لأنَّ الأنبياء في وصف النبوَّة سواء!!. ومع هذا الكفر البَواح يزعمون إفكاً وبهتاناً أنهم مسلمون!!!. وقد أهلك الله هذا القادياني بإسهالٍ شديد مُزْمِنٍ في سنة ١٣٢٦.

البابية والبهائية

ومنهم البابية، ثمَّ البهائية، أذناب مِرْزا علي محمدٍ الملقَّب بالباب، الذي ابتدع هذه النِّحلة ونَعَقَ بها سنة ١٢٦٠ إلى أنْ أعدمته الحكومة الإيرانية في تبريز صَلَباً سنة ١٢٦٥، ثمَّ زعم أحدُ شيعتَه الملقَّب ببهاءِ الله، أنَّه الموعود الذي أخبر عنه الباب، وقبِلَ دعوتَه أكثرُ البابيِّين، وتسمَّوْا حينئذ بالبهائيين، وبقي البهاءُ بعكّا منفياً إلى أن هلك بها سنة ١٣٠٩، فتولَّى رياسة الطائفة ابنهُ عباسٌ الملقَّب عبد البهاء، فأخذ يدعو إلى هذه النِّحلة الضَّالَّة، ويتصرَّف فيها كما يشاء.

وقد زعم مِرزا علي أنَّه رسولٌ من الله! ووضع كتاباً ادَّعى أنّ ما فيه شريعةٌ منزلة، وسمَّاه «البيان»، وقال في رسالة بعث بها إلى الشيخ الآلوسي صاحب التفسير المشهور «روح المعاني» دعاه إلى مذهبه الذي سمَّاه كذباً على الله: دين الله!! ثم زعم المسمَّى بهاء الله أنَّ رسالته هي لتأسيس السلام على الأرض!

ادَّعى الباب الرِّسالة، ثم زعم أنَّ شريعتَه ناسخةٌ للشريعة الإسلامية، ثم هَذَى بما انتحل لأتباعه أحكاماً لا وِجْهَةَ لها إلا هدم الإسلام من أساسه!!!

الاعتدال». (طه).

(١) مرزا: كلمة فارسية معناها الأمير، ولعلهم يريدون هنا الإمارة في الدين والرياسة فيه. ومعنى غلام أحمد: خادمه وتابعه. (طه).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ولم يكتفوا ـ خيَّبَهُمُ الله ـ بدعوى النبوَّة والرسالة، بل طفروا منها إلى ما طفر إليه بعض أئمتهم «الباطنيَّة» من قبل، فادّعَوْا حلولَ الإله في بعض زعمائهم، كما قال «القرامطة» بإلهيَّة محمد بن إسماعيل بن جعفر!!! وقد ظهرت دعوى الحلول جليَّةً في بعض مقالات البهائية(١).

معاول الهدم

ومهما يكن في هذه النِّحْلة الفاجرة من خَلْط واضْطِراب في دعوى النبوَّة والرسالة، ونسْخ الإسلام، أو توحيد الأديان تارةً، وفي دعوى الحلول والإلهيَّة، وتجلِّيها في بعض أشخاصهم تارةً أخرى، فإنَّ غرضها الذي تَرمي إليه هو هدم الإسلام بمَعاوِلَ تختلف باختلاف عدوٍّ الأنبياء من شياطين الإنس والجن في تقلُّبهم، وفيما يُوحي بعضُهم إلى بعض من زُخْرُف القول وغروره.

قال العلاّمة الآلوسي في «تفسيره»: «وقد ظهر في هذا العصر(٢) عصابةٌ من غُلاة الشيعة، لقَّبوا أنفسهم بالبابيَّة، لهم في هذا الباب فصولٌ، يَحكم بكفر معتقدِها كلُّ من انتظم في سِلْك ذوي العقول، وقد كادَ يتمكَّن عِرقُهم في العراق، لولا هِمَّةُ واليه النجيب(٣) الذي وقع على هِمَّتِهِ وديانته الاتِّفاق، حيث

---

(١) راجع مقال السيد الخَضِر في المجلد الأول من مجلة الأزهر (ص٣٥٥ ـ ٣٧٠)، ثم راجع مَقَالي السيد محب الدين الخطيب في مجلَّد العام السابق (طه).

(٢) في ٥ جمادى الأولى سنة ١٢٦٠، الموافق ٢٣ أيار سنة ١٨٤٤ كما في «تاريخ العراق بين احتلالين» ٧: ٧٢، و«لمحات اجتماعيَّة من تاريخ العراق الحديث» ٢: ١٣٧.

(٣) هو محمد نجيب باشا، تولَّى منصب ولاية بغداد بعد علي رضا باشا في شعبان من سنة ١٢٥٨ إلى سنة ١٢٦٥، وتوفي في سنة ١٢٦٧ بإستانبول. تنظر ترجمته في «بغداد: خلفاؤها، ولاتها، ملوكها، رؤساؤها من عام ١٤٥ إلى عام ١٤٠٤» ص ٢٣٨ تأليف باقر أمين الوردي، وعن فترة تولي المترجم التاريخية ينظر «تاريخ العراق بين احتلالين» ٧: ٦٣ ـ ٨٤ تأليف عباس العزاوي، و«لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث» ٢: ١١٢ ـ ١٥١ تأليف علي الوردي، كما أفادني بذلك الأخ البحَّاثة المؤرخ الأستاذ محمد بن عبد الله الرشيد جزاه الله خير الجزاء.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

خَذَلهم، نَصَرَه الله تعالى، وشتَّت شملهم، وغَضِبَ عليهم ـ رضي الله تعالى عنه ـ وأفسد عملهم، فَجَزاه الله تعالى عن الإسلام خيراً، ودفع عنه في الدارين ضَيْماً وضَيْراً»(١).

ونحن ندعو اللهَ جَلَّت قدرته بما دعا به الآلوسي، لأُولي الأمر من المسلمين جميعاً، أن يتعقَّبوا هؤلاء الأذناب المفسدين، بالسِّنان والبيان، حتى لايقع في شَرَكهم الضعفاء من الطَّغام.

وقد كفتنا مجلتُنا هذه ـ بارك الله عليها وعلى القائمين بها ـ مؤنة البسط في تلك النِّحلة وضلالها، بما كشفت من مخازيها، وحذَّرت من أباطيلها، وكتبت من مقالات أَضْحَت للمؤلفين مصدراً، وللباحثين مناراً(٢).

أفَّاك جديد

وقد يكون من الطريف أن نشير هنا إلى ما رَوَته الصُّحفُ أخيراً من ظهور أفَّاك جديد في شرق السودان، يُدعى «علي هياتي» ادَّعى النبوَّة في شراذم من الطَّغام أخذوا يلتفُّون حوله، وَخَشِيتَ الحكومة خَطَرَه على الأمن، فقرَّرت نفيَه إلى «حلفا»، فثار على هذا التصرُّف سكَّان الوادي خوفاً على معتقداتهم، وناشدوا ولاة الأمور أن يطردوه إلى مكانه الأول(٣).

---

(١) روح المعاني ١١ :٢١٩ عند تفسير قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

(٢) من محاسن الموافقات أن يكتب ببسط وإفاضة في نِحْلَتي البهائية أو القاديانية أو هما معاً، رؤساء تحرير هذه المجلة على التعاقب: فكتب أستاذنا الأجل السيد الخَضِر في البهائية في المجلد الأول، وفي القاديانية في المجلدين الثالث والرابع؛ وكتب الأستاذ وجدي في البهائية والقاديانية في المجلد الخامس، وكتب الأستاذ السيد محب الدين في البهائية في المجلد السادس والعشرين، عدا ما كتب كتَّاب آخرون في أجزاء شتَّى. (طه).

(٣) اقرأ أنباء الخرطوم في أهرام السبت ١٩٥٦/١/٧. (طه).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

من أعلام نبوَّته ﷺ

إنَّ ظهور هؤلاء الأفَّاكين حيناً بعد حينٍ، أعظمُ الدلائل على صدق خاتم النبيِّين، صلوات الله وسلامه عليهم، وعلى أنَّ النبوَّة قد خُتمت به فلا نبيَّ بعده.

ذلك بأنهم يظهرون وبُرهانات الكذب تُحيطُ بهم، ثم تلبسهم، ويتَّخذ الناس منهم ـ حتى العامة ـ طريقاً للتندُّر والاستهزاء والسُّخرية.

لكن هذا لن يمنع أُولِي الأمر أن يضربوا على أيديهم دَرْءاً لما يُخشى من فتنتهم للبُلْه، والأَغرارِ من أشْباه الناس... ثم إعظاماً لمقام النبوَّة.

ورثة الأنبياء

وإذا كانت النبوَّة قد خُتمت بالخاتَم صلواتُ الله وسلامهُ عليه، فإنَّ ورثةَ الأنبياء من أُمَّته، قد وَرِثُوا عنه مقام البلاغ من بعده، فكان أعلى مَنْ بلَّغ عنه أصحابه رضي الله عنهم، ..... بلَّغوا جميع أقواله وأفعاله وأحواله، في ليله ونهاره، وسفره وحضره، وجهره وسرِّه، ثمَّ التابعون لهم بإحسانٍ، ممَّن بشَّر النبيُّ ﷺ أمَّته بأنهم لايزالون قائمين على الحقِّ لايضرُّهم من خالفهم حتى يأتيَ أمر الله... فبنورهم يقتدي المهتدون، وعلى منهجهم يسلك السائرون.

نزول عيسى عليه السلام

ولا يُعارض ختامَ نبوَّته ﷺ نزولُ عيسى عليه السلام في آخر الزمان من السماء، حَكَماً عدْلاً مُقْسطاً، يكسر الصليب ويقتل الخنزير؛ لأنه لاينزل بشرع جديد، وإنَّما يحكم بشريعة أخيه، وأَوْلى الناس به.

لا جرَم أنَّ اتِّباع عيسى لأخيه محمد ـ عليهما صلوات الله وسلامه ـ تأييدٌ لنبوَّته، وتصديقٌ لدعوته، وتكريمٌ لخير أمَّةٍ أُخرجت للناس.

* * * * *

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

جزَاء الصَّالحات *

ـ ١ ـ

٦ ـ عن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أرأَيتَ أشياءَ كنتُ أتحنَّث بها في الجاهلية، من صَدَقة أو عَتَاقةٍ أو صِلَة رحم[١]، فهل فيها من أجر؟ فقال النبيُّ ﷺ: «أسْلَمتَ على ما سَلَفَ من خير». رواه الشيخان، واللفظ للبخاري[٢].

٧ ـ وعن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله، ابنُ جُدْعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويُطعم المسكين، فهل ذاك نافعه؟ قال: «لا ينفعه، إنه لم يقل يوماً: ربِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين» رواه مسلم[٣].

مسألة خطيرة ذاتُ شقَّين

يَزِلُّ كثيرٌ من الناس في مسألةٍ خطيرةٍ فرغ الإسلام منها، وبيَّنها في كتابه المبين، وعلى لسان نبيِّه الأمين، أوْفَى بيان.. تلك هي مثوبةُ غير المسلم على ما يتعبَّد به من قُربة، أو يصنعه من صَنيعة، أو يقدِّمه من الخير العام أو الخاص.

---

* مجلة الأزهر، العددان الثالث والرابع، المجلد السادس والعشرون (١٣٧٤).

(١) بيان لما كان يتحنَّث به، والتحنُّث: التعبُّد، ولا يخفى أنه كان تعبُّداً صورياً؛ لأن روح العبادة معرفة المعبود، ولا يعرف إلا بالإسلام (طه).

(٢) رواه البخاري (١٤٣٦) في كتاب الزكاة، باب من تصدَّق في الشِّرك ثم أسلم، ومسلم (١٢٣) في الإيمان.

(٣) رواه مسلم (٢١٤).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

والمسألة ذات شطرين: لأنَّ غير المسلم إذا مَرَنَ على فعل الخير[١] وأحبَّه، فقد يَمُنُّ الله عليه بالإسلام، ويوفِّقه لما كان يفعل من البرِّ، فيتعبَّد به في إسلامه، ويتقرَّب به لمن أسلم وَجْهَه إليه، كما منَّ على حكيم بن حزام رضوان الله عليه.

وقد تغلب عليه شِقْوتُه حتى يقضيَ نحبه وهو محروم من النعمة الكبرى ـ التي لا تُذكر نعمة بجانبها، وإن عَظُمت ـ؛ نعمةِ الهداية إلى الإسلام والإخلاص للمنعم جلَّت آلاؤه.

وفي طليعة هؤلاء المحرومين المكذِّبين بيوم الدين، عبدُ الله بن جُدْعان القرشيُّ التَّميمي، واحدُ بني تَيْم ورِجَالاتها، وقريبُ أمِّ المؤمنين عائشة رضوان الله عليها، وهذا سرُّ سؤالها عنه واستفتائِها رسول الله ﷺ في شأنه.

وإذا جمعنا بين هذين العظيمين في هذا الحديث ـ كما جَمَعَ الله بين السَّعادة والشقاوة، والنعيم والجحيم، في الذكر ـ فإنَّ من حقِّ قُرَّائنا أن نبيِّن لهم ـ في صدر هذا البحث ـ حكمَ الله ورسوله في مثوبتهما ومثوبةِ مَنْ سار على نهجهما، عسى أن يبيِّنوا للناس، فيتعلَّمَ جاهلٌ، أو يهتديَ حائرٌ، أو يثوبَ إلى رُشْده غاوٍ، ممَّن يتَّبعون الهوى، فيضلُّون عن سبيل الله، ويحكمون بغير ما أنزل الله، وكأنَّ بأيديهم مفاتيحَ الجنة، يفتحونها لِمَن حكموا له بالقَبول والفوز، وإن كان في كتاب الله شقياً؛ ويغلقونها في وجه من حكموا عليه بالحرمان والطرد، وإن كان في حكم الله سعيداً، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[٢].

خيار الناس

كان حكيمُ بن حزام بن خُوَيْلد ابن أخي أمِّ المؤمنين خديجة رضي الله

---

(١) أي: تعوَّد على فعل الخير واستمرَّ عليه وألِفَه وتعوَّده.

(٢) اقتباس من الآية ٤٤ من سورة المائدة.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

عليها، وفي الطليعة من أشراف قريش ووجوهها، في الجاهلية والإسلام، و«الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقُهوا»[١] كما في حديث الصحيحين.

مكانة حكيم قبل الإسلام وبعده

أدرك في الجاهلية ستين عاماً وفي الإسلام مثلها، وحَسْبه شرفاً أنه كان صديقاً للنبيِّ ﷺ قبل بعثته، وأنه صلوات الله وسلامه عليه كان يحبُّه ويودُّه، ويودُّ لو كان من السَّابقين الأوَّلين، وأنه فرح بإسلامه يوم الفتح فرحاً عظيماً، وقال ـ كما ثبت في السيرة والصحيح ـ: «من دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن»[٢].

وكان من المُؤَلَّفة قلوبهم الذين شهدوا غزوةَ حُنين، فأعطاهم الرسول الأكرم ـ ﷺ ـ عطاء مَنْ لا يخشى الفاقة!! حدَّث عن نفسه قال: سألت رسول الله ﷺ فأعطاني، ثُمَّ سألته فأعطاني، ثمَّ سألته فأعطاني؛ ثم قال: «يا حكيم، إنَّ هذا المال خَضِرةٌ حُلوة»، إلى أن قال: «واليد العليا خيرٌ من اليد السفلى»[٣]. وفي هذا الحديث أنه رضوان الله عليه لم يسأل أحداً من الناس حتى توفي، وأنَّ أبا بكر وعمر رضوان الله عليهما كانا يعرضان عليه العطاء مما يُفيء الله على المسلمين فيأبى أن يقبله، وفاءً بما عاهد رسول الله ﷺ ألا يَرْزأ أحداً بعده شيئاً

---

(١) الحديث لم يروه البخاري، وإنما رواه مسلم برقم (٢٦٣٨) من حديث أبي هريرة.

(٢) أورده الذهبي في «السير» ٣: ٤٨ من طريق حماد بن سلمة، عن هشام، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال يوم الفتح: «مَنْ دخَل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن، ومن دخل دار بُدَيْل بن وَرْقاء فهو آمن، ومن أغلق بابَهُ فهو آمن» ورجاله ثقات، لكنه مرسل. وقال الحافظ في «المطالب العالية» ١٧: ٤٦٢ أخرجه إسحاق بن راهويه، وهو حديث صحيح، وصحَّح إسناده أيضاً الصَّالحي في «سبل الهدى والرشاد» ٥: ٣٢٦. وانظر: ص٤٩٢.

(٣) أخرجه البخاري (١٤٧٢)، ومسلم (١٠٣٥).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

حتى يفارق الدنيا[١]...

تبرَّرَ حكيمٌ في جاهليته بكثير من جلائل الخيرات، وعظائم المكرمات، حتى انتظم في سِلْكِ السَّادة النُّجُب، الذين يَصِلون الرَّحِم، ويحملون الكَل، ويكسبون المعدوم، ويُقْرون الضَّيف، ويُعينون على نوائب الدهر، وسيِّدُهم ـ غير مدافع ـ هو سيِّد ولد آدم ﷺ، ـ ولنا الفخر بالعمل لا بالقول! ـ ثم سيِّد الصِّدِّيقين أبو بكر رضي الله عنه...

وكان من آثاره قبل أن يسلم أنه أعتق مئة رقبة من رِبْقة الأسر، وذُلِّ العبودية، وحمل على مئة بعير، أي تصدَّق بها كلها.

ثمَّ منَّ الله عليه بنعمة الإسلام، فأحسن إسلامه، وزاده الله حُسناً، فأتى صديقه الحميم الكريم صلوات الله عليه وسلامه، مُستفتياً فيما أسلف من هذا البر، فبشَّره الصَّادق المصْدوق ﷺ بحُسن جزائها، وكَرم قبولها، وأنه أسلم على ما قدَّم لنفسه من الخير. قال حكيم رضي الله عنه: قلت: فوالله لا أدع شيئاً صنعته في الجاهلية إلاَّ فعلت في الإسلام مثله[٢].

صدقه ما عاهد الله عليه

ولقد صَدَقَ حكيمٌ ما عاهد اللهَ عليه، فصنع بعد الإسلام كما صنع قبله، بل زاد عليه: جاء في «الصحيحين» أنه لمَّا أسلم حمل على مئة بعير وأعتق مئة رقبة[٣].

قال ابن عبد البر: حجَّ في الإسلام ومعه مئة بدنةٍ قد جلَّلها بالحِبَرة، وكفَّها

---

(١) بسطنا شرح هذا الحديث في الجزء الثاني من المجلَّد الثامن عشر (طه). انظر: اليد العليا خير من اليد السفلى ص٤٨٩ ـ ٤٩٥.

(٢) أخرجه مسلم (١٢٣).

(٣) أخرجه البخاري (٢٥٣٨)، ومسلم (١٢٣).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

عن أعجازها[١]، وأهداها، ووقف بمئة وَصيفٍ بعرفة، في أعناقهم أطواق الفضة، منقوش عليها: «عتقاء الله عن حكيم بن حزام» وأهدى ألف شاة.

وكانت بيده دار الندوة، فباعها من معاوية بمئة ألف درهم، فلامه عبد الله ابن الزبير، وقال له: بعتَ مكرمة قريش! فقال له: يا ابن أخي، ذهبت المكارم إلاَّ التقوى، اشتريت بها داراً في الجنة. وتصدَّق بالدراهم كلِّها!!!.

عِقْدٌ واسطته الإسلام

بَخٍ بَخٍ يا حكيم!!.

لقد نظمت عِقْداً من الخيرات الجسام، وبارك الله عليه إذ جعل واسطته الإسلام، فهل تظن أنَّ الله ينقصه بعد، وهو أكرم الأكرمين، وأرحم الأرحمين، وهو الذي يرزق مَنْ يشاء بغير حساب؟!.

* * * * *

(١) جَلَّلها: غطاها. والحِبَرة كعِنَبَة: البُرد الموشَّى، وضمير كفَّها المنصوب فيما يظهر يعود على الحِبَرة، محافظة على جمالها ونظافتها، وذلك مِنْ تعظيم الشعائر، وفي إبدائه الصدقات وإعلانه الشعائر، دعوة إلى الخير، وتحدُّثٌ بنعمة الله (طه).

الجديد و حصري NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

جزاء الصَّالحات *

ـ ٢ ـ

حكم الإسلام في مَثُوبة غير المسلمين

بيَّنا قول الإسلام في مثوبة حكيم بن حزام رضوان الله عليه، ومثوبة كلِّ مَنْ سار سيرَتَهُ، من الذين أنعم الله عليهم، فعملوا الصالحات قبل أن يؤْمنوا، ثم أنعم الله عليهم فعملوا الصالحات بعد أن آمنوا وأحسنوا، ثم زادهم الله حُسناً فجزاهم بما قدَّموا وأخَّروا، ولم ينقصهم من عملهم شيئاً.

ونبيِّن الآن قول الإسلام كذلك في عبد الله بن جُدْعان ونظرائه، ممَّن أعانوا على صنوفٍ من الخير، وأسهموا في ضروبٍ من المكارم، ولكن غلبت شقوتُهم، فجعلت بينهم وبين الإسلام سدّاً.

ابن جُدْعان في الجاهليَّة

كان عبد الله بن جُدعان من وجوه بني تَيْم، ورؤساء قريش، وكان قريباً لأمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وكان جَوَاداً كريماً، مُطْعِماً للطعام، وَصُولاً للأرحام، وكانت له جَفْنَةٌ يأكل منها القائم والراكب لِعظَمِها، وربَّما يرقى إليها الطَّاعم في سُلَّم، ولو لم يكن من مفاخره إلاَّ حِلْف الفضول لكفاه شرفاً. ونرجو أن نعرض لهذا الحلف في طائفة من حسنات غير المسلمين قريباً.

أهمَّ عائشة رضي الله عنها شأنَ ابنِ جُدعان، وما قدَّم في الجاهلية من

* مجلة الأزهر، العددان الخامس والسادس، المجلد السادس والعشرون (١٣٧٤).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

مكارم، فسألت عنها من لا ينطق عن الهوى صلوات الله وسلامه عليه، فأجابها: بأنَّ شيئاً مما عمل لا ينفعه؛ لأنه كان من المكذِّبين بيوم الدين.

التكذيب بيوم الدين

ومجرَّد الارتياب في يوم الدين، فَضْلاً عن التكذيب به، هدمٌ لركنٍ من أركان الملَّةِ الحنيفيَّة، التي بَعَث الله بها أبا الأنبياء خليلَه إبراهيم ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(١).

بل إنَّ مجرد الارتياب في يوم الدين، فَضْلاً عن التكذيب به، هدمٌ للركن نفسه، ذلك الركنُ الأعظم الذي قامت عليه الأركان كلُّها، وبُنيت عليه الأديان السماويَّة والشرائع الإلهيَّة؛ ركنُ الإيمان بالله رب العالمين، وخالق السموات السبع والأرضين، وباعث النبيِّين إلى الناس مُبشِّرين ومُنذرين.

الإسلام دين الأنبياء كافة

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ﴾(٢)، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾(٣).

لا جَرَم أنَّ هذا الدين الحق، الذي لن يقبل الله ديناً غيره، هو دينُ الله الذي بعث به رسلَه إلى الناس أجمعين، من لدن آدم إلى خاتم النبيِّين، وهو الذي قال الله تعالى فيه:

﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ

(١) سورة البقرة: ١٣٢.

(٢) سورة آل عمران: ١٩.

(٣) سورة آل عمران: ٨٥.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾[١].

وقال فيه الرسول ﷺ، فيما رواه الشيخان: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، ليس بيني وبينه نبي؛ والأنبياء أولاد عَلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد»[٢].

لا جَرَم أنَّ هذا الدين الحق، دينُ الله تعالى، إيماناً حقاً صادقاً لا ريب فيه.

ومن الإيمان بالله: توحيده، وتنزيهه عن كلِّ ما لا يليق به، واختصاصه بالكمال المطلق الذي لا ينبغي إلاَّ له.

الشك في أصل من أصول الإيمان كفر

فمن شكَّ في أصل من هذه الأصول جملةً أو تفصيلاً، فليس من ملَّة إبراهيم في شيء، وإنْ زَعَم أنه من أنصاره أو أنصار نبيٍّ من بنيه ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣].

إنَّ من شكَّ في أصل من أصول الإيمان ـ فَضْلاً عن أن يُكذِّب به، من الأوَّلين والآخرين ـ فمثله كمثل عبد الله بن جُدعان، لا ينفعه ما قدَّم من الصَّالحات ما لم يُسْلم وَجْهَهُ إلى الله ربِّ العالمين...

فإذا أسلم وجهَه إلى الله، فَمَثله كَمَثل حكيم بن حزام رضي الله عنه: أسلم على ما أسلف من الخير، فبدَّل الله سيِّئاته حسناتٍ، وكَتَب له مثوبَة ما قدَّم وما

---

(١) سورة الشورى: ١٣.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٤٢)، ومسلم (٢٣٦٥). وقد شرحه المؤلف في «اجتماع الأنبياء على دين واحد» انظر: ص١٢٠.

(٣) سورة آل عمران: ٦٨.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أخرَ ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[(١)].

شبهة من تلبيس إبليس

وهنا نكشف شبهةً لبَّس بها الشيطانُ وحزبُه على كثير من الناس، فَضَلُّوا عن سواء السبيل!! قالوا ـ أو قيل لهم ـ : إنَّ في مجرَّد الإيمان بالله واليوم الآخر منجاةً من عقاب الله ومدْعاة لثواب الله، ولو غفل العبدُ عن الإيمان ببقيَّة ما ذكرنا من الأصول!!!.

ضلالة أخرجتهم من الملَّة، وأخرجت معهم كلَّ مَنْ شايعهم عليها، أخرجتهم بالأدلة الصَّريحة القاطعة من الكتاب والسنة والإجماع الذي لا شيَة فيه.

منشأ هذه الضلالة

منشأ هذه الضلالة أو التلبيس بها، أنهم يرون الكتاب العزيز، يَقْتصر أحياناً على ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر، وأحياناً على ذكر الإيمان والعمل الصالح، حينما يعرض لذكر الأبرار المتَّقين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ويَجْهل هؤلاء الحمقى أو يتجاهلون أنَّ ذلك الإجمال القليل ـ الذي يتلوه في مواطن أخرى كثيرٌ من البيان والتفضيل ـ مِن أساليب الإعجاز في القرآن العربي المبين!.

وهم بهذه الضَّلالة يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض؛ أو يؤمنون ببعض الرسل ويكفرون ببعض؛ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ﴾[(٢)]، ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ

---

(١) اقتباس من الآية ٢٦١ من سورة البقرة.

(٢) اقتباس من الآية ١٥١ من سورة النساء.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾(١).

أركان الإيمان مترابطة متماسكة

على أنَّ الإيمان الحق بأحد هذه الأصولَ يَسْتَتْبعُ ـ ولا مَحَالة ـ الإيمان ببقيَّتها؛ لأنها مترابطةٌ متماسكة، ينتظم معنى كلِّ أصلٍ منها على حِدة معاني الأصول الأخر.

ذلك، وقد بقي حديثٌ ثالث لا يتم «جزاء الصالحات» إلا به؛ فلنتمِّم به هذا البحث في غرَّة الشهر القادم إن شاء الله.

* * * * *

(١) اقتباس من الآية ٩٠ من سورة البقرة.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

جزاء الصَّالحات *

قصَّة أبي طالب[١]

ـ ٣ ـ

٨ـ عن العباس بن عبد المطَّلب رضي الله عنه قال للنبيِّ ﷺ: ما أغنيتَ عن عمِّك؟ فإنه كان يَحوطُك، ويغضبُ لك! قال: «هو في ضَحْضَاحٍ من نار، ولولا أنا لكان في الدَّرْك الأسفل من النار»[٢].

٩ـ وعن أبي سعيد الخُدريّ رضي الله عنه أنه سمع النبيَّ ﷺ وذُكر عنده عمُّه أبو طالب، فقال: «لعلَّه تَنْفَعُهُ شفاعتي يوم القيامة، فَيُجْعَلُ في ضَحْضَاح من النار يبلغُ كعبَيْهِ، يَغْلي منه دماغه!». رواه الشيخان، واللفظ للبخاري[٣].

المفردات:

حَاطَهُ يحوطُهُ حَوْطاً وحيَاطة: صَانه وحفظَه وذبَّ عنه، وتوفَّر على مصالحه.

والضَّحْضَاح: ما رقَّ من الماء على وَجْه الأرض إلى نحو الكعبين، واستُعير

---

* مجلة الأزهر، العددان ٧ و٨، المجلد السادس والعشرون (١٣٧٤).

(١) هذا عنوان أبي عبد الله البخاري لثلاثة أحاديث في كتاب المناقب: هذين الحديثين، وثالث بينهما في وفاته، سنستعين به في الشرح (طه).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٨٣) في مناقب الأنصار، ومسلم (٢٠٩) في الإيمان.

(٣) أخرجه البخاري (٣٨٨٥) في مناقب الأنصار، ومسلم (٢١٠) في الإيمان.

الجديد و حصري NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

هنا للنار. والدَّرك: قعر جهنم وطبقتها السُّفلى. وفتح الراء وإسكانها: قراءتان سبعيتان.

قصة عجيبة

لهذه القصَّة العجيبة صلةٌ أيُّ صلةٍ ببحثنا السابق «جزاء الصالحات»، نرجو من الله أن يجعلها عوناً لإتمام هذا البحث، كما نرجو أن ينفعنا بما فيها من عِبر وعظات!!.

أعمام النَّبيِّ ﷺ الذين أدركوا الإسلام

أدرك الإسلام من أعمام النبيِّ ﷺ الاثني عشر أربعةٌ؛ استجاب له منهم سيِّد الشهداء، وأبو الخلفاء: حمزة، والعباس. ولكلٍّ منهما في الإسلام، ونُصرةِ النبيِّ عليه الصلاة والسلام، بلاءٌ عظيم، ومقامٌ كريم. عليهما رضوان الله.

ولحكمة بالغة حقَّت كلمة العذاب على عَمَّيه: أبي طالب وأبي لَهَب، وإنْ كان البُعد بين عذابَيهما في دار القرار، كالبُعد بينهما في هذه الدار؛ وأين مَنْ كان يسبُّه ويَخْذله، ويُعاديه أشدَّ العداء، ممَّن كان يؤيِّده ويعاضدُه، ويُواليه أشدَّ الولاء؟!.

أبو طالب وعبد المطلب في قريش

كان أبو طالب عمّاً شقيقاً للنبيِّ ﷺ، وكان ـ على قلَّة ماله ـ كأبيه عبد المطَّلب، سيِّداً كريماً مَهيباً، مُطَاعاً في قومه محبَّباً؛ وكان إلى ذلك مُحبًّا لابن أخيه حُباً فاقَ كلَّ حُب، ومُؤْثِراً له إيثاراً فاق كلَّ إيثار، وإذا أعدَّ الله من اصْطَفَاهِ ليُتمِّمَ مكارمَ الأخلاق، فإنه خليقٌ بمنتهى الحبِّ والإعجاب والإكبار.

عَرَفَ ذلك منه أبوه عبد المطَّلب، وكان كفيلَ النبيِّ ﷺ، ووليّ أمره. فلمَّا حضرته الوفاة، وقد أشرفَ الحفيدُ الحبيبُ على الثامنة من عمره، عهد بكفالته

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

إلى ابنه أبي طالب، ووصّاه به حُسناً.

أعلى مثل للأبوة والبنوّة في التاريخ

وأنفذ أبو طالب وصية أبيه بابن أخيه في كلِّ مرحلةٍ من مراحل حياته المباركة، وعامله أحسنَ معاملة تُرجى من أب حَفيٍّ سَرِيٍّ، لوحيده الزكي الوفي ... حتى إذا بلغ أشدَّه وبلغ أربعين سنة، وفضَّله الله بالنبوَّة الخاتمة، والرسالة إلى الناس عامة، لم يتخلَّ عنه ساعةً من ليل أو نهار، حين تخلَّى عنه الأقرباء، وناصبَه قومُه العداء، ووقفوا في سبيل دعوته عَقَبةً كأداء؛ بل اشتدَّ ولاؤه له وَذِيادُه عنه.

وكان هو والعقيلة النبيلة، أمُّ المؤمنين وأوّل المُصَدِّقين: خديجة بنت خويلد ـ عليها رضوان الله ـ وَزِيرَيْ صدق لدعوته، وردَائَي حقٍّ لرسالته.

عام الحزن

ويقضي الله الذي لا رادَّ لقضائه، ولا مُعَقِّب لحكمه، أن يفقد النبيُّ ﷺ هذين الوزيرَيْن أحْوَجَ ما يكون إليهما، بعد أن قاما مُخْلِصَيْن بعبءٍ عظيم في كفاح الدعوة، وأبليا فيها بلاءً حسناً إلى أجلٍ مسمَّى. وتوفَّاهما الذي يتوفَّى الأنفس حين موتها، في شهرٍ واحد، بعد شقِّ الصحيفة الظالمة، وفكِّ الحصار الذي استمرَّ سنتين أو ثلاثاً، وكان أثراً من آثار الصِّراع بين الحق والباطل؛ وقبل الهجرة النبوية بثلاث سنوات أو نحوها! فلا عَجَب أن يَعظُمَ حزنُه عليهما، وأن يُسمِّي سنة وفاتهما عامَ الحزن! وأن يستقبل بعدهما أهوالاً جساماً!!.

بذل قصارى جهده ﷺ في هداية عمه

وأشدُّ أسباب حزنه ـ فيما نعتقد ـ موتُ عمِّه أبي طالب على مِلَّة عبد المطَّلب، وكان يرجو كلَّ الرجاء أن يموتَ على مِلَّة إبراهيم حنيفاً؛ ذلك بأنه صلوات الله وسلامه عليه المثلُ الأعلى للإسلام في كلِّ ما يدعو إليه من مكارم الأخلاق، وفي مقدمتها: حفظ الجميل وحُسن الجزاء. وإذاً فلا مناص من أن

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

يَبْذُل قُصارى جهده في هداية عمِّه؛ ليكون معه في الذين أنعم الله عليهم من النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين، وفي ذلك قُرَّة عينه، ووفاءُ دَينه، وجزاء عمِّه، وأنعم به جزاء.

وفاةٌ يحضرها رسولُ الله وعدوُّ الله

وكان خاتمة ما بذل من جهد ما رواه الشيخان[١] وغيرهما، أنه ﷺ دخل عليه، وقد حضرته الوفاة، وعنده عدوُّ الله وفرعونُ هذه الأمة، ومعه عبد الله بن أُميَّة الذي أسلم في عام الفتح، فقال له:« أي عمِّ، قل: لا إله إلا الله، كلمةً أشهد لك بها عند الله» فقال الشقيُّ البغيُّ أبو جهل: يا أبا طالب، أترغَبُ عن ملَّة عبد المطَّلب؟! فلم يَزَل رسول الله ﷺ يعرض عليه كلمةَ التوحيد، ولم يزالا يَعْرضان عليه تلك المقالة، حتى قال للنبيِّ ﷺ: يا ابن أخي، لولا السُّبَّة وأن تُعيِّرني قريشٌ بها لأقررت بها عَيْنَك، ثم كان آخر ما كلَّمهم به: هو على ملَّة عبد المطَّلب!! فقال صلوات الله وسلامه عليه: «أما والله لأستغفرنَّ لك ما لم أُنْهَ عنك، فأُنزل في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[٢]، وأنزل فيه وفي غيره: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ﴾[٣].

هدايتان:

ولا يعزب عمَّن فقَّهه الله في الدين، أنَّ الهدايةَ التي نفاها عن نبيِّه هنا، غير الهداية التي أثبتها له في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٤].

---

(١)أخرجه البخاري (٤٧٧٢)، ومسلم (٢٤).

(٢) سورة القصص: ٥٦.

(٣) سورة التوبة: ١١٣.

(٤) سورة الشورى: ٥٢.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

فالأُولى: هي الإلهام والتوفيق، والثانية: هي الدلالة والإرشاد لأقوم طريقٍ، وشتَّان ما بينهما.

المجادلة في الحق بعدما تبيَّن

ألا إنه لا يحلُّ لمن يؤمنُ بالله واليوم الآخر أن يزعم إيمانَ أبي طالب حقاً بعد هذه الأدلة، وإن كان يودُّ إيمانه خالصاً من قلبه، إقراراً لعين رسول الله ﷺ.. ولا حجَّة لمن يزعم إيمانه من الرافضة وغيرهم مُتمسِّكاً بما نُسب إليه من مدحه وثنائه وتصديقه بالنبيِّ ﷺ في مِثْلِ قوله:

وَدَعَوْتني وعلمتُ أنَّكَ صادقٌ ... ولقد صدقت فكنت قبلُ أمينا

ولقد علمتُ بأنَّ دينَ محمَّدٍ ... من خيرِ أديان البريَّة دينا

فَقُصَارى ما في ذلك كلِّه أنه آمنَ بالرسول وحده، ولم يُؤْمن بربِّه الذي أرسله، وإذا كان إيمانه بالله دون الإيمان برسوله لا ينفعه، فكيف بإيمانه بالرسول وحده، وهو إيمانٌ دفعت إليه أواصرُ الرَّحم، ووليجةُ القربى؟!!.

فلا يهمنَّك «أسنى المطالب في نَجَاة أبي طالب»[١] بل اهتمَّ إن شئتَ بترجمته في «الإصابة» لابن حجر[٢]، وحَسْبُك ما فيه مِنْ حُجَجٍ دوامغ!.

---

(١) هو للشيخ أحمد زيني دحلان مفتي الشافعية بمكة المتوفى سنة ١٣٠٤رحمه الله تعالى، وكتابه هذا مستلٌّ مِنْ كتاب السيد محمد بن رسول البرزنجي الشافعي المتوفى سنة ١١٠٣ رحمه الله تعالى، واسمه: «سَداد الدِّين وسِدادُ الدَّين في إثبات النجاة والدرجات للأبَوَيْن»ص٣٥٠_٤٠٦.

(٢) في القسم الرابع مِنْ باب الكنى ٧: ١٩٦ ـ ٢٠٣، ولا يستغرب ترجمة الحافظ ابن حجر له مع أنه ليس مِنَ الصحابة، لأنه ترجمه في القسم الرابع، وهو كما قال الحافظ ١: ٥٧١ : «فيمن ذكر في الكتب المذكورة على سبيل الوهَم والغَلَط، وبيان ذلك البيان الظاهر الذي يعوَّل عليه، على طرائق أهل الحديث، ولم أذكر فيه إلا ما كان الوهَمُ فيه بيِّناً».

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

عظاتٌ وعبر

ألا وإنَّ خيراً من المجادلة في الحقِّ بعد ما تبيَّن، أن تتلمَّس وجوهَ العِظة والعبرة في هذا الصُّنع الإلهي، فلعلَّنا نجد فيه تفسيراً عملياً لقوله جلَّ سلطانه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾(١)، وقوله تعالى شأنه: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾(٢)، ثم قوله تباركت آلاؤه: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾(٣).

هذا إلى ما ذكره فقهاء السيرة النبوية وحكماؤها من الحِكَم الإلهيَّة البالغة، في مبادرة الأباعد إلى الإيمان به دون الأقارب، وأنَّ ذلك من أعلام نبوَّته ﷺ.

ولعلَّنا نقول ـ بعد ـ مقالة الذين نزع الله ما في صدورهم من غل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾(٤).

ذلك، وللحديث بقية تأتي في موعدها إن شاء الله تعالى.

* * * * *

---

(١) سورة آل عمران: ١٢٨.

(٢) سورة الأعراف: ١٨٨.

(٣) سورة الحجرات: ١٧.

(٤) سورة الأعراف: ٤٣.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

جزاء الصَّالحات *

قصة أبى طالب

ـ ٤ ـ

لو لم يكن من شأنِ أبي طالب إلا أنه عمُّ النبيِّ ﷺ وكفيلُه، لكان بتلك العمومة الحميدة، والكفالة الرَّشيدة، جديراً باهتمام النبيِّ ﷺ وعنايته الكريمة ... فكيف إذا كان أبو طالب أوَّل الذين عزَّروه ونصروه وشدُّوا أزره، ودافعوا عنه وعن دعوته ما استطاعوا إلى الدفاع سبيلا..

ولو أنَّ أبا طالب وهو يُعزِّر النبيَّ ﷺ وينصره، اتَّبع النورَ الذي أُنزل معه ـ لكان في طليعة السَّابقين الأوَّلين، الذين رضي الله عنهم ورضُوا عنه، وأعدَّ لهم جنَّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، ولكن أضلَّه الله الذي يُضِلُّ مَنْ يشاء، ولو تربَّى في بيت النبوَّة والرسالة! ويهدي من يشاء، ولو نشأ في حِجْر الكفر والضلالة ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[١].

يأس الرسول ﷺ من هداية عمِّه أبي طالب

استيئس الرسول صلوات الله عليه من هداية أبي طالب بعد أمرين:

بعد أن عَرَض عليه كلمةَ التوحيد فردَّها أحوجَ ما يكون إليها، وكان آخر كلامه: هو على دين عبد المطَّلب؛ وبعد أن أنزل الله فيه قرآناً يُتلى: ﴿إِنَّكَ لَا

---

* مجلة الأزهر، العددان ٩ و١٠، المجلد السادس والعشرون (١٣٧٤).

(١) سورة الأنعام: ١٤٩.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾(١).

يأسه ﷺ من الاستغفار له

ثم استَيْئَسَ صلوات الله وسلامه عليه من الاستغفار له، بعد أن أنزل الله فيه وفي غيره: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾(٢).

شأنُ النبيِّ ﷺ مع عمِّه أبي طالب

هذا بعض شأنِ النبيِّ الكريم، ذي الخُلُقِ العظيم مع عمِّه أبي طالب!!.

أُمنيةٌ ملؤها الحنان والرحمة، أن يهديَهُ الله للإسلام، جزاءَ ما قدَّم له من أيادٍ جسَام، ثم عاطفةٌ يحدوها الألم والأمل، أن يغفرَ الله له، ويهبَه لنبيِّه أكرمِ الخلق عليه وأقربهم إليه...

ثُمَّ رجاءٌ كريم، في ربٍّ رحيم، أن يشفِّعه فيه، فيخفِّف عنه عذابَ الخلود في جهنم!! لا بتقصير مَداه الذي لا ينتهي أبداً... ولكن بأن يكونَ أهونَ أهل النار عذاباً يوم القيامة، وإنْ كان هو يرى أنه أشدُّهم عذاباً!!.

شفاعته ﷺ في عمِّه أبي طالب

وقد حدَّثنا النبيُّ ﷺ من طريق عمِّه العباس رضي الله عنه ـ لمَّا سأله عن أخيه أبي طالب ـ وعمَّا يرجو من الله له: أنَّ الله تعالى شفَّعه فيه، فجعله في هذا المقدار القليل من النار، ولولا هذه الشفاعة لكان في أسفلها دركاً، وأقصاها مدًى.

---

(١) سورة القصص: ٥٦.

(٢) سورة التوبة: ١١٣.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أبو طالب أهون أهل النار عذاباً

وتفسير ذلك ـ في الصِّحاح ـ أنه يوضع في أخمَص قدميه جَمْرتان أو نعلان من نار، يغلي منهما أمُّ دماغه كما يغلي المِرْجَل والقمقم، وفي رواية: يغلي المرجل بالقمقم[١].

وكأنَّ أبا طالب لمَّا زَحزح قدميه عن الدين القيِّم ـ ملَّة إبراهيم حنيفاً ـ وثبتَّها على مِلَّة عبد المطَّلب، ثبَّت الله قدميه في هذا الضَّحْضاح جزاءً وفاقاً . . .

ولولا كلمةٌ سبَقَت من ربِّك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[٢] لَغفَر لأبي طالب شِركُه، تحقيقاً لأمنيةٍ طالما تمنَّاها النبيُّ ﷺ، وتمنَّاها أصحابه معه، إقراراً لعينه، ومكافأةً لصنيع عمِّه . . .

على أنَّ استجابة الله تعالى لهذه الشفاعة النبويَّة الرحيمة ـ فوق أنها تكريمٌ للنَّبيِّ صلَوات الله وسلامه عليه، وفضيلةٌ له ولعمِّه خاصَّةً ـ هوَّنت عليه كثيراً ممَّا قاسى في هداية عمِّه!! ثم كانت أجلَّ وأعظمَ ممَّا قـدَّم أبو طالب ـ لدين الله ونبيِّه ـ من صنيعة . . .

مكرُمةٌ لأبي لهب

ومما يتَّصل بهذا، إكرام الله لنبيِّه بتخفيف عذاب القبر كل ليلة اثنين عن

---

(١) أخمص القدم: باطنها، والمرجل: إناءٌ يغلي فيه الماء وغيره، والقمقم: إناء ضيِّق الرأس يُسَخَّن فيه الماء، وقيل: هو البسر، كانوا يغلونه استعجالاً لنضجه. والتفسير الأخير ملائم للرواية الأخيرة. ذلك، ومن عجائب الاتفاق ما أشار إليه صاحب «الفتح» من أن اللَّذَيْن لم يُسلما من أعمامه ﷺ: أبو طالب واسمه عبد مناف، وبينه وبين أسماء المسلمين جفوة وتناف. وأشدُّ منه جفوة وتنافياً أبو لهب واسمه عبد العزَّى! ولا جفوة في حمزة والعباس رضوان الله عليهما (طه).

(٢) سورة النساء: ٤٨.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عمِّه أبي لهب، وكان من أعدائه، وأشدِّهم في مُناوأته وإيذائه!! وذلك بأنه أعتق جاريته ثُوَيبة حين بشَّرته بولادته، قالت له: أشَعرتَ أنَّ آمنة ولدت لأخيك عبد الله غلاماً؟ فقال لها: اذهبي فأنت حرَّة ...

وقد صحَّ أنَّ أخاه العباس رآه في المنام بعد سنةٍ من وفاته، وكانت بعد وقعة بدر، فقال له: ما حالك؟ قال: في النار بشرِّ حال ـ أو ـ بشرِّ حِيبة[1] إلا أنه خفَّف عني كل ليلة اثنين أمصُّ من بين إصبعي هاتين ماءً، وأشار إلى النُّقرة التي تحت إبهامه[2].

أداء الله عزَّ وجل عن نبيِّه ﷺ

وكذلك يريد الله ألاَّ يجعلَ لأحدٍ دَيْناً في عُنق نبيِّه من مِنَّة أو صنيعةٍ إلا كافأه بها، ولو بَدَتْ منه عفواً غير مقصودة ...

أليس الذي يَجزي أعداءَ نبيِّه أحسنَ مما قدَّموا له من صنيعة، بقادر على أن يجزيَ أحبَّاءَه أضعافاً مضاعفة، وهم الذين آمنوا به وعزَّروه ونصروه، واتَّبعُوا النُّور الذي أُنزل معه؟! بلى، إنهم جُدراء بأن يُضاعف جزاءهم ويؤتيهم من لدنه أجراً عظيماً.

* * * * *

---

(١) بالحاء المكسورة أو الخاء المفتوحة.

(٢) رواه البخاري (٥١٠١) في النكاح، ولفظه من حديث طويل، قال عروة ـ أحد رواة الحديث ـ : وثُوَيبَة مولاة لأبي لهب، كان أبو لهب أعتقَها، فأرضعت النبيَّ ﷺ، فلما مات أبو لهب أُريه بعض أهله بشرِّ حيبةٍ قال له: ماذا لقيتَ؟ قال أبو لهب: لَمْ ألقَ بعدكم غير أني سُقيتُ في هذه بعتاقتي ثُوَيْبة.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

بلوغ الدَّعوة المحمديَّة *

١٠ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذي نفسُ محمدٍ بيدِهِ لايَسْمَعُ بي أحدٌ من هذه الأمَّة يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلت به، إلا كان من أصحابِ النار». رواه مسلم[1].

عموم الدعوة المحمدية وخلودها

ممَّا اختصَّ اللهُ به نبيَّنا محمداً ﷺ أن بعثه إلى الناس عامّةً، وكان كلُّ نبيٍّ يُبعث إلى قومه خاصَّةً، ومن هنا كانت تتجدَّد الرِّسالات وتتعاقَب، بتجدُّد الأجيال وتعاقُب الأمم، وربَّما يُبعث في العصر الواحد أكثرُ من رسول واحد. وأما رسالة خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فهي خاتمة الرسالات، وشريعتُه خاتمة الشرائع، ودعوتُه عامَّةٌ شاملةٌ باقيةٌ إلى يوم النشور.

أمة الدعوة والإجابة

وإذاً فالناس من أوَّل يومٍ بُعِثَ فيه صلوات الله عليه وسلامه، مَدْعوون بدعوته، مأمورون بشريعته.

فأما مَنْ بلغته منهم هذه الدعوة ـ في حياته ﷺ أو بعدها ـ فَسَكَنَ إليها واستجاب لها، فهو من أُمَّة الدعوة والإجابة معاً؛ وأما مَنْ أباها وأعرض عنها، فقد دُحِضَتْ حُجَّتُهُ، وسقطت معذرته، وحقَّت عليه كلمة العذاب، فكان من أصحابِ النار وبئسَ القرار.

---

* مجلة الأزهر، العددان ١٧ و١٨، المجلد السادس والعشرون سنة (١٣٧٤).

(١) رواه مسلم ١: ١٣٤ (١٥٣).

شبكة الألوكة www.alukah.net
www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

معذرة من لم تبلغه الدعوة

وأمَّا مَنْ لم يسمع به ﷺ قط، ولم تبلغه دعوته ـ كائناً ما كان الحائل بينه وبين هذه الدعوة ـ فهذا معذرته معه، ويشهد ببراءته ومعذرته النبيُّ ﷺ نفسه في حديثه هذا، بل يشهد ببراءته ونجاته ربُّه عزَّوجل إذ يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[(١)] ، ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾[(٢)].

ففي الآية الأولى شهادةٌ منه عزَّ وجل بأنه لايُعذِّب أحداً من عباده إلا بعد إقامة الحُجَّة عليه، بإرسال رسولٍ إليه، كما قال سبحانه: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[(٣)] وتأويل الرسول بالعقل، ممَّا يأباه، بل ينفر منه العقل والنقل!!

وفي الآية الثانية شهادةٌ منه سبحانه ـ وهو أكبرُ شيءٍ شهادة ـ بنبوَّة مَنْ أُوحيَ إليه هذا القرآن ليُنذرَ به قريشاً وسائر مَنْ بلغه القرآن وسمع به. فأما مَنْ لم يبلغه القرآن ولم يسمع به، فليس من المُنْذَرين، وعذره ـ كما قلنا ـ معه.

سرُّ تقديم قريش بالإنذار

وتقديم قريش في الخطاب والإنذار والإعذار، من الأمور الطبيعية البدهية؛ لأنهم ـ على اختلاف درجاتهم ـ أقربُ الناس إليه، وأولى الناس به؛ أهله وعشيرته، وهم أعرف الناس بسيرته؛ بِلُغَتِهِم نَزَل القرآن، وبين ظهرانيهم نَشَأ وتربَّى عليه الصَّلاة والسلام؛ فلم يكن عَجَباً أن يبدأهم بالإنذار، ثم يُقَفِّي بغيرهم من أهل القُرى والأمصار. بل العَجَب كل العجب أن يكون الأمر على غير ذلك!.

---

(١) سورة الإسراء: ١٥.

(٢) سورة الأنعام: ١٩.

(٣) سورة النساء: ١٦٥

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

غير ذلك!.

من أصول الإسلام

فرسالة محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه إلى النَّاس كافَّة، وخلود شريعته إلى يوم الخلود، ووجوب تبليغها، إلى ذلك اليوم الموعود. كلٌّ أولئك من أصول الإسلام الأولى، التي لايسع مؤمناً بالله واليوم الآخر أدنى تردُّد فيها.

مَنْ عرَف الحقَّ واهتدى به

عرف هذا الحق واهتدى به مَنْ شرح الله صدره للإسلام، فهو على نورٍ من ربِّه.

وعَرَفَ هذا الحق واهتدى به فريقٌ من أهل الكتاب وعلمائهم، كعبد الله بن سلاَم، وكان من أحبار اليهود، وتميم الداري، وكان من رهبان النَّصارى، حتى ليُؤْثَرَ عن عبد الله بن سلاَم رضي الله عنه، أنه لمَّا أسلم، قال له عمر رضي الله عنه: أتعرفُ محمداً كما تعرف ابنك؟! قال: نعم وأكثر، بعث الله أمينَهُ في سمائه إلى أمينِه في أرضه بنعته فعرفته، وابني لا أدري ما كان من أمِّه!.

ويُروى أنَّ الفاروق رضي الله عنه قبَّل رأسه حين سمع منه ذلك. وكأنَّه رضي الله عنه ـ وقد فرح بعلم عبد الله وإيمانه ـ كان أشدَّ فرحاً بصدق قول الله جل ثناؤه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(١).

كاتمو الحق وهم يعلمون

وكأنِّي بالرسول ﷺ ـ وهو يُحدِّث بحديثه هذا ـ يقْصد أول ما يقْصد إلى هؤلاء الجاحدين الذين يكتمونَ الحقَّ وهم يعلمون! سواءٌ منهم مَنْ جَحَد

---

(١) سورة البقرة: ١٤٦.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

رسالتَه جملةً وتفصيلاً، ومَنْ جَحَد عمومها إلى الناس كافة، وزعم أنه رسول الله إلى العرب خاصَّة؛ لأنه نبيٌّ أُميٌّ، والعربُ قومٌ أميُّون! وقد قال هو في نفسه: «نحنُ أُمَّةٌ أميَّةٌ لا نكتب ولا نحسب..» (١) فاتَّخذ بهذا الزعم الضالِّ المضلِّ الكاذب المنافق ـ طريقاً وسطاً ـ لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ـ وآمن ببعض الكتاب، وكَفَر ببعضه، وضلَّ ضلالاً بعيداً!!

صَيْحة مُدَوِّية

يَقْصد الرسول ﷺ أوَّل ما يقْصد إلى هؤلاء الحاسدين الجاحدين، فيُرسلها صيحةً عالية مُدوِّية، مُقْسماً بالقاهر فَوْقَ عباده، القائم على كلِّ نفس بما كَسَبَتْ، مَنْ بيده نفسُه وأنفُس العباد جميعاً: إنه لا يسمع نداءه كائنٌ من أمة الدعوة إلى يومِ الفَزَعِ الأكبر، ثمَّ يموت غيرَ مُجيبٍ له، إلاَّ كان من أهل النار خالداً مخلَّداً فيها أبداً.

وإذا كان أهل الكتاب من اليهود والنَّصارى لم يُغْن عنهم كتابهم من الله شيئاً، بعد رسالة خاتم النبيين صلواتُ الله وسلامه عليهم، فإنَّ مَنْ عداهم ـ ممَّن ليسوا بأهل كتاب ـ أَوْلى بأن يُؤمنوا به، ويُعزِّروه وينصروه، ويتَّبعوا النُّور الذي أُنزل معه، ويستمعوا له وهو يتلو عليهم: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (١٩١٣)، ومسلم (١٠٨٠) ولفظه في البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّا أُمَّةٌ أميَّةٌ لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا وهكذا» يعني مرةً تسعةً وعشرين، ومرة ثلاثين. وانظر شرحه ص٣٣٣.

(٢) سورة الأعراف: ١٥٨.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة
شبكة الألوكة www.alukah.net

ما آمن بالله من لم يؤمن برسوله ﷺ

ولسنا بعد بيان الله ورسوله بحاجةٍ إلى أن نعيد ماقلناه في مناسبات عدَّة: إنه لن يؤمن بالله مَنْ لم يؤمن برسوله محمد بن عبد الله ﷺ، وإنه لـن ينفعـه عنـد الله، ولن يُنجيَه من عذابه ما قدَّم لهذه الإنسـانية مـن حَسَـنات شـتَّى. وكيـف، وأساس القبول أن يعرف العامل مَنْ عمل عملَه لأجله؟! ولـن يعرفـه إلاَّ مِـن طريق رسوله الذي أرسله داعياً إليه بإذنه[١].

ولو أنَّ عملاً ينجي من عذاب الله أحداً غير مؤمن، لكان عمُّه ـ الذي أسلفنا من حَسَناته الجسام ما أسلفنا ـ أَوْلَى بذلك وأحْرى، وإنَّ يوماً مـن أيامـه في الشِّعب مع ابن أخيه لأرْجَح وزناً، وأكبر شأناً ممَّا قـدَّم هـؤلاء الكاشـفون، والمخترعون للناس في حياتهم الدنيا[٢].

وحَسْبهم أنَّ الله يُعجِّل لهم في هذه العَاجِلَة ثواب ما قدَّموا للناس فيها، جزاءً وفاقاً.

ولا حَرَج على فَضْله تعالى أن يُخَفّف عنهم من عذاب الجحيم شيئاً، وإنْ كانوا خالدين فيه أبداً.

مَنْ بلغتهم الدعوة الإسلامية محرَّفة

بقي مَنْ بلغتهم الدعوة المحمديَّة مُشوَّهةً بالأباطيل والمفتريات، وكثيرٌ ما هم، والظاهر ـ كما قال جمعٌ من الفضلاء المعاصرين[٣] ـ أنَّ هؤلاء في حكم مَنْ لم تبلغهم الدعوة، اللهمَّ إلا أن تلوح لبعضهم شمسُ الحقيقة من خلال سُحُب الكتمان والتلبيس، ثم يَعمى عنها، ويُعرض عن النظر فيها مع قدرته

---

(١) انظر: جزاء الصالحات ص١٥٦ ـ ١٦٠.

(٢) انظر: جزاء الصالحات، قصة أبي طالب ص١٦٣ ـ ١٦٦.

(٣) منهم أستاذنا الكبير محمد عبد الله دراز في كتابه: «المختار من تيسير الوصول» [١٩٠] وقد انتفعنا به في شرح هذا الحديث (طه).

الجديد و الطريف NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

على ذلك، فإنَّما إثمه على نفسه.

مسؤولية الأمة الإسلامية في تبليغ الدعوة

وهذا لايعفي الأمة الإسلامية ـ ولا سيَّما أُولي الأمر منها ـ منْ تَبِعَة المؤَاخَذَة والتقصير في تبليغ الدعوة المحمديَّة، ما استطاعت إلى التبليغ سبيلاً.

ضَيْعةُ الحقِّ بين الغفلة والجهالة

والعَجَب أنا لانغار على دعوتنا وهي دعوة الحق، معشار ما نرى ونسمع من نشاط الذين يُسمُّون أنفسَهم بالمبشِّرين، وينفقون في محاربة دعوتنا كلَّ عام مئات الملايين!! فيا ضَيْعَة الحقِّ بين الغفلة والجهالة!!

صلة الحديث ببحث جزاء الصالحات

أما بعد، فلهذا الحديث صلةٌ وثيقةٌ ببحث «جزاء الصالحات»، كما له صلة وثيقة كذلك بالبحث في «أهل الفترة»، وكنَّا وعدنا القرَّاء بأن نتحدَّث إليهم فيها، إجابةً لرغبات جاءتنا من العراق. غير أنَّا وجدنا مَنْ سبقنا إلى الإفاضة في هذا البحث، قديماً وحديثاً، ممَّا يجعل كلامنا بعده حديثاً معاداً.

إحالة إلى مراجع

فإلى هؤلاء الذين رغبوا مُلحِّين أن نتكلَّم في أهل الفترة عامة، وأبوي النبيِّ ﷺ خاصَّة ـ نسوقُ هذه المراجع السهلة اليسيرة:

«روح المعاني» للعلامة الآلوسي العراقي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[1].

مجلة الأزهر في مجلدها الثامن ص ٦٠٦ في «الدعوة إلى الله تعالى وأهل

---

(١) ١٠: ٣٥ ـ ٤١.

الجديد و الطريف NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الفترة» للأستاذ الجزيري، مُحَرِّرِ السُّنَّة حينئذ[١].

مجلة «لواء الإسلام» في جزئها الأول ـ جزء رمضان المبارك ـ من عامنا هذا، وقد تناولت في ندوتها بحثاً ـ في الدعوة والفترة ـ مستفيضاً[٢].

أما نحن، فقد اكتفينا إذْ كُفينا. والسَّلام على مَن اتَّبع الهُدى، ومَنْ إذا خاطبهم الجاهلون، قالوا: سلاماً.

* * * * *

(١) وستنشر ـ بعون الله تعالى ـ بعنايتي في مجموع الأحاديث المشروحة في مجلة الأزهر، والتي تتضمَّن ماكتبه الأساتذة: حسن منصور، وإبراهيم الجبالي، وعبد الرحمن الجزيري، وفكري ياسين رحمهم الله تعالى.

(٢) قمت بجمع وترتيب وَصَفِّ جميع الندوات في مجلة «لواء الإسلام»، وانتهيت من تصحيحها والتعليق عليها، وستصدر بعون الله تعالى وفضله بعنايتي في عدَّة مجلدات.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

عمل المرء لنفسه*

١١ ـ عن أنس بن مالك رضي الله عنه يقولُ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يتبع الميِّت ثلاثةٌ، فيرجع اثنانِ ويبقى واحد: يتبعه أهلُهُ ومالُهُ وعملُهُ، فيرجع أهلهُ ومالهُ، ويبقى عملُه». رواه الشيخان، واللفظ للبخاري(١).

حرص الرسول ﷺ على أمته

من حرص الرسول ﷺ على أمته، ومن آثار رأفته بهم ورحمته، أنه لا يألوهم نُصحاً، ولا يدَّخر عنهم وسعاً، في كلِّ ما يسوق لهم نفعاً، أو يدفع عنهم ضراً، أو يبقى لهم ذُخراً، في هذه الحياة الدنيا وفي الحياة الأخرى.

أبقى الأصحاب وأكرمهم

وفي هذا الحديث المُوجَز الجامع، يهيب بأمته صلوات الله وسلامه عليه، ويدعو كلَّ فرد منها أبلغ دعوةٍ وأجمعَها، أن يَصْطفيَ أنيسه في وحشته، وجليسَه في وحدته، وطائرَه في عُنُقه، يوم يقال له: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾(٢).

لقد حذَّرنا صلوات الله عليه وسلامه الجليسَ السُّوء، ورغَّبنا في الجليس

---

* مجلة الأزهر، العدد السادس، من المجلد الثلاثون، سنة (١٣٧٨).

(١) ولا يختلف عن لفظ مسلم إلا في زيادة «معه» وماضي المضارعين: تبع ـ كعلم ـ أو اتبَّع، بتشديد التاء. رواه البخاري في باب «سكرات الموت» ١١: ٣٦٢ من «كتاب الرقاق» (٦٥١٤)، ورواه مسلم ٤: ٢٢٧٣ في أول كتاب «الزهد» (٢٩٦٠) (طه).

(٢) سورة الإسراء: ١٤.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الصالح، وأخبرنا أنَّ المرء على دين خليله؛ لينظر كلّ من يخالل، وليس أحدٌ منهم بالمقيم معنا أو الباقي في دار الفناء.

لا جرَم أنَّ دعوته ﷺ، إلى اختيار الصَّاحب الباقي في دار البقاء أجلّ وألزم، وهل للمرء صاحبٌ أبقى وأدْوَم، وآنسُ وأكرم، من العمل الصَّالح الذي ليس له فيه من نعمةٍ تُجزى، إلاَّ ابتغاء وجه ربّه الأعلى؟.

إنَّ هذا العمل الخالص المُصَفَّى، رائدٌ في حياته، وبشيرُه بعد مماته، ونورُه الذي يمشي به في الدنيا، ويسعى به في الآخرة.

متى يكون العمل صالحاً؟

ولا يكون العمل خالصاً مُصَفّى، مُبْتغىً به وجه الله عز وجل، إلا إذا كان تابعاً للعلم المأثور، مُصاحباً للإيمان الخالص، بريئاً من النفاق والغش.

فأما العمل الصادر عن جهَالة أو هوى، أو عن رياء وسمعة فلا خير في صحبته، ولا وزن له عند مَنْ يضع الموازين القسط ليوم القيامة، ويعلم السرَّ وأخفى، ومَنْ هو أغنى الشركاء عن الشِّرك؛ بل إنَّ هذا العمل نكالٌ لصاحبه ووبالٌ عليه، وأشد الأصحاب خذلاناً له!!.

وأضلّ من هذا العمل ضلالاً، وأبعد منه وبالاً ونكالاً، عمل من يفرّقون بين الله ورسله، ولا يؤمنون حقَّ الإيمان بخاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليهم، وبكلٍّ ما جاء به.

ومحَالٌ أن يجزيَ الله في اليوم الآخر مَنْ لا يؤمن باليوم الآخر، ومن كذب بما أرسل به رسله، وبما أنزل به كتبه ﴿ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾[1].

(١) اقتباس من الآيتين ٢٥و ٢٦ من سورة النبأ.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

فأما ما قدَّموه من خير في دنياهم فقد عجَّل لهم جزاءه فيها؛ وأما أُخراهم، فلا مقال لأحدٍ بعد قوله سبحانه: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾[١].

هدي الرسول وأصحابه

وربَّما ظنَّ قريبُ النظر أنَّ هذا الحديث يدعو إلى ترك الدنيا وعدم السَّعي فيها، وإلى الزهد بالطيِّبات وعدم التمتُّع بها، وإلى الاشتغال بالعبادة والعكوف عليها، وربَّما أيَّد ظنَّه هذا بأنَّ الحديثَ مَرويٌّ في أبواب الزهد والرقائق.

ولكن ذلك نظر قاصر، يحصر الحديثَ في أضيَق حدوده، ويجافي هديَ الرسول وصحابته، فقد كان صلوات الله وسلامه عليه ينهى عن الرهبانية في الإسلام، ويأكل الطيِّبات ويجيب الدعوة إليها، ويدعو إلى الشكر عليها، ويقول فيما رواه الإمام أحمد: «نِعْمَ المالُ الصَّالح للرجل الصَّالح»[٢].

وكان أصحابه بعد أن فتح الله عليهم يملكون هذه الدنيا ولا يصدُّون عنها؛ بل كان منهم ـ في عهد النبوة ـ الأغنياء الأثرياء، والتجار الأوفياء، الذين قال الله فيهم: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾[٣].

بَيْد أنهم كانوا يملكون الدنيا ولا تملكهم، ويهبونها لله ولا تحزنهم، ويتوسَّلون بها إلى الله ولا تفتنهم، وأولئك سادة الزهَّاد، وهداة العبَّاد، إلى

---

(١) سورة الفرقان: ٢٣.

(٢) رواه أحمد في المسند ٤: ١٩٧ (١٧٧٦٣)، وابن حبان (٣٢١٠)، والطبراني في الأوسط (٣٢١٣) وإسناده صحيح على شرط مسلم. انظر: «المسند» ٢٩: ٢٩٨ بتحقيق الأرناؤوط وآخرين.

(٣) سورة النور: ٣٧.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

عِمَارة الدنيا الصَّالحة، والتجارة الرابحة، والملك الرشيد.

تسخير الدنيا واتخاذها وسيلة إلى الخير

على أنَّ من أعظم العبادات، وأجلِّ القُربات، تسخير هذه الدنيا واتخاذها وسيلة، إلى الخير والبر، وذخيرة من صالح الأعمال.

وفي هذا التَّسخير على الوجه الذي يرضاه الله سبحانه، شكرٌ للشاكرين، وتعليمٌ للجاحدين، بأنَّ أحقَّ الناس بخلافة الأرض وعمارتها والتمكين منها، هم العاملون الصالحون.

الحرص على العمل الصالح

وإذا كان عملُ العبد يصحبه ويبقى معه حتى يلقى ربَّه عزَّ وجل، يوم تبيضُّ وجوهٌ وتسودُّ وجوه، على حين يفارقه أهله وماله، أشدّ ما يكون محتاجاً إليهم! فما أجدره إذاً أن يحرص على صاحبه الذي لا يغني عنه أهل ولا مال، حِرْصَهَ على نفسه التي لا يجدُ منها بديلاً ولا عوضاً!.

وجهٌ يبشِّر بالخير

ومن هنا يتبيَّن أن الحديث لا يألو جهداً في الدعوة إلى العمل النقيِّ الخالص، الذي يتمثَّل لصاحبه في القبر رجلاً حسن الوجه، حسنَ الثياب، طيِّبَ الريح، فيقول: «أبشر بالذي يسرُّك، هذا يومُك الذي كنت تُوعد، فيقول له: مَنْ أنت؟ فوجهُك الوَجْهُ الذي يأتي بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح...». في حديث طويل رواه الإمام أحمد[١].

---

(١) رواه أحمد في «المسند» ٤ : ٢٨٧ (١٨٥٣٤)، والبيهقي في «الشُّعب» (٣٩٥).

قال البيهقي في «الشعب»: هذا حديث صحيح الإسناد. وقال ابن منده: هذا إسناد متَّصل مشهور، رواه جماعة عن البراء، انظر: التعليق على «المسند» طبعة مؤسسة الرسالة.

الجديد و طرح NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

فلْينظر المرء ـ وهو في سَعَةٍ من أمره ـ كيف يعدُّ جليسه في رَوْضتِهِ إنْ شاء، أو في حفرته؟!.

واتّباع الأهل والمال للموتى أمرٌ أغلبيٌّ، فرُبَّ ميِّت لا مالَ له ولا أهل، وقد يكون له أهل ولا يمكَّنون من اتِّباعه وتأدية حقِّه!.

والاتِّباع هنا يشمل الحسيَّ والمعنويَّ، والمراد: أنَّ كلاً من هؤلاء الثلاثة يتعلَّق بالميِّت على وجوهٍ شتَّى، ثم ينفضُّ عنه المال والأهل، ويلزمه العمل.

أكمل الهَدْي في تشييع الميت

ويشير الحديث إلى حقٍّ من حقوق الميِّت، وهو: تشييعه وتوديعه. والسنة لمن اتَّبع الجنازة إن كان راكباً أن يكون وراء المشيِّعين جميعاً، وإن كان ماشياً أن يكون قريباً منها؛ خلفها أو أمامها عن يمينها أو عن شمالها، وأكمل الهَدْي وأفضله أن يشيِّع أخاه إلى قبره ماشياً أمامه؛ لأنه بمنزلة الشفيع له.. وتلك سنة النبيِّ ﷺ وسنة خلفائه الراشدين من بعده.

أما بعد، فهذا حديثٌ في عمل المرء لنفسه وتقديمه لحياته قبل رَمْسه، يتصَّل به حديث آخر في عمل المرء لغيره، رغبةً في نفعه وبره. وموعدنا الجزء القادم بمشيئة الله تعالى وتوفيقه.

* * * * *

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

عمل المرء لغيره *

١٢ـ عن أبي هُريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات الإنسانُ انقطع عمله إلاّ من ثلاثةٍ: إلاَّ من صدقةٍ جاريةٍ، أو علم يُنتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له». رواه مسلم(١).

مثوبة الله تعالى لعبده على عمل غيره

كَثُر الجَدَل قديماً وحديثاً ـ ولا يزال قائماً ـ في مثوبة الله تعالى وجزائه لعبده على عمل غيره.. فرَجَوْنا من الله أن يهديَنا سبيل الرَّشاد، حتى نَخْلُصَ إلى الحقِّ من بين هذه المعركة الثائرة، وأن يشرحَ بالحقِّ صدوراً لا تزال بالجدل ضائقة حائرة، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾(٢).

صلاح العمل عند الله

لا جِدَال في أنّ من أصول الإسلام البيِّنة، ألاَّ يُقبلَ عند الله عملٌ غير

* مجلة الأزهر، العدد الثامن، المجلد الثلاثون (١٣٧٨ = ١٩٥٩).

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١) في كتاب الوصية بهذا اللفظ ليس غير. وهو الذي ذكره ابن القيم في كتابه «الروح» [ص٢٩٨] لكن بلفظ «ثلاث» من غير هاء، ورفعه النووي في شرحه لمقدمة مسلم [١ :٦٠] بلفظ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية... إلخ»، ومن الغريب أن ينسبه صاحب «كشف الخفاء» [١ :٩٩] إلى أبي داود (٢٨٨٠) والترمذي (١٣٧٦)، والنسائي (٣٦٥١)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٨)، ويترك «مسلماً»، ولعله سهوٌ منه أو من الناسخ، ومن الخطأ نسبته إلى الشيخين، أو إلى البخاري وحده؛ فإنه لم يخرِّجه في «صحيحه»، وهو المراد عند الإطلاق (طه).

(٢) اقتباس من الآية ٤ من سورة الأحزاب.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

صالح، سواء أعمله المرء لنفسه، وهو ما قدَّمنا الحديث عنه في الجزء الأسبق؛ أم عمله المرء لغيره، وهو ما نعرض له في هذا الحديث؛ ولا جدال كذلك، في أنّ صلاح العمل عند الله سبحانه، إنما هو ببنائه على العلم المأثور، وخلوصِهِ من الشِّرك أكبرِهِ وأصغَرِهِ، حتى لا يبتغيَ به عاملُه إلاّ وَجْهَ ربِّه الأعلى.

ومن الأوَّليَّات التي يعرفُها كلُّ مسلم أنَّ الإسلام بُني على الإيمان والعمل، والتعاون على البرِّ والتقوى.

الأعمال أصناف ثلاثة

ومما يجب التنبيه عليه في هذه المقدمة ـ إحقاقاً للحق وإيضاحًا له ـ أنَّ عمل العبد قد ينتهي بانتهاء أجله، وقد يمتد إلى أمدٍ ـ قريب أو بعيد ـ بعد أجله، وربَّما كان عظيماً خالداً لا ينقطع أثره. وقد يكون المرء سبباً في عمل غيره له، فينسب إليه كأنه عمله، ويلحقُه ثوابه وأجره من غير أن ينقص شيءٌ من أجر العامل نفسه؛ ومن هنا كان الدالّ على الخير كفاعله.. وإذاً فالأعمال أصناف ثلاثة:

١ـ عمل المرء لنفسه؛ كسباً، وسعياً، وتحصيلاً من طريق متَّصل مباشرة، لا وَسَاطة فيه ولا سبب، كصلاتِهِ وصيامِهِ وحَجِّه، وسائر أعماله البارَّة التي تنتهي بموته، أو يمتدُّ أثرها بعده إلى ما شاء الله لها أن تمتدَّ، مُسَجَّلَةً في صحيفته، كعلمه النافع، وتأليفه الراشد، وحَبْسه الخير على أهله.

٢ـ وعملٌ لم يعمله المرء لنفسه، ولكنه كان سبباً فيه، أو داعياً له ودالاً عليه، ولولاه ما نَبَتَ هذا العمل ولا أثمر، كَمَنْ أنقذ كافراً، أو أرشد حائراً، أو هدى ضالاًّ، أو علَّم جاهلاً، أو دَعَا إلى الرُّشد حاكماً، أو ردَّ إلى العدل ظالماً.. لا جَرَمَ أنَّ له أعمالاً مباشرةً متَّصلة، هي الإنقاذ والإرشاد والهداية والتعليم والدعوة والرد، وله وراءها أجورُ آثارها الحَسَنة؛ إذ كان سبباً فيها،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولولاه لهدمها الكفر وما بعده.

٣ـ وعملٌ لم يعمله المرء ولم يكن له فيه سعيٌ ولا سبب، اللهم إلا السبب العام، وهو الإيمان بالله وبما جاء به خاتمُ النبيين صلوات الله وسلامه عليهم.

انتفاع المؤمن بعمله وبما كان سبباً فيه بعد موته

والحديثُ شاهدُ عَدْلٍ على أنَّ المرء ينتفع بعمله، الذي امتدَّ أثره بعد موته، كما ينتفع بعمله الذي انقطع ثوابُه بموته؛ وعلى بطلانِ ما ذهب إليه شِرذمةٌ من أهل الكلام والبدع، زعموا أن الميِّت لا ينتفع بعد أن فارقَ حياته بشيءٍ البتة، وشاهدُ عدل كذلك على أنه ينتفع بما كان سبباً فيه وداعياً له؛ فإن استثناء هذه الأعمال الثلاثة من جملةِ عمله دليلٌ على أنها منه، وأنَّ سبب العمل والسعيَ فيه يلحقه به.

تنشئة الأولاد على الهدى والاستقامة

لا جَرَمَ أنَّ الولد من كسب الوالد وسعيه، وأنَّ ما يعملُه من الصَّالحات فلأبيه وأمه في صحائفهما مثلُ أجره؛ إذْ كانا السبب في وجوده وتربيته؛ ومن هنا كان من أعظم الأعمال أثراً، وأجلِّها قدراً: تنشئةُ الأولاد على الهدى والاستقامة، وتربيتُهم على الصَّالحات التي يدَّخرها الوالدان لنفسيهما، وليس عليهما بعد بلوغ الجهد والوسع في التربية على الهداية، ألاّ يهتديَ الولد؛ فإنَّ التوفيق للهداية بيد الله وحده، وقد قال لنبيه صلوات الله عليه وسلامه: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[(١)].

ويؤيِّد هذا الحديث ويفصِّله ما رواه ابن ماجَهْ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ ممَّا يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته:

(١) سورة القصص: ٥٦.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

علماً علَّمه ونشرَه، وولداً صالحاً تركه، ومصحفاً ورّثه، أو مسجداً بناه، أو بيتاً لابن السبيل بناه، أو نهراً أجراه، أو صدقةً أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته»[١].

أصول الصالحات المذخورة:

والاقتصار على الثلاثة في حديث مسلم؛ لأنها أصول الصَّالحات المَذْخورة التي يُردُّ إليها غيرها، ويُقاس عليها أمثالها؛ أو لأنَّ الله أعلمَه بالثلاثة أولاً، ثم أعلمُه بما زاد عليه ثانياً، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[٢].

وقف الخيرات والمبرّات

وفي الحديث: الحضُّ على وقف الخيرات والمبرَّات الدائمة التي يبقى ذُخرها وأجْرها ما بقيت أعيانها...

العلم النافع

وتقييدُ العلم بالمنتفع به؛ لأنّ العلم الذي لا يُنتفع به لا يثمر أجراً، بل ربّما كان وزراً وبلاءً وإثماً على صاحبه!.

«ومن سنَّ في الإسلام سنّة حسنة، فله أجرُها وأجرُ مَنْ عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء. ومَنْ سنَّ في الإسلام سنَّةً سيِّئة كان عليه وزْرها ووزْر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[٣].

---

(١) أخرجه ابن ماجَهْ (٢٤٢)، وابن خزيمة (٢٤٩٠)، ومن طريقه البيهقي في «الشُّعب» (٣٤٤٨) من طريق مرزوق بن أبي الهذيل، عن الزهري، عن أبي عبد الله الأغر، عن أبي هريرة مرفوعاً. وإسناده ضعيف، مرزوق بن أبي الهذيل ليِّن الحديث. وفي الباب عن أبي قتادة عند ابن ماجه (٢٤١)، وابن حبان (٩٣).

(٢) سورة طه: ١١٤.

(٣) اقتباس من حديث رواه مسلم (١٠١٧) وقد شرحه المؤلف رحمه الله تعالى =

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الولد الصالح

وإنّما وُصف الولد بالصلاح؛ لأنَّ الأجر قلَّما يكون من غيره، اللهمَّ إلا أجر الصبر على مصيبته، والنكبة به، والجهاد في تقويمه!!.

لا جَرَم أنَّ فسق الأولاد وعقوقهم من أشدِّ البلايا والمصائب والفتن التي يَمتحنُ بها الله آباءَهُم!! وأن موتهم لأهون هذه البلايا وأيسرها على ذويهم!!.

ولا يلحق الوالد شيءٌ من أوزار ولده وسيِّئاته، إذا كانت نيّته في تربيته تحصيلَ الخير له، والعمل على ما ينفعه في دينه ودنياه، ولم يكن معيناً له على فساده...

هل الأجر متوقِّفٌ على دعاء الولد؟

وليس دعاء الولد شرطاً في حصول أجر الوالد ومثوبته؛ فإنَّ الأجر ثابتٌ للوالدين كلَّما عمل عملاً صالحاً، وإن لم يدعُ لهما؛ كَمَن غرس شجراً، أو أجرى نهراً، أو وقف خيراً، فإن له أجرها سواءٌ دعا له من انتفع به، أم لم يدع له.

وإنما ذُكر الدعاء تحريضاً للولد على الدعاء لوالديه، وبراً بهما، وشكراً لهما، ووفاءً لبعض حقِّهما عليه، وامتثالاً لأمر الله تعالى، واقتداءً برسله صلوات الله وسلامه عليهم، فقد قال جلَّ ثناؤه: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾[1].

وحكى عن شيخ رسله وأنبيائه ـ نوح عليه السلام ـ دعاءَه لوالديه خاصَّة، وللمؤمنين عامة، فقال عزَّ من قائل: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ

بعنوان: سنَّةٌ حسنة. انظر: ص٤٩٦.

(١) سورة الإسراء: ٢٤.

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا ﴾[١].

لا جرم أنَّ الولد يُؤْجر على الدعاء لوالديه، وأنَّ الوالدين ينتفعان بدعاء ولدهما، علاوةً على انتفاعهما بكل عمل صالح يعمله.

أما بعد، فهاهو الحديث شمل صنفين من العبادة، أجمع المسلمون على مثوبتهما وعظَم آثارهما والانتفاع بهما ... وبقي النظر في الصنف الثالث، ندِّخره للجزء القادم، فما أجدره بجزء مستقل[٢]. والله المستعان على قول الحق واتِّباع سبيل المؤمنين، ولا حول ولا قوة إلا به.

* * * * *

(١) سورة نوح: ٢٨.

(٢) لم أقف على تتمَّة شرحه لهذا الحديث، وهو آخر ما وقفت عليه منشوراً في مجلة الأزهر، ولعلَّ الله سبحانه يقيِّض لي الوقوف على تتمة شرحه لهذا الحديث وغيره مما لم ينشر للمؤلف رحمه الله تعالى.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

العينُ حَقٌّ*

١٣ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «العينُ حقٌّ». ونَهى عن الوشم. رواه البخاري[1].

١٤ ـ عن ابن عباس رضيَ اللهُ عنهما، عن النبيِّ ﷺ قال: «العينُ حقٌّ، ولو كان شيءٌ سَابقَ القَدرَ سَبقَتْهُ العَيْنُ، وإذا اسْتُغسِلْتُمْ فاغسِلوا». رواه مسلم[2].

اتَّفق الشيخان على الشطر الأول من الحديثَيْن، وانفرد الإمام أبو عبد الله البخاري بما ضَمَّ إليه من النهي عن الوشْم، وإنْ كانا مُتَّفقَيْن على حديث: «لعن الواشمة والمستوشمة»[3]. وَحَسْبُك ما في اللعن من الوعيد وبليغ النهي!. وانفرد الإمام أبو الحسين مسلمٌ بما ضمَّ إليه من توكيد الإصابة بالعين، ومن بعض علاجها المادي.

---

* مجلة الأزهر، العدد الرابع، المجلد الثلاثون، سنة (١٣٧٨ =١٩٥٨).

(١) أخرجه البخاري في كتاب الطب (٥٧٤٠)، وكتاب اللباس (٥٩٤٤)، ومسلم (٢١٨٧) من حديث أبي هريرة بلفظ: «العين حق» وليس فيها النهي عن الوشْم .

(٢) أخرجه مسلم (٢١٨٨) في كتاب السلام، باب الطب والمرضى والرقى. وذكره صاحب «زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم» في حرف العين، تسامحاً، فإنما اتَّفقا على الشطر الأول كما رأيت. وأما الحديث الأول فرواه البخاري في باب العين الحق، من كتاب الطب، وفي باب الوشمة، من كتاب اللباس (طه).

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٨٦) و(٥٩٣٧)، ومسلم (٢١٢٤)و (٢١٢٥).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وفي روايةٍ للإمام أحمد: «العينُ حقٌّ، ويَحضُر بها الشيطان وحسدُ ابن آدم»[١].

ولأبي نُعيم: «العين حقٌّ، تُدخل الجملَ القِدْر، والرجلَ القبرَ»[٢]!.

وجليٌّ أنَّ الرسول صلوات الله عليه وسلامه تحدَّث بهذا الشَّطر في مناسباتٍ شتى، بيَّن فيها كلها أنَّ الإصابة بالعين حقٌّ لا شكَّ فيه. ويعلم المؤمنون بالرسول ﷺ وما أنزل إليه من ربِّه أنه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[٣].

النهيُ عن الوشْم

ثم نهى في بعض المناسبات عن الوَشْم، وهو غَرْزُ إبرةٍ أو نحوها في الجِلدِ حتى يسيل الدم! ثم يذرُّ عليه كحلٌ أو نحوُه ليخضرَّ، وهو تغييرٌ لخلق الله وفطرته، ومن هنا لعن اللهُ فاعله والداعيَ إليه!.

ففي كلٍّ من الإبرة والعين وَخزٌ من الشَّيطان، يُغضبُ الرَّحمن عزَّ وجل، وإن كان أحدُهما وخْزاً حسيًّا والآخر وخزاً ماديًّا!.

---

(١) أخرجه أحمد ٢: ٤٣٩ (٩٦٦٨) وإسناده منقطع، مكحول لم يسمع من أبي هريرة. وقوله: «يحضر بها» أي: معها.

(٢) أخرجه أبو نُعيم في «الحلية» ٧: ٩٠، والخطيب في «تاريخ بغداد» ٩: ٢٤٤ (زوائد ١٣٨٠) في ترجمة شعيب بن أيوب الصَّرِيفيني من حديث جابر بن عبد الله مرفوعاً، وقد تفرَّد به شعيب عن معاوية ابن هشام، ونقل السخاوي في«المقاصد الحسنة» ص٢٩٤ عن إسماعيل الصابوني: وبلغني أنه قيل له: ينبغي أن تمسك عن هذه الرواية، فَفَعل، وقال الذهبي في «الميزان» في ترجمة شعيب بن أيوب ٢ :٢٧٥: وله حديث منكر، ذكره الخطيب في «تاريخه» يريد هذا الحديث.

(٣) سورة التغابن: ١١.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ذلك إلى أنَّ من البواعث على الوشْم دفع العين أو اتِّقاءَ ضررها بما لم يعتمد على عقل ولا نقل، فكان من اللطائف النبوية النهي عن الدواء الذي لم يأذن به الله، إلى الدواء الذي أذن به.

إصابة العين والقدر

وفي بعض المناسبات قَرَن النبيُّ ﷺ إصابة العين بالقدر ـ وإن كانت منه بلا رَيْب ـ توكيداً لنفاذ سهمها، وشدَّة تأثيرها فيمن تصيب، بإذن القائم على كلِّ نفس بما كسبت، وكأنه يقول صلوات الله عليه وسلامه: لو صحَّ أنْ يغالبَ القدرَ شيءٌ ويسابقه في إفناء شيء، أو الإضرار به قبل أجله المضروب له، لسبقت العين، فهو توكيدٌ بليغ من طريق الفرض، ومثلُه في كلام البلغاء والمربّين ذائعٌ شائع لا نطيل القول به.

عالم الروح والغيب

وفي هذا التوكيد النبويِّ الذي يكاد يبلغ مبلغَ التواتر في إصابة العين، تنبيه على دِقَّة الأمر، وعلى أنه في عالم الروح والغيب، الذي يشقُّ على كثير من الناس تصديقُه، ولا سيما الذين يقِفون عند ظواهر الأمور، ولا يؤمنون إلا بما يقع في دائرة الحسِّ والهوى.

لا جرم أنَّ الأباطيل والخرافات، سمَّمت كثيراً من الأفكار والأخبار، وسيطرت على كثير من الجهَّال وأنصاف المتعلمين، وشكَّكَتْ غيرَ قليل من الباحثين الحائرين، ولكنَّ الحسَّ والهوى ما كانا ـ ولن يكونا أبداً ـ مقياساً للتصديق أو التكذيب؛ فالهوى يُعمي ويصُمُّ، إلا هوًى تابعاً لما جاء به المعصوم ﷺ. والحسُّ مقياسٌ أبتر أعوج، تكرَّر خطؤه ونقصه وقِصَرُه في المُحَسَّات، فضلاً عن المغيَّبات، بشهادة الذين لا يؤمنون بالغيب ....

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المقياس الرشيد في عالم الغيب والشهادة

والمقياس الرشيد في عالم الغيب والشهادة: هو التصديق بكلِّ ما صدَّقه الله ورسوله، والتكذيب بكلٍّ ما كذَّبه الله ورسوله، والسكوتُ عما سكتَ عنه الله ورسوله، وجاز عقلاً وشرعاً أن يكون وألا يكون.

وقد قال العلماء: إنَّ كلَّ شيء ليس مُحالاً في نفسه، ولا يؤدِّي إلى قَلْب حقيقة، ولا فساد دليل فهو مما يجيزه العقل، فإذا أخبر به المعصوم كان إنكاره مكابرةً. وصحة الخبر برواية الثقات كافية، وإن لم تكن متواترة... وإلاَّ جحدنا كثيراً من أخبار الصادق المصدوق بعد ما ظهر الدليل ووضح السبيل.

إطفاء شعلة العين الحاسدة

وأما قوله صلوات الله وسلامه عليه: «وإذا استُغْسِلتم فاغسلوا»، فهو بيانٌ للطبِّ المادي من العين، يأمر العائن أن يغتسل إذا طُلب منه الغسيل، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الاغتسال كان معروفاً عندهم، فأمَرَهم ألاَّ يمتنعوا منه إذا طُلب منهم؛ وأدنى ما فيه الطمأنينةُ لهم ورفعُ الوهم عنهم. وظاهر أنَّ هذا الاغتسال رخصةٌ؛ فينبغي الاقتصار على ما جاء فيها دون التوسُّع فيما ابتدع المبتدعون، وتزيَّدوا وكذبوا على الله ورسوله، ونفَّروا كثيراً من ذَوي الفطرةِ البريئة من الأحاديث الصحيحة!.

وقد روى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان يُؤْمر العائن، فيتوضأ، ثم يغتسل منه المُعين»[1].

وفي هذا الاغتسال ـ كما قال العلماء ـ مناسبةٌ لا تأباها العقول السليمة، فهذا ترياقُ سمِّ الحية يُؤْخذ من لحمها، وهذا علاج النفس الغضبيَّة؛ توضع اليد على بدن الغضبان، فيسكن، فكأنَّ العين الحاسدة كشعلةٍ من نارٍ وقعت على

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٨٠) في الطب، ورجاله ثقات.

الجديد و طهرة NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

جسد المحسود، ففي اغتساله إطفاءٌ لتلك الشعلة.

الرُّقية المشروعة

وأعظم من هذا الطب الماديِّ وأنسب، ذلك الطبُّ الروحي النبوي، بالرُّقى والمعوذات التي جاءت عن الله ورسوله، وقايةً وعلاجاً.

ومنها ما رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبيُّ ﷺ يعوِّذ الحسَنَ والحُسين، ويقول: «إنَّ أباكما كان يُعوِّذ بها إسماعيل وإسحاق: أعوذ بكلمات الله التامَّة، من كلِّ شيطان وهامَّة، ومن كلِّ عينٍ لامَّة»(١).

والشيطان هنا: شيطانُ الإنس والجن، والهامَّة واحدة الهوام ـ بتشديد الميم ـ: ذوات السُّموم، والعين اللامة: النازلة التي تصيب بسوء، من أعين الإنس والجن.

وقد روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: «أمرني النبيُّ ﷺ، أو أمر أن نسترقيَ من العين»(٢).

وثبت في صحيح مسلم «أنّ جبريل عليه السلام رقى النبيَّ ﷺ»(٣).

وأفاض علماء السنة والاجتماع ـ وفي مقدمتهم ابن خلدون ـ في العين وإصابتِها وتأثيرِها بإذن الله تعالى، وعلاجها بالرُّقية المشروعة(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٧١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٣٨)، ومسلم (٢١٩٥).

(٣) أخرجه مسلم (٢١٨٥)، (٢١٨٦) من حديث عائشة وأبي سعيد. ولفظه من حديث عائشة أنها قالت: كان إذا اشتكى رسول الله ﷺ رقاه جبريل. قال: «باسم الله يُبْريك، ومن كلّ داءٍ يشفيك، ومن شرِّ حاسدٍ إذا حسد، وشر كلِّ ذي عين».

(٤) في الجزء التاسع من المجلد الحادي عشر من مجلة الأزهر شرح الشيخ الجزيري ـ رحمه الله ـ حديث أبي سعيد رضي الله عنه، في الرقية (طه).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وأكبر العلم أنَّ أجمع العلماء بياناً في ذلك كله صاحب «زاد المعاد» في الطبِّ النبوي[١]، فقد كفى وشفى ولم يدع زيادةً لمستزيد ولا قولاً لقائل، ولقد هممت أن ألخص هنا بيانه، ولكني آثرت الإشارة على العبارة، والقَصْد على الإطالة؛ فليسعنا في العين والرقية منها ما وسع الراسخين في العلم، ولنغض الطرف عن الزائغين والمجادلين في الحقِّ بعد ما تبيَّن، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾[٢].

* * * * *

(١) في علاج المصاب بالعين ٤: ١٦٢ ـ ١٧٤.

(٢) اقتباس من الآية ٤ من سورة الأحزاب.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

عود إلى علاج العين*

١٥ـ عن عائشة رضي الله عنها قالت: أمرني رسولُ الله ﷺ ـ أو أمر ـ أن يُسْتَرقَى من العين[١].

١٦ـ وعن أمِّ سَلمَة رضي الله عنها أنَّ النبيَّ ﷺ رأى في بيتها جاريةً، في وجهها سَفْعَةٌ، فقال: «اسْتَرقُوا لها، فإنَّ بها النَّظرة». رواهما الشيخان، واللفظ للبخاري[٢].

حديثان جليلان

هذان حديثان جليلان، من أصحِّ الأحاديث الكثيرة، التي كادت تكون متواترة في شأن الإصابة بالعين والرقية منها. وحَسْبك من درجات صحتها أن يتفق على روايتها الإمامان العظيمان: البخاري ومسلم، وكفى بكلٍّ منهما حجة.

أمانة المحدثين في الرواية

و«أو»: في الحديث الأول؛ لشكِّ الراوي: هل قالت أم المؤمنين رضي الله عنها: أمرني الرسول ﷺ، بإضافة الأمر إليها، أو قالت: أمر من غير إضافة؟ وهذا الشك ـ كما قلنا ـ في مناسبات شتَّى، من أعظم الأدلة وأقواها على تحرِّي الرواة، وبلوغهم في ضبط الأحاديث والحرص على ألفاظها، فَضْلا عن معانيها؛ مبلغ الذين ائتمنهم الله على دينه، فأقاموا الدين خالصاً، وأدُّوا أمانة

---

* مجلة الأزهر، العدد السابع، المجلد الثلاثون(١٣٧٨ = ١٩٥٩).

(١) أخرجه البخاري (٥٧٣٨)في الطب، ومسلم (٢١٩٥) في كتاب السلام.

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٣٩) في الطب، ومسلم (٢١٩٧) في كتاب السلام.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الله كاملةً غير منقوصة، على أنَّ رواية أخرى من روايات الحديث: «أمرني» من غير شك، وفي ثالثة: «كان يأمرني». وفي حديث أم سلمة رضي الله عنها أمرٌ نبويٌّ صريح بالرقية من السَّفْعة التي أصابت الجارية في وجهها.

والسَّفعة: ـ بفتح الفاء وقد تضم ـ بقعة ذات لون يخالف لون الوجه، أصابتها بنظرة شريرة، من عين إنسيٍّ أو جنّيٍّ، ولِعيون الجِنَّة، نظرات أنفذ من الأسنَّة.

الداء والدواء من قدر الله

وكما أنَّ العيَن حقٌّ، والإصابةَ بها ثابتةٌ بقَدَرِ الله تعالى ومشيئته، وأنها من الأسباب العادية التي يربط الله بها مسبَّباتها، فكذلك الرقية منها حق، وهي من قدر الله وإرادته، فهما من الداء والدواء. و«ما أنزل الله من داء، إلا أنزل له شفاء، فإذا أصاب الدواء موضع الداء برأ بإذن الله»[(١)].

وفي «المسند» والسنن[(٢)] عن أبي خِزامة قال: قلت: يا رسول الله، أرأيت رقىً نسترقيها، ودواء نتداوى به، وتقاة نتقيها؛ هل تردُّ منْ قَدَرَ الله شيئاً؟ فقال: «هي من قدر الله»[(٣)].

---

(١) اقتباس من حديثين روى أحدهما البخاري (٥٦٧٨)، والآخر رواه مسلم (٢٢٠٤). أما حديث البخاري فلفظه من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء». أما حديث مسلم فلفظه من حديث جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لكل داء دواء، فإذا أُصيب دواء الداء برأ بإذن الله عز وجل».

(٢) السنن هنا هي سنن الترمذي، كما في تعليقات الأخوين الفاضلين: الأستاذين عبد الغني عبد الخالق، ومحمود فَرَج العقدة، في تعليقاتهما على «الطب النبوي» الذي طبع وحده أخيراً. (طه).

(٣) رواه أحمد في المسند ٣: ٤٢١ (١٥٤٧٤)، والترمذي (٢٠٦٥) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مشروعيةُ الرقية واستحبابها

وأقل ما يقْتضيه الأمر بالرُّقية أنها مشروعةٌ مُرَخَّصٌ فيها، بل مُسْتحبةٌ مندوبٌ إليها، في كلِّ إصابة وشكوى، ولا سيما العين واللّدغة من ذوات السُّموم كلِّها.

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن جبريل أتى النبيَّ ﷺ فقال: يا محمد اشتكيتَ؟! قال: «نعم»، فقال جبريل عليه السلام: «باسم الله أرقيك، من كلِّ داءٍ يُؤْذيك، ومن شرِّ كل نفس، أو عينِ حاسد، الله يشفيك، باسم الله أرقيك»[(١)].

من الهدي النبوي في عيادة المرضى

وكان صلوات الله وسلامه عليه يدنو من المريض، ويجلس عند رأسه، ويسأل عن حاله، ويضع يده على جبهته، وربما وضعها على ثدييه، وربما توضَّأ وصبَّ على المريض من وَضوئه.

وكان إذا أتى مريضاً، أو أتي به إليه قال: «أذْهبِ البَاسَ ربَّ الناس، اشفِ وأنت الشّافي، لا شفاءَ إلاَّ شفاؤك، شفاءً لا يغادر سقماً»[(٢)]. لا جرم أن الرُّقى بآيات الله تعالى وذكره وأسمائه، وأنَّ الفزع إليه فيما وقع وما يتوقع، والتحصُّن به من المقرِّبات إليه.

الرقى المنهيُّ عنها

وأما ما ورد النهي عنه من الرقى، فهو المشتبه الذي لا يُعرف، أو المركَّب من حقٍّ وباطل، يجمع إلى ذكر الله وأسمائه ما يشوبه من ذكر الشياطين

---

(١) رواه مسلم (٢١٨٦).

(٢) رواه البخاري (٥٦٧٥)، ومسلم (٢١٩١).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

والاستعانة بهم، والتعوُّذ بمرَدَتهم.

لاجَرَم أنَّ هذا الصنف من الرقى آفة الإيمان والعقائد، ومفتاح الشرور والمفاسد، بل هو السُّمُّ الذي لا رُقية له إلا توبة نصوحة واقية، أو بطشة قاضية.

من العلاج النبوي للعين

ومن العلاج النبويِّ للعين: أن يدعوَ العائنُ لِمَنْ عانَه بالبركة، وأن يتوضأَ العائن أو يغتسل، ثم يغتسل من مائه المَعِين، وليس المراد بالوضوء والغسل هنا كيفيتهما الشرعية، بل الأمر فيهما متَّسع، كما يُؤْخذ من الآثار.

وبيان الغسل في حديث أحمد والنسائي وابن حبّان: أن يغسل العائن وجهه ويديه إلىالمرفقين، ومن سُرَّته إلى أسفل جسمه، ويُوضع الماء في قدح، ويصبُّ على رأس المَعينِ وظهره، فيبرأ بإذن الله[١].

من عجائب الطب النبوي

والسرُّ في هذا الغسل من عجائب الطبِّ النبوي، التي تخفى على أكثر الناس، ولا سيما الذين لا يؤمنون بأسرار الروح والغيب، ومن أجل ذلك لا ينتفعون بهذا الطب ولا يبرؤون به، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[٢].

وكأنَّ أثرَ العين الحاسدة الشرِّيرة شُعلةٌ من النار، انبعثت منها إلى المحسود، فاشتعل ناراً، فكان من الخير والحكمة أن تُطفأ بالماء والدعاء في العائن والمعين جميعاً.

---

(١) أخرجه أحمد ٣: ٤٨٧ (١٥٩٨٠)، والنسائي في الكبرى (٧٦١٨)، وابن حبان (٦١٠٦). وهو حديث صحيح.

(٢) سورة الإسراء: ٨٢.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

والسرُّ في دعاء العائن لِمَن عانه، أنَّ الدعاء إحسانٌ للمَعين وطبٌّ له، وتكفيرٌ للإساءة التي قدَّمها إليه بجَحْد نعمة الله عليه وانتقاصها منه، ومن هنا أُمر من رأى شيئاً أعجبه ـ ولو كان مِلْكاً له ـ أن يقول: ﴿ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾(١)؛ دفعاً لأذى العين، ووقايةً من شرِّها.

ولا عجب أن يحسد المرء نفسه وولده وحبيبه، وإن كان ذلك في المتقين قليلاً ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾(٢).

ولا مخافةَ من عدوى الماء المُستعمل هنا، فإنه استُعمل في إطفاء النار الثانية، بعد أن أطفأ النار الأولى، وقوة الإيمان والعزيمة تدفع ما عسى أن يحملَ من الأذى، وقلَّما يكون الأذى إذا كان العائن صحيحاً سليماً.

على أنَّ هذا الطب رخصة جائزة، غير واجبة، فليتركها من لا يؤمن بها، ومن يخاف العدوى منها، وليكتفِ بالرقية الإلهيَّة النبويَّة في دفع العين والأذى، إن كان من المؤمنين بما أوحى الله إلى رسوله ﷺ.

ومِمَّا يجدر أن نحذِّر منه العامة وأشباه العامة هنا، تغاليهم في العين، ونسبة كلِّ أذى أو ضرر إليها؛ فإنَّ الأدواء وأشفيتَها، والأسبابَ ومُسبَّباتها، لا يحصيها إلا من أنزلها، وما العين وطبُّها إلا قليل منها.

طب الأرواح والأبدان

كما يجب أن ننبّه هنا ـ كذلك ـ على أنَّ الله جلَّت حكمته، إنما أرسل رسوله هادياً وداعياً ومبشِّراً ونذيراً، أرسله بطبِّ الأرواح والقلوب؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذنه، وليهديهم إليه صراطاً مستقيماً.

---

(١) سورة الكهف: ٣٩.

(٢) سورة سبأ: ١٣.

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وأما طبّ الأبدان الذي صحّ عنه صلوات الله وسلامه عليه، فليس إلاّ تكميلاً لشريعته العامّة الخالدة، التي لم تدعْ خيراً إلا دعت إليه، ولا شراً إلا حذّرت منه، في العاجلة والآجلة، إجمالاً وتفصيلاً(١).

* * * * *

(١) من تأدية الأمانات إلى أهلها، ومن الاعتراف بالفضل لذويه، أن ننبِّه على أنَّ مرجعنا الأول في شرح هذين الحديثين هو «الطب النبوي» لابن القيم، وأنَّ الذي أشار عليَّ بتفصيل ما أجملت في الحديث الأسبق، أخونا الواعظ الفاضل الأستاذ إبراهيم أبو سعدة، وشيخنا الكبير الأستاذ محمد عرفة، غير أني لا أزال أدعوهما والقراء الأفاضل إلى المزيد الإفادة من «الطب النبوي»؛ ففيه الجواب الكافي، وفيه قرة العين، والله المستعان ولا قوّة إلا به (طه).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

إبطال مزاعم الجاهلية*

-١-

١٧ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا عَدْوى، ولا طِيَرة، ولا هامة، ولا صَفَر وَفِرَّ من المَجْذوم كما تَفِرُّ من الأَسَد» رواه الشيخان[١].

المفردات:

العدوى: مُجاوزة المرض صاحبه إلى غيره. يقال: أعدى فلانٌ فلاناً، مِنْ خُلُقِه، أو من عِلَّةٍ به.

والطِّيَرة: كعِنَبَة: التشاؤم. وتطيَّر بالشيء: تشاءم. وكانوا في الجاهلية إذا أرادوا المضيَّ لمهمٍّ كالسفر والزواج، أثاروا الطير، فإن مرَّت باليمين تيامنوا، وإن مرَّت باليسار تشاءموا، ثم أُطلقت الطِّيَرَة على التشاؤم، ولو بغير الطيور.

والهامَة: الرأس؛ واسم طائر من طيور الليل، وهو المراد هنا، وكانوا يتشاءمون به. وقيل: هو البومة. وقيل: كانوا يزعمون أنَّ عظام القتيل ـ الذي لا يؤخذ بثأره ـ أو روحَه، تصيرُ هامةً، ولا تزال تصيح: اسقوني اسقوني، حتى يؤخذ بثأره، فتسكن حينئذ.

وصَفَر: قيل هو الشهر المعروف، وكانوا يتطيَّرون به، فلا ينجزون فيه مهمَّة. وقيل: المراد به النَّسيء، وهو إحلال المحرَّم، وتأخيرُ حرمته إلى صفر،

---

* مجلة الأزهر، العدد الثاني، المجلد السادس عشر، سنة (١٣٦٤- ١٩٤٥).

(١) رواه البخاري في كتاب الطب (٥٧٥٧) واللفظ له. ومسلم في كتاب السلام (٢٢٠٩) بلفظ: «لا عدوى، ولا صفر، ولا هامة»، وزاد في طريق أخرى: «ولا طيرة».

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

على ما بيَّناه.

وقيل: إنَّ الصَّفَر حيَّةٌ في البطن تلصق بالضلوع فتعضُّها، وينشأ عن ذلك ما يشعر به الجائع من الألم، وأكبر الظنِّ أنه المراد هنا.

والمَجْذوم: هو المصاب بمرض الجذام، وهو داءٌ يحمرُّ به اللحم، ثم يتقطَّع ويتناثر. من الجَذْم، وهو القطع.

* * * * *

انتشار الخرافات والأوهام

كان الناس عامة، والعرب خاصَّة، في جهالةٍ جهلاء، وضلالة عمياء؛ قد ركبوا رؤوسهم، واتَّبعوا أهواءهم، ودانوا بما توارثوه سالفاً عن خالف، من أوزار الشرك والآثام، وأثقال الخرافات والأوهام؛ حتى أرسل الله رسولَه بالهدى ودين الحق، فطهَّر عقائدهم من أرجاسها، وحرَّر عقولَهم من أوهامها، وبيَّن لهم أنَّ ربَّهم الذي خلقهم هو الذي يضرُّ وينفع، ويعطي ويمنع، ويُمرض ويشفي، ويُميت ويُحيي، لا رادَّ لمشيئته، ولا معقِّب لحكمه، وهو العليم الحكيم.

سبيل المؤمنين ونهج المتوكلين في ربط الأسباب بالمسبَّبات

ولئن اقتضت حكمته تعالى أن يربطَ الأسباب بالمسبَّبات، والوسائل بالغايات فإنْ كلُّ ذلك إلاَّ خاضعٌ لمشيئته، مقهورٌ تحت إرادته.

فالغلوُّ في الأسباب، والتكالبُ عليها، شعبةٌ من الشِّرك والضلال؛ وإهمالُها رأساً، جهلٌ بسنن الكبير المتعال.

وأمَّا أن يُجملَ العبد في الطلب، من غير تقصيرٍ ولا مغالاة، مع اعتقاده أنَّ

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الأمر كلَّه لله، فذلك سبيل المؤمنين، ونهج المتوكِّلين، وعماد هذا الدين المتين، الذي جاء في شأنه كلِّه قيِّماً وسطاً؛ لا إفراط ولا تفريط.

وعلى هذا المنهج الواضح، وطَّد صلوات الله وسلامه عليه معالم الهداية، وبدَّد ظلماتِ الغَوَاية، وقضى على مزاعم الجاهلية وتُرَّهاتها، وهو في حديثه هذا يقضي قضاءً مُبْرماً على طائفة من أُمهاتها.

اعتقاد أهل الجاهلية في العَدْوى

فأما العدوى، فكانوا يضيفون التأثير إليها، ويعتقدون أنَّ اختلاطَ مريضٍ بصحيح مُوجبٌ للمرض إيجابَ الأسباب الضرورية لمسبباتها، والعلل العقلية لمعلولاتها، لا مفرَّ من ذلك ولا محيص عنه، جاهلين أنَّ المدار في الإصابة على مشيئة الله وحده، وأنَّ العدوى لا تعدو ـ مهما بلغ أمرها ـ أن تكون سبباً عاديًّا كثيراً ما يتخلَّف، وكم من سليمٍ خالط مريضاً فلم يُصَب بأذى، وكم من مُتَصوِّنٍ حَذِرٍ جاءه المرض من حيث لا يحتسب. والمشاهدة أصدق شاهد.

وإذا لم ينفِ النبيُّ ﷺ العدوى نفسها، وإنما نفى وصفَها وتأثيرها على النَّحو الذي يزعمون؛ إبطالاً لزعمهم على أبلغ وجه وآكدِه.

ومن فنون البلاغة أن تنفيَ وصف الشيء بنفي الشيء نفسِه؛ كأن تقول: لا رأيَ لهذا الرجل، ولا رجلَ في هذا البلد، حينما تقصد إلى نفس السَّداد في الرأي، والشَّهامة في الرجال.

إثباته ﷺ العدوى على الوجه الصحيح

ولا رَيْبَ أنَّ غلوَّهم في إضافة التأثير لغير الواحد القهار، مُخِلٌّ بعقيدة التوحيد التي بُني الإسلام عليها؛ فكان من حكمة سيِّد الحكماء أن يقضيَ على زعمهم الخاطئ بهذا البيان الرائع، والكَلِم الجامع، والقول الفصل.

ومن المحال أن يقصد صلوات الله وسلامه عليه إلى نفي العدوى جملةً،

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

مع أنه أثبتها على وجهها الصحيح في غير ما حديث، بل أثبتها في هذا الحديث نفسِه؛ إذ أمر بالفرار من المجذوم كفرارِ الخائف من الأسد؛ لأنَّ الجذامَ ـ وقانا الله وإياكم السوء ـ من الأمراض التي جرت عادةُ الله تعالى بمجاوزتها إلى غير صاحبها، إذا سبق بذلك علمُه ومشيئتُه[١]. ومن المحال أن يتناقض حكيم في كلامه فَضْلاً عمَّن لا ينطق عن الهوى.

التوفيق بين الأحاديث التي تُثبت العدوى والتي تنفيها

وعلى هذا البيان الذي بَيَّنَّا، يسهل التوفيق بين الأحاديث التي تُثبت العدوى كما يثبتها الطبُّ والواقع، وبين الأحاديث التي تنفيها على ما تزعم الجاهلية الأولى.

وإذا لم يكن بدٌّ من إيراد بعض الشواهد، فقد روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال ﷺ: «لا يوردنَّ مُمْرِض على مُصِحّ»[٢].

والمُمْرِض: صاحب الإبل المريضة، والمُصِح: صاحب الإبل الصحيحة. ولا معنى للنهي عن خلط الإبل السليمة بالسقيمة، إلا التحذير من العدوى.

وروى الشيخان كذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ عمر رضي الله عنه خرج إلى الشام، حتى إذا كان بِسَرْغَ[٣] لقيَه أهلُ الأجناد[٤]: أبو عُبيدة بن الجراح، وأصحابه فأخبروه أنَّ الوباء قد وقع بالشام، فقال عمر لابن عباس: ادْعُ لي

---

(١) جاء في فاتحة «المقتطف» لهذا الشهر (يناير، سنة ١٩٤٥) أن الجذام ينكبُ في المعمورة كلَّ عام ثلاثة ملايين إلى خمسة، وأنه اكتسح أوربة في القرون الوسطى حتى أُعِدَّ له عشرون ألف ملجأ وقتئذ. وأنَّ الأطباء لا يألون جُهداً في تركيب عقار يقضي على السلِّ والجذام، ولعلَّهم عند منعطف الطريق. (طه).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٧١)، ومسلم (٢٢٢١).

(٣) بالصَّرف وعدمه، قرية في طرق الشام ممَّا يلي الحجاز (طه).

(٤) أي أمراء الأجناد كما في رواية أخرى، وكانوا خمسة (طه).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

المهاجرين الأوَّلين، فدعوتُهم، فاستشارهم، فاختلفوا، فقال بعضهم: قد خرجت لأمرٍ، ولا نرى أن ترجع عنه(١).

وقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ، ولا نرى أن تُقدِمهم على هذا الوباء، فقال: ارتفعوا عني.

ثم قال: أُدْعُ لي الأنصار، فدعوتهم له، فاستَشارهم فَسَلَكوا سبيل المهاجرين في الاختلاف، فقال: ارتفعوا عني.

ثم قال: أُدْعُ لي مَنْ كان هنا من مَشْيَخَة قريش من مُهَاجرة الفتح، فدعوتُهم، فلم يختلف عليه رجلان، فقالوا: نرى أن نرجع بالناس ولا نُقدِمهم على هذا الوباء.

فنادى عمر في الناس: إني مُصبْحٌ على ظهر(٢) فأصبِحوا عليه.

فقال أبو عبيدة: أفراراً من قدر الله؟! فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة؟! ـ وكان عمر يكره خلافه ـ نعم، نفرُّ من قَدَرِ الله إلى قَدَرِ الله، أرأيت لو كان لك إبلٌ فهبطت وادياً، له عُدْوتان(٣)، إحداهما خِصْبَة والأخرى جَدْبَة، أليس إنْ رَعَيْتَ الخِصْبَة رعيتَها بقَدَرِ الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟!.

قال: فجاء عبدُ الرحمن بن عوف ـ وكان متغيِّباً في بعض حاجته ـ فقال: إنَّ عندي من هذا عِلماً؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتُم به بأرضٍ فلا تَقدَموا عليه، وإذا وقع بأرضٍ وأنتم بها فلا تخرجوا فِراراً منه». قال: فحمد الله

---

(١) يعنون تفقد أحوال الرعية.

(٢) أي: مسافر راكب على ظهر الراحلة.

(٣) عُِدْوة الوادي، بضم العين وكسرها: شاطئه.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عمرُ بن الخطاب، ثم انصرف[١].

أدب الاختلاف وحكمة عمر

وإنَّما سقنا هذه الرواية برمَّتها، لأنَّها مثالٌ من أمثلة اختلاف الصحابة رضي الله عنهم، في جدالهم بالتي هي أحسن، وترجمةٌ صادقة لحكمة عمر وإصابته وجهَ الحقِّ، مع حَلِّه لمشكلةٍ من المشكلات التي يقف عندها الراسخون في العلم حَيَارى.

ثم ليعلمَ الجاهلون أنَّ الطبَّ في أزهى عصوره، بل العلمَ في أوْج رفعته، مُصَدِّقٌ لما سبق به الصَّادق المصدوق، صلوات الله وسلامه عليه[٢].

أدلة نفي العدوى

وأما الشواهد على نفي العدوى، فمنها ـ عدا حديثنا هذا ـ ما جاء في الصحيحين، أنَّ أعرابياً قال: يا رسول الله فما بالُ الإبل تكون في الرَّمل كالظِّباء ـ يعني نشاطاً وقوةً وسلامة ـ فيدخلُ بينهما البعيرُ الأجْرب فيُجربها؟! فقال ﷺ: «**فَمَنْ أعدى الأول**»؟![٣].

جواب في غاية الإبداع والإقناع، ينطوي على أنَّ السبب الحقيقي هو مشيئة الله عز وجل.

ومنها: ما رواه الترمذي وغيره أنه ﷺ أكل مع مجذومٍ، وقال: «**ثقةً بالله**

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٢٩)، ومسلم (٢٢١٩).

(٢) وفي الحديث فوائد جمَّة، منها الإشارة إلى الحَجْر الصحي الذي يهتمُّ به الطب الحديث، ولولا خشية الإطالة لبسطنا القول فيه. (طه).

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٧٥)، ومسلم (٢٢٢٠).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وتوكّلاً عليه»[١].

وهذه كلمةٌ فاصلةٌ في هذا الموضوع الذي اشتبكت فروعه، واشْتَجَرت آراء الناس فيه.

فإذا جاء الأمر بالفرار من المجذوم ونحوه كما سَلَف، وكما روى مسلم أنه ﷺ أرسل إلى مجذوم كان في وفد ثقيف؛ «إنا قد بايعناك فارجع»[٢]، فذلك للحيطة واحترام الأسباب؛ وإذا جاءت العزيمةُ بمخالطة المرضى؛ فتلك ثقة المتوكلين على ربِّ الأرباب.

أثر العزيمة وقوة الإرادة في القضاء على الأمراض

وقد أجمع علماءُ النفس والطب على أنَّ حدَّة العزيمة وقوة الإرادة، من أمضى الأسلحة التي تتغلَّب على جراثيم المرض، بل من أمنع الحصون التي تعجزُ هذه الجراثيم عن اختراقِها؛ كما أجمعوا على أنَّ من العواملِ التي تُهيئ الجسم للعدوى، التعبُ، والبردُ، والجوعُ، وتعاطي المخدّرِ، والمُسْكِرِ، وأنَّ من أعظمها: ضعف العزيمة وخور النفس، وانقيادها للوساوس والأوهام.

ولولا أن منَّ الله على بعض عبا بقوَّةِ الإيمان واليقين، ومَضَاءِ العزم والثقة، لَهلك المرضى، واضْطَرب الأصحَّاء، ولتقطَّعت الأرحام، وعمَّ الكون الظلامُ، وتساوى الناس والأنعام.

الثقة بالله والتوكل عليه

ألا فلْيشهدِ العالم أنَّ الإيمان الصَّادقَ ـ وعمادُهُ الثقة بالله، والتوكُّل على

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٩٢٥)، والترمذي (١٨١٧)، وقال: هذا حديث غريب، وابن ماجه (٣٥٤٢)، وابن حبان (٦١٢٠) وإسناده ضعيف، لضعف المفضّل بن فضالة القرشي.

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٣١)، والنسائي (٤١٨٢)، وابن ماجه (٣٥٤٤).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الله ـ أساسُ ما جاء به أوّلُ المؤمنين، وقدوة المتوكِّلين؛ وأنَّ المؤمن القويَّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وإن كان في كلٍّ خير.

* * * * *

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إبطال مزاعم الجاهلية *

-٢-

ضلالة التطيُّر

أشرنا إلى أنَّ العرب كانوا يعتمدون في مُهمَّاتهم على الطير، فإذا خرج أحدهم لأمرٍ، فرآه قد طار يَمْنَةً تيمَّن به ومضى، وإن طار يَسْرَةً تشاءم به ورجع. وكانوا يُسَمُّون الأول: «السَّانح»، وفسَّره أهل اللغة بأنه: ما ولاك ميامنه، فمرَّ عن يسارك إلى يمينك، ويسمون الثاني: «البارح» وفسَّروه بأنه: ما ولاك مياسره، فمرَّ عن يمينك إلى يسارك. وأحياناً كانوا يثيرون الطير، والوحش، والظباء من وُكناتها[1]؛ لينظروا ما تأخذ في سَيْرها، فيعتمدوا عليه.

تطيُّرهم بالغراب

وأكثر ما كانوا يتشاءَمون به، الغرابُ حتى لقد ضَرَبوه مَثَلاً في الشُّؤْم: فقالوا: أشْأَم من غراب البَيْن؛ لأنه إذا بان أهل الدار للنجعة وطَلَبِ الكلأ في موضعه، وقع الغراب في موضع بيوتهم يتلمَّس ويتقمَّم، فتشاءموا به، إذ كان لا يعتري منازلهم إلا إذا بانوا، فسمُّوه غراب البَيْن.

ومن أجل تشاؤمهم به اشتقُّوا من اسمه الغُربة، والاغتراب، والغريب، وليس في الأرض طيرٌ، ولا وحش، ولا شيءٌ ممَّا يتطيَّرون به إلا والغراب عندهم أنكد منه.

---

* مجلة الأزهر، العدد الثالث، السنة السادسة عشرة، ١٣٦٤.

(١) الوكنة: اسم لكلِّ وكر وعش.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

سلطان الأباطيل والأوهام

ولا يعنينا هنا تفصيلُ ما كانوا يتشاءمون به، ولا بيان مذاهبهم في التشاؤم واختلافهم فيه؛ فكتب التاريخ والأدب حافلة بذلك كله، وإنما الذي يعنينا أن نتأمل مليًّا في ضلالات الإنسان وجهله، وسخافاته وظُلمه، وأنه لو تُرِك وشأنه، دون رسولٍ يهديه، أو شريعةٍ تحميه، لكان شراً لا يحتمل وبلاءً لا يطاق.

ماذا أغنى عنه عقلُه وتفكيره، أو قانُونه وتدبيره، وهو أسيرُ تلك الخُرافات الضَّالَّة، وسجينُ تلك الظُّلمات الحالكة؟!.

تالله إنَّ الوحوش في مَضَاربها، والطيورَ في مَسَاربها، خيرٌ من هذا الإنسان الذي جَنَى على عقله وكرامته؛ إذْ أخضع عنقه لسلطان الأباطيل والأوهام، وغلَّه ـ راضياً ـ بأغلال الشِّرك والآثام.

وإذا كان لهم شبهةٌ في تأثير الاختلاط وانتقال المرض به، فما شبهتهم في الطِّيَرَة وتعليق الأمور عليها؟!.

إنَّ الاختلاط ـ كما أسلفنا ـ من الأسباب العادية التي جرَت عادةُ الله تعالى أن يربط بها مُسبّباتِها. والضَّرر إنما جاء من قِبَلِ التغالي فيها ونسبةِ التأثير إليها.

وأما الطِّيَرة فلا علاقة بينها بتة وبين نجاح الأمور أو خيبتها. وما تراءى من ذلك أو صادف؛ فهو من تزيين الشيطان أو إغرائه. والشؤم عند التشاؤم، ويدل لهذا ما أخرجه ابن حبَّان في «صحيحه»: «لا طِيَرَةَ، والطِّيَرَةُ على مَنْ تطيَّر»[١].

وقد يقع هذا عقوبةً من الله تعالى أو ابتلاءً منه. والمؤمن عُرضةٌ لبلاءٍ دائم، فَلْيَسأل الله دائماً العفوَ والعافية.

وجملة القول: أنه ليس في سنوح الطير، ولا بُروحها، ولا في شيءٍ ممَّا

---

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٦١٢٣) من حديث أنس بن مالك، وإسناده حَسَن.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

يتطيَّرون به البتة، دلالةٌ على ما يقولون من أمر، وإنما هو عناد الإنسان وجهله، وولعه بنسيان الحَسَنات وإحصاء السيِّئات. وعسى أن يكره شيئاً وهو خيرٌ له، وعسى أن يحبَّ شيئاً وهو شرٌّ له. وفيما قصَّ الله تعالى من قصص المشركين، أنهم إذا جاءتهم الحسنة فرحوا بها، وإن تصبهم سيئة يَطَّيَّروا برسلهم، وينسوا أن ما أصابهم فبما كَسَبَت أيديهم.

بلاء الطِّيَرة وسرُّ النهي عنها

وليست الطِّيَرةُ شُعبةً من الشِّرك والضلالة فحسب، ولكنها علاوة على ذلك عذابٌ للنفوس أليم، وهمٌّ مُقْعد لها مقيم، ومَفْسَدَةٌ للعقول والأعمال، ومَضْيَعةٌ للمَصَالح والآمال. فَمَا مِنْ ساعة تمرُّ، دون أن يرى الإنسان فيها ويسمع ما يجوز أن يكون داعيةً من دواعي التطيُّر، فإذا تَشَاغَل بذلك وتشاءم، فما أنكد عَيْشَه، وما أمرَّ حياته.

لهذا قضى النبيُّ ﷺ على الطِّيَرة قضاءً مُبْرَماً، وأبْطَلَها بالأسلوب الذي أبطل به العَدوى، وقَصَد من نفيها ـ وإن كانت معروفةً عند الآثمين ـ نفيَ سببيَّتها، فَضْلاً عن تأثيرها والاعتماد عليها.

ليس العرب بدعاً في التشاؤم

ومن الإنصاف أن نقرِّر أنه ليس العرب في التشاؤم نسيجَ وَحْدِهم، بل لا تكاد تخلو أمةٌ ولا بلدة في مَشَارق الأرض ومغاربها من التشاؤم، وإن اختلفت في أنواعه وصفاته.

هؤلاء العَجَم يُنقل عنهم أنهم يَتَشاءمون بالصبيِّ يذهب إلى المعلم بالغداة، ويتيمَّنون به راجعاً من عنده إلى منزله. ويتشاءمون بالسقَّاء على ظهره قُربةً مملوءة مشدودة، وبالحمَّال المُثقل بالحَمْل، وبالدابَّة المُوقرة، ويتيَمَّنون بعكس ذلك، ومن الناس مَنْ يخالفهم في هذا كلِّه، ومن الناس من يتشاءم بعدد خاصٍّ، أو بيوم معيَّن.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد سُئل مالك رحمه الله عن الحجامة يوم السبت ويوم الأربعاء، فقال: لا بأس بذلك، وليس يومٌ إلا وقد احتجمتُ فيه، ولا أكره شيئاً من هذا، حجامةً ولا طلاءً ولا نكاحاً ولا سفراً في شيء من الأيام.

وضلالةُ الشُّؤم والمتشائمين، في العصور الخَوَالي، بل في عصر المدنية والنور ـ كما يقولون ـ أكثر من أن تُحصى(١).

إنكار حكماء الجاهلية التطيُّر

على أنه كان من عقلاء الجاهلية وحكمائهم من يُنكر التطيُّر، ويتمدَّح بتركه ولا يراه شيئاً. وفي ذلك يقول المُرقِّش:

ولقد غَدَوتُ وكنتُ لا ... أغدو على واقٍ وحاتم(٢)
فإذا الأَشَائمُ كالأيا ... مِنِ والأَيَامنُ كالأشائم(٣)

وقال آخر:

تعلَّم أنه لا طَيْر إلا ... على مُتطيِّر وهو الثُّبور
بلى، شيءٌ يوافق بعضَ شيءٍ ... أحايينا، وباطِلُه كثير

---

(١) اقرأ طرفاً طريفاً منها في «شرح أحاديث كلية اللغة» لأستاذنا العلامة عبد الحليم أحمد. وفي شرحنا هذا شَذَراتٌ من بلاغته (طه).

(٢) **الواقي**: الصَّرد. وهو طائرٌ أبقع ضخم الرأس يكون في الشجر، نصفه أبيض ونصفه أسود، وقد تحذف ياؤه؛ تسمية له بحكاية صوته. **والحاتم**: الغراب؛ لأنه يحتم بالفراق على زعمهم (طه).

(٣) أورد الزَّبيدي هذه الأبيات في «تاج العروس» ماده (ح ت م) و(و ق ى)، وقال: وأنشد الجوهري للمرقَّش، ويروى لخُزر بن لَوْذَان. والأبيات في «الصحاح» للجوهري ٥: ١٨٩٣ ولم أعرف أيُّ المرقِّشين هو؟ الأكبر: عوف بن سعد، أم الأصغر: عمرو بن حرملة.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وقال ثالث:

الزَّجْـر والطَّـير والكُهَّـان كلُّهـم مُضـلِّلون ودون الغَيْـب أقْفـال

بم يُدفع التطـيُّر؟

ولمَّا كان الاحتراز من التطيُّر بليغُ العُسْر والمَشَقَّة، رُفع عن الإنسان ما يَعْتريه منه، وما يُوَسْوِس له الشيطان فيه، ولم يُؤَاخَذْ إلا بركونه إليه، واعتماده عليه.

أخرج عبد الرزاق عن إسماعيل بن أميَّة عن النَّبيِّ ﷺ: «ثلاثة لا يَسْلم منهنَّ أحد: الطِّيرة، والظنُّ، والحَسَد، فإذا تطيَّرت فلا ترجع، وإذا حَسَدت فلا تبغ، وإذا ظننت فلا تحقِّق»[1].

وأخرج أبو داود عن عروة بن عامر قال: ذُكرت الطِّيَرَةُ عند رسول الله ﷺ

---

(١) رواه عبد الرزاق في «المصنف» ١٠ :٤٠٣(١٩٥٠٤)، ومن طريقه البيهقي في «الشُّعب»(١١٢٩) عن معمر، عن إسماعيل بن أمية مرفوعاً: «ثلاث لا يعجزهنّ ابن آدم: الطيرة، وسوء الظن، والحسد. قال: فينجيك من الطِّيرة أن لا تعمل بها، وينجيك من سوء الظن أن لا تتكلم به، وينجيك من الحسد أن لا تبغي أخاك سوءاً» وإسماعيل: لم يدرك صحابياً، فهذا إسناد معضل.قال الحافظ في «الفتح» ١٠: ٤٨٤: وهذا مرسل أو معضل، ولكن له شاهد من حديث أبي هريرة، أخرجه البيهقي في «الشعب»، وأخرج ابن عدي بسند ليِّن عن أبي هريرة رفعه: «إذا تطيَّرتم فامضوا، وعلى الله فتوكّلوا».

والشاهد الذي أشار إليه الحافظ في «الشعب» ٢ :٣٧١-٣٧٢ (١١٣٠)و (١١٣١) ساقه البيهقي من وجهين إلى شعبة، عن محمد بن إسحاق، قال في الأولى: عن الأعرج، عن أبي هريرة. وقال في الثاني: عن علقمة بن أبي علقمة، عن أبي هريرة. وكلٌ واحدٍ منهما يشهد للآخر، ورواية شعبة عن ابن إسحاق يؤمَن فيها تدليسه، وإن عَنْعَن.

وروى ابن عدي ٤ :١٦٢٣ من طريق عبد الرحمن بن سعد بن عمار، عن عبد الله بن سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة مرفوعاً: «إذا حسدتم فلا تبغوا، وإذا ظننتم فلا تحقِّقوا، وإذا تطيَّرتم فامضوا، وعلى الله توكلوا». وعبد الرحمن بن سعد: ضعيف، والمقبري: متروك، فقول الحافظ: «بسند ليِّن ..» فيه نظر.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

فقال: «أحسنها الفألُ، ولا تردُّ مسلماً، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهمَّ لا يأتي بالحَسَنات إلا أنت، ولا يدفع السَّيِّئات إلا أنت، ولا حَوْل ولا قوَّة إلا بك»(١).

وسأل كعبُ الأحبار عبدَ الله بن عمر(٢): هل تتطيَّر؟ فقال: نعم، قال: فكيف تقول إذا تطيَّرت؟، قال أقول: «اللهمَّ لا طَيْرَ إلا طَيْرك، ولا خَيْرَ إلا خيرك، ولا ربَّ غيرك، ولا قوَّة إلا بك». فقال كعب: إنه أفقه العرب، والله إنها لكذلك في التوراة(٣).

الترخيص في الفأل

ومما يقترن بالطِّيَرة ويُذكر معها ـ حتى لكأنَّه منها ـ «الفأل»، وقد رخَّص فيه رسول الله ﷺ، لما له من كريم الأثر، في فتح باب الأمل، والحثِّ على الجدِّ والعمل، وحُسْن الظنِّ بالله عزَّ وجل. وعلى العكس من ذلك التشاؤم والعياذ بالله تعالى؛ فإنه مفتاحٌ للشرِّ، مِغْلاقٌ للخير، مُفْضٍ إلى سُوء الظنِّ واضطراب العقيدة.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٩١٩) في الطب. وعروة بن عامر مُختلف في صحبته كما في «التقريب» (٤٥٦٤).

(٢) الصواب: عبد الله بن عمرو كما سيأتي.

(٣) هكذا في «مفتاح دار السعادة» [٢ :٥٦٧]. ورواه صاحب «الفتح» مختصراً موقوفاً على عبد الله بن عمرو بالواو، ولعلَّ هذا راجح لأنه معروف باطّلاعه على التوراة (طه). وكذلك أورده الحافظ ابن رجب في «لطائف المعارف» ص١٤٣ من حديث عبد الله بن عمرو، وعزاه إلى «مسند ابن وهب»، وفي مسند أحمد ٢: ٢٢٠ (٧٠٤٥) عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «من ردّته الطِّيرة من حاجتِه فقد أشرك»، قالوا: يا رسول الله، ما كفَّارة ذلك؟ قال: «أن يقول أحدهم: اَللَهمَّ لا طيْر إلاَ طيرُكَ، ولا خيْرَ إلا خيرُك، ولا إله غيرُك»، وهو حديث حسن. قال الهيثمي في «المجمع» ٥ :١٠٥: رواه أحمد والطبراني وفيه ابن لهيعة، وحديثه حسن، وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا طِيَرَة، وخيرُها الفأل»، قالوا: وما الفألُ يا رسول الله؟ قال: «الكلمةُ الصَّالحة يسمعها أحدكم»(١).

وفي رواية: «ويعجبني الفأل؛ الكلمة الحسنة»(٢).

وأخرج الترمذي من حديث أنس أنه ﷺ كان إذا خرج لحاجة يُعجبه أن يسمع: «يا نجيح يا راشد»(٣).

وأخرج أبو داود أنه ﷺ كان لا يتطيَّر من شيء، وكان إذا بعث عاملاً يسأل عن اسمه، فإذا أعجبه فرح به، ورُئِي بِشْر ذلك في وجهه، وإن كره اسمه رُئي كراهة ذلك في وجهه(٤).

وسواءٌ أكان الفأل ضَرْباً من الطِّيَرَة، مُستثنىً منها، كالرُّقية بالمأثور تستثنى من غيرها، أم لم يكن كذلك، فإنَّ الفأل بريءٌ من الشِّرك جارٍ على مقْتضى الفطرة، موافقٌ لما أودع الله غرائز الناس وطبائعهم من الارتياح إلى المنظر الأنيق، كالخُضْرة الرائعة، والماء السَّلس، ومن الاسْتبشار بالأسماء الجميلة، كالسَّلام، والنجاح، والبُشْرى. ومحالٌ أن يدخلَ هذا وما إليه في حكم التطيُّر، اللهَّم إلا أن يَقصد إليه المرء قصداً(٥).

* * * * *

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٥٤)، ومسلم (٢٢٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٥٦)، ومسلم (٢٢٢٤).

(٣) أخرجه الترمذي (١٦١٦). قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) أخرجه أبو داود (٣٩٢٠).

(٥) انظر: الفرقان بين الفأل والطيرة في أواخر الجزء الثاني من «مفتاح دار السعادة» [٥٥٧-٥٧٣] لابن القيم، واقرأ أعاجيب من أخبارهما (طه).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

إبطال مزاعم الجاهلية[١]

-٣-

دفع شبهة التعارض بين الأحاديث

بقي علينا أن ندحض شبهةَ التعارض بين الأحاديث الصَّريحة في نفي الشُّؤم، والتحذير منه، وبين أحاديث أخرى قد يُفهم منها أنها تثبته، كحديث الشيخين: «**إنَّما الشؤم في ثلاثة: في الفرس، والمرأة، والدار**»[٢].

ومنشأ الشُّبهة تفسير الشؤم في هذا الحديث بالمعنى المشهور، وهو التطيُّر المنهي عنه. ولكنَّ المرادَ به هنا كراهيةُ الشيء واستثْقَالُه وحَرَجُ الصَّدر منه.

ولما كانت هذه الثلاثةُ أشدَّ ملازمةً للمرء واتّصالاً به؛ فقلَّما يستغني عن دابَّة يركبها، وامرأةٍ يتزوَّجها، ودارٍ يسكنها، رخَّص له أن يفارقَها إلى غيرها، إذا ضاق بها ذرعاً. وماذا يصنع بامرأةٍ مُريبةٍ أو سَليطةٍ أو مُسْرِفةٍ، وبفرسٍ شَموسٍ أو مُلْهية، وبدارِ سوء في نظامها أو جيرانها؟!.

ليس له إلا أن يُطلِّقَ أو يبيع غير آسف؛ رفعاً للقلق الذي يُسَاور النفوس، وللوسوسة التي تحيط بالصُّدور؛ ورفقاً به أن يقعَ في هُوَّة التطيُّر المحظور[٣].

---

(١) مجلة الأزهر، العدد الرابع، السنة السادسة عشرة (١٣٦٤_١٩٤٥).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٥٣)، ومسلم (٢٢٢٥).

(٣) أخرج عبد الرزاق (١٩٥٢٦)، وأبو داود (٣٩٢٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٩١٨) بإسناد حسن عن أنس بن مالك قال: قال رجل: يا رسول الله، إنا كنّا في دار كثير فيها =

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ويؤيِّدُ هذا التفسير أحاديثُ، منها ما رواه أحمد وصحَّحه ابنُ حبَّان والحاكم: «من سعادة ابن آدم ثلاثةٌ، ومن شِقْوة ابن آدم ثلاثة: من سعادة ابن آدم: المرأةُ الصَّالحة، والمَسْكَنُ الصَّالح، والمَركَبُ الصَّالح. ومن شِقْوة ابنِ آدم: المرأةُ السُّوء، والمَسْكَنُ السُّوء، والمَركَبُ السُّوء»(١).

وعلى هذا فليس الترخيص بترك هذه الأشياء إقْراراً للطِّيَرة، ولا استثناءً منها، كما قيل.

وَوَجْهٌ آخر، وهو أنَّ الشُّؤم هنا فَرَضيٌّ ليس غير، أي: إنْ فُرض في شيء من الأشياء شُؤْمٌ، فهو في هذه الثلاثة؛ لأنها ألصق الأشياء بالإنسان، ولكنها ليس فيها شُؤْمٌ البتة، فأولى غيرها.

ويُؤيِّد هذا رواية الصحيحين عن سهل رضي الله عنه: «إنْ كان في شيءٍ ففي المرأةِ، والفرسِ، والمَسْكَن»(٢) يعني الشُّؤم.

ونظيرُ هذا ما وَرَد في العين عند مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما: «العيُن حقٌّ، ولو كان شيءٌ سابق القدر، سبقته العين»(٣).

عددنا، وكثيرٌ فيها أموالنا، فتحوَّلنا إلى دار أخرى، فقلَّ فيها عددنا، وقلَّت فيها أموالنا، فقال رسول الله ﷺ: «ذروها ذميمة». قال البغوي: فأمرهم بالتحوُّل عنها، لأنهم كانوا فيها على استثقال لظلِّها واستيحاش، فأمرهم بالانتقال؛ ليزول عنهم ما يجدون من الكراهية، لا أنها سببٌ لذلك.

(١) أخرجه أحمد ١: ١٦٨ (١٤٤٥)، وابن حبان (٤٠٣٢) بلفظ: «أربع من السعادة: المرأةُ الصَّالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء، وأربع من الشقاوة: الجار السُّوء، والمرأة السُّوء، والمسكن الضيِّق، والمركب السُّوء» وإسناده صحيح على شرط البخاري. وأخرجه ابن حبان (٦١٢٧) من حديث سعد بن أبي وقاص مرفوعاً: «لا عدوى ولا طيرة ولا هام، فإن تكُ الطِّيَرة في شيءٍ، ففي المرأة والفرس والدار».

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٥٩)، ومسلم (٢٢٢٦).

(٣) أخرجه مسلم (٢١٨٨)، انظر حديث: «العين حقٌّ» ص١٨٩.

الجديد و طريف NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ومعلومٌ أنَّ شيئاً ما لا يسابق القَدَر، فالعينُ لا تسابقه. ولئن كان هذا التعليق أبلغ في إثبات العين، وأنَّها حقٌّ؛ إنَّ ذلك أبْين في نفي الطيِّرة، وأنها ضلالٌ وإفك.

إبطال الهامة والصَّفَر

وأمَّا الهامةُ ـ وأكثرها في أشعارهم وأخبارهم ـ فهي وليدة الخيال، وسلالةُ الجهل والضلال، ورزيئة الأفكار والأحلام، وزريعة الخبال والأوهام[(١)].

وسواء أكانت هي البومة التي تنعق فتُنذر بالموت والخراب، أم كانت هي الطائر الذي ينشأ من عظام القتيل، أو روحه فلا يزال يصيح حتى يُؤْخذَ بثأره؛ فكلٌّ ذلك من التُّرَّهات التي اصْطَنعتها الجاهلية الأولى، ثمَّ ورثتها القرون والأجيال.

زعمٌ جاهليٌّ باطل

ومن هذا القبيل ما زعموا أنَّ في البطن حيَّةً تلتصق بالضُّلوع فتعضُّها، وينشأ عن ذلك ما يشعر به الجائع من ألم الجوع، وهذا ما رجَّحناه في معنى الصَّفَر هنا. وهو زعمٌ جاهليٌّ باطلٌ لا دليلَ عليه إلا الزُّور والبهتان.

ومن القضايا الأوليَّة: أنَّه لا يألم جائعٌ إلا لخُلوِّ مَعِدَته، واحتياجِ شراينه وأوردته، وسائر أعضائه، إلى الغذاء الذي هو قوام حياته، وعماد عيشه. وما أشْبَهَ الإنسان في حاجته إلى الغذاء، بالآلة البخارية في حاجتها إلى الوقود؛ إذا نفد أو تراكم تعطَّلت، أو اضْطَربت، وإذا تجدَّد باعتدال أدَّت وظيفتها وانتظمت.

النَّوْء والغول

ذلك، وفي بعض رواياتِ هذا الحديث، علاوة على ما تقدَّم: نفيُ النَّوْء،

---

(١) الزَّريعة، كسَفينَة: الشيءُ المزروع، والزُّرْعة ـ بالضمِّ ـ كغرفة: البَذْر.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وفي بعضها: نفيُ الغول.

فأما النَّوْء: فهو النَّجْم إذا مالَ للغروب، وكانوا يعتقدون أنَّ الأمطار أثرٌ لتلك الأنواء، وأنَّ الأنواء هي التي تُرسلها وتُهيمن عليها؛ فإذا أصابها الغيث كفروا بالله ونعمته، وقالوا: مُطرنا بنوء كذا.

وفي هذا جَهْلٌ بوظائف النُّجوم، وشركٌ بالواحد القيوم. وأنّى للكواكب أنْ تصنعَ شيئاً وهي سابحةٌ في أفلاكها، مُسَخَّرةٌ بتسخير الله لها؟! لكنه ضلال الإنسان وجهله، وهو العاجزُ عن تدبير أمره، وسياسة طعامه وشرابه.

الحكمة في خلق النجوم

وقد أبان الله تعالى في كتابه أنَّه ما خلق النجوم إلا لثلاث: زينةً للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلاماتٍ يُهتدىٰ بها في البرِّ والبحر[1]. فَمَنْ تأوَّل فيها بغير ذلك فقد أخطأ، وأضاع نفسه، وتكلَّف ما ليس له به علم. فإنْ اعتقد أنها تُنبئ بغيب، أو تؤثِّر في سَفَر أو حَضَر، أو في سَعْد أو نَحْس، فقد ألغى عقله، وجحَد ربَّه، وعكس الآية؛ إذْ نَسَبَ إلى المخلوق ما تفرَّد به الخالق.

وفي حديث الصحيحين ممَّا روى الرسول ﷺ عن ربِّه عزَّ وجل أنه قال: «أصبح مِنْ عبادي مؤمنٌ بي وكافرٌ، فأما من قال: مُطِرنا بفَضْل الله ورحمته، فذلك مؤمنٌ بي، كافرٌ بالكواكب، وأما من قال: مُطِرنا بنَوْء كذا وكذا، فذلك كافرٌ بي، مؤمنٌ بالكواكب»[2].

---

(١) قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦]. وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥].

وقال أيضاً: ﴿وَعَلَـٰمَـٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

(٢) أخرجه البخاري (١٠٣٨) في صلاة الاستسقاء، و (٤١٤٧) في المغازي، ومسلم (٧١) في الإيمان.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وما المطرُ إلا أثرٌ من آثار رحمة الله بعباده، وإنْ هيَّأته أسبابٌ وعواملُ، مُتَّصل بعضها ببعض، فذلك تقدير العزيز العليم. ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبۡسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡىِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡىِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ﴾[١].

قد أشار التنزيل في غير آيةٍ إلى كثيرٍ من أُمَّهات الحقائق الكونيَّة التي اتَّفقت عليها كلمةُ العلم الحديث، حتى حُقَّ للعلماء أن يخرُّوا عند تلاوتها سُجَّداً، وأن يقولوا مقالة الملائكة: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[٢].

وأما الغول: فقد كانوا يتوهَّمون أن نوعاً من سَحَرة الجنِّ، تسكن المفاوز والقفار، ترصُدُ المسافرين فتتغوَّل لهم تغوُّلاً، أي تتلوَّن لهم ألواناً مُختلفةً مُرْهَبة؛ لتُضِلَّهم عن الطريق فيهلكوا. ولهم في ذلك أحاديثُ وأساطير كلُّها منسوجةٌ على منوال الخيال.

وقد ألمَّ صاحب «بلوغ الأرَب»[٣] بطائفةٍ ممَّا زَعَموا من أخبار الغِيلاَنِ، ومحادثتِهم للجانّ.

---

(١) سورة الروم ٤٨ ـ ٥٠ والكِسَف: القِطَع وزناً ومعنى، والوَدْق: المطر، والمُبْلس: الآيس، ومنه إبليس، لأنه أيس من رحمة الله تعالى (طه).

(٢) سورة البقرة: ٣٢.

(٣) هو العلامة محمود شكري الآلوسي المتوفى سنة ١٣٤٢ رحمه الله تعالى. وقد فاز كتابه «بلوغ الأرب في أحوال العرب» المطبوع في ثلاثة أجزاء بجائزة ملك السويد والنَّرويج. كما في «أعلام العراق» للأثري ص ٩٣ ـ ٩٧.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

العفاريت والمَرَدَة

ومن هذا القبيل ما يتخيَّل العامَّة عندنا، من العفاريت والمَرَدَة التي تتمثَّل على صورٍ شتى في الأمكنة المُوحشة، لا سيِّما التي تُنكبُ بحادثٍ مروِّع، من قتل أو حريق.

لا ريْبَ أنَّ الجنَّ، ومنهم الشياطين، ثابتون بنصوصٍ صريحة من الكتاب والسنة، وأنَّ الإيمانَ بهم أصلٌ من أصول الدين، ولكنَّ المنفيَّ هو تلك الأقاصيص التي لم يُنزل الله بها من سلطان.

هذه بعض الخُزَعْبَلات[١] التي حاربها الرسول ﷺ، وأصحابُهُ، وتابعوه، وجدُّوا في القضاء عليها بعد أن استَوْلت على الجاهليين فعشَّشَتْ، ثمَّ باضَتْ وفرَّختْ، فلم تُنتج إلا الوبَال والضلال.

آثار الخرافات والتغافل عنها

وهاهي ذي ـ والأسف يملأ القلوب ـ تفشُو في العالم كافَّة، وفي الشَّرق خاصَّة، فتلدُ شروراً وآثاماً، وتملأُ الدنيا ظلاماً وقتاماً، وتقف سدوداً منيعةً في طريق الهُدى والرَّشاد، وتُعطِّل مصالح العباد والبلاد. وما ذلك إلا أثرٌ من آثار التغافل عن الدعوة أو التهاون بها؛ فإنه لن يقومَ باطل إلا في غفلة حق.

وممَّا زاد الأمرَ عُسْراً والداء رَهَقاً، أن تَغَلْغَلَت هذه الأباطيل في الناس، وألفت منهم مَرتعاً خصيباً، فلم تَدَعْ منزلاً إلا سكنت فيه، ولا مُجتمعاً إلا أَوَتْ إليه، حتى هالَ أمرُها المُصلحين، وظنُّوا أن لا خَلاصَ للإنسان من وبائها بعد أن نَبَتَتْ فيهم وشبَّت معهم، وأَضْحَت عقائدَ موروثةً لديهم، وتقاليدَ مختلطةً بلحومهم ودمائهم.

لا جَرَم أنَّ الداء جِدُّ خطير، وأنَّ الدواء جِدٌّ عسير. ولكن ما كان هذا ومثله

---

(١) الخزعبل، والخزعبيل، والتُّرَهة، والباطل: بمعنى واحد.

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

معه، ليحول بين المُصلحين وبين مهمَّتهم، في إنقاذِ البشريَّة، والعملِ على الخير للإنسانية، وإلا فما هو حقُّ الرعاية التي استَرعاهم الله إيَّاها، وما هو شكر النِّعمة التي فضَّلهم الله بها، فجعلهم على الناس قوَّامين، وإلى الخير والهدى دُعاةً مرشدين؟!.

التَّخلية قبل التحلية

لن تقوم للأفراد، ولا للأمم قائمةٌ ما دامت الأمراض تَنْتَابُها، فَلْنَحْسُم الداء قبل أن نصفَ الدواء، ولنبدأ بأنفسنا فلنعالجها قبل أن نُعالج المرضى، وإلا استهزؤوا بنا، وسَخِروا منا، وردُّوا بضاعتنا، فخسرنا وخسروا، وكنا في البلاء شركاء.

تصفُ الدواء لذي السَّقام وذي الضَّنا كَيْما يَصِحُّ به وأنت سقيم؟!

لقد كانت عناية الأنبياء صلواتُ الله وسلامه عليهم بمحو الرذائل، أشدَّ من عنايتهم ببناء الفضائل، ـ وهكذا يفعل المُصلحون المُخلصون، ولن يَيْئَسوا من رَوحْ الله، ـ ذلك لأنَّ الرذائل رجْسٌ وقَذَرٌ، والفضائلَ طُهْرٌ وعفاف، ولن ينبت الطهرُ في حَمأةِ الرِّجس، إلا أن ينبت الزَّهر في الأرض السَّبَخَةِ والملح الأُجاج.

واجب الأزهر وأُولي الأمر

وإذا كان الرسول ﷺ، وأصحابه رضي الله عنهم، لم يألوا جهداً في محاربة هذه التُّرَّهات والقضاء عليها، فحقٌّ على وَرَثَتِه، والأمناء على مِلَّته ـ وعلى رؤوسهم رجال الأزهر ـ ألا ينُوا في إبادتها قولاً وعملاً، بالحكمة والموعظة الحَسَنة، والقُدوة الصَّالحة، في أنفسهم وأهليهم، ومَنْ يمتُّ إليهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

وإذا كان من الإنصاف أنَّ نقول: إنَّ الغُيُرَ من الدُّعاة إلى الله قد قاموا بقسطٍ غير قليل من محاربة هذه الخرافات وإنارة العقول، وهَدْي الناس إلى سواء السبيل. فمن الإنصاف كذلك أن نقول: إنَّ حقاً على مَنْ قلَّدهم الله أزِمَّة حكمه،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وَمَلَّكهم أمورَ خلقه، واختصَّهم بإحسانه، ومكَّن لهم في سلطانه، أن يَشُدُّوا أزْرَ العلماء، ويضربوا على أيدي الجُهلاء، ويقيموا دينَ الله في الأرض؛ ليكونوا ـ بحقٍّ ـ حِمَى الله في بلاده، وظِلَّه المَمْدود على عباده.

* * * * *

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الفصل الثاني

العلم والدعوة

١ ـ مثل من الحيطة في رواية الحديث.

٢ ـ الرحلة في طلب العلم.

٣ ـ كيف يقبض العلم؟.

٤ ـ الاقتصاد في الموعظة.

٥ ـ البعوث في الإسلام (١ ـ ٢).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مَثَلٌ من الحَيْطة في رواية الحديث*

١٨ـ عن أنس رضي الله عنه قال: إنه ليَمْنَعُني أن أُحدِّثكم حديثاً كثيراً أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «من تَعمَّد عليَّ كَذِباً فَلْيَتبوأْ مقْعَدَهُ[١] من النَّار». رواه الشيخان[٢].

أصلان مُشْتبكانِ وصِنْوان لا يفترِقان

على القرآن والحديث يعتمد الإسلامُ دينُ الله العام الخالد، في شِرعته ومنهاجه وهديه وإرشاده؛ فهما لهذا الدين الحنيف أصلان مُشْتبكان، وصِنْوان لا يفترقان. وإلى هذا يشير قوله صلوات الله وسلامه عليه: «تركت فيكم أمرين لن تضلُّوا ما تمسَّكتم بهما: كتابَ الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ»[٣].

وقوله: «ألا إني أُوتيتُ الكتاب ومثله معه..»[٤].

لا جَرَم أنَّ العناية بهما، والحفاظ عليهما، والتثبُّت في روايتهما، تعدل

---

* مجلة الأزهر، العدد الثامن، المجلد التاسع عشر، سنة(١٣٦٧).

(١) فليتبوأ مقْعده: فليتَّخذ منزله، من المَبَاءة وهي المنزل، يقال: بوّأه الله منزلاً فتبوّأه، أي: أسكنه إيّاه فسكنه.

(٢) رواه البخاري (١٠٨) في العلم، ومسلم (٢) في المقدِّمة.

(٣) رواه مالك في «الموطأ» ٢: ٨٩٩ من حديث أبي هريرة.

(٤) رواه أحمد ٤: ١٣١ (١٧١٧٤)، وأبو داود (٤٦٠٤). عن المقدام بن معد يكرب وهو حديث صحيح.

الجديد و حصري NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

العناية بالإسلام، والحفاظ عليه، والاحتفال به؛ إذْ كانا أساس بنيانه، ودعام أركانه، ومِلاك أمره.

ومن فَضْل الله ورحمته بهذه الأمة أنْ آتاها ما لم يُؤْتِ أحداً سواها؛ ومن ذلك أنْ خصَّها بحفظ كتابها، والعناية بآثار نبيِّها، ممَّا لم يعرف التاريخُ مثلَه ـ بل بعضَه ـ لأمةٍ من الأمم.

نهيُه ﷺ أول الأمر عن كتابة الحديث

وقد كان من آيات نبوَّته، وعظيم حكمته ـ صلواتُ الله وسلامه عليه ـ أنْ صَرَفَ هِمَمَ أصحابه أوَّل الأمر، إلى كتاب ربِّه، يَتْلونَه حقَّ تلاوته، ويدرسونه حقَّ دراسته، ويهتدون بهديه، ويستضيئون بنوره.

وبلغ من اهتمامه بهذا الكتاب العزيز أنْ أذِن لأصحابه بأن يحدِّثوا بحديثه دون أن يكتبوه، فقال: «لا تكتبوا عنِّي، ومن كتب عنِّي غير القرآن فَلْيَمْحُه»[١]، حتى إذا اطمأن إلى بليغ عنايتهم بالتنزيل، وشدَّة حرصهم عليه، أَذِنَ لهم بكتابة الحديث عنه، كما أذن لهم من قَبلُ في روايته؛ فكان جلُّ اعتماد الصحابة رضي الله عنهم على حفظهم من رسول الله ﷺ وتلقِّيهم عنه. ومَنْ كتب منهم؛ فإنَّما كان يكتب مبالغةً في الحيطة والتثبُّت.

تحرِّي الصحابة وأمانتهم في رواية الحديث

وكان منهم مُكثرٌ ومُقلٌّ ووسطٌ بين ذلك، ومع تحرِّيهم جميعاً في الرواية

---

(١) رواه مسلم (٣٠٠٤) في الزُّهد والرقائق. قال الحافظ الذهبي في «السير». ٣ :٨: «انعقد الإجماعُ بعد اختلاف الصحابة رضي الله عنهم على الجواز والاستحباب لتقييد العلم بالكتابة. والظاهر أنَّ النهي كان أولاً لتتوفَّر هِمَمُهم على القرآن وحده، وليمتاز القرآن بالكتابة عما سواه من السُّنن النبويَّة، فيُؤْمن اللَّبْسُ، فلما زال المحذور واللَّبْسُ ، ووضح أن القرآن لا يشتبه بكلام الناس، أُذِنَ في كتابة العلم، والله أعلم».

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عن رسول الله ﷺ، وبليغ أمانتهم في الحديث عنه ـ مَنْ كَتَبَ منهم ومَنْ لم يكتب ـ كان كثيرٌ منهم يُمسك عن الحديث ـ وهو يحفظه ـ خشيةَ أن يخطئ وهو لا يشعر؛ والثقة إذا حدَّث بشيءٍ، عُمِلَ به؛ اعتماداً على ما يُعهد فيه من الصِّدق.

وليس الخطأ ـ وإنْ لم يأثم صاحبه ـ بالأمر اليسير على أهل الورع والتُّقى، وسادتهم أصحاب رسول الله ﷺ؛ ومن ثَمَّ كان خوف أنس وأمثاله رضي الله عنهم، مع أنَّ أنساً كان خادم رسول الله ﷺ، ومِنْ أدرى الناس به، وأحفظِهم لحديثه، وقد رُوي عنه مئون من الحديث[١]، ولكنَّها قليلةٌ جداً، إذا قيست بمكانه من رسول الله ﷺ، وبعمره الطويل المبارك[٢]، وبحاجةِ الناس إلى مثلِ علمِهِ وفهمه.

أحفظ الصحابة للحديث

وأحفظُ الصَّحابة للحديث ـ غير مدافَع ـ أبو هريرة رضي الله عنه[٣]، وقد

---

(١) مسند أنس رضي الله عنه (٢٢٨٦) اتفق له البخاري ومسلم على ١٨٠ حديثاً، وانفرد البخاري بثمانين حديثاً، ومسلم بتسعين. كما في «السير» ٣: ٤٠٦، وعدد أحاديثه في مسند أحمد (٢١٧٠) انظر: المسند ٣: ٩٨ (١١٩٤١)- ٣: ٢٩٢ (١٤١١١).

(٢) وُلِدَ أنس قبل الهجرة بعشر سنين، ومات سنة ثلاث وتسعين، وعمره مئة وثلاث سنين رضي الله عنه كما في «السير» ٣: ٤٠٦

(٣) مسند أبي هريرة رضي الله عنه (٥٣٧٤) اتفق له البخاري ومسلم على ٣٢٦ حديثاً، وانفرد البخاري بثلاثة وتسعين حديثاً، ومسلم بمئة وتسعين. وله في مسند أحمد (٣٨٦٦) حديثاً من الحديث (٧١١٩) إلى الحديث (١٠٩٨٤) كما في طبعة مؤسسة الرسالة.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ذكر البخاريُّ أنَّ ثمانمئة من التابعين قد رَوَوْا عنه، ولم يقع هذا لغيره[١]، مع أنَّ عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قد كَتَبَ عن رسول الله ﷺ أكثر منه بشهادة أبي هريرة نفسِه[٢]، ولكنَّ اشتغاله بالعبادة، ونظَرَه في كتب أهل الكتاب، ورحلته إلى مصر أو الطائف أقلَّت من تحديثه والأخذ عنه[٣].

ومع أنَّ أبا هريرة لم يُحدِّث بكلِّ ما حفظ ووعى، فقد أنكر عليه كثرةَ

---

(١) قال الإمام البخاري: روى عنه نحو من ثمانمئة رجل أو أكثر من أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ والتابعين، وغيرهم . كما في «تهذيب الكمال» ٣٤ :٣٧٧، و «سير أعلام النبلاء» ٢ :٥٨٦، و«الإصابة» ٤:٢٠٣. وقد قام العالم الفاضل الأستاذ عبد المنعم صالح العلي في كتابه «دفاع عن أبي هريرة» بتتبُّع مرويات أبي هريرة، والتفتيش عن أسماء الرواة عنه، للبرهان على دقة كلام البخاري هذا، وأورد القوائم بأسماء هؤلاء الرواة، فبلغ ماأحصاه من الأسماء الواضحة (٧٢٧) نفساً، ثم أضاف إليهم قائمة بمن ذُكر باسمه دون نسبته، أو بكنيته فقط،أو ذكرت أسماؤهم غير واضحة، ومجموع الجميع (٣٨) نفساً، فيكون العدد الإجمالي(٧٦٥) راوياً، وهو قريب جداً من قول البخاري.

قال الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله تعالى في كتابه«السنة ومكانتها في التشريع» ص٢٩٧: «وإنَّ في أخذ هؤلاء الثمانمئة من كبار الصحابة والتابعين عه، ونقلهم لحديثه، وثقتهم به، لثمانمئة برهان على جلالة قدره، وصدق لهجته، وثمانمئة تكذيب لمن أكل الحسد والعداوة والتعصُّب قلوبهم من المستشرقين، ومن تَبِعَهم من المسلمين».

(٢) روى البخاري (١١٣) عن همّام بن منبِّه قال: سمعت أبا هريرة يقول: «مامن أصحاب النبيِّ ﷺ أكثر حديثاً عنه مني، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب».

(٣) مسنده ٧٠٠ حديث، اتَّفقا له على سبعة أحاديث، وانفرد البخاري بثمانية، ومسلم بعشرين. وعدد أحاديثه في مسند أحمد (٦٢٧) انظر: المسند ٢ :١٥٨ (٦٤٧٧) _ ٢: ٦٢٦ (٧١٠٣).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

تحديثه جمعٌ من الصحابة، حتى أبان لهم عذرَه في ذلك فكفّوا عنه(١).

روى البخاريُّ عنه أنه قال: إنَّ الناس يقولون: أكثر أبو هريرة، ولولا آيتان في كتاب الله ما حدَّث حديثاً، ثم يتلو: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾(٢).

إنَّ إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصَّفْقُ في الأسواق، وإنَّ إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم، وإنَّ أبا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ بشِبَع بطنه، ويحضُر ما لا يحضرون، ويحفظُ ما لا يحفظون(٣).

ثم يبيِّن لهم السرَّ في عدم نسيانه، بما أصابه من بركة رسول الله ﷺ ودعائه له، فيقول ـ كما روى الشيخان عنه ـ: قلت: يا رسول الله إني أسمع

---

(١) وفي هذه الأيام ينكر عليه، بل ينال منه قومٌ لا خَلاَق لهم من علم ولا معرفة، وربما ساعدهم على طعنهم ما يَصْطنعه الوضَّاعون من أحاديث ينسبونها إليه، وليست من مروياته في شيء! (طه).

وقد سخَّر الله من يدافع عن أصحاب رسول الله ﷺ، ويردُّ على أعداء السنة، ومن المعاصرين الذين نافحوا عن أبي هريرة، وكشفوا زيف الأعداء الطاعنين: الشيخ عبد الرحمن المعلمي اليماني في كتابه «الأنوار الكاشفة»، والدكتور محمد محمد السماحي في كتابه «أبو هريرة في الميزان»، والدكتور السباعي في «السنة ومكانتها في التشريع»، والدكتور محمد محمد أبو شهبة في كتابه «دفاع عن السنة»، والعالم الفاضل الأستاذ عبد المنعم صالح العلي في كتابه الفذ «دفاع عن أبي هريرة» جزاهم الله عن السنة وأهلها خير الجزاء.

(٢) سورة البقرة: ١٥٩ـ١٦٠.

(٣) أخرجه البخاري (١١٨).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

منك حديثاً كثيراً أنساه! قال: ابْسُطْ رداءَكَ، فبسطتُه. قال: فَغَرَفَ بيديه، ثم قال: ضمَّه فَضَمَمْتُهُ، فما نسيت شيئاً بعدُ[١].

ثمَّ يعتذر عن عدم تحديثه بكثير ممَّا سمع، فيقول كما روى عنه البخاري: حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين؛ فأما أحدهما فَبَثَثْتُهُ، وأما الآخر فلو بَثَثْتُهُ قُطِعَ هذا[٢] البلعوم[٣].

عناية السلف بالحديث

ثمَّ سار التابعون على نهج الصحابة في الحفظ والضبط والتحرِّي في الرواية حتى جاء عصر التدوين، فعُني السَّلف بحديث رسول الله ﷺ عنايةً لم يُعرف لها ـ من بعد كتاب الله عزَّ وجل ـ مثيل.

أنفقوا نفوسَهم وأعمارهم وأموالهم في جمعه وتدوينه، والبحث عن رواته طبقةً طبقة، إلى رسول الله ﷺ ـ ونقلُ الثقة إلى منتهى الحديث ممَّا خصَّ الله به المسلمين دون سائر المِلل ـ وبيَّنوا درجةَ كلِّ حديث حسب قوّة رجاله في العدالة والضبط والتحرِّي.

وبذلك مازوا الغثَّ من السَّمين، والخبيثَ من الطيِّب، ونفوا من رجال الحديث طوائف الدَّجَاجِلَة والمَارقين، والوَضَّاعين والكَذَّابين، والجَهلة

(١) أخرجه البخاري (١١٩)، ومسلم (٢٤٩٢)، ولفظ مسلم: «فما نسيت بعد ذلك شيئاً حدَّثني به».

(٢) كناية عن القتل، ويعني بالوعاء الآخر: أحاديث الفتن وأمراء السُّوء وأحوالهم وما إلى ذلك، وقد تذرَّع الباطنية بهذا الحديث إلى نشر ضلالتهم من أنَّ للشريعة ظاهراً وباطناً، ليتحلَّلوا من عروة الشريعة وأحكامها، وليتَّبعوا وحي الشيطان والهوى (طه).

(٣) أخرجه البخاري (١٢٠).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

المُتعصِّبين، كما ينفي الكير خبثَ الحديد.

ذلك أنَّ أعداء الله ورسوله ـ من الزنادقة والملحدين وأشياعهم ـ قد كادوا لهذا الدين من قديم؛ حاولوا جاهدين أن ينالوا من كتاب الله بالتحريف أو التبديل أو المعارضة، فأحبط الله سعيَهم، وردَّ كَيْدَهم، وجعلهم هُزْأة الهازئين وسُخْرة السَّاخرين، وصدق الله، إذ يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾[١].

كشفُ الوضَّاعين ونقد الموضوعات

جرَّبوا محاولتهم بعد خَيْبتهم الأولى، في التقوُّل على رسول الله ﷺ، فوضعوا ما شاء لهم الهوى، وكذبوا ما استحبَّ لهم الكذب، وموَّه كثيرٌ منهم بأقاويل في الترغيب والترهيب قد يوافق بعضٌ منها من معاني الحديث الصحيح؛ فانبرى لهم هؤلاء الأئمة الأعلام، فنقدوا أقوالهم، وكشفوا للناس زيفهم، وفَضَحوا أمرهم، ووقفوا طلاب الحديث على الصحيح منه والسقيم[٢].

والعَجَبُ كلُّ العَجَب أن يغترَّ بهؤلاء الضَّالِّين بعضُ الأعلام من المفسِّرين والمتصوِّفين، فيرووا في كُتبهم طائفةً من أحاديث موضوعةٍ، نبَّه على وضعها أهلُ الحديث ونقدته وفياصِلُ القول فيه[٣].

---

(١) سورة الحجر: ٩.

(٢) في علم مصطلح الحديث بسط القول في الوضع وأسبابه، والوسائل إلى معرفة درجة الحديث وغير ذلك ممَّا يهمُّ المُستَزيد (طه).

(٣) ولهم في ذلك مصنَّفات معروفة كـ«تذكرة الموضوعات»، و«كشف الخفاء» (طه).

وانظر ما كتبه شيخنا العلامة المحدث عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله في كتاب «لمحات مِنْ تاريخ السنة وعلوم الحديث» حول الحديث الموضوع وأسباب الوضع ونتائجه، والأسس =

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

منكرو السنة

وشرذمةٌ أخرى ابتلى اللهُ بها الإسلامَ والمسلمين، لا تقلُّ خطراً عن أولئك الأفاكين والوضَّاعين! تلك التي تنكر من حديث رسول الله ﷺ ما لا يوافق هواها، وتجْحَدُ ما يصدُّ شهوةً من شهواتها، أو يقف عقبةً في طريقها، ولو اتَّفق على صحَّته وصِدْق نسبته أئمةُ الهدى، وحُماةُ الشريعة! على حين يُصدِّقون ما يُصادف هواهم، وإنْ قال الثقات الصادقون: إنه كذبٌ مفترى!! وقد يضلِّلون أشياعهم، ويُموِّهون عليهم بتآويل سخيفة لا تختلف ضلالةً عن جَحْد الحديث الصحيح وتكذيبه، أو انتهاك حرمات الله ورسوله! وقد ذهبت الجُرأة بأذناب منهم مذهبَ الشَّطط، فزعموا أنه لم يصح عن رسول الله ﷺ إلاَّ أحاديث معدودة!!.

ونحن لا نطمع في أن نهدي ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾[1]، ولكنَّا نذكِّر من نخشى عليه الاغترار بهؤلاء، ومن حفظ شيئاً من مبالغة بعض السلف في رواية الحديث، وغابت عنه أشياء؛ نُذكِّرهم جميعاً بأنَّ رسول الله ﷺ قد انتقل إلى الرفيق الأعلى عن مئة ألفٍ من أصحابه أو يزيدون، وهو عنهم جميعاً راضٍ، وكلُّهم ثقات عدول، وإن كانوا عند الله درجات.

ثم نتلو عليهم قول الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ

التي أقامها المحدثون لصيانة السنة، والكتب المؤلفة في الموضوعات والوضَّاعين ص٧٩ـ٢٣١.

(١) اقتباس من الآية ٢٣ من سورة الجاثية.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(١)، وقوله جلَّ سلطانه : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾(٢).

* * * * *

---

(١) سورة النحل : ٤٤.

(٢) سورة الحشر : ٧.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الرِّحلة في طَلَبِ العلم *

١٩ـعن أبي سليمان مالك بن الحُوَيْرث رضي الله عنه قال: أتينا النَّبيَّ ﷺ، ونحن شَبَبَةٌ مُتقاربون، فأقمنا عندَهُ عشرينَ ليلةً، فظنَّ أنَّا اشتَقْنا أهلَنا، وسألنا عمَّن تركنا في أهلنا. فأخْبَرناه ـ وكان رقيقاً (١) رحيماً ـ فقال: «ارجِعُوا إلى أهليكم، فعلِّموهم ومُرُوهم، وَصَلُّوا كما رأيتموني أُصلِّي، وإذا حَضَرت الصَّلاةُ فَلْيؤذِّن لكُمْ أحَدُكُم، ثمَّ لِيَؤُمَّكُمْ أكبرُكُمْ». رواه الشيخان واللفظ للبخاري (٢).

هذه رحلةٌ من الرحلات القديمة في طلب العلم، انتدب لها طائفةٌ من بني لَيْث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، وعلى رأسهم مالك بن الحُويرث رضي الله عنه. قدِموا في السنة التاسعة على خاتم النبيين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

الوفود في العهد النبوي

وكان العربُ من أنحاء الجزيرة في السنتين: التاسعة والعاشرة يقدمون على رسول الله ﷺ أفواجاً؛ لِيُبايعوه على الإسلام ويتفقَّهوا فيه، وكان صلوات الله

* مجلة الأزهر، العدد الرابع، المجلد السابع والعشرون، سنة (١٣٧٥).

(١) هكذا رواية البخاري بالقاف في كتاب الأدب (٦٠٠٨)، من الرقَّة؛ وبالفاء في كتاب الأذان (٦٢٨)، من الرفق. وأما رواية مسلم (٦٧٤) فهي بالفاء فقط. وتقاربهما معنىً كتقاربهما لفظاً (طه).

(٢) رواه البخاري (٦٠٠٨) في الأدب، ومسلم (٦٧٤) في كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وسلامه عليه كما وصفه ربُّه: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[١].

وكما قال: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[٢].

إكرامه ﷺ الوفود

كان صلواتُ الله وسلامه عليه يُكرم كلَّ وفد عامَّةً، ويكرمُ كريمَهُم خاصَّةً، فيولِّيه عليهم، ويُوصيه بهم، وكان يُحْسِنُ استقبالهم جميعاً، ويسألهم عمَّن خلَّفوا من أولادهم وأهليهم، ثم يُشيِّعهم بأكرم وداع وأجمله، كما استقبلهم بأحسنِ ترحيبٍ وأحفله.

وصيَّتُه ﷺ بالبعوث والوفود

وامتدَّت مكرمته ﷺ إلى البعوث والوفود من بعده، فأوصى بهم، وأمر بإكرامهم، ولا تزال تمتدُّ وَصاته ومكرمته ما اهتدت أمته بهديه، واستمسكت بسنَّته ورُشده؛ لأنَّهم رُسُلُ مَنْ خلفهم، وقادةُ مَنْ وراءهم، ولأنهم ـ ماداموا مُخلصين في العلم وطلبه ـ وفدُ الله ورسوله ﷺ، ومرحباً ثمَّ مرحباً بوفد الله ورسوله ﷺ...

روى الترمذي وابن ماجَهْ عن أبي هارون العَبْدي قال: كنا نأتي أبا سعيد رضي الله عنه، فيقول: مرحباً بوصيَّة رسول الله ﷺ، إنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ الناس لكم تَبَعٌ، وإنَّ رجالاً يأتونكم من أقطار الأرض يتفقَّهون في الدين، فإذا أتَوكم فاستَوصُوا بهم خيراً»[٣].

---

(١) سورة التوبة: ١٢٨.

(٢) سورة آل عمران: ١٦٤.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٥٢) (٢٦٥٣)، وابن ماجه (٢٤٧).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وَفْد مالك بن الحُوَيْرث

لَبِثَ وَفْد مالك رضي الله عنهم في ضيافة رسول الله ﷺ عشرين يوماً وليلة، يُزوِّدهم ويُفقِّههم ويهديهم، حتى طالَ عليهم المَدَى، واشتَهَوْا أهليهم واشتدَّ الشَّوق إليهم، وليست إقامتهم عشرين ليلة ـ ما عدا لياليَ الظَّعن جيئةً وأوْبةً ـ بالأمر الهيِّن على معشر من الشباب يفيض قوَّةً وفتوَّةً ... وما أَنْ قرأ صلوات الله وسلامه عليه ذلك في وجوههم، حتى استَنْبأهم واستَبَانَ صِدقَ فراسته في شغفهم بالعودة.

وصيَّةٌ جامعة

هنالك أَذِنَ لهم بالسَّفر إلى أهليهم، وَوَصَّاهم وهو يودِّعهم بهذه الوصية الجامعة.. أمرهم ـ فيما أمر ـ أن يؤدُّوا زكاة علمهم كاملة، فيعلِّموا أهليهم كما علَّمهم الله ورسوله، ويأمروهم بالهدى والخير، ويفقِّهوهم في دين الله كما فقَّههم فيه رسول الله ﷺ ، ومن يُرِد الله به خيراً يفقهه في الدين، ويُلهمه رشده.

وصيَّته ﷺ بالصلاة

واختصَّ الصَّلاة ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ بمزيد من الوَصاة والعناية، فأمرهم أن يُصلُّوا هم وقومُهم كما رَأَوْهُ يُصلِّي، خشوعاً وقنوتاً وقياماً وقراءة، وسَمْتاً وأناةً وضراعة.

ولِيعلموا أنَّ أحبَّ الأعمال إلى الله الصَّلاةُ لوقتها، فإذا حَضَرت الصلاة فَلْيُؤذِّن لهم واحدٌ منهم في سَفَر أو حَضَر، كبيراً كان أو صغيراً؛ لفضلها وعظيم ثوابها، وجليل آثارها في جمع قلوبهم وتأليفها، وتعاونهم على البرِّ والتقوى، ولْيؤمُّهم في الصَّلاة أكبرهم سناً.

وليؤمَّكُم أكبركم

وإنما قدَّم السِّنَّ هنا ـ ومَلاك الإمامة هو الفَضْل في الفقه والقراءة ـ لأنهم استَوَوا في الإسلام والهجرة والصُّحبة، والأخذِ عن رسول الله ﷺ، ومدَّةِ

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الإقامة عنده، فَلَمْ يَبْقَ من خِصَال الفَضْل إلا قِدَمُ السِّنِّ وإنْ كانوا شَبَبَةً متقاربين فيها.

قال صاحب «الفتح»: «ولمَّا كانت نِيَّتُهم صادقةً ـ يعني في طلب العلم وتعليمه ـ صادف شَوْقُهم إلى أهليهم الحظَّ الكامل في الدين، وهو أهلية التعليم، كما قال الإمام أحمد في الحِرص على طلب الحديث: «حظٌّ وافق حقاً»[١].

والسَّعادة كلُّ السَّعادة في الدين والدنيا أن يكون حظُّ العبد وَفْقاً لمن لاينطق عن الهوى صلوات الله عليه وسلامه، وأن يكون هواه تَبعاً لما جاء به.

مفتاح السعادة

ومفتاح هذه السعادة الشاملة الكاملة، بل سبيلها الذي لاسبيل غيره، هي المحافظة على صلاة رسول الله ﷺ كما أمر بها؛ فإنَّها قوام الدين وعماده، مَنْ حافظ عليها كان لما سِواها أحفظ، ومن ضيَّعها فهو لما سِواها أضْيَع، وهذا هو سرُّ الاعتناء بها، والتشديد في طلبها ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[٢].

رحلات دائبة متعاقبة

أما بعد؛ فذا حديثٌ من أحاديث الجماعة: الصحيحين وباقي الكتب الستة، في طلب العلم والرحلة إليه، وهذه مجلة الأزهرِ المعمورِ، أكبر جامعة إسلامية وأقدمها، وأعظمها نشراً للعلم والدعوة إلى الله في أرجاء المعمورة.

---

(١) فتح الباري ٢: ٢٠١.

(٢) اقتباس من الآيتين ٤٥ و٤٦ من سورة البقرة.

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وإذا كان أكثر أحاديثها متَّصلاً بالأزهر، ولو من بعض نواحيه العامة، فإنَّ هذا الحديث وثيقُ الصِّلة بالأزهر، في أخصِّ نواحيه وأعظمها شأناً وأجلِّها مكاناً.

ذلك بأنَّ الأزهرَ مَوْئلُ العلوم الإسلامية الأوّل، ينفر إليه طُلاَّبها من كل فجٍّ في مَشَارق الأرض ومغاربها؛ ليتفقَّهوا في الدين وليُنْذِرُوا قَوْمهم إذا رَجَعوا إليهم.. وليس عليهم جُنَاح أن يَبْتغوا فَضْلاً من ربِّهم، ويَشْهدوا منافع لهم في هذه الرحلات الدائبة المُتعاقبة، كما كان يصنع وفدُ مالك بن الحُوَيْرث وغيره من الوفود في العهد النبوي، مَشْرقِ النّور، ومَبْعثِ الهُدى والعلم..

من شُعب الجهاد في سبيل الله

والرحلة في طلب العلم والفقه في الدين شُعبة من شُعَب الجهاد في سبيل الله، لا تقلُّ شأناً عن قتال العدوِّ لإعلاء كلمة الله وحمايتها، بل إنها ـ مع صدق النيَّة، وحُسن الطويَّة، والعمل بالعلم، والدعوة إلى الخير ـ لأجلُّ قدراً، وأرفع مكاناً، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾(١).

ولقد كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا بعث بعثاً بعد غزوة تبوك ـ وقد أنزل الله تعالى في شأن المتخلِّفين عنها من الآيات الشِّداد ما أنزل ـ كانوا يَنتدبون جميعاً إلى الغزو، ويتسابقون فيه حتى لايكاد أحدٌ منهم يبقى مع رسول الله ﷺ، فأنزل الله عزَّ وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾(٢).

---

(١) سورة فصِّلت: ٣٣.

(٢) سورة التوبة: ١٢٢.

الجديد و طرائف NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

فاطمأنوا وأيقنوا أنَّ التفقُّه في دين الله، ونشر دعوته، وإقامة حُجَّته، وتعميم هدايته ـ وهذا هو الغرض كلُّ الغرض منه ـ جهادٌ من أعظم الجهاد.

وتبيَّنوا أن «مداد العلماء أفضل عند الله من دم الشهداء[١]» ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[٢]، بَيْدَ أنَّ «العلماء ورثة الأنبياء»، [٣] ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾[٤].

قال صاحب «المنار» في تفسيره لهذه الآية[٥]: «كنت أطلب العلم في

---

(١) اقتباسٌ من حديث رواه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» ٢: ١٩٣ (١٨١ زوائد) في ترجمة محمد بن الحسن بن أزهر الوضَّاع، من حديث ابن عمر مرفوعاً بلفظ: «وُزِنَ حبر العلماء بدم الشهداء فرَجح عليهم» وهو حديث مرضوع، ورواه الديلمي في «مسند الفردوس» ٨: ٤٨٥ (٨٨٣٩) مطوَّلاً، وفيه عبد العزيز بن أبي روّاد. قال ابن حبان عنه في «المجروحين» ٢: ١٣٦ روى عن نافع أشياء لا يشك من الحديث صناعته إذا سمعها أنها موضوعة، كان يحدِّث بها توهُّماً لا تعمُّداً. وقد ذكر الزركشي في «اللآلئ» ص ١٦٩، والسَّخاوي في «المقاصد» ص ٣٧٧ رواية الديلمي هذه ولم يتكلَّما عنها بشيء.

والحديث ذكره الزركشي في «اللآلئ» ص١٦٨ بلفظ: «مداد العلماء أفضل من دم الشهداء» وقال: «أخرجه الحافظ أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم البغدادي في جزئه «رواية الكبار عن الصغار» عن الحسن البصري ـ يعني من قوله ـ».

(٢) سورة النساء: ٩٥.

(٣) اقتباس من قوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّ العلماء هم ورثة الأنبياء» وهو حديث حسن رواه أحمد (٢١٧١٥)، والترمذي (٢٦٨٢)، وأبو داود (٣٦٤٢) كلُّهم من حديث أبي الدرداء.

(٤) سورة فاطر:٢٨.

(٥) أي الآية ١٢٢ من سورة التوبة. كما في المنار، لرشيد رضا ١١: ٧٨.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

طرابلس، وكان حاكمها الإداري من أهل العلم والفقه[١]. فقال لي مرةً: لماذا تستثني الدولةُ العلماءَ وطلابَ العلوم الدينيَّة من خدمة العسكرية.. وهم أولى الناس بها؟!ـ يُعرِّض بي ـ أليس هذا خطأ لا أصل له في الشرع؟ فقلت له على البداهة: بل لهذا أصلٌ في نصِّ القرآن الكريم، وتلوتُ الآية[٢]. فاستكثر الجواب على مُبْتدِئٍ مثلي لم يقرأ التفسير، وأثنى ودَعا»[٣].

---

(١) سمَّاه السيد رشيد رضا: مصطفى باشا بابان من سَرَوات الأكراد.

(٢) وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

(٣) في استدلال الشيخ رشيد رضا بهذه الآية على التفرُّغ للعلم والفقه، وترك الخروج للجهاد في سبيل الله، ومتابعة الشيخ الساكت له وموافقته على استنباطه، نظر. والوجه الصحيح في تفسير الآية، كما قال أستاذنا العلامة المفسِّر الشيخ عبد الرحمن حنبكة الميداني حفظه الله في كتابه «ظاهرة النفاق» ٢: ٤٦٤_٤٦٦: «ليس مِنْ شأن المؤمنين أن ينفروا للقتال في سبيل الله جميعاً نفرةً واحدة، فهلاَّ خرج للقتال إذا دَعَا داعي القتال من كلِّ فرقةٍ من فرقهم الاجتماعية بحسب مهنها وتخصُّصاتها طائفة محدَّدة بعددها، ليتفقَّهوا عن طريق التجارب والممارسات العملية في أمور القتال والحرب من مختلف الجوانب، كالأسلحة، وفنون القتال، وطرائق الأعداء فيها، وكل ما يمكن أن يفيد الأمة الإسلامية، فهذا من التفقُّه في الدين، وذلك لأن القتال في سبيل الله هو من الدين، فكل معرفة تكتسب عن طريق الخبرة والتجربة والملاحظة، ولو عن طريق الأعداء المحاربين هو من التفقُّه في الدين. والتفقُّه: هو الفهم الدقيق العميق.

وبعد أن يتفقَّهوا في الأمور التي سبق بيانها، يقومون بوظيفة إعلام قومهم بما توصَّلوا إليه من معلومات، يُعتبر جهلها ثغرة خطرٍ على الإسلام والأمة الإسلامية، فإعلامهم بها هو بمثابة الإنذار لهم بمواطن الخطر، ويكون ذلك بعد رجوعهم من رحلة النَّفْر إلى قومهم. رَجَاء حذرهم، فإذا حَذَروا اتَّخذوا وسائل الحماية» انتهى.

وهذا الوجه الذي ذهب إليه شيخنا الميداني، رجّحه الأستاذ سيد قطب في تفسيره «في ظلال القرآن» ٣: ١٧٣٤ قال رحمه الله تعالى: «والذي يستقيم عندنا في تفسير الآية: أن

=

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الأزهر : رسالته وأياديه

أما بعد ـ مرة أخرى ـ فهذا هو الأزهر، وتلك رسالته..

فإذا رأيت شِرذمةً من أشباه المسلمين، أو أدعياء العلم والإصلاح يقومون في وَجْه الأزهر: من عدوٍّ حاقد، أو طريدٍ حاسد، أو ملحدٍ كائد، أو ابنٍ جاحدٍ لأبيه عاق، أو كاتبٍ مدادُه النفاق والشقاق، فلا يهولنَّك أمره، فما هو إلاّ:

كناطحٍ صخرةٍ يوماً ليوهِنَها ... فلم يَضُرْها وأوْهى قرنَه الوَعْل

إنَّ رسالة الأزهر خالدةٌ باقيةٌ، مابقيَتْ مساجدُ الله الثلاثة في البلاد المقدَّسة، ثمَّ ما بقيتَ أمة الإسلام قائمةً على الحقِّ لايضرُّهم مَنْ خالفهم حتى يأتيَ أمر الله.

مصر والأزهر

أما يد الأزهر على العالم الإسلامي عامَّة، وعلى مصر خاصَّة، فإنها يدٌ مذكورة مشكورة. وحَسْبُ مصرَ أنها لم تتبوَّأ زعامة الشرق ـ وما كان لها أن تتبوَّأها ـ إلا بالأزهر.

ولولا الأزهر ما كانت مصر شيئاً مذكوراً.

المؤمنين لا ينفرون كافَّة، ولكن تنفر من كل فرقة منهم طائفة ـ على التناوب ـ لتتفقَّه هذه الطائفة في الدين بالنفير والخروج والجهاد في سبيل الله، وتنذر الباقين من قومها إذا رجعت إليهم، بما رأته وما فقهته من هذا الدين أثناء الجهاد والحركة..»

ثم قال: «فالذين يخرجون للجهاد بالدين هم أولى الناس بفقهه..أما الذين يقعدون فهم الذين يحتاجون أن يتلقوا ممَّن تحركوا،.. ولعل هذا عكس ما يتبادر إلى الذهن، من أن المتخلِّفين عن الغزو والجهاد والحركة هم الذين يتفرَّغون للتفقُّه في الدين! ولكن هذا وهم، لا يتفق مع طبيعة هذا الدين..».

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ولو كان الأزهر في مصر أيام الرشيد لما احتقرها، وقال مقالته المأثورة ـ حينما قرأ قوله تعالى حكاية عن فرعون: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾[١] الآية ـ «لأولينَّها أحسن عبيدي». فوّلاها الخصيب[٢]، وكان على وضوئه!.

وعن عبد الله بن طاهر[٣] أنه وُلِّيها[٤]، فلمَّا شارفها قال: أهي القرية التي افتخر بها فرعون؟! والله لهي أقلُّ عندي من أنْ أدخلها، وثَنَى عنانه!

إنَّ الشِّرذمة التي تكيد للأزهر لا تكيد لمصر وللعروبة خاصَّةً، بل تكيد للعالم الإسلامي كافَّةً، بل ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[٥].

* * * * *

(١) سورة الزخرف: ٥١.

(٢) الخصيب بن عبد الحميد، صاحب ديوان الخراج بمصر، كما في «وفيات الأعيان» ١: ٦١.

(٣) عبد الله بن طاهر بن الحسن، الأمير العادل، أبو العباس، حاكم خراسان وما وراء النهر، تأدَّب وتفقه، وله يدٌ في النظم والنثر. قلَّده المأمون مصر وإفريقيَّة، ثم خراسان، وكان ملكاً مطاعاً سائساً مهيباً جواداً، ممدحاً من رجال الكمال. مات سنة ٢٣٠، وله ثمان وأربعون سنة. كما في «سير أعلام النبلاء» ١: ٦٨٤.

(٤) وكان دخوله إليها سنة ٢١١، وخرج منها في أواخر هذه السنة، فدخل بغداد في ذي القعدة فيها، واستمرَّ نوَّابه بمصر، وعُزل عنها سنة ٢١٣ كما في «وفيات الأعيان» ٣: ٨٧.

(٥) اقتباس من الآية ٣٢ من سورة التوبة.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كيف يقبض العلم *

٢٠ ـ عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الله لا يقبضُ العلم انتزاعاً ينْتَزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبْض العلماء، حتى إذا لم يُبْقِ عالماً اتخذ الناس رءوساً جُهَّالاً، فسُئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلُّوا وأضلُّوا»!. رواهُ الشيخان واللفظ للبخاري[1].

ميراث الأنبياء:

العلماء وَرَثة الأنبياء، ما في ذلك رَيْبٌ.

والأنبياء لم يُورِّثوا ديناراً ولا درهماً، وإنَّما وَرَّثوا العلم:

ورَّثوا العلم بأسماء اللهِ وصفاته، وسُننه في خلقه وآياته.

وورَّثوا العلم بكتاب الله وحدُودِه، والحُكم بما أنزل الله فيه.

وورَّثوا العلم بشريعة الله ودينه الذي رضيَهُ لعباده، وتعبَّدهم به، ووصَّاهم أن يقيموه ويهتدوا بهديه؛ لأنه النور المبين، والصِّراطُ المستقيم، إلى الحياة الطِّيبة، والعيشة الراضية، والجزاء الأوفى، في الآخرة والأولى.

---

* مجلة الأزهر، العدد الثامن، المجلد التاسع والعشرون ١٣٧٧= ١٩٥٨.

(١) أخرجه البخاري (١٠٠) باب كيف يقبض العلم، وهذه ترجمة الإمام أبي عبد الله البخاري في كتاب العلم، وهذا لفظه فيه، ورواه بلفظ آخر في كتاب الاعتصام (٧٣٠٧) وترجمته فيه: باب ما يذكر من ذمِّ الرأي وتكلُّف القياس، ورواه مسلم (٢٦٧٣) في كتاب العلم كذلك، وترجمته هناك: باب رفع العلم وقبضه، وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان. والحديث عَلَمٌ من أعلام نبوَّته كماترى (طه).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ومصْداق ذلك كله قول الله جلَّت آلاؤه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[1].

للوسائل حكم المقاصد وللمقدِّمات حكم النتائج

ويتَّصل بهذا الميراث النبويِّ كلُّ علم يهدي إليه، وكلُّ وسيلة توصل له، متى خَلُصَت النيَّة، وسَلُم القلب من الأمراض والعلل، وطهُر من الآفات والدسائس.

لا جرَم أنَّ للوسائل حكمَ المقاصد، وأنَّ للمقدِّمات حكمَ النتائج، في الخير والشرِّ والنفع والضُّر، فإنَّما الأعمال بالنيَّات، وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوى.

وغنيٌّ عن البيان أنَّ هذا العلم النبويُّ، لن يتجرَّد ـ ولا ينبغي له أن يتجرَّد ـ عن لُبِّه وجَوْهره، وحياته ونوره، وهو العمل به والاهتداء بهديه؛ فمن أبعد المُحال أن يرفع الله الذين أُوتوا العلم درجات، وهم في وادٍ وما أتوه في وادٍ، بل يهبط بهؤلاء علمهم دَركات؛ لأنه حُجَّةٌ عليهم وفتنةٌ لهم. والجهل خيرٌ من العلم إذا كان فتنةً، والعياذ بالله!!

على أنَّ العلم لو تجرَّد عن العمل به لن يكون ميراثاً نبوياً بحال، فإنَّ الأنبياء لم يُوَرِّثوا ـ مَنَ شاء الله أن يورثوه ـ كلاماً وجدلاً، وإنما ورَّثوا حجَّةً وبياناً، وهدايةً ونوراً، وفقهاً في دين الله عِزَّ وجل.

ليس العلم بكثرة الرواية وقوة الجدل

وغنيٌّ عن البيان كذلك: أنَّ هذا العلم ليس بكثرة الرواية، ولا بقوَّة الجدل في المناظرة، وإنما هو ـ بالتلقِّي والتعلُّم ـ نورٌ يهدي الله به، ويهدي الله له من

(١) سورة المجادلة: ١١.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

اصْطَفَاه من عباده.

وعلامة هذا الاصْطفاء أن يُفقِّهه في دينه، ويُلهِمَهُ الرَّشَاد والسَّداد، فإنْ منَّ عليه فَجَعله قدوةً للعباد، فذلك الذي يُدْعَى في ملكوت السماء عظيماً، وذلك فَضْل الله يؤتيه من يشاء.

ورثة الأنبياء حقاً

إنَّ العلماء العاملين، النَّاصحين المُخلصين، مصابيحُ الظلام، وهُداة الأنام، يبنون الأمم، ويُحيون الهِمَم ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٍۚ﴾[1] هؤلاء هم وَرَثَةُ الأنبياء حقاً، يهتدون بهديهم، ويُجدِّدون للناس أمرَ دينهم، ويستغْنون بالغنيِّ الحميدِ عمَّا في أيديهم، ولولا بقيةٌ منهم لَهَلَك العالم أجمع.

بقيَّةٌ من أولي العلم والفضل

ولقد منَّ الله على المؤمنين بهذه البقيَّة، كما منَّ عليهم بالنبيين وخاتمهم وأصحابه من قبل، إلا أنها تقلُّ وتتضاءلَ ـ تدريجاً ـ بقبض أرواحها، لا برفع العلم ومَحْوه من صدورها، فإنَّ الكريم إذا وَهَب لا يَسْترد، فما بالك بأكرم الأكرمين سبحانه؟! لا نُحصي ثناءً عليه.

وقد بشَّرنا الصَّادق المَصْدوق صلواتُ الله وسلامه عليه، بهذه البقيَّة، وبيَّن لنا علامتها إذ يقول: «من يُرد الله فيه خيراً يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسمٌ، والله يعطي، ولن تزال هذه الأمة قائمةً على أمر الله، لا يضرُّهم من خالفهم حتى يأتيَ أمر الله». رواه الشيخان[2].

---

(١) اقتباس من الآية ٥٤سورة المائدة.

(٢) أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

التوفيق بين الحديثَيْن

وقد يَبْدو بين الحديثَيْن خلافٌ أوَّل النظر، ولكنه يذهب عند التأمُّل، فإنَّ الحديثَيْن لا يختلفان في ذهاب العلم بموت العلماء من حَمَلة الشريعة وفقهاء الأمة، حتى إذا لم يَبْقَ عالمٌ اتَّخذَ النَّاسُ رؤساء جُهَّالاً، يستفتونهم في أمر دينهم، فيستنكف أحدهم أن يقول: لا أدري، ويتعاظم أن يرجع إلى أحد من هذه البقيَّة التي بشَّر بها النبيُّ ﷺ، أو يشقُّ عليه الرجوع إليها، لقلَّتها وتفرُّقها حتى باتت في حكم العَدَم! وحين ذاك تَفْشو الجَهَالة، وتعمُّ الضَّلالة، ويُوَسَّد الأمر إلى غير أهله؛ تمهيداً لقيام الساعة على كلِّ لُكع وابن لُكع من شِرار الخَلْق!!

جهَّال في ثياب العلماء

وها نحن أولاء نرى جُهَّالاً في ثياب العلماء، يتصدَّرون للفتوى والقول على الله بغير علم، ولا يَعْدَمون من أتباع كلِّ ناعق، مَن يُصَدِّقهم ويدافع عنهم، وهو يَجْهل الضروري ممَّا افترض الله عليه، وإذا كان هذا وفي الأمة الإسلامية بقيَّةٌ من أُولي العلم والفضْل، فما بالك إذا اضْمَحلَّت هذه البقية إلى معشارها أو أقل؟!

شرف الفتوى

وإذا كان في الحديث تنويهٌ بشأن العلم والعلماء عامة، ففيه تنويهٌ أعظم وأجلّ بشأن الفتوى والمفتين خاصَّة، وحَسْبُ الفتوى شرفاً وفضلاً أنَّ الله ـ تعالى جَدُّه ـ تولاَّها بنفسه، ثمَّ ولاَّها خاتم أنبيائه ورسله، ثمَّ تولاَّها سادة الأمة وقادتها، أبرُّها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلُّها تكلُّفاً، أولئك أصحاب رسول الله ﷺ. فلْيُعِدَّ المفتون لهذا المَنْصب عُدَّته، وليعرفوا له خطرَهُ وجلالته(١).

ورواية الإمام أحمد لهذا الحديث ـ بمعناه ـ عن أبي أُمامة رضي الله

---

(١) انظر تفصيل هذا الإجمال في «إعلام الموقِّعين عن ربِّ العالمين» (طه).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عنه، في حَجَّة الوداع(١)، تدلُّ على مكان التحديث به، كما تدلُّ على مبلغ اهتمام النبيِّ ﷺ بالعلم وأخذِه وروايتِه، وتوكيد وَصاته به في آخر حياته، وتحذير أمته ـ ولا سيِّما الآخرين منهم ـ أن يتهاونوا في طلب العلم، والحرص عليه حتى يُقبض بقبض العلماء!! فيفشو الجهلُ، ويستفحل الداء، وتكون الآزفة!!

وصاة خليفة راشد

وقد توجَّسَ خيفةً من هذا الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، في رأس المائة الأولى، إذ كتب إلى أبي بكر بن حزم نائبه على المدينة:

«انْظُر ما كان من حديثِ رسولِ اللهِ ﷺ فاكْتُبْهُ، فإني خِفْتُ دُروسَ العلم،

---

(١) أخرجه أحمد ٥: ٢٦٦ (٢٢٢٩٠)، ولفظه من حديث أبي أُمامة رضي الله عنه قال: لمَّا كان في حَجَّة الوداع قام رسول الله ﷺ، وهو يومئذ مُردفٌ الفَضْل بن عباس على جملٍ آدمَ، فقال: «يا أيها الناس، خذوا من العلم قبل أن يُقبضَ العلمُ، وقبل أن يُرفعَ العلمُ»، وقد كان أنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [المائدة: ١٠١] قال: فكنَّا قد كرِهنا كثيراً من مسألته، واتَّقينا ذاك حتى أنزل على نبيِّه ﷺ قال: فأتينا أعرابياً فرَشَوناه برداء، قال: فاعتمَّ به ـ أي: جَعَله عِمامة له ـ، حتى رأيت حاشية البُرْد خارجةً على حاجبه الأيمن.

قال: ثم قلنا له: سَلِ النَّبيَّ ﷺ، قال: فقال له: يا نبيَّ الله، كيف يُرفَعُ العلم منَّا، وبين أظهرنا المصاحفُ، وقد تعلَّمنا ما فيها، وعلَّمناها نساءَنا وذراريَّنا وخَدَمنا؟!

قال: فرفع النبيُّ ﷺ رأسَهُ، وقد علَتْ وجْهَه حُمْرةٌ من الغضب، قال: فقال: «أيْ ثَكِلَتْك أمُّك! وهذه اليهودُ والنَّصارى بين أظهُرهم المصاحفُ، لم يصبحوا يتعلَّقون بحرف ـ أي: يعلمون ـ ممَّا جاءَتْهُم به أنبياؤهم، ألا وإنَّ من ذَهاب العلم أن يذهبَ حَمَلَتُه» ثلاث مرات. والحديث إسناده ضعيف بهذه السياقة. وانظر التعليق على المسند ٣٦: ٦٢٢.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وذهابَ العلماء، ولا يُقْبَل إلا حديث النبيِّ ﷺ، وليفشوا العلم، وليجلسوا حتى يعلمَ مَنْ لا يعلم؛ فإنَّ العلم لا يهلك حتى يكون سرّاً»[1].

والله المستعان على العلم والعمل به، والفقه في دينه، والنُّصح له.

* * * * *

(١) رواه البخاري ١ : ٢٠٤ معلَّقاً في كتاب العلم، باب: «كيف يقبض العلم». وانظر ما كتبه العلامة المحقِّق الشيخ محمد عوَّامة حول الجانب العلمي في حياة عمر بن عبد العزيز، ونشره العلم في الأمصار والبوادي، وتدوينه العلم وتثبيته في الكتب؛ خشيةَ اندراسه بموت حَمَلته في مقدِّمة تحقيقه لكتاب «مسند أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز» للحافظ الباغندي ص٥ ـ ٢٣.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الاقتصاد في الموعظة *

٢١ـ عن أبي وائل قال: كان عبد الله يُذكِّر الناس في كلِّ خميس، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، لوَدِدْتُ أنك ذكَّرتنا كلَّ يوم، قال: أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أُملَّكم، وإني أتخوَّلكم بالموعظة كما كان النبيُّ ﷺ يتخوَّلنا بها، مَخَافَةَ السَّآمة علينا. رواه الشيخان، واللفظ للبخاري[١].

أبو وائل: كنية شقيق بن سَلَمة الأسدي الكوفي، أحدُ سادة التابعين وكبارهم، أدرك زمن رسول الله ﷺ ولم يره، وروى عن خلفائه الأربعة، وغيرهم من كبار الصحابة رضي الله عنهم، ولا سيِّما عبد الله بن مسعود، فقد أكثر من الرواية عنه، حتى قال عمرو بن مُرَّة: قلت لأبي عبيدة بن ابن مسعود: مَنْ أعلم أهل الكوفة بحديث أبيك؟ قال: شقيق. وروى عنه الجَمُّ الغفير من التابعين، واتَّفقوا على ثقته وجلالته.

عُجالة عَاجلة من ترجمة زاخرة حافلة

أما عبد الله: فهو ابن مسعود بن غَافِل الهُذَليُّ، وكنيته أبو عبدالرحمن، وأمُّه أم عبد، من هُذَيْل أيضاً. أسلمت وهاجرت، فهو صحابيٌّ ابن صحابية

أسلم عبد الله قديماً حين أسلم سعيد بن زيد قبل عمر بن الخطاب رضي

* مجلة الأزهر، العدد الرابع، المجلد الثامن والعشرون، سنة (١٣٧٦=١٩٥٦).

(١) رواه البخاري (٦٨) و(٧٠) في كتاب العلم، و(٦٤١١) في كتاب الدعوات، ومسلم (٢٨٢١) في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم.

الجديد و طهرة NEW & EXCLUSIVE

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الله عنهم، وقال: لقد رأيتُني سادس ستة وما على الأرض مسلمٍ غيرُنا[١].. وهاجر إلى الحبشة ثمَّ إلى المدينة، وشَهِدَ مع رسول الله ﷺ بدراً وأُحداً والخندق وبيعة الرِّضوان والمشاهد كلها.

ومن أخباره بعد النبيِّ ﷺ: أنه شهد فتوح الشام، وسيَّره عمر إلى الكوفة، وكتب إلى أهلها: «بعثتُ إليكم عماراً أميراً، وعبد الله بن مسعود معلِّماً ووزيراً، وهما من النجباء من أصحاب رسول الله ﷺ ومن أهل بدر، فاسمعوا لهما، واقْتدوا بهما، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسي»[٢].

أشبه الناس بخاتم النبيين في هَدْيه وسَمْته

لازم النَّبيَّ ﷺ، وكان حارسه، وصاحب وسادته وسواكه ونعله، أشبه الناس بخاتم النبيين ﷺ في هديه وسَمْته.

قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: «قدمت أنا وأخي من اليمن، فمكثنا حيناً وما نحسب ابنَ مسعود وأمَّه إلا من أهل بيت رسول الله ﷺ، من كثرة دخولهم عليه ولزومهم له»[٣]، فلا عجبَ بعد ذلك أن يكون أشبه الناس بخاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليهم، في هَدْيه وسَمْته.

إمام مدرسة نبويَّة

ثمَّ لا عَجَبَ بعد ذلك أن يكون إمام مدرسة من مدارس النبوَّة التي أخرجت أئمة علم وهدى، ملؤوا الدنيا هدايةً ونوراً، ممَّن أعزَّ الله بهم الإسلام، وهدى بهم إلى دار السلام[٤].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» ١: ١٢٦، والحاكم ٣: ٣١٣ وصحَّحه، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه الحاكم ٣: ٣٨٨ وصحَّحه، ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه البخاري (٣٧٦٣) و(٤٣٨٤)، ومسلم (٢٤٦٠).

(٤) انظر: أخبار هذه المدرسة العظيمة في مقدِّمة «نصب الراية»: «فقه أهل العراق =

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

سادس ستة

«ومن عجيب الحكمة أنه كان سادسَ ستةٍ في الإسلام أولاً، وكان واحداً من ستةٍ في العلم ثانياً، وكان أستاذ أئمة ستةٍ في الكوفة آخراً ... أولئك الذين خلفوه بحركةٍ كبيرةٍ في العلم صارت تُتوارث حتى تُوِّجت بأبي حنيفة تلميذِ حمَّاد، تلميذِ النَّخَعي، تلميذِ علقمة، تلميذ عبد الله بن مسعود[1]».

ترجمة زاخرة حافلة

هذه العُجَالة العاجلة، من ترجمةٍ زاخرةٍ حافلة، تدلُّنا فيما تدل على أنَّ ابنَ مسعود رضوان الله عليه، كان أمّةً هادياً، ونوراً سارياً، وبحراً فيَّاضاً، لا يحبس علمَه ونوره على يوم الخميس من أيام الأسبوع فحسب، وأكبر العلم أنه لو أراد ذلك لغلبه هديه، ولتفجَّرت ينابيع علمه في كلِّ يوم على الرُّغم منه.. وإنما هو يومٌ اختاره للوعظ والتذكير؛ تزكيةً للنفوس، وتطهيراً للقلوب، إلى بقية أيام الأسبوع الست التي كان يُوالي فيها مدرسته بالتعليم والفتوى، وبيان الأحكام واستمدادها من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

الوعظ والتذكير والقصص

والوعظ والتذكير من شُعَب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله عزَّ وجل، وهما من وظائف الأنبياء والمرسلين، ومن تَبِعهم بإحسان إلى يوم الدين. والوعظ والتذكير والقصص، ثلاثتهن متجاوراتٌ في الذكر والمعنى.

ولم نَرَ من كَشَف اللِّثام عنهنَّ إلا الإمام الخطابي في «معالم السنن» عند

وحديثهم» ١ :٢٥_٩٣.

(١) قبسة من «تراجم إسلامية جليلة لكبار الصحابة والتابعين» بقلم زميلنا العالم الكاتب الأستاذ النواوي، جعلناها مسك الختام لهذه العجالة (طه).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

رواية أبي داود لحديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه، فقال: سمعت رسول الله يقول: «لا يَقُصُّ إلا أميرٌ، أو مأمورٌ، أو مُخْتَالٌ»[١] نقل هنالك: «أنَّ المُتكلِّمين على الناس ثلاثة أصناف: مذكِّر، وواعظ، وقاص.

فالمذكِّر: الذي يذكِّر الناس آلاء الله ونعماءَهُ، ويبعثهم بذلك على الشُّكر له.

والواعظ: يُخوِّفهم بالله ويُنذرهم عقوبتَهُ، فيردعهم بذلك عن المعاصي.

والقاصُّ: هو الذي يُخبرهم أخبار الماضين، ويَسْرد عليهم القَصص، فلا يأمن أن يزيدَ فيها أو ينقص، والمذكِّر والواعظ مأمونٌ عليهما هذا المعنى»[٢].

من القصص محمود ومذموم

ولا يتَّسع المجال هنا لبيان مساوئ القُصَّاص، وما أدخلوه في قَصَصِهم من أكاذيب وغرائب، يَغْزون بها قلوب الدَّهْماء، ويَسْتهوون بها أفئدتهم!!

وحَسْبنا أنَّ القصص المحمود ما حمده الله ورسوله، وأنَّ القصص المذموم ما ذمَّه الله ورسوله.

ولارَيْبَ أنّ أصحابَ النَّبيِّ ﷺ وتابعيهم بإحسان لم يصدروا ـ ولن

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» ٦ :٢٣(٢٣٩٧٢) بلفظ «متكلِّف» بدل «مختال»، وأبو داود (٣٦٦٥) في كتاب العلم، باب القصص من حديث عوف بن مالك الأشجعي، والحديث صحيح بطرقه وشواهده. وقال ابن الأثير في «جامع الأصول» ١١ :٧٣٤ في شرحه للحديث: «أراد بهذا الخُطَب، وذلك أنَّ الأمراء كانوا يتولَّونها بأنفسهم، فيقصُّون فيها على الناس ويعظونهم. فأما المأمور؛ فهو من يقيمه الأمير، ويختاره الأئمة، فينصبونه لذلك، ولا يكادون يختارون إلا رضيّاً من الناس فاضلاً، وما سوى ذلك فلا يكاد ينتدب له من الناس إلا مُراءٍ مختال، فإن المختال ينصب نفسه لذلك من غير أن يأمره أحدٌ من أُولي الأمر، طلباً للرياسة، فهو يرائي بذلك ويختال. وقيل: أراد به الفتوى في الأحكام».

(٢) معالم السنن، للخطابي ٥ :٢٥٥.

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يصدروا ـ فيما يقصُّون ويعظون إلا عن بيِّنة من الله ورسوله.

مساوئ القُصَّاص

أما أولئك الذين يهرفون بما لا يعرفون، ويكذبون على الله وعباده، وهم يعلمون أو لايعلمون، فهم من المختالين الذين عناهم الحديث المرويُّ عن أبي داود آنفاً، وأولئك هم آفة الدعوة إلى الله، وشرٌّ عليها في كلِّ زمان ومكان!!.

إيثار ابن مسعود يوم الخميس للوعظ والتذكير

وإذا كان عبد الله رضي الله عنه أشْبَهَ النَّاس برسول الله ﷺ هَدْياً وسَمْتاً، فلا بدَّ من حكمةٍ لإيثاره يوم الخميس بالوعظ والتذكير، فإمَّا رأى النَّبيَّ ﷺ يُؤْثره، وإما لأنه تمهيدٌ ليوم الجمعة، خيرِ يوم طلعت عليه الشمس، ادَّخره الله لنا وهدانا إليه[1].

---

(١) والحكمة في إيثاره يوم الخميس أيضاً، أنه تُعرض الأعمال فيه وتُرفع وتُفتح أبواب السماء. أخرج الترمذي (٧٤٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «تُعرض الأعمالُ يوم الاثنين ويوم الخميس» وقال الترمذي: حسن غريب.

وأخرج أحمد ٢: ٣٢٩ (٨٣٦١) عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الأعمال تُعرض كل اثنين وخميس»، وفي صحيح مسلم (٢٥٦٥) عن أبي هريرة مرفوعاً: «تُفتح أبوابُ الجنة يوم الخميس».

قال الحافظ ابن رجب في «لطائف المعارف» ص٢٤٤ :«وروي علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله عز وجل: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨] قال: يكتب كلُّ ما تكلَّم به من خير وشر، حتى أنّه ليكتب قولَه: أكلتُ وشربتُ، وذهبتُ، حتى إذا كان يوم الخميس عُرِض قولُه وعملُه، فأُقرَّ منه ما كان فيه من خيرٍ أو شرٍ، وأُلقيَ سائره، فذلك قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾.

فهذا يدلُّ على اختصاص يوم الخميس بعرض للأعمال لا يوجد في غيره.

وكان إبراهيم النَّخعي يبكي إلى امرأته يوم الخميس، وتبكي إليه، ويقول: اليوم تُعرض أعمالُنا على الله عزَّوجل» انتهى.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

طلبُ أهل مجلسه الاستزادة من وعظِه وتذكيره

كان أهلُ هذا المَجْلس: مجلسِ الوعظ والتذكير، ينتظرونه أحياناً لِيَسْتزيدوا من وعظه وتذكيره، حتى قال قائل منهم ـ وهو يزيد بن معاوية النَّخعي الكوفي التابعي العابد الثقة ـ: يا أبا عبد الرحمن، إنا نحبُّ حديثك ونشتهيه، ولوَدِدنا أنَّك حدَّثتنا كلَّ يوم، فقال: إني أخبر بمكانكم، وما يمنعني أن أحدِّثكم كل يوم كما تشتهون إلا كراهةَ أن أُمِلَّكم، وإنَّ رسول الله ﷺ كان يتخوَّلنا بالموعظة في الأيام كراهية السآمة علينا.

التخوُّل بالموعظة أدعى للانتفاع بها

والتخوُّل بالمَوعظة والتحوُّل والتخوُّن بها[١] ـ وبكلٍّ مِنَ الثلاثة رُوي الحديث ـ وهو التعهُّد، وطلبُ أحوال النشاط فيها، والارتياح إليها، وذلك أدعى للانتفاع بها، والتأثُّر بآثارها.

أحبُّ الأعمال إلى النبيِّ ﷺ

نعم كان عمل النبيِّ ﷺ دِيمة[٢]، وكان أحبُّ الأعمال إليه ما داوم عليه صاحبه، وإنْ قلَّ، وكان يكره أن يُمِلَّ العبدُ نفسه في العبادة أو يُضْجِرَها، فإذا أملَّ غيره أو أضْجَره فإنه ـ ولا رَيْب ـ أشدّ لذلك كراهية.

---

(١) قال ابن الأثير في «النهاية» ٢ :٨٨: «يتخوَّلنا بالموعظة» أي: يتعهَّدنا، من قولهم: فلان خائل مالٍ، وهو الذي يُصلحه ويقوم به.

وقال أبو عمرو: الصواب: يتحوَّلنا بالحاء، أي: يطلب الحال التي ينشطون فيها للموعظة فيعظهم فيها، ولا يُكثر عليهم فيملُّوا. وكان الأصمعيُّ يرويه: يَتَخوَّننا بالنون، أي: يتعهَّدنا.

(٢) اقتباسٌ من حديثٍ رواه البخاري (١٩٨٧) ومسلم (٧٨٣). ولفظه عند البخاري من حديث علقمة: قلت لعائشة رضي الله عنها: هل كان رسول الله ﷺ يختصُّ شيئاً؟ قالت: لا، كان عمله ديمةً. وأيكم يطيق ما كان رسول الله ﷺ يطيق.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الدوام في كلِّ شيء بحسبه

غير أنَّ الدوام في كلِّ شيء بحسبه، يختلف باختلاف مكانِه من الدين وطلبه، قولاً كان أو فعلاً، فرضاً كان أو نفلاً، وللنفوس وأحوالها، وللأوقات وتقلُّبها، وللهمم واختلافها، لكلِّ أولئك آثارٌ لا تُنسى.

خيرُ المذكِّرين والواعظين

وخير المُذكِّرين والواعظين مَنْ يَعرف طبائع النفوس، وأنها مجبولةٌ على السَّآمةِ والملال، وحُبِّ الانتقال من حال إلى حال، فيُرشدُها ويدعوها ما توسَّم فيها نشاطاً وإقبالاً، ويُخفِّف عنها ويُوجز ما تفرَّس فيها فتوراً وكلالاً، ولأَن يقوم عن أهل مجلسه وهم مشتاقون، خيرٌ من أن يدعوهم وهم سائمون.

على هذا المنهج السَّمْح الكريم، سار في دعوته وهَدْيه إمامُ الهادين والمرشدين، من بُعث بالحنيفيّة السَّمْحة بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

* * * * *

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

البعوث في الإسلام*

ـ ١ ـ

٢٢ ـ عن أبي موسى رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحداً من أصحابه في بعض أمره قال: «بشِّروا ولا تُنفِّروا، ويَسِّروا ولا تُعَسِّروا»(١).

٢٣ ـ وعن سعيد بن أبي بُرْدة عن أبيه عن جدِّه أنَّ النبيَّ ﷺ بعثه ومعاذاً إلى اليمن فقال: «يَسِّروا ولا تُعسِّروا، وبشِّروا ولا تُنفِّروا، وتَطَاوَعا ولا تختلفا». رواهما الشيخان(٢).

تاريخ البعوث في الإسلام

حقٌّ على الدعاة، إلى الله عامَّةً، ومَنْ ولاَّه الله منهم مقاليدَ الأمور خاصَّةً، أن يتبيَّنوا تاريخ البعوث في الإسلام، وكيف كان يتخيَّرها النبيُّ عليه الصَّلاة والسلام؛ فإنَّما تنجَحُ الدعوة وتُؤْتي أُكلَها بمقدار إخلاص صاحبها وحُسْن اختياره.

---

* مجلة الأزهر، العدد العاشر، المجلد التاسع عشر (١٣٦٧ = ١٩٤٨).

(١) أخرجه مسلم (١٧٣٢) بهذا اللفظ، ورواه البخاري (٦٩) في كتاب العلم، ومسلم في الجهاد (١٧٣٤) من حديث أنس عن النبيِّ ﷺ قال: «يسِّروا ولا تعسِّروا، وبشِّروا ولا تُنَفِّروا».

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٤٤)، ومسلم (١٧٣٣) بلفظ: «يسِّرا ولاتعسِّرا، وبشِّرا ولا تُنَفِّرا، .. ».

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ونحاول هنا، ونحن في بَعث إلى البلد الحرام، أن نقتبس من الهَدْي النبويِّ في البعوث الإسلامية، ما نرجو أن يكون للدعاة مناراً، وللهادين ضياءً.

هاجر النبيُّ صلوات الله وسلامه عليه، من مكة إلى المدينة، على رأس ثلاثَ عشْرة سنة، رأى فيها وهو صابرٌ مُصابر، من ضروب الأهوال، ما ينوء بشُمِّ الجبال. وما إن استقرَّ أمر الإسلام أو كاد حتى أخذ عليه الصلاة والسلام يبعث البعوث إلى البلاد النائية، يجاهدون في الله حقَّ جهاده، ويدعون إلى الله على هُدى وبصيرة، ويحكمون بين الناس بالحقِّ، ويفقِّهونهم في دين الله عزَّ وجل(١).

وصايا جامعة

وكان صلوات الله عليه يُوصي بعوثه بوصاياه الجامعة، وعِظاته البليغة، وهذا نموذجٌ من وصيَّته لمَّا بعث صاحبيه أبا موسى الأشعري، ومعاذ بن جبل إلى قومهما وبلدهما باليمن، وكانا من أعلم الصحابة بالحلال والحرام، وأدراهم بأحكام الإسلام؛ أوصاهما بخلال ثلاث، هنَّ جماع الفقه والحكمة، وعماد العلم والمعرفة؛ وعليهنَّ يُبْنى أمرُ الدين كلِّه أصولاً وفروعاً، وآداباً ومكارمَ، وبهنَّ أو بما يُرَدُّ إليهن كان يوصي أصحابه في عامَّة الأمر وخاصَّته.

التيسير على الناس والتخفيف عليهم

الأولى: **التيسير**، وهو ضدُّ التعسير، والمراد به التسهيل على الناس والتخفيف عليهم في الدعوة والعبادة، والعلم والعمل، وأخذُهم بالتدرُّج في الأمور شيئاً فشيئاً، ولا سيما حُدَثاء العهد بالإسلام، ومن قارب حدَّ التكليف من الصبيان،

(١) فالمراد بالبعوث هنا: ما يشمل الغزاة والمجاهدين، والقضاة والمرشدين (طه).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ليتمرَّنوا على الإسلام وخِصاله، إلى أن يأْنَسوا به ويهَشُّوا له، ويختلطَ بهم اختلاطَ اللحم بالدم؛ ولا بأس حينذاك أن يأخذهم ببعض الحزم والشّدَّة.

ولو حُمِلَ الناس على الحقِّ جُملةً لتركوه جملة. وكم من داعٍ عسَّر ولم يُيَسِّر، وشدَّد ولم يُخفِّف، خابَ سعيُه، وضاع أملُهُ، وذهبت دعوتُهُ أدراجَ الرياح.

إنه لا ينبغي لأحدٍ أن يتصدّى للدعوة إلاّ من بعد أن يفقه سيرة النبيِّ ﷺ ومنهاجه فيها، كما لا يحلُّ لإمام أو أمير أن يولِّيها أحداً إلا إذا كان لها كفئاً، وبها جديراً.

لقد بُنِيَ هذا الدين على التيسير، وأشاعه النبيُّ ﷺ في جميع أقطاره، وقال: «إنَّ الدين يسرٌ، ولن يُشادَّ الدينَ أحدٌ إلاّ غلبه فسدِّدوا وقاربوا»(١).

ونهى عن التعمُّق في الدين، وشدَّد النكيرَ على المتعمِّقين، وقال: «هلَكَ المتنطِّعون»(٢) ثلاثاً.

ودخل المسجد فإذا حبلٌ مَمْدود بين ساريتَيْن، فقال: «ما هذا الحبل؟» قالوا: هذا حبلٌ لزينب، فإذا فتَرت تعلَّقت به؛ فقال النبيُّ ﷺ: «حُلُّوه، ليصلِّ أحدكُم نشاطه، فإذا فتَر فليقعُدْ»(٣).

ودخل على عائشة رضي الله عنها وعندها امرأة، فقال: «من هذه»؟ قالت: فلانة، تذكر من صلاتها. قال: «مَهْ، عليكم بما تطيقون، فوالله لا يَملُّ الله حتى تَملُّوا»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩) في الإيمان.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٧٠) في العلم.

(٣) أخرجه البخاري (١١٥٠) في التهجُّد، ومسلم (٧٨٤) في صلاة المسافرين.

(٤) أخرجه البخاري (٤٣) في الإيمان، ومسلم (٧٨٥) في صلاة المسافرين.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وقالت عائشة رضي الله عنها: «ما خُيِّر رسولُ الله ﷺ بين أمرين قطُّ إلاَّ أخذ أيْسَرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعدَ الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيءٍ قط، إلا أن تنتهك حرمةُ الله فينتقم لله بها»[(١)].

ودخل المسجدَ أعرابيٌّ، فانتحى منه ناحية، وبال فيها، فثار إليه الناس وهمُّوا به، فزجرهم صلوات الله عليه، وقال: «دعوه، وأهريقوا على بوله ذَنوباً من ماء ـ أو سَجْلاً من ماء[(٢)]ـ فإنَّما بُعثتم مُيَسِّرين ولم تُبعثوا معسِّرين»[(٣)].

وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يذكّر الناس كلَّ خميس فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن لوَدِدت أنك تذكِّرنا كلَّ يوم! فقال: لا يمنعني من ذلك إلاَّ أنَّ رسول الله ﷺ كان يتخوَّلُنا بالموعظة خشيةَ السآمة علينا[(٤)].

الحنيفيَّة السَّمْحة

وكانت الحنيفيَّة السَّمْحَة فرائض وسنناً وآداباً وفضائل، ليأخذ كلٌّ من بعد الفرائض بالقسط الذي يسَّر الله له.

ورخَّص الله للناس في كلِّ ما يشقُّ عليهم أداؤه، فأباح للمسافر الفطر في رمضان، وأوْجَبَه على مَنْ خشيَ هلاكاً أو قاربه.

وأمر ﷺ العاملين على الصَّدقات أن يُيَسِّروا على الأغنياء في الجباية، فيكتفوا بالوسط، ولا يرهقوهم بأخذ السَّمين والمنتقى.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٦٠) في المناقب، ومسلم (٢٣٢٧) في الفضائل.

(٢) الذَّنوب والسَّجل: الدلو، و«أو» للشك من الراوي في أيِّ اللفظين قاله ﷺ (طه).

(٣) أخرجه البخاري (٢٢٠)، (٢٢١)، ومسلم (٢٨٤).

(٤) أخرجه البخاري (٦٨)، (٧٠)، (٦٤١١)، ومسلم (٢٨٢١). وانظر شرحه في «الاقتصاد في الموعظة» ص٢٥١ ـ ٢٥٧.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وسنَّ للمسافر قَصْرَ الصَّلاة، وأمر الإمام بالتخفيف فيها؛ فإنَّ في الناس المريض والضعيفَ وذا الحاجة.

وكان إذا سمع بكاء الطفل، يتجوَّز في صَلاته رِفقاً بأمه.

وكان يأمر بالأخذ بالرخصة ويقول: «إنّ الله يُحبُّ أن تؤتى رُخَصُه كما يُحبُّ أن تُؤْتى عزائمه»[1]. إلى غير ذلك من أمثلةٍ لا يُحْصِيهَا العدُّ، ثابتةٍ كلها في صحيح الآثار، ومنتقى الأخبار، بلغت ـ أو كادت ـ مبلغ التواتر.

دين الفطرة

وما لنا نعدّد الأمثلة ونبسط الأدلَّة، وقد علم الناس جميعاً أنَّ دين الله هو دين الفطرة، ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[2] وأنه واضحُ المنهج في عقائده وأحكامه، سَهْلُ المأخذ في كلِّ أمر من أموره، وَحَسْب الناظر فيه ـ ومن ابتغاه ديناً ـ أن يعلم أنَّ الأعرابيَّ الجِلْف كان يجلسُ بين يدي رسول الله ﷺ ساعةً من نهار، فيتلقّى عنه الدين كلَّه، فإذا هو خَلْقٌ آخر، قد مُلِئَ نوراً وهُدًى، وكان منذ ساعة قطعةً من الظلمات تمشي على الأرض.

---

(١) رواه بهذا اللفظ ابن حبان (٣٥٤) من حديث ابن عباس وإسناده صحيح، وفيه الحسين بن محمد، وهو: ابن أيوب الذراع، وثَّقه النسائي. وقال أبو حاتم: صدوق. وذكره ابن حبان في الثقات ٨: ١٩٠، ومَنْ فوقه من رجال الصحيح، وحسَّنه المنذري.

وأخرجه عن ابن عباس أيضاً الطبراني في «الكبير» (١١٨٨٠)، وأبو نُعيم في «الحلية» ٨: ٢٧٦ من طريق الحسين بن إسحاق التستري، والبزار (٩٩٠)، قال الهيثمي في «المجمع» ٣: ١٦٢: ورجال البزار ثقات، وكذلك الطبراني.

كما أخرجه بهذا اللفظ أيضا ابن حبان (٣٥٦٨) من حديث ابن عمر بإسنادٍ قوي.

(٢) سورة الروم: ٣٠.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بين التيسير والتهاون

لا جَرَمَ أنَّ الدين يُسرٌ، ولكن لا يحسبنَّ الذين لا يفقهون، أنَّ يُسْرَهَ أو التيسير فيه، يدعو إلى التهاون في أمره، أو التأويل في نصوصه، أو تَتَبُّع الرُّخَص التي تُروى عن علمائه والفقهاء[١] فيه؛ فإنَّ الدين حبلُ الله المتين، وصراطُه المستقيم، لم يكن في شأنٍ من شؤونه غالياً ولا جافياً ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[٢] لا إفراط ولا تفريط.

إنهَّ ليُوشكُ من تأوَّل فيه لشهوةٍ أو هوى، أو تهاونَ فيه عن عمًى وجَهالة، أو تَتَبَّعَ الرُّخص المرويَّة هنا وهناك، يتلقَّفها تلقُّف المتلاعبين، أو يعتمد عليها اعتماد الجاحدين المتهوِّسين! إنه ليوشك هؤلاء جميعاً أن يخرجوا من الدنيا بغير دين: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٣].

المداومة على التيسير

قال شُرَّاح الحديث ـ وذلك من أحسن ما قالوا ـ: وإنما أردف ﷺ أمرَه بالتيسير نهيَه عن التعسير، مع أنَّ الأمر بالشيء يَسْتَتْبِعُ النَّهيَ عن ضدِّه، تقويةً

---

(١) أي: من الأقوال الشاذة التي لا دليل عليها. قال الذهبي في «السير» ٨: ٩٠_٩١: «ومن تَتَبَّع رُخَص المذاهب، وزلاَّت المجتهدين، فقد رقَّ دينه. كما قال الأوزاعي أو غيره: من أخذ بقول المكيين في المتعة، والكوفيين في النبيذ، والمدنيين في الغناء، والشاميين في عصمة الخلفاء، فقد جمع الشرَّ، وكذا من أخذ في البيوع الربويَّة بمن يتحيَّل عليها، وفي الطلاق، ونكاح التحليل بمن توسَّع فيه، وشبه ذلك، فقد تعرَّض للانحلال، فنسأل الله العافية والتوفيق».

(٢) اقتباس من الآية ٦٧ من سورة الفرقان.

(٣) سورة النور: ٦٣.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وتوكيداً، حتى لا يَدَع لمُتنطِّع عُذراً؛ على أنه لو اقتصر على التيسير لتحقَّق امتثال الأمر مرَّةً واحدة، وإنْ عسَّر مراراً؛ فلمَّا قرنه بالنهي عن التعسير، فهم أن المراد المداومة على التيسير.

* * * * *

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

البعوث في الإسلام*

ـ ٢ ـ

ثلاث خصال

إنَّ هذين الحديثين احتويا على ثلاث خصالٍ بُني عليهما أمرُ الدين كله، ولذا كان النبيُّ ﷺ يأمر أمَّته بهنَّ، ولا سيما بعوثه، ومَنْ كان في موضع القدرة من الأمة. وتكلَّمنا على الخَصْلة الأولى منهنَّ، وهي التيسير والتسهيل على الناس في العلم والعمل، والإرشاد والدعوة، في غير إفراط ولا تفريط.

ولا نغلو إذا قلنا: إنَّ هذه الخَصلة هي الأساس للخَصْلَتَيْن الأُخْرَيَين، ولذا أشاعها النبيُّ ﷺ في كلِّ شأن، وأكَّد طلبها في كلِّ أمر، وقال لأصحابه ـ وهم خيرة أمته ـ حينما ثاروا على الإعرابي الذي بال في المسجد: «فإنَّما بُعثتم مُيَسِّرين ولم تبعثوا معسِّرين»[١].

أما الخصلة الثانية؛ فهي التبشير ـ ضد التنفير ـ، وهو: تسكين الناس[٢] وإخبارهم بالأخبار السَّارَّة، التي يظهر أثرها على البِشْرة.

والتبشير من أعظم الوسائل إلى ترويح النفوس وإزالة همومها، والحيلولة

---

* مجلة الأزهر، العدد الأول، المجلد العشرون، محرم (١٣٦٨).

(١) أخرجه البخاري (٢٢٠)(٢٢١)، ومسلم (٢٨٤).

(٢) في إحدى الروايات المتَّفق عليها[البخاري (٦١٢٥)، ومسلم (١٧٣٤)]: «سكِّنوا» بدل: «بشِّروا»، فلذا فسَّرنا التبشير بالتسكين (طه).

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

بينها وبين القنوط واليأس.

ولن تجدَ أعونَ للداعي ـ بعد توفيق الله تعالى ـ من بشارة طيِّبة، يفتح بها آذاناً صُمًّا وأعيُناً عُمْياً وقلوباً غُلفاً.

دعاة منفِّرون

وكم من نفوسٍ كانت مُسْتَعدّةً للهدى والخير، لولا أن ابتُليت بأناسٍ مُنفِّرين، يقنِّطون الناس من رحمة الله، ويُبعدونهم من فَضْله ورضاه، أولئك الذين يُجَسِّمون الصغائر، ويكفِّرون بالكبائر، ويشتدُّون في الأمر والنهي، كأنَّهم حُرَّاسٌ على أبواب الجنة، لا يدخلها أحدٌ إلا أن يفتحوا له، أو كأنَّ مفاتيح الرحمة بأيديهم، فلا تَنالُ أحداً إلاَّ أن يرضَوْا عنه! وكأنَّهم نسُوا أو تناسوا أنَّ رحمة الله غَلَبت غضبه، وأنها وسِعَتْ كلَّ شيء، وأنَّ من أسرف على نفسه حتى ملأ الدنيا خطايا، ثمَّ لقي الله تائباً لا يشرك به شيئاً، لقيه الله بالمغفرة!.

ومهما يكن من أمر المُسْرفين، فإنَّ عفوَ الله أعظمُ من جرمهم، ورحمتَهُ أوسعُ من ذنبهم، ولا يَيْأس عبدٌ من رَوْحِ الله وفي قلبه ذَرَّةٌ من إيمان: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[1].

التبشير والإنذار

وليس المراد أن يقتصر الداعي على التبشير، دون أن يقرنه بالإنذار إذا دَعَت الحاجة إليه، بل لا بدَّ منهما جميعاً، وإن كان لكلِّ مقامٍ ما يناسبه؛ وقد بعث الله النبيِّين مُبشِّرين ومُنذرين.

ولولا البشارة لأهلك الناسَ اليأسُ والقنوط! ولولا النِّذارة لأهلكهم الغيُّ والغرور! فكلاهما سلاحٌ لا غنًى عنه، وطبٌّ لا بدَّ منه؛ ومن أجل ذلك لم ينهَ

---

(١) سورة يوسف: ٨٧.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

النبيُّ ﷺ عن الإنذار، وإنْ كان كذلك خلاف التبشير. على أنه مَنْ اليسير على مَنْ دعا إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ألاَّ يكون في إنذاره غليظاً مُفْظِعاً، اللهمَّ إلا إنْ دَعَت إلى ذلك ضرورةٌ لا محيصَ عنها؛ وآخِرُ الدواء الكيّ!.

مراعاة الأولويات ومراتب الأعمال

وهنا أمرٌ يجدر بنا أن نُنبِّه عليه؛ وهو أنَّ كثيراً ممَّن يتصدَّون للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله عزَّ وجل، يبالغون في التبشير والإنذار، فَيُسوُّون النوافل بالفرائض، والصَّغائر بالكبائر، ويذكرون لأقلِّ الأعمال أعظمَ الجزاء، معتمدين في شَطَطهم هذا على أكاذيب مسطورةٍ، وأحاديثَ موضوعةٍ، لا سَنَدَ لها من كتاب الله تعالى ولا سنة رسوله ﷺ.

وحقٌّ على الولاة أن يأخذوا على أيدي هؤلاء، ويَحُولوا بينهم وبين الدعوة، فإنَّهم يفسدون أكثر مما يصلحون، إلا أن يتوبوا إلى الله سبحانه، ويتعلَّموا شرائط الدعوة ومنهجها، ويقتدوا بالأئمة والسلف، وتكونَ لهم بصيرةٌ نيِّرة تهديهم سواء السبيل.

وفي كتاب الله عزَّ وجل وما صحَّ عن رسول الله صلوات الله عليه غنًى وكفاية. على أنَّ في هذا الصحيح ما تعجز النفوس الضعيفة عن حمله وفهمه(١)؛ فليكن الحديثُ فيه بمقدار، مع إحاطته بالإيضاح والحكمة، والتمهيد له بالإعداد والإيقاظ.

وفي مثل هذا يقول سيدنا عليٌّ رضي الله عنه: «حدِّثوا الناس بما يعرفون؛ أَتُحبُّون أن يُكذَّب اللهُ ورسوله»(٢)!.

---

(١) كغرائب الأحاديث، وأحاديث الصفات ونحوها (طه).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٦) في كتاب العلم.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وقال ابنُ مسعود رضي الله عنه: «ما أنت بمُحَدِّثٍ قوماً حديثاً لا تبلُغُهُ عقولُهم، إلاَّ كان لبعضهم فتنةً»[١].

التطاوع والتوافق

وأما الخصلة الثالثة؛ فهي التطاوع والتوافق، ضدَّ التخالف والتنازع. وفي التوافق قوَّة وأُلْفة، وفي التخالف والتنازع ضَعفٌ ونُفْرة.

وقد كان المسلمون سادةَ العالم، وملوكَ الدنيا، وخلفاء الله في الأرض[٢]، إلى أنْ دبَّ فيهم دبيبُ الخلاف والتَّفرُّق، فبُدِّلوا من بعد أمنهم خوفاً، ومن بعد قوَّتهم ضعفاً، ومن بعد عزِّهم ذلاّ، ولولا أنَّ الدين عند الله هو الإسلام لما كان لسلطانهم في الوجود ظلّ، ولا لشأنهم في الأمم ذكرٌ.

نعمة الأخوة والوحدة

وكان العرب في الجاهلية أُمماً مُتفرِّقة، وأحزاباً مُتقطِّعة، وأقواماً متناحرين متنافرين، ولا كلمة تجمعهم، ولا رابطة تربطهم، حتى أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق، فجمعهم تحت لواء التوحيد وراية الإسلام، وألَّف الله بين

---

(١) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه ١ : ١١، وقال الحافظ الذهبي في «سير أعلام النبلاء» ٢ : ٥٩٦: «عن أبي هريرة، قال: حفظتُ من رسول الله ﷺ وعاءَين: فأما أحدهما، فبَثَثْتُهُ في الناس، وأما الآخر، فلو بَثَثْتُه، لقُطِعَ هذا البلعوم.

قلت: هذا دالٌّ على جواز كتمان بعض الأحاديث التي تُحرِّك فتنةً في الأصول، أو الفروع، أو المدح والذم؛ أما حديث يتعلّق بحلٍّ أو حرام فلا يحلُّ كتمانه بوجه، فإنه من البيِّنات والهدى.

ولكن العالم قد يؤدِّيه اجتهادُهُ إلى أن ينشُرَ الحديثَ الفلاني إحياءً للسنة، فله ما نوى، وله أجر ـ وإن غلط ـ في اجتهاده.

(٢) في هذا التعبير الذي يكثر من استعماله المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ نظرٌ لا يخفى.

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

قلوبهم، فأصبحوا بنعمته إخواناً، وكانوا على شفا حفرةٍ من النار فأنقذهم منها! ... ولم يزالوا مُتمتِّعين بنعمة الوحدة والأُخوَّة، حتى فرَّقتهم الأهواء والمطامع، وعضُّوا بَنان النَّدم، ولاتَ ساعة مَنْدَم!.

على أنَّ فيما شَرَع الله لهم من هذه الفرائض، حوافزَ عمليَّة تناديهم بالوحدة، وتدعوهم إلى الوِفاق والأُلفة، وتُهيبُ بهم في كلِّ فرصة أن ارجعوا إلى دينكم، واستاروا بسيرة الصَّالحين من أسلافكم، تعزّوا وتسعدوا، وتظفروا وتُفلحوا، وتكونوا كما كنتم من قبل خلفاء الله في الأرض.

تلك هي الخصال الثلاث التي كان يوصي بها النبيُّ ﷺ بعوثَه، وهي ـ كما ترى ـ سبيل السعادة لمن استَمْسك بها، واهتدى بهديها.

بعث معاذ وأبي موسى إلى اليمن

هذا، وقد كان بَعْثُه صلوات الله وسلامه عليه معاذاً وأبا موسى إلى اليمن سنة عشر قبل حَجَّة الوداع؛ وقيل: سنة تسع عند منصرفه من تبوك؛ وقيل: سنة ثمان عند الفتح. وأيّاً ما كان الأمر فقد بُعِثا بعد أن عَلا شأنُ الإسلام، وبدَّد نورُهُ سُحُبَ الظلام، وكانت اليمن إذ ذاك مخلافَيْن[1]، فكان معاذ والياً على النجود وما تَعالى من البلاد، وكان أبو موسى والياً على التهائم وما انخفض منها. ومع بُعْد الشُّقة بينهما فكانا يَتزاوران ويتعاوَنَان، ويسألُ كلُّ منهما صاحبَه عن عمله وعبادته؛ ليَتَنَافسا في الخير، ويتسابقا إليه. وكانا يتناصحان ويتشاوران، فإذا تَنَازعا في شيءٍ ردُّوه إلى الله ورسوله؛ فيتوافقان ويتطاوعان.

وجملة القول: أنهما كانا قدوةً صالحة لمَن دَعَا إلى الله على بصيرة وهدى.

* * * * *

---

(١) المخلاف والكورة والإقليم: واحد.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفصل الثالث

العبادات والأدعية والأذكار

أولاً: العبادات

١ ـ حيَّ على الجهاد (١ ـ ٢).

٢ ـ الجنة تحت ظلال السيوف.

٣ ـ الصلاة سلاح النصر.

٤ ـ خيرة الله خير.

٥ ـ المساجد الثلاث.

٦ ـ من أسرار الصوم وآدابه.

٧ ـ مدرسة الصيام.

٨ ـ استدارة الزمان.

٩ ـ شهران لا ينقصان.

١٠ ـ أحبُّ الأيام إلى الله.

ثانياً: الأدعية والأذكار

١ ـ فضل الذكر.

٢ ـ أدب الدعاء.

٣ ـ دعاء الله بأسمائه.

٤ ـ ظن العبد بربه.

٥ ـ دعاء واستعاذة.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

حيَّ على الجهاد *

ـ ١ ـ

٢٤ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رَجُلٌ إلى رسولِ الله ﷺ فقال: دُلَّني على عملٍ يعدلُ الجهاد. قال: «لا أجدُهُ»! قال: «هل تستطيع إذا خَرَجَ المجاهدُ أن تدخلَ مَسْجدَكَ، فتقومَ ولا تَفْتُرَ، وتصومَ ولا تُفطِرَ»؟! قال: ومَنْ يستطيع ذلك؟!.

رواه الشيخان، واللفظ للبخاري[1]

بين القول والعمل

حيَّ على الجهاد، حيَّ على العمل. إنه قد جدَّ الجدُّ، فحقَّ القصد في القول، والجهد في العمل.

إنَّ فضلَ القول على العمل هُجْنَةٌ[2]، وفضْل العمل على القول زينة، وما أكثر ما قلنا! وما أقلَّ ما عملنا! أفلم يأن لنا أن نغيِّر ما بأنفسنا، ليغيِّر الله ما بنا؟! وأن يكون في منهاج حياتنا أن نقول ونعمل على سواء؟! أمَّا أن يكون من منهاجنا فضل العمل على القول؛ فذلك من هدي النبوة؛ من هدي الأنبياء والرسل، ومن اهتدى بهم من الدعاة إلى الله عز وجل.

---

* مجلة الأزهر، العدد الخامس، المجلد الثامن والعشرون، سنة (١٣٧٦).

(١) رواه البخاري (٢٧٨٥) في الجهاد، ومسلم (١٨٧٨) في الإمارة.

(٢) الفضل: الزيادة، والهُجْنَة: العَيْب.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

إنَّ خاتم النبيين صلواتُ الله وسلامه عليهم، لم يكن يَسْرُد الحديث كَسَرْدنا هذا، وإنما كان يُحدِّث حديثاً بيِّناً، يحفظه مَن يجلس إليه[١]، لو عدَّه العادُّ لأحصاه، وكان في الأعمِّ الأغلب من أحواله صلوات الله عليه، يقصر الخِطبة ويطيل الصلاة، ليعلمَنا ـ بالعمل ـ فضْل العمل، وليبنيَ على خير أساس، خيرَ أمةٍ أُخرجت للناس.

ولعلَّ من حكمة الحليم العليم، الذي أعطى كلَّ شيءٍ خَلقَه ثمَّ هدى، أنْ جَعَل لكلٍّ منا أذنين اثنتين، ويدين اثنتين، ولساناً واحداً في فم واحد ليسمع ضِعْفَ ما يقول. و«من عَمِل بما عَلم ورَّثه الله علم ما لم يعلم»[٢].

الدعوة إلى الجهاد

وإذا كان الإسلام قد دعا إلى عمل الصَّالحات بعد الإيمان بالله ورسوله، فقد وكَّد الدعوة إلى الجهاد توكيداً، وحرّض عليه تحريضاً، وعدّه بعد أركانه الخمسة أجلّ الأعمال قدراً، وأرفعَها ذكراً، وأفضلَها مرتبةً وشأناً.

قبسٌ من الذكر في فضل الجهاد والمجاهدين

﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٩٥ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾[٣].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا

---

(١) اقتباس من حديث أخرجه البخاري (٣٥٦٧)، و مسلم (٢٤٩٣)، وأبو داود (٣٦٥٤)، والترمذي في السنن(٣٦٣٩) وقال: حسن صحيح، وفي «الشمائل» (٢٢٣) عن عائشة قالت: ما كان رسول الله ﷺ يَسْرُد سردكم هذا، ولكنه كان يتكلم بكلامٍ بيِّنٍ فَصْلٍ، يحفظه من جلس إليه.

(٢) اقتباس من حديث أخرجه أبو نُعيم في «الحلية» ١٠ : ١٥ من حديث أنس وضعَّفه.

(٣) سورة النساء: ٩٥_٩٦.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(١) هذا قبسٌ من الذكر في فضل الجهاد والمجاهدين.

قبسٌ من السنة في فضل الجهاد والمجاهدين

فأما مَنْ أُنزل إليه الذكر صلوات الله وسلامه عليه، فقد بسط هذا الفضل وبيَّنه أوفى بيان.

قال فيما رواه مسلم عن أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه: «مَنْ رضيَ بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمَّد نبيّاً، وَجَبت له الجنة»، فَعَجبَ لها أبو سعيد فقال: أعِدْها عليَّ يا رسول الله، ففعل، ثم قال: «وأخرى يرفع الله بها العبد مئة درجةٍ في الجنة، ما بين كلِّ درجتَيْن كما بين السماء والأرض»، قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: «الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله»(٢).

تمنِّي الشهيد

وقال فيما رواه الشيخان عن أنس رضي الله عنه: «ما أحدٌ يدخل الجنة يحبُّ أن يرجعَ إلى الدنيا، وله ما على الأرض من شيء، إلا الشهيد! يتمنَّى أن يرجعَ إلى الدنيا، فيُقتلَ عشر مرات، لما يرى من الكرامة»(٣).

وفي رواية: «لما يرى من فَضْل الشهادة»(٤). إلى أحاديث صحيحةٍ عجيبة في مكان الجهاد والمجاهدين، سبقَنا بتبيانها السبَّاقُ إلى الخير في هذه المجلة، فكتب في جزئها السابقِ إحدى عشر صفحة مشرقة في «الجهاد ... وتاريخه»

---

(١) سورة التوبة: ١٢٠.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٨٤).

(٣) أخرجه البخاري (٢٨١٧)، ومسلم ١٠٩ (١٨٧٧).

(٤) أخرجه البخاري (٢٧٩٥)، ومسلم ١٠٨ (١٨٧٧).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وليست هذه أول مسابقة له في رَوْضة السنة المطهَّرة[١].

لا يوجد عملٌ صالح يعدل الجهاد

لا عَجَب إذاً بعد هذا الفضل الذي اختصَّ الله به الجهاد والمجاهدين، ألاَّ يجد المجاهد الأكرم ﷺ عملاً يعدلُ الجهاد في فضله، ويساويه في منزلته، بالغاً ما بلغ من الصَّالحات ... اللهم إلا اعتكافاً بالمسجد دائماً، مع صلاة وصيام مَوْصُولَيْن بالليل والنهار، من غير فتور ولا إفطار ... ومَنْ يستطع ذلك؟!!

لا أحد؛ لأنه عملٌ فوق طاقة البشر ... وما هو إلا مَثَلٌ من الأمثال النبويَّة الرائعة لمنزلة الجهاد بين سائر الأعمال ... وأين مَنْ يشتري نفسه بعمل أيِّ عمل كان، ممَّن يبيعها ومالَها، راضيةً طيِّبةً، لذي الجلال والإكرام؟! ﴿فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[٢].

مَنْ هو المجاهد؟

وأهل ذلك الفوز العظيم ـ كما في السنة المطهرة ـ إنما هو من خرَج من بيته، لم يُخرجه إلا إيمانٌ بالله وتصديقٌ بما وَعَدَ المجاهدين على لسان رسله، وكان جهاده لإعلاء كلمة الله، وحماية دين الله.

روى الشيخان عن أبي موسى رضي الله عنه أنَّ أعرابياً أتى النَّبيَّ ﷺ فقال: «الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليُرى مكانه[٣]». وفي رواية: «يقاتل شجاعة، ويقاتل حميَّة»[٤].

---

(١) المقال المشار إليه للأستاذ محب الدين الخطيب رحمه الله تعالى.

(٢) اقتباس من الآية ١١١ من سورة التوبة.

(٣) أخرجه البخاري (٣١٢٦) في كتاب فرض الخمس، ومسلم (١٩٠٤).

(٤) أخرجه البخاري (٧٤٥٨) في كتاب التوحيد.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وفي رواية: «يقاتل غضباً»[١]، فمن في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[٢].

الجهاد قُبَّة الإسلام وذِرْوَةُ سَنَامه

هذا الجهاد هو عمود الإسلام وقبَّته، وسَنَامه وذِرْوته، فيه عزُّ الإسلام والمسلمين، ورفْعَةُ لواء الوطن خَفَّاقاً في العالمين.. وثَمَّ ضروبٌ أخرى من الجهاد، لا بدَّ منها ومن أسلحتها، لِمَنْ يؤمن بالله واليوم الآخر، وموعدُ بيانها الجزء الآتي إن شاء الله.

أما بعد، فإذا كنا ندعو إلى القَصْد في القول[٣]، والجِدِّ في العمل مع الإخلاص فيه، فما أحرانا أن نستجيب لما دعونا، وأن نلتزم ذلك في منهاج «السُّنة» ما استطعنا، ضارعين إلى الله سبحانه أن يجعل ما نقول ونعمل حُجَّةً لنا لا علينا، فإنه لا حول ولا قوة إلا به، وهو حَسْبُنا ونعم الوكيل.

* * * * *

(١) أخرجه البخاري (١٢٣) في كتاب العلم.

(٢) أخرجه البخاري (١٢٣)، (٣١٢٦)، (٧٤٥٨)، ومسلم (١٩٠٤) في الإمارة.

(٣) كتب فضيلة الشيخ قبل هذا الحديث: الاقتصاد في الموعظة في المجلد ٢٨ العدد٤ سنة ١٣٧٦ شرح فيه حديث ابن مسعود: كان النبيُّ ﷺيتخوَّلنا بالموعظة؛ مخافة السآمة علينا. قال في آخر شرحه للحديث: «أما بعد، فهل كانت دعوتنا إلى القصد في القول إلهاماً من العليم الخبير عزَّوجل؟ ذلك بأنه على إثرها أغار على الكنانة عدوُّ الله والوطن، فأجبنا مناديه ينادي: حيَّ على الجهاد، حيَّ على العمل».

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

حَيَّ على الجهاد(١)

ـ ٢ ـ

أصول الجهاد

أصول الجهاد خمسة:

جهاد النفس.. بالتزكية والتربية على الهدى ودين الحق، تعلُّماً وعَملاً وهدياً، ودعوةً إلى الله عز وجل، وصبراً لحُكمه، واحتمالاً للأذى في سبيله.. ولا يزال العبدُ مرتقياً في معارج هذا الجهاد حتى يُفلحَ ويصبحَ ربانياً، يُدعى عظيماً في ملكوت السماء.

وجهاد الشيطان.. بدفع ما يُلقي في النفس من شكوك وشبهات، وما يزيِّن لها من رغبات وشهوات.

والنفس والشيطان، عدوّان خفيّان، هما أعدى أعداء الإنسان، اصْطَحَبا في الخَفَاء على فتنته والكَيْد له، واصْطَلَحا على إغوائه والتغرير به، وتَظَاهرا على أمره بالسُّوء والفحشاء، وصدِّه عن سبيل الله!.

من أجل ذلك كان جِهادُهما أساساً ومُقدِّمةً لما وراءه من صنوف الجهاد، وأَخْلِق بمَنْ ظفر بعدوِّه الخفي، أن يكون ظفرُه بعدوِّه الظاهر أعظمَ، ونصرُه عليه أتمَّ.

---

(١) مجلة الأزهر، العدد السابع، المجلد الثامن والعشرون، سنة(١٣٧٦=١٩٥٧).

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وجهاد الكفار.. بالدعوة إلى الإسلام، وحمايته من العدوان، وافتدائه بالنفس والمال، وبكلِّ مُرْتَخَص وغال، ابتغاءَ مَرْضاة الله، وإعلاءً لكلمة الله. وهذا الجهاد هو المقصود في الحديث كما أسلفناه في الجزء الأسبق، وهو الذي يرفع الله به المجاهدين مئة درجة في الجنة، ما بين السماء والأرض ...

وجهاد المنافقين والملحدين.. بالحُجَّة والبرهان، والقلب واللسان، وهو أشدُّ من جهاد الكفار وأصعب، ومن هنا كان جهاد الخاصَّة من الأمة، والصَّفوة من أتباع الرسل.

وجهاد أرباب المنكرات والبدع.. بالنهي عنها، والعمل على تغييرها باليد، ثم باللسان، ثم بالقلب عند العجز، وذلك أضعف الإيمان!

وإلى هذه الأصول الخمسة يشير قوله عزَّ اسمه: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾[١] ،وقوله جل ثناؤه: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓ﴾[٢]. وقد أفاض في بيانها وبيان شعبها ومراتبها صاحبُ «الهدى»[٣] ...

فرض الجهاد يختلف باختلاف العباد

وإذا كان الله سبحانه قد كَتَب على عباده أن يُجاهدوا فيه حقَّ جهاده، فإنَّ فرضَ الجهاد وحقَّه يختلف باختلاف العباد قوةً وضعفاً، وعلماً وجهلاً، وسَعَةً وضيقاً.

وحَسْب الأمة الإسلامية ـ أفراداً وجماعات ـ أن تُجاهدَ ما اسْتَطاعت إلى الجهاد سبيلاً، وأن تُعدَّ لعدوِّ الله وعدوِّها ما استطاعت من قوَّةٍ، ماديَّة كانت

---

(١) سورة الحج: ٧٨.

(٢) سورة العنكبوت: ٦.

(٣) زاد المعاد ٣: ٩ ـ ١١.

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

القوة أو معنوية ...

جزاء تاركي الجهاد

فما مِنْ أمة تهاونت في الجهاد أو تركته، إلا ألبسها الله ثوبَ الذُّلِّ! وَسَلَّط عليها مَنْ يَسُومُها سوءُ العذاب والخوف! وسَلَبها نعمة الاستخلاف والتمكين في الأرض!.

مكايد أعداء الإسلام

تنبَّه لهذا أعداء الله والإسلام، فأخذوا يكيدون للمسلمين! ويعدُّون لهم ما استطاعوا من قوة! ويرمونهم بالتعصُّب والهمجية لِيُبعدوهم عن الجهاد والدعوة، ولِيَجدوا في المنافقين منهم من البطانة والأولياء، مَنْ هم أشدُّ على الإسلام من الأعداء!!!.

وهاهو ذا عدوّ الله وعدوُّنا يضربنا ـ كلَّما سنحت له الفرصة ـ ببعض ما أعدّ ـ وهو متعصِّبٌ تعصُّبنا الذي زعم أو أشد ـ ضرباتٍ لا تعرف هوادةً ولا رحمة!!!

خدعة التعصُّب

ولعلَّ الأمة الإسلامية في هذه الأيام ـ وقد رأت رأي العين من فجور عدوِّها ووحشيَّته ما لم يكن ليخطر على بال ـ تتنبَّه من غفلتها، وتصحو من نومتها، وتعرف فَضْل الجهاد والإعداد، بكلِّ ما يتَّسع له معنى الجهاد والإعداد؛ فقد أَسفَرَ الصُّبح لذي عينين، وانكشفت خدعة التعصُّب[1]، وما يُراد بها من تثبيط وتخذيل! وتخدير وتضليل!.

---

(١) وهي ما يطلق عليها اليوم الإرهاب، وسمَّوْها قبل ذلك تطرُّفاً وأصوليّة!!

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أسلحة لا يعرفها العدو

وإذا كان المسلمون بحاجة شديدة إلى أسلحة مادية مثلِ أسلحة عدوِّهم إن لم تفُقها، فإنَّ حاجتهم إلى الأسلحة المعنوية أشد، وهم منها ـ بحمد الله ونعمته ـ أوفر حظاً وأوفى نصيباً، لو رجعوا إلى كنائن دينهم وخزائنه ... ففيها من أسلحة النصر والظفر، ما لا عينٌ، رأت ولا أُذن سمعت، ولا خَطَر على قلب بشرٍ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾(١).

وإذا كان العدوُّ أقوى منا حَشْداً، وأكثرَ منا عَدَداً وعُدداً، فإنه لا طاقة لنا به، ولا قدرة لنا عليه، إلا بعون الله تعالى ومَدَده، وطلب النصر من عنده... وتلك أسلحةٌ لا يعرفها العدوُّ ولن يعرفَها، ولو عَرَفَها لاستحال أن ينتفعَ بها، لأنه ليس من أهلها، ولكنَّ أهلَها وأحقَّ الناس بها هم المؤمنون المتَّقون..

وصيَّة عُمرية

كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنهما:

أما بعد: فإنِّي آمرك ومَنْ معك من الأجناد بتقوى الله على كلِّ حال، فإنَّ تقوى الله أفضَلُ العُدَّة على العدوّ، وأقوى المكيدة في الحرب. وآمرك ومَنْ معك أن تكونوا أشدَّ احتراساً من المعاصي منكم من عدوِّكم؛ فإنَّ ذُنوبَ الجيش أخوفُ عليهم من عدوِّهم، وإنما يُنصر المسلمون بمعصية عدوِّهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة؛ لأنَّ عَدَدَنا ليس كعدَدِهم، ولا عُدَّتنا كعُدَّتهم، فإن استَوَيْنا في المعصية، كان لهم الفَضْل علينا في القوَّة، وإلاَّ نُنصر عليهم بفضلنا، لم نغلبهم بقوَّتنا. فاعلموا أنَّ عليكم في سَيْركم حَفَظَةً من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيُوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله. ولا تقولوا: إنَّ عدوَّنا شرٌّ منا، فلن يُسَلَّط علينا، وإنْ أسأنا، فَرُبَّ قومٍ سُلِّط عليهم

---

(١) سورة المدثر: ٣١.

الجديد و الطريف NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

شرٌّ منهم، كما سُلِّط على بني إسرائيل ـ لمَّا عملوا بمساخط الله ـ كفارُ المجوس: ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا﴾[١]. واسألوا الله العون على أنفسكم، كما تسألونه النصر على عدوِّكم، وأسأل الله ذلك لنا ولكم[٢].

الحذر من الذنوب

أيُها المسلمون: اعلموا ـ إن لم تكونوا تعلمون ـ أنَّ عدوَّ الله وعدوَّكم، قد درسوا هذه الوصيَّة العمريَّة وأمثالها فيما درسوا من تاريخكم، فأيقنوا أن لا سبيل لهم عليكم إلا إذا استَوَينْا في المعصية. فهم لا يزالون يعملون عليها، ويجاهدونكم فيها، ولكنَّهم لن ينالوها أبداً، ما أخذتم حِذْركُم وأسلحتكم، وأعددتم لهم ما استطعتم من قوّة مادية وروحية، فأوفوا بعهد الله يوف بعهدكم، وانصروا الله ينصركم، ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[٣].

* * * * *

---

(١) سورة الإسراء: ٥.

(٢) «أخبار عمر» لشيخنا علي الطنطاوي رحمه الله تعالى، ص ٢٢٥، وعزاه إلى «نهاية الأرب» ٦: ١٨٦، و«العقد» ١: ٤٩.

(٣) اقتباس من الآية ١٣٩ من سورة آل عمران.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الجنة تحت ظلال السيوف *

٢٥ ـ عن عبد الله بن أبي أوْفى رضي الله عنهما، أنَّ رسول الله ﷺ في بعض أيَّامه التي لقِيَ فيها العدوَّ، انتظر حتى مالت الشَّمس، ثمَّ قام في الناس، فقال: «يا أيها الناس: لا تتمنَّوْا لقاء العدوِّ، واسألوا الله العافيةَ، فإذا لقيتمُوهُم فاصبِروا؛ واعلمُوا أنَّ الجنَّةَ تحتَ ظلالِ السيوف».

ثم قال: «اللهُمَّ مُنْزِلَ الكتاب، ومُجْرِيَ السَّحَاب، وهَازِمَ الأحزاب، اهزمهم وانْصُرنا عليهم» رواه الشيخان[١].

الحرب شرٌّ لا بدَّ منه، ولا يُقدِمِ الإسلام عليها إلاَّ مضطراً

الحربُ شرٌّ لا بدَّ منه! قضيةٌ آمنَ بها الناس جميعاً، ويزدادون إيماناً بها كلَّما اتَّسع العُمرانُ، وتنافس الناس في هذه الحياة.

وأخرى آمن بها الناس كذلك ـ مسلمُهم وكافرُهم ـ إلا أعمى أو مكابراً، يدمغه الحق، فيولِّي صاغراً، ويُدبر مستكبراً، قد ختم الله على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة! تلك هي: أنَّ الإسلام لا يتشهَّى الحرب ولا يتمنَّاها، ولا يُقْدِم عليها إلا مُضْطَراً؛ فهو دين الهُدى والرحمة والسلام والطُّمأنينة،

---

* مجلة الأزهر، العدد التاسع، المجلد التاسع عشر، (١٣٦٧).

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد، باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخَّر القتال حتى تزول الشمس (٢٩٦٥، ٢٩٦٦)، ومسلم (١٧٤٢) في الجهاد والسير.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

والوقار والسكينة؛ فإذا اعتدى معتدٍ على كرامته، أو بغى باغٍ على حرمته، ردَّ العدوان بمثله، لا يحيف ولا يجور، ولا يغدر ولا يخون؛ فإذا كفَّ الظالم، وثاب الآثم، ورجع المعتدي، صافحه الإسلام وعفا عنه، وأعاشه في كنفه وادعاً آمناً مطمئناً على نفسه وماله وعرضه ودينه، يدافع عنه ويقاتل دونه، ويرعى له من الحُرمة والكرامة ما لا يرعاه أهل ملَّته، ولا يزال كذلك في بُحبوحة الأمن والطمأنينة، حتى يغدرَ أو يفْجرَ فيعلنها الإسلام حرباً عَواناً(١)!.

هنالك لا يجد الإسلام بُدًّا من الأخذ بالحزم والعزم في معاقبة الباغين، وتأديب الطاغين، وإلاَّ كانت رحمتُه ضعفاً، وعزَّته ذلاًّ، وشجاعته جُبْناً! وتلك بعض الرذائل التي جاء لمحوها والقضاء عليها.

وهل يستطيع منصف أن يقولَ إنَّ الإسلام يشتهي الحربَ أو يدعو إليها في غير الضرورة التي لا محيصَ عنها، وهذه إحدى غزوات رسول الله ﷺ التي نهى فيها عن تمنِّي لقاء العدو والاشتباك معه؟!.

لم تُعرف على وَجْه التحديد هذه الغزوة(٢)، ولكن الذي عُرف من سيرته صلوات الله عليه، حتى أضْحى الجدل فيه عِناداً ومكابرةً، أنه ما خرج لملاقاة قوم إلاَّ بعد أن سَطَعت الأدلَّة على غدرهم ومكرهم، وعملهم سرًّا أو جهراً على هدم دعوته، ووَضع العقبات والعراقيل في طريقها!.

إيثار السِّلم على الحرب

وكم احتمل هو وأصحابه صابرين مصابرين من أذى لا يحتمل، وإعناتٍ لا يُطاق، في إيثار السِّلم على الحرب، والعفو على العقوبة، واللين على البطش والقوة.

---

(١) العوان: النَّصَف (بوزن سَبَب) في سنِّها من كلِّ شيء، والعَوان من الحرب: الذي قُوتل فيها مرَّةٍ بعد مرة، كأنهم جعلوا الأولى بِكْراً (طه).

(٢) غير أنها كانت بعد غزوة الأحزاب قطعاً بدليل السياق (طه).

الجديد و طرح NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وفي مُوادَعة اليهود، وصُلح الحديبية، وفتح مكة وكثير غير ذلك، شواهدُ صدق لما نقول.

وإذا كان الإسلام يَجْنح للسَّلْم إنْ جَنَحَ العدوُّ لها ـ ولو كان في جنوحه هذا مخُادعاً ـ فمن العناد والمكابرة، بل من السُّخف والمُهَاتَرة، أن يرميَ الإسلامَ أفَّاكٌ أثيم، بأنه متعطِّش للدماء، أو معتدٍ على الأبرياء!.

إعداد القوة

وإذا أمر الإسلام أهله بأن يُعِدُّوا لعدوِّهم ما استطاعوا من قوَّة، فما ذلك إلاَّ لإرهاب العدوِّ، والحيطة منه، والحذر من كَيْده ومداهمته. والأخذُ بالحزم والحَيْطة فضيلةٌ من الفضائل التي اجتمع العقلاء عليها، ومظهرٌ من مظاهر القوَّة التي لا تحيا أمة إلا بها.

وممَّا يقطع القلوب حَسْرةً، ويَفْري الأكباد همَّاً أن يأخذ أعداء الإسلام بهذه الحيطة ـ ولا أقول فضيلة ـ من بعد أن يخدعوهم ويرموهم بالتعصُّب، ويتوسَّلوا بهذه الفِرْية إلى إضعافهم وتجريدهم من كلِّ حَوْلٍ وطَوْلٍ، ثم لا يتنبَّه المسلمون من بعد نومهم العميق إلاَّ على فنونٍ من القوَّة، وضروبٍ من الرمي، تذهب بالصَّواب، وتطير بالألباب!.

أُوتيتَ ملكاً لم تُحسن سياستَه ... كذاك من لا يَسوسُ الملك يخلعه

النهيُ عن تمنِّي لقاء العدو

نهى النبيُّ ﷺ عن تمنِّي لقاءِ العدو، رغبةً في علاج الأمور بالسِّلم، وكراهيةً لإراقة الدماء عند الخصومة، كما أشرنا إلى ذلك من قبل؛ ثم حذراً من الإعجاب والبغي؛ فإنَّ المعْجب مزهوٌّ بنفسه، قليلُ المبالاة بعدوِّه، والباغي ظالم، والظالم قلَّما ينتصر، ومن بُغي عليه فهو مظلوم، والله مع المظلوم وناصره.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأخوفُ ما يخاف على الجيش: إعجابُه بنفسه، وبغيُه على غيره، وقد قال قائل في غزوة حنين: لن نُغلب اليوم من قلَّة، حينما أعجبتهم كثرتهم فلم تُغْنِ عنهم من الله شيئاً!.

وقال عليٌّ لابنه رضي الله عنهما: «يا بُنيَّ لا تدعُ أحداً إلى المبارزة، ومن دعاك إليها فاخرج إليه؛ لأنه باغ، والله قد ضمن النصر لمن بُغي عليه!».

إيثار العافية

ثُمَّ أمرهم أن يسألوا الله العافية، لأنَّ أحداً لا يعلم ما يؤول إليه أمره مع عدوِّه، فلأَنْ يُعافى فيشكر، خيرٌ له من أن يُبتلى فيصبر، كما يُؤثر عن الصدِّيق رضي الله عنه.

فإذا استَفحل الداء، وعزَّ الدواء، ولم تُجْدِ لدى العدوِّ حيلةٌ ولا وسيلة، فلا مفرَّ إذاً من اللقاء، والجهاد في سبيل الله، وبيع النفس والنفيس لمرضاة الله، والصَّبر تحت ظلال السيوف، حيث الفوز العظيم بجنات النعيم.

انتظاره ﷺ مَيْل الشَّمسِ عن كبد السماء

أما انتظاره صلوات الله عليه وآله وسلم حتى مالت الشمس عن كَبِد السماء، فتلك من عاداته في الحرب.

روى النعمان بن مُقَرِّن رضي الله عنه قال: غَزَوْتُ مع رسول الله ﷺ غزوات، فكان إذا طَلَع الفجر أمسك عن القتال حتى تطلعَ الشَّمس، فإذا طلعت قاتلٍ، حتى إذا انتصف النهار أمْسَك حتى تزولَ الشمس، فإذا زالت قاتل حتى العصر، ثم أمسك حتى يُصلِّيَ العصر، ثم يقاتل. وكان يقال: عند هذه الأوقات تهيجُ رياحُ النصر، ويدعو المؤمنون لجيوشهم في صلواتهم.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أخرجه أبو داود والترمذي[١].

الدعاء في القتال

وأما الدعاء في القتال وعند التحام الجيشَيْن، فكان من دأبه صلوات الله وسلامه عليه، ومن أعظم الآداب التي أدَّب بها جنوده في الحرب؛ ذلك لأنَّ الدعاء ولا سيما في هذا الموطن، عنوانُ الفزع إلى الله والالتجاء إليه، وأنْ لا اعتماد في النصر إلاَّ عليه؛ ثم هو أمارةٌ على أنَّ هذا القتال في سبيله، ومن أجل نُصرة دينه، وهو يقول وقوله الحق: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾[٢].

وأشار صلوات الله وسلامه عليه، وهو يدعو بهذا الدعاء، إلى وجوهٍ كريمة في طلب النصر.

فبإنزال الكتاب، يشير إلى قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾[٣].

وبإجراء السَّحاب، يشير إلى قدرته جلَّ سلطانه على تسخير السحاب وإرسال الرياح، وإغاثة عباده بالمطر، فهو لا شك قادرٌ على إغاثة المجاهدين في سبيله، وإمدادهم بالنصر ومعونته.

وبهزيمة الأحزاب، يشير إلى تجريد التوكُّل عليه، واعتقاد أنْ لا نصرَ إلاَّ من عنده سبحانه، إذ هزم الأحزاب وبدَّد شَمْلَهم، وفرَّق جموعهم، وما كان للمسلمين بهم طاقة.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد، باب في أيِّ وقتٍ يُستحبُّ اللقاء (٢٦٤٨)، والترمذي (١٦١٢).

(٢) سورة محمد: ٧.

(٣) سورة التوبة: ١٤.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ثُمَّ نبَّه على عِظَمِ هذه النِّعم الثلاث كلِّها: فبإنزاله تعالى كتابَه العزيز كانت نعمةُ الدين، وبإجراء السَّحاب كانت نعمة الدنيا، وبهزيمة الأحزاب كان حفظُ النعمتين جميعاً.

هذه أثارةٌ من آداب الحرب في الإسلام، ونظرهِ إليها، ومن نظر بعين الإنصاف، فإنه واجِدٌ في هذا الدينِ الحنيف، أعلى مَثَلٍ تنتظره المدنية، ويصبو إليه الأنام، في العِزَّة والرفاهية والطُّمأنينة والسلام.

* * * * *

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الصَّلاة سلاحُ النَّصر *

٢٦ ـ عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: غَزَوْتُ مع رسول الله ﷺ قِبَلَ نَجْد، فَوَازَيْنا العدوَّ، فَصَافَفْنا لهم، فقام رسول الله ﷺ يُصلِّي لنا، فقامت طائفة معه تصلي، وأقبلتْ طائفةٌ على العدو، وَرَكَعَ رسولُ الله ﷺ بمَنْ معه، وسَجَدَ سَجْدَتَيْن، ثم انصرفوا مكانَ الطَّائفة التي لم تُصَلِّ، فجاؤوا فركع رسولُ الله ﷺ بهم ركعةً، وسَجَدَ سجدتَيْن، ثمَّ سَلَّم، فقام كلُّ واحد منهم فركع لنفسه ركعةً وسَجَدَ سَجْدَتَيْن. رواه الشيخان، واللفظ للبخاري(١).

مكانة الصلاة في الإسلام

وعَدنا أن نتحدث في هذا الجزء عن صنوف الجهاد وأسلحته، بعد أن ألممنا في الجزء الماضي بشيءٍ من فضيلة الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته(٢). ثم دَعَتْ دواعٍ كريمة إلى تقديم هذا الحديث بين يدي الوفاء بالوعد.

إنه حديث الصَّلاة في الحرب، والقتالُ سِجال بين جُند الرحمن، وأولياء الشيطان، ولا وزن عند الله لجهاد ـ أيِّ جهاد ـ ما لم يكن بين المجاهد ومن يُجاهد في سبيله صلة.

وأيُّ صلة أعظم من الصلاة؟! إنَّ الصَّلاة عماد الدين، ومَلاك التقـوى: في

* مجلة الأزهر، العدد السادس، المجلد الثامن والعشرون (١٣٧٦).

(١) رواه البخاري في كتاب صلاة الخوف (٩٤٢) واللفظ له، ومسلم (٨٣٩) في صلاة المسافرين.

(٢) انظر: حديث حيَّ على الجهاد ص٢٧٣ ـ ٢٧٧.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الحَضَر والسفر، والسِّلم والحَرب، والأمن والخوف، والنضال والقتال؛ فهي قاعدة كلِّ جهاد، وأساس كل دفاع. لا يرفع الله لتاركها عملاً، ولا يتقبل الله منه قُربة ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(١).

وفي الصَّلاة بعد ذلك قوةٌ للضعفاء، وَمَعُونَةٌ للأقوياء، وإماتةٌ بالغيظ للأعداء؛ ومن أجل ذلك كانت من الإسلام، عماده الأول، وركنه الأَجلّ، بعد الإيمان بالله ورسوله؛ ومن أجل ذلك كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً، كَتَبها الله عليهم خمس صلوات في كلّ يومٍ وليلة، ويسَّرها لهم تيسيراً، لا عُسْر فيه ولا حَرَج، من لم يستطع أن يصليها قائماً صلاَّها قاعداً، فَمَنْ لم يستطع فعلى جَنْب، فمن لم يستطع فَلْيُومئ بها إيماءً؛ لئلاَّ يكون لكائن من كان ـ بعد هذا التيسير ـ حجةٌ ولا معذرةٌ.

والمجاهدون في سبيل الله أَوْلى بالصَّلاة، وأحقُّ بها؛ لأنها سلاحهم الروحي، الذي إذا حالف سلاحهم المادي، كانوا من جند الله حقاً: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَالِبُونَ﴾(٢).

عَرَف ذلك أعداء الإسلام وأحلاف الشيطان، قديماً وحديثاً، فصدُّونا عن كتابنا وصلاتنا؛ لنكون مثلَهُم، ثمَّ تكون لهم الغَلَبَة علينا؛ لكثرة العَدَد والعُدَد حيث لا طاقة لنا بهم ولا قوَّة!!

نسمة زكيَّة

لكنَّ نسمةً من نسمات العزيز الرحيم، هَبَّت علينا في هذه الأيام العصيبة، طَيِّبةً زكيةً، فذكَّرت نفوساً كانت غاوية، وَهَزَّت قلوباً كانت قاسية، وأهابت بوزرائنا وقادتنا وأُولي الأمر منا أن يُنادوا: الصَّلاة سلاح

---

(١) سورة المائدة: ٢٧.

(٢) سورة الصَّافات: ١٧٣.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

النصر: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[(١)] معلنين في ندائهم القوي الملهم، أنَّ نصرنا لله تعالى إنما يبدأ بصلتنا الخالصة المؤمنة به، وأنَّ هذه الصِّلة إنما تبدأُ بالصلاة، وأنَّ واجبَ الإعداد لن يقْتصر على حفر الخنادق، وتجهيز المواقع الدفاعية، ولكنه يجب أن يمتدَّ، فيشمل تجهيز النفوس والقلوب، وتطهيرها؛ لتدعم صلتها بالله عزَّ وجل، وأنَّ على جميع القادة أن يُيَسِّروا لجنودهم القيام بصلاتهم، وأن يكونوا لهم أئمةً ومثلاً، يؤمُّونهم في الصَّلاة كما يقودونهم إلى المعركة.

الصَّلاة في الميدان

يذكِّرنا هذا النداء الموفَّق بصلاة القائد الأول ﷺ بالجيش، ثمَّ بصلاة القادة مِنْ بعده في معارك الحقِّ والظفر والنصر، إلى أنْ خَلَفت من بعدهم خُلوفٌ، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يُؤْمرون، أضاعوا الصَّلاة، واتَّبعوا الشَّهوات، وباعوا الدينَ بالدنيا، فَخسروها جميعاً!!!

وقد صلَّى النبيُّ ﷺ هذه الصلاة في مواطن مختلفة على صفاتٍ شتَّى، يَتَحَرَّى في كلِّ موْطنٍ ما هو أحْوَط للصلاة، وأحفظ للجيش، وأبلغ في الحذر والحراسة.

وفي هذه الغزوة التي غزاها صلوات الله وسلامه عليه قِبَل نجد، صلَّى العصر صلاةَ قَصْرٍ وخوف، ففرَّق الجيشَ طائفتين، صلَّى بالأولى ركعة، على حين كانت الأخرى مُوَازيةً للعدو، ثم انصرفت التي صلَّت خلفه ركعةً، وهي في صلاتها، مكان الطائفة التي لم تُصَلِّ، وجاءت هذه مكانها، فصلَّى النبيُّ ﷺ ركعته التالية، حتى إذا سلَّم، قامت كل طائفة فَقَضت لنفسها ركعتها الثانية، متعاقبين أو مجتمعين، مع أخذ كلٍّ منهما حذرها، وأسلحتها، وهي في

---

(١) سورة محمد: ٧.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

صلاتها، اتِّقاءَ غدرِ العدو.

غزوة ذات الرقاع:

وتُسمَّى هذه الغزوة «ذات الرِّقاع»، لما لقوا فيها من بالغ المشقَّة والجهد، حتى كان أبو موسى الأشعري وخمسة منه يعتقبون بعيراً واحداً! قال أبو موسى: فنُقبت أقدامنا ـ رقَّت من الحفاء ـ ونُقبت قَدَماي، وسَقَطَت أظفاري، فكنَّا نلفُّ على أرجلنا الخِرق(١).

وسارَ صَلَوات الله عليه في بضْع مئينَ من أصحابه، حتى نزل نَخْلاً، على يومين من المدينة، يريدُ جموعاً، كان بَلَغه أنها اجتمعت لمحاربته، فلمَّا بلغهم نبأُ مَقْدَمه، ألقى الله في قلوبهم الرُّعب، فخافوا وتفرَّقوا في رؤوس الجبال.. ثم اجتمع جَمْعٌ منهم، فأخاف بعضهم بعضاً، فانصرفوا بعد أن تواقفوا من غير حرب.. وإنما كانت صلاة الخوف حَذَراً من العدو..

وخروج أبي موسى في هذه الغزوة، وأبي هريرة، ممَّا استدلَّ به البخاري وصاحب «الهَدي» على أنها كانت في السنة السابعة بعد خيبر؛ لأنهما لم يقدما على النبيِّ ﷺ إلا في أواخر خيبر(٢).

أول صلاة صلاها للخوف ﷺ

وأول صلاة صَلاَّها للخوف ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كانت بعسفان، بعد مرحلتين من المدينة إلى مكة.. وكانت في عمرة الحديبية سنة ست.. وذلك أنه لما صلَّى بأصحابه الظهر استقبلهم المشركون ـ عليهم خالد بن الوليد ـ فندموا أن لم

---

(١) أخرجه البخاري (٤١٢٥) في المغازي، ومسلم (١٨١٦) في الهجرة والمغازي.

(٢) انظر: صحيح البخاري ٧: ٣٢٢، و«زاد المعاد في هدي خير العباد» ٣: ٢٥٢ ـ ٢٥٤. وممَّن ذهب إلى أن غزوة ذات الرقاع كانت بعد خيبر ابن كثير في «سيرته» ٣: ١٦١، وابن حجر في «الفتح» ٧: ٤١٨.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

يصيبوا من النبيِّ ﷺ وأصحابه غِرَّة. وقالوا: لقد كانوا على حال لو أصبنا غِرَّتهم، ثم قالوا: يأتي عليهم الآن صلاة هي أحبُّ إليهم من أبنائهم وأنفسهم، فأخبر الله نبيَّه ﷺ، وأنزل عليه صلاة الخوف، فصلاَّها بهم صلاة العصر(١).

وقد وقعت هذه الصلاة من قلب سيف الله خالد، موقعاً لم يزل أثره فيه، حتى شرح الله صدره للإسلام بعدها بعام أو عامين..

وليس يعنينا هنا أن نفصِّل كيفيَّات هذه الصلاة، فإنَّ لهذا التفصيل موضعه من كتب الحديث والفقه.. وإنما الذي يعنينا، ويعني قادتنا وأُولي الأمر منا أن ننوِّه بالصلاة ـ سلاح النصر ـ تنويهَ الله بها، ونعظِّمها تعظيمَ الله إيَّاها، في السِّلم والحرب، والفرج والكرب، في كلِّ بيت ومعهد، وفي كل مَتْجَر ومصنع، وفي كلِّ مجتمع وناد، غير ناسينَ فَضْل الجماعة فيها، ودعوة الله إليها، لما لها في الأمة عامَّة، وجيشها خاصّة من عظيم الأثر، وشدِّ الأزر، ولاسيما في ساحة النضال، وميدان القتال، وأحرج سُوَيْعات الفصل.

أول المسؤولين عن الصلاة

يعنينا هنا، ويعني أُولي الأمر منّا أن يعلموا أنهم أوَّل المسؤولين عن الصلاة ـ صلاة الأمن وصلاة الخوف ـ في كلِّ رقعة من الأرض مكَّنهم الله فيها، وفي كلِّ نفسٍ ولاَّهم الله أمرها، وفرض عليها أن تطيعهم، وتخلص لهم من بعد طاعة الله وطاعة رسوله..

لقد كان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يكتب إلى عمَّاله: إنَّ أهمَّ أمركم عندي الصلاة، فَمَنْ حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيَّعها، كان لما سواها أشد إضاعة.

إنّ الصَّلاة ليعود فضلها وعظيم آثارها: من الموالاة والطاعة والمحبة

---

(١) انظر بيان مشروعيتها في صحيح مسلم (٨٤٠).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والإخلاص سراً وعلناً ـ أول ما يعود ـ إلى مَنْ دعا إليها وأمر بها، وأخذ الناس بالحزم والعزم، وكان مثلاً كريماً لمن يأمرهم بها ويحضُّهم عليها.

إعاذة وضراعة

وإننا لنعيذ بالله قادتنا، وأُولي الأمر منا، أن يكونوا من خَلوفٍ يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يُؤْمرون[١].. ونَضْرع إليه سبحانه أن يُسدِّدهم ويؤيِّدهم، وأن يمنَّ عليهم بطاعتنا لهم في طاعته، ومحبتنا إياهم في محبته، حتى نُصَلِّي عليهم، ويُصلُّوا علينا[٢]، ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.

* * * * *

(١) اقتباس من حديث رواه أحمد ١: ٤٥٨ (٤٣٧٩)، ومسلم في كتاب الإيمان (٥٠) عن عبد الله بن مسعود، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ما من نبيٍّ بعثه الله في أمةٍ قبلي، إلا كان له من أُمَّته حواريُّون وأصحابٌ، يأخذون بسنَّته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلُف من بعدهم خُلوفٌ، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يُؤمرون، فمن جاهدهم بيده، فهو مؤمنٌ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمنٌ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبَّةُ خردل»..

(٢) يشير إلى الحديث الذي رواه مسلم في كتاب الإمارة (١٨٥٥) عن عوف بن مالك، عن رسول الله ﷺ قال: «خيار أئمتكم: الذين تحبُّونهم ويحبُّونكم، ويُصلُّون عليكم، وتُصلُّون عليهم، وشرارُ أئمتكم: الذين تُبغضونهم، ويُبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم» قيل: يا رسول الله، أفلا نُنابذهم بالسيف؟ فقال: لا، ما أقاموا فيكم الصَّلاة، وإذا رأيتم من وُلاتكم شيئاً تكرهونه، فاكرَهُوا عمَلَه، ولا تنزعوا يداً من طاعة». وانظر ص٦١٨ ـ ٦١٩.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

خيرةُ الله خيرٌ *

٢٧ ـ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يُعلِّمنا الاسْتخارة في الأمور كلِّها كما يُعلِّمنا السُّورة من القرآن، يقول: «إذا همَّ أحدكُم بالأمر، فَلْيركع رَكْعَتَيْن من غير الفَريضة، ثمَّ ليقل: اللهمَّ إنّي أَسْتَخيرُك بعلمك، وأسْتَقْدِرُك بقُدرَتك، وأسْأَلُكَ من فَضْلك العظيم؛ فإنَّك تَقْدِرُ ولا أَقْدِر، وتَعلمُ ولا أعلمُ، وأنت علاَّم الغيوب. اللهمَّ إن كُنتَ تعلمُ أنَّ هذا الأمرَ خيرٌ لي في ديني ومَعَاشي وعاقبةِ أمري ـ أو قال: عاجِلِ أمري وآجِلِه ـ فاقْدُره لي، ويَسِّره لي، ثمَّ بارك لي فيه، وإنْ كُنتَ تعلمُ أنَّ هذا الأمرَ شرٌّ لي في ديني وَمَعَاشي وعاقبةِ أمري ـ أو قال: في عَاجِلِ أمري وآجِلِه ـ فاصْرِفْه عنّي، واصْرِفني عنه، واقْدُرْ ليَ الخَيْرَ حيثُ كان، ثمَّ أَرْضِنِي به. قال: ويُسَمِّي حَاجَته». رواه البخاري[١].

المفردات:

أستخيرك: أطلب منك الخِيرَة. والخِيرَة وزان عِنَبة، اسمٌ من قولهم: خار الله لك أي: أعطاك ما هو خيرٌ لك. ومستخير الله ـ جلَّت آلاؤه ـ يسأله خير أمريه اللذين يتردَّد فيهما.

[أسْتَقْدرك: أي: أطلب منك أنْ تقدِرَني]

* مجلة الأزهر، العدد السادس، المجلد الثامن عشر، (١٣٦٦).

(١) أخرجه البخاري (١١٦٢) في كتاب التهجُّد، وأبو داود (١٥٣٨) في الصلاة، والترمذي (٤٨٠) في الصلاة، والنسائي (٣٢٥٣) في النكاح، باب كيف الاستخارة.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

فاقدُره لي: بضم الدال وكسرها، من بابَي نَصَر وضَرَب: اقْضِ لي به وهيِّئه، أو اجْعَلْه مَقْدوراً لي. وكأنَّ هذا تمهيدٌ لطلب تيسيره الذي عُطف عليه بعدُ.

وأو: في الموضعين للشكِّ من الراوي، في أيِّ اللفظين قال النبيُّ ﷺ، مما يدل على تمام التحرِّي والضبط(١)، وقد أشرنا إلى مثل ذلك من قبل.

* * * * *

توحيد الله وتنزيهه والاعتماد عليه وتفويض الأمور إليه

يبدو لمن يقنع بظواهر الأمور، أنَّ هذا الحديث يدعو إلى نافلةٍ من نوافل الخير، ليس غير.

ويؤيِّده في ذلك أنَّ المُحدِّثين والفقهاء، إنما يذكرونه في صلاة الاستخارة ودعائها، مِن أبواب التطوع والنافلة.

ولكنَّ الباحثَ في أسرار الأحاديث ومراميها يجد في هذا الحديث ـ غير متكلِّفٍ ولا متعسِّف ـ سُبلاً معبَّدة إلى توحيد الله وتنزيهه، واستحضار عظمته وجلاله، مع الاعتماد عليه وتفويض الأمور إليه، في منهج من مناهج العبادة السَّهلة المحبَّبة إلى كلِّ نفس.

وَمَنْ ذا الذي لا يحبُّ أن يجعلَ الله له من أمره يُسْراً؟! فيقدِّمَ بين يديه ركعتين يختمهما بالضَّراعة إلى الله وحدَه أن يخيرَ له، وأن يَصْرِفَ عنه السُّوء والأذى، وأنْ يرضيَه دائماً بما يُيسِّره له؛ لأنه وحده القادر القاهر، الذي أحاط

---

(١) ولذا قال العلماء: يستحبُّ للمستخير أن يجمع بين العبارتين؛ ليصيب بيقين مقالة النبيِّ ﷺ (طه).

الجديد و الطريف NEW & EXCLUSIVE

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بكلِّ شيء علماً، وأحصى كلَّ شيء عَدَداً.

ويجد الباحث في هذا الحديث كذلك كيف كان النَّبيُّ ﷺ يهدم الشِّرك وآثاره، ويرفع مكانه قواعدَ التوحيد ومناره، ويذكِّر الناس بربِّهم في كلِّ أمر يهمُّهم، أو حاجةٍ تعرض لهم، وحاجات مَنْ عاش لا تنقضي.

طرائق الناس في الوقوف على المغيَّبات

لقد شُغف الناس قديماً بحبِّ الاطلاع على المغيَّبات، والوقوف على المُحَجَّبات، وسَلَكوا في ذلك طرائق قِدَداً، كلُّها تحوم حَوْل الشَّك أو تتَّصل به؛ وتولاَّهم في هذا الضلال القديم رؤوس من شياطين الإنس والجن، يُوحي بعضهم إلى بعض زُخْرُف القول غُروراً.

ومن هؤلاء العرّافون، وضاربو الرَّمْل، والكُهَّان، والمنجِّمون، ومَنْ إليهم، ممَّن لا تزالُ بقاياهم منتشرةً في أنحاء الأرض إلى اليوم.

ولقد كان للعرب في الجاهليَّة من هذه الأباطيل والأضاليل نصيبٌ غيرُ قليل، حتى بعثَ الله رسولَه بالهدى ودين الحق، كما بعث إخوانه النَّبيين من قبله، فأخرجهم من ظلمات الشِّرك إلى نور الإيمان، وأنقذهم من مَهَاوي الخُرافات والأوهام إلى ذِرْوة العلم والعِرفان، وسَمَا بعقولهم من حَضيض الأَسْر والتقليد إلى سَمَاء البصيرة والبرهان.

ضلالة الاستقسام بالأزلام

وكان فيما حرَّمه الله وقبَّحه، وبيَّن أنه خُبْثٌ ورِجْس من عمل الشيطان، ضلالةُ الاسْتِقْسام بالأزلام[١]، وهي الأقداح التي يضربونها لمعرفة الحظ

---

(١) واحدها: زَلَم، بفتح الزاي وضمها مع فتح اللام. والزُّلَم، والقلم، والقِدْح (بكسر القاف) كلُّها بمعنى، والمراد بها قطع خشبية على هيئة السهم، إلا أنه لا ريشَ له ولا نصل (طه).

شبكة الألوكة
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

والنصيب، وطلب ما قُسِمَ لهم في الغيب.

وتدلُّ صحاح الأخبار على أنَّ القداح كانت عندهم ضروباً:

فَضَرْبٌ منها ثلاثة أقداح، يجعلونها في خرائطهم، مكتوبٌ على أحدها: «أمرني ربي»، أو: «افعل». ومكتوبٌ على الثاني: «نهاني ربي»، أو: «لا تفعل». والثالث: غُفْلٌ أي لا شيءَ عليه. فإذا أراد أحدهم سَفراً أو غزواً أو زواجاً أو تجارة أو نحوها، أدخل يده في الخريطة، فإذا خرج الآمر ائتمر، أو الناهي انتهى، أو المُهمَل أعاد الضَّرب، وأجالَ يدَه ثانية.

وضربٌ منها سبعة أقداح، كانت في جوف الكعبة عند هُبَلَ، أعظم أصنام قريش بمكة، وقد كتب عليه ما يدور بينهم من النوازل والأمور المهمة، كالعقل وهو الدية، والنَّسب، والحلف، والماء، إلى غير ذلك مما يشغلهم. فإذا همُّوا بأمر أو اختلفوا في شيء، ذهبوا إلى سَادن الكعبة، وأهدَوْا إليه الهدايا، وطلبوا إليه أن يَسْتَقْسِمَ لهم، فما خَرَجَ عملوا به واطمأنّوا له. وكثيراً ما تكون هذه السبعة عند كلِّ كاهن من كُهَّان العرب وحكّامهم؛ للفَصْل في الأمور المهمة على نحو أقداح هُبَل في الكعبة.

وضربٌ ثالثٌ، عشرة أقداح للميسر: سبعةٌ منها ذوات خطوط، وثلاثةٌ أغفال، وكانوا يضربون بها للمقامرة.

وتدلُّ كثرة الروايات واختلافها على أنَّ القداح كانت تختلف باختلاف الأزمان والأحوال، والأهوال والشهوات، وإنْ رجعت كلُّها إلى معنى واحد، هو التوسُّل بها إلى كشف الغيب الذي لا يعلَمه إلا الله.

ضلالةٌ تهدر العقل، وتفسد الفطرة، وتهوي بالإنسان إلى الدرك الأسفل، من بعد أن شرَّفَه الله وكرَّمه، وسخَّر له ما في الأرض جميعاً، وأعلى شأنه في هذا الوجود!.

وَمِنْ هنا ندرك الحكمة الإلهيَّة البالغة في تحريم هذه الضلالة، ونُظمِها في

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

سِلْكِ الخبائث والفسق(١)، ونعتها بأنَّها رجس من عمل الشيطان(٢).

ومن هنا كذلك ندرك السرَّ في شِرعة الاستخارة، وعناية النبيِّ ﷺ بتعليمها أصحابَه، كأنها سورةٌ من القرآن.

يهُمُّ المرءُ بالأمر، لا يَدْري أخيرٌ هو أم شر؟، أو يدري أنه خير، ولكنه لا يدري أجاء إبانه أم لم يجيء بعد(٣): «وللأمور كما للزَّرع إبان».

فيُرشده صلوات الله وسلامه عليه، أن يفزع إلى علاَّم الغيوب، يستخيره ليخيرَ له، ويستهديه ليهديَه، ويتوكَّل عليه وحده ليعينَه ويكفيَه ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾(٤).

صلاة ركعتي الاستخارة

ولأنَّ في دعاء الاستخارة قَبَساً من نور التوحيد والتنزيه، والضَّراعة إلى الله عزَّ وجل، سنَّ النبيُّ ﷺ صلاةَ ركعتين قبله؛ لأن الصَّلاة صلَةٌ بين العبد وربِّه، وأعظمُ وسيلةٍ إليه سبحانه، وَحَسْبُ المُصلِّي أنه يناجي ربَّه. وكانتا من غير الفريضة؛ للعناية بأمر الاستخارة، واختصاصها بعبادةٍ مستقلة(٥).

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ [المائدة: ٣].

(٢) يشير إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

(٣) وأما المعروف أو المنكر من المأمورات والمنهيات، فَبَدهيٌّ أنَّ الاستخارةَ فيها لا معنى لها إلا تحصيل الحاصل أو سوء الأدب (طه).

(٤) سورة الطلاق: ٤.

(٥) هذا، وللاستخارة آدابٌ تنظر في موضعها من كتب الأحكام (طه).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الله أكبر أين الضلال الجاهليُّ، من الهدي النبويِّ؟!. وأين خباثة الرِّجْس، من طَهَارة النفس؟!. وأين ظلمات الكفر والعصيان، من نور الهدى والإيمان؟ ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾(١).

لا تغني الاستشارة عن الاستخارة

ولا يَقُولنَّ قائلٌ: إنَّ الاستشارةَ تُغني عن الاستخارة. فليس كلُّ أمر يُسْتشار فيه، ولا سيِّما أمراً يعزُّ فيه الناصحِ الأمين. فإذا تيسَّرت الاستشارة فليبدأ بها؛ فإنَّها خيرٌ إلى خير، وحَسْبُها فَضْلاً أنَّ الله أمر نبيَّه ﷺ أن يُشاورَ أصحابه في الأمر، مع ما منحه من العقل الرشيد، وأيَّده بالعصمة والتسديد. وفي منثور الحِكَم والآثار: «ما خابَ من استخار، ولا نَدِمَ من استشار»(٢).

عادات جاهلية

وبعد، فإنَّ من العَجَب ـ وفينا هذا الهديُ النبويُّ الكريم ـ أن يكون في الأمة المحمديَّة مَنْ لا يزال يَسْتَنُّ بسُنَّة الجاهلية، في الاسْتِقْسام بما يشبه الأزلام، من رقاع الفأل، وأوراق اللعب، وكعاب النَّرد، وحَبِّ السُّبح، إلى غير أولئك، مما يختلف عن سهام الجاهلية في أشكالها، ويتَّفق معها في مراميها وأغراضها.

ومنهم: من يستخير ببعض الأدعية، أو آي الكتاب الكريم، يتلوها عند النوم؛ ليرى في منامِه ما يُرشده إلى الصَّواب(٣).

---

(١) سورة المائدة: ١٠٠.

(٢) رواه الطبراني في الصغير ٢ :١٧٥(٩٨٠)، و من طريقه القضاعي في «مسند الشهاب» ٢ :٧(٧٧٤) من حديث عبد القدوس بن حبيب، عن الحسن، عن أنس مرفوعاً. قال صاحب «الكشف»: ١ : ١٨٥ : وفي سنده ضعف جداً.

(٣) في هذا العطف مبالغةٌ وحَيْف: عطف مَنْ يستخير الله تعالى ببعض الأدعية والآيات الكريمة، على من يستخيره بسنن جاهلية تشبه الأزلام!!

على أنَّ بعض أئمة المذهب الحنفي نصَّ على سَواغية الاستخارة بالمنام، وهو الإمام =

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ومنهم: من يظنُّ أنّ الاستخارةَ وسيلةٌ إلى كشف الغَيْب، جاهلاً أنها ليست إلا ضراعةً إلى الله سبحانه؛ أن يَرزقَ من استخاره السَّدادَ، ويُهيئَ له سبيل الرَّشاد.

ألا إنَّ الحقَّ أبْلَج، والباطلَ لَجْلَج، وقد تَركَ فينا نبيُّنا صلوات الله عليه وسلامه ما إنْ اهتدينا به، فلن نضلَّ بعده أبداً، ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾[1].

* * * * *

محمد بن أبي بكر الشَّرغي زاده من علماء القرن السادس، ترجمه الحافظ القرشي في «الجواهر المضيَّة» ٣ :١٠٣، وذكر في آخر الترجمة أن له كتاباً نفيساً كثير الفوائد سمَّاه «شرعة الإسلام». أقول: إن هذا الإمام نصَّ في كتابه هذا على هذه الكيفيَّة من الاستخارة، ناقلاً لها عن المشايخ، والله أعلم.

هذا وقد تواردت الأحاديث الصحيحة على فَضْل الرؤيا الصَّالحة، وأنها عاجل البشرى التي يبشِّر الله بها عباده الصالحين في الدنيا. ففي «مسند أحمد» ٦: ٤٤٥ (٢٧٥١٠) عن أبي الدرداء قال: سألت رسولَ الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤]. قال النبيُّ ﷺ: «الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له».

وروى أحمد في «المسند» ٢: ٢١٩ (٧٠٤٤) عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبيِّ ﷺ: «الرؤيا الصالحة، يُبَشَّر بها العبد جزء من تسعة وأربعين جزءاً من النبوة». ووقع في أكثر الروايات ـ كما قال الحافظ في «الفتح» ١٢ : ٣٦٢ ـ: أنَّ الرؤيا الصالحة جزءٌ من ستة وأربعين جزءاً، وهي أصح الروايات.

وروى ابن ماجهْ (٣٨٩٦)، وابن جرير في «تفسيره» ١٢: ٢١٩ عن أمِّ كُرْز الكعبيَّة سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ذهبت النبوَّة، وبقيت المبشِّرات».

(١) اقتباس من الآية ٩٢ من سورة النمل.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

المَسَاجِدُ الثلاث *

المَسْجد الحرام ـ المسجد النبوي ـ المسجد الأقصى

٢٨ ـ عن أبي هريرة رضيَ الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «لا تُشَدُّ الرِّحَال[١] إلاَّ إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى»[٢]. رواه الشيخان[٣].

اختلاف المساجد بالشَّرف والفَضْل

أَفْضَل بقاع الأرض المساجد، وما في ذلك رَيْبٌ، وكفى أنها بيوت الله التي أذِنَ أن تُرفعَ ويُذكرَ فيها اسمه.

وهي ـ وإنْ شُرِّفت كلها بانتسابها إلى الله عزَّ وجل ـ تختلف شرفاً وفَضْلاً باختلاف قِدَمها وَسَعَتِها، واقترابها من السنَّة وابتعادها.

وقد رفع الله ثلاثةً منها درجاتٍ، فقدَّمها على ما عداها، وكرَّمها وفضَّلها

* مجلة الأزهر، العدد الثالث، المجلد التاسع عشر (١٣٦٧).

(١) الرَّحْل للبعير كالسَّرج للفرس، وشدُّ الرحال كناية عن السفر مطلقاً (طه).

(٢) سُمِّيَ بذلك لبُعده عن مسجد مكة أو المدينة، أو لأنه لم يكن وراءه مسجد، أو لبُعده عن القَذَر والرِّجس (طه).

(٣) أخرجه البخاري (١١٨٩) في كتاب العمل في الصلاة، ومسلم (١٣٩٧) في الحج مِنْ حديث أبي هريرة، وأخرجه مسلم (٨٢٧) مِنْ حديث أبي سعيد الخدري.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تفضيلاً؛ وتلك هي التي نوَّه بأسمائها[١] رسول الله ﷺ في هذا الحديث.

أعظم المساجد فضلاً

أما المسجدُ الحرام: فهو أعظمها فَضْلاً، وأجلُّها شأناً، وأرفعها مكاناً، جَعَلَه الله مَثَابةً للناس وأمناً، في مكة البلد الأمين؛ مهبط الوحي، ومَبْعَث الرسالة، ومولد خاتم النبيِّين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

اختاره الله تعالى قِبلةً لعباده، وجَعَل زيارته ركناً من أركان دينه، وأمر أبا الأنبياء خليله إبراهيم عليه السلام أن يبنيه، ويرفع قواعده، ويؤذِّن في الناس بالحج إليه؛ ليأتوه رجالاً وعلى كلِّ ضامر يأتينَ من كلِّ فج عميق.

وليس على وَجْه الأرض موضعٌ يجب على كلِّ قادر أن يَسعى إليه، ويطوفَ به، ويُقبِّلَ بعضَه إلاَّ هذا البيت.

وحَسْبُكَ ما رُوِيَ أنَّ الصَّلاة فيه بمئةِ ألف صلاة فيما سواه[٢]، وما صحَّ أن مَنْ حَجَّه مخلصاً لله؛ فلم يرفث ولا يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه[٣].

وهل تَنتظر شهادةً على فَضْله أبلغ من قول أصدق القائلين فيه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ

(١) نوَّه باسمه: إذا رفع ذكره.

(٢) أخرج أحمد ٣ :٣٤٣(١٤٦٩٤)، وابن ماجَهْ (١٤٠٦) بإسنادين صحيحين ــ كما في الترغيب ــ عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاةٌ في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه، إلا المسجد الحرام، وصلاةٌ في المسجد الحرام أفضل من مئةِ ألف صلاة».

(٣) أخرج البخاري (١٥٢١)، ومسلم (١٣٥٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من حجَّ، فلم يرفث، ولم يفسُقْ، رَجَع من ذنوبه كيَوْمَ ولدته أمه» قال المنذري في «الترغيب» (١٦٤٠): الرفثُ يُطلق، ويُراد به: الجماع، ويطلق ويُراد به: الفحش، ويُطلق ويراد به: خطاب المرأة فيما يتعلَّق بالجماع، وقد نقل في معنى الحديث كل واحد من هذه الثلاثة عن جماعة من العلماء، والله أعلم.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[١].

مَسْجِدُ النَّبِيِّ ﷺ

ويلي المسجدَ الحرام في الفَضْل مسجدُ النبيِّ ﷺ، على ما ذَهَبَ إليه العلماء[٢].

قال النوويُّ في شرح قوله ﷺ: «صلاةٌ في مسجدي هذا أفضلُ من ألف صلاةٍ فيما سواه إلاَّ المسجدَ الحرام»[٣]: «اختلف العلماء في المراد بهذا الاستثناء على حسب اختلافهم في مكة والمدينة: أيتهما أفضل؟ ومذهب الشافعي وجماهير العلماء أنَّ مكة أفضل من المدينة، وأنَّ مسجد مكة أفضل من مسجد المدينة. وعكسه مالك وطائفة؛ فعند الشافعي والجمهور: معناه إلاَّ المسجد الحرام؛ فإنَّ الصلاة فيه أفضل من الصَّلاة في مسجدي. وعند مالك وموافقيه: إلا المسجد الحرام؛ فإن الصَّلاة في مسجدي تفضُله بدون الألف»[٤].

---

(١) سورة آل عمران: ٩٦ ــ ٩٧.

(٢) **فائدة**: سأل بعض الأفاضل عمَّا أُلحق بالحرمين؟ والخلاصة: أنَّ العلماء اتَّفقوا على مضاعفة الثواب لما زِيد في المسجد الحرام، واختلفوا فيما زِيدَ في الحرم النبويِّ، فذهب النووي وغيره إلى أنَّ التضعيف لا يشمله، ولكن رغبته ﷺ في زيادته، وتحقيق أصحابه لهذه الرَّغبة دليلٌ على أنَّ المضاعفة شاملةٌ لما زيد فيه. ولعل الإشارة في «مسجدي هذا» لإخراج المساجد المنسوبة إليه بالمدينة. وانظر: «وفاء الوفا» (طه).

(٣) أخرجه البخاري (١١٩٠)، ومسلم (١٣٩٤) مِنْ حديث أبي هريرة.

(٤) انظر: النووي على مسلم ٩: ١٦٣، والفتح على البخاري ٣: ٨٠، ٨١، و«وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى» في الكلام على المساجد الثلاثة (طه).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ويؤيِّد مذهبَ الجماهير ما رواه الترمذي والنسائي عن عبد الله بن عدي رضي الله عنه أنه سمع النبيَّ ﷺ ـ وهو واقفٌ على راحلته بمكة ـ يقول: «والله إنك لخيرُ أرض الله، وأحبُّ أرضِ الله إلى الله، ولولا أني أُخرجت منكِ ما خرجت»[١].

وما رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن الزُّبير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاةٌ في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلاَّ المسجد الحرام، وصلاةٌ في المسجد الحرام أفضل من مئةِ صلاةٍ في مسجدي»[٢].

وقد بناه النبيُّ ﷺ وأسَّسه على التقوى من أوَّل يوم[٣] بعد مَقدَمه من مكة إلى المدينة، دارِ السلام، ومَوْئل الإسلام، من بعد أن أسَّس مسجد قُباء[٤] في بني عمرو بن عوف، وكان قد أقام فيهم أربع عشرة ليلة.

أمر صلوات الله وسلامه عليه باتِّخاذ اللَّبِن فاتُّخذ، وبنى المسجد في مَبْرَك ناقته، وهو يومئذ مِربَد تمر[٥] ليتيمَيْن في المدينة، وكانا راغبَيْن أن يجعلا ثمنه هبةً لله ورسوله، فأبى ﷺ إلاَّ الثمن، وابتاعه منهما بعشرة دنانير أدَّاها من مال

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٩٢١)، والنسائي في السنن الكبرى (٤٢٣٨)، (٤٢٣٩)، وابن ماجَهْ (٣١٠٨).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» ٤: ٥ (١٦١١٧)، وقال الهيثمي في «المجمع» ٤: ٤ ـ ٥: «رواه أحمد والبزار (٤٢٥) والطبراني في «الكبير» بنحو البزار، ورجال أحمد والبزار رجال الصحيح».

(٣) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ...﴾ [التوبة: ١٠٨]، وسَيُسْفِر لك وَجْهُ الحقِّ في سبب نزولها (طه).

(٤) قباء من عوالي المدينة على نحو ثلاثة أميال منها، وهي في الأصل اسم بئر في هذا الموضع (طه).

(٥) المِرْبَد بوزن منبر: الجرين أو مربط الإبل (طه).

الجديد و الطريف NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أبي بكر رضي الله عنه، ثم سُقِف بالجريد، وجُعلت عُمُده من خشب النخل، وعمل فيه المهاجرون والأنصار، وكان ﷺ ينقل معهم اللَّبِن في بنائه، وهو يتمثَّل بقول عبد الله بن رَواحة رضي الله عنه:

هَذا الحِمَالُ، لا حِمَالُ خَيْبرْ هَـذَا أَبَـرُّ ـ رَبَّنَـا ـ وَأَطْهَـرْ[1]

وقوله:

اللهُمَّ إنَّ الأجْرَ أجْرُ الآخِرَهْ فَـارْحَمِ الأنصـارَ والمُهَـاجِرَهْ

وجُعِلت قبلتُه إلى بيت المقدس؛ وكان ﷺ يُصلِّي نحو بيت المقدس بعد مَقْدَمِه إلى المدينة حتى ولاَّه الله القِبْلة التي يرضاها، وهي الكعبة البيت الحرام، على رأس سبعة عشر شهراً.

وممَّا جاء في فضل هذا المسجد ما رواه الإمام أحمد بإسناد صحيح من حديث أنس رفعه: «من صلَّى في مسجدي أربعين صلاةً لا تفوته صلاة كُتب له براءة من النار، وبراءة من العذاب، وبراءة من النفاق»[2].

المسجد الأقصى

وأما **المسجد الثالث فهو بيت المقدس**، مسجد الأنبياء السابقين، وقبلة الأمم السالفين، وقبلة هذه الأمة كذلك سبعة عشر شهراً كما قدَّمنا آنفاً؛ وَوَرَدَ أنَّ الصلاة

---

(١) أي: المحمول من اللَّبِن والحجارة في بنيان هذا المسجد، أبرُّ وأزكى عندك يا ربنا من أحمال خيبر تمرها وزبيبها (طه).

(٢) رواه أحمد ٣: ١٥٥ (١٢٥٨٣) وإسناده ضعيف، لكن رواه الترمذي (٢٤١) مِنْ غير طريق أحمد، عن أنس مرفوعاً وموقوفاً بلفظ: «من صلَّى لله أربعين يوماً في جماعة يدرك التكبيرة الأولى، كُتبت له براءتان: براءة من النار، وبراءة من النفاق». ورجَّح الموقوف. انظر التعليق على «المسند»، طبعة مؤسسة الرسالة.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

فيه بخمسمائة صلاةٍ فيما سواه إلا المسجدَ الحرام، والمسجدَ النبويّ[١].

وروى النسائي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنَّ النبَّي ﷺ قال: «إنَّ سليمان بن داودَ عليهما السلام لما بنى بيتَ المقدس، سأل اللهَ عزَّ وجلَّ خلالاً ثلاثاً: حُكماً يصادف حُكمَه[٢] فأُوتيَهُ؛ ومُلكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأُوتيَهُ؛ وسأل الله تعالى حين فَرَغَ من بنائه ألاَّ يأتيه أحدٌ ـ لا ينهزُه[٣] إلا الصلاةُ ـ فيه أن يخرجه من خطيئته، كيوم ولَدَته أمُّه[٤]».

وروى أبو داود عن مَيْمونة مولاة النَّبيِّ ﷺ[٥] أنها قالت: يا رسول الله، أَفتِنا في بيت المقدس؟ فقال: «ائْتُوهُ فَصلُّوا فيه، فإن لم تأتوه وتصلُّوا فيه، فابعثوا بزيتٍ يُسْرج في قناديله»[٦].

---

(١) عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الصلاة في المسجد الحرام بمئة ألف صلاةٍ، والصلاة في مسجدي بألف صلاةٍ، والصلاة في بيت المقدس بخمسمائة صلاةٍ». قال المنذري في «الترغيب»(١٧٧٦): رواه الطبراني في الكبير، وابن خزيمة في صحيحه. ورواه البزار (٤٢٢) ولفظه: «فضل الصلاة في المسجد الحرام على غيره بمائة ألف صلاةٍ، وفي مسجدي ألفُ صلاةٍ، وفي مسجد بيت المقدس خمسمائة صلاة» وقال البزار: إسناده حسن.

(٢) أي: أن يكون حكمه موافقاً لحكم الله عز وجل وشريعته.

(٣) لا يُخرجه ولا يَدفعه.

(٤) رواه أحمد ٢ :١٧٦(٦٦٤٤)، والنسائي ٢: ٣٤ (٦٩٣)، وابن ماجَهْ (١٤٠٨)، وابن خزيمة (١٣٣٤)، وابن حبان (١٦٣٣) في صحيحيهما، والحاكم ١ :٣٠ أطول من هذا، وقال: صحيح على شرطهما، ولا علَّة له.

(٥) خادمه. وهي ميمونة بنت سعد، أو سعيد، صحابيةٌ.

(٦) أخرجه أبو داود (٤٥٧) في كتاب الصلاة، باب في السُّرج في المساجد، وابن ماجَهْ (١٤٠٧)، قال النووي في «المجموع» ٨: ٢٦٢ «إسناده لا بأس به»، وقال العلائي: «إنه حديث حسن أو صحيح» كما في «البلدانيات» للسخاوي ص٦٧.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

هذه هي المساجد الثلاثة المقدَّسة، التي تُشَدُّ الرِّحَالُ إليها، وتُحتمل المشاقُّ في سبيلها، وتُنفقُ النفقات في زيارتها والصَّلاةِ فيها؛ وأما غيرها فلا يدركها في هذه المنزلة، ولا يلحقها في تلك المزيَّة[1].

فالذين يتحمَّلون النفقات في السَّفر إلى مسجدٍ سواها، أو يرهقون أنفسهم في الذهاب إلى غيرها، جاهلون بسنَّة نبيِّهم، أو متَّبعون لأهوائهم[2]؛ وحقٌّ على أهل العلم أن يهدوهم صراطاً سوياً.

شدُّ الرحالِ لغير المساجد الثلاثة

نعم؛ إنَّ الرِّحلة للقاء الصَّالحين، أو الأخذ عن العالمين، أو النظر في مَلَكوت السَّموات والأرض؛ كلُّ ذلك ممَّا رغَّب فيه الكتاب والسنة، وشهدت به سيرة السلف.

---

(١) ويدلُّ على ذلك أيضاً ما أخرجه أحمد ٦ : ٧ (٢٣٨٤٨) بإسناد صحيح أن أبا هريرة لقي بَصْرة بن أبي بَصْرة الغفاري، قال: مِنْ أين أقبلتَ؟ فقلت: مِنَ الطُّور. فقال: أما لو أدركتك قبل أن تخرج إليه ما خرجتَ إليه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تُعملُ المَطيُّ إلا إلى ثلاثة مساجدَ: إلى المسجد الحرام، وإلى مسجدي، وإلى مسجد إيلياء» أو «بيت المقدس».

قال الحافظ الذهبي في «سير أعلام النبلاء» ٩ : ٣٦٨: معناه: «لا تُشدُّ الرِّحال إلى مسجدٍ، ابتغاء الأجر سوى المساجد الثلاثة، فإنَّ لها فضلاً خاصًّا..». وقال أيضاً ٤ : ٤٨٤: «فمن وقف عند الحُجْرة المقدَّسة ذليلاً مُسلِّماً، مُصلِّياً على نبيِّه، فيا طُوبى له، فقد أحسن الزيارة، وأجمَل في التذلُّل والحُبِّ، وقد أتى بعبادةٍ زائدةٍ على مَنْ صلَّى عليه في أرضه أو في صلاته، إذ الزائر له أجرُ الزيارة وأجرُ الصلاة عليه، والمصلِّي عليه في سائر البلاد له أجر الصلاة فقط..» إلى آخر كلامه النفيس رحمه الله تعالى.

(٢) ومن هؤلاء أقوام أولعوا بالموالد، ورأوا فرضاً عليهم أن يؤذوا مساجد الله وعباده، بشدة زحامهم، وكثرة ضجيجهم، وبالغ أقذارهم (طه).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

قال الإمام الغزالي: «كان سعيد بن المسيِّب يسافر الأيام في طلب الحديث الواحد».

وقال الشَّعبي: لو سافر رجلٌ من الشام إلى أقصى اليمن في كلمةٍ تدلُّه على هدى، أو تردُّه عن رَدى ما كان سفره ضائعاً(١).

ورحل جابر بن عبد الله إلى مصر مع عشرة من الصَّحابة، فساروا شهراً في حديثٍ بلغهم عن عبد الله بن أُنيس الأنصاري يحدِّث به عن رسول الله ﷺ(٢) حتى سمعوه(٣).

والأخبار والآثار في الارتحال إلى طلب العلم، وزيارة الإخوان، والتدبُّر في آيات الكَون، وآثار السَّابقين، أكثر من أن يُلِمَّ بها كتابٌ فضلاً عن مقال(٤).

مسجد قُباء

وألحق بعضُ العلماء مسجد قُباء بهذه الثلاث، فأجاز شدَّ الرحال إليه؛

---

(١) الشَّعبي هو التابعي الجليل عامر بن شَرَاحيل الكوفي الهمداني المولود سنة ١٩ والمتوفى سنة ١٠٣ رحمه الله تعالى. قال ابن المديني: قيل للشعبي: من أين لك هذا العلمُ كلُّه؟ قال: بنفي الاعتماد، والسير في البلاد، وصبرٍ كصبر الحمار، وبكورٍ كبكور الغُراب» كما في «تذكرة الحفاظ» ١ :٨٤.

(٢) قال الإمام البخاري في «صحيحه» في كتاب العلم ١ :١٥٨ باب الخروج في طلب العلم: ورحل جابر بن عبد الله مَسيرة شهر إلى عبد الله بن أُنيسٍ في حديث واحد. والحديث الذي يشير إليه البخاري رواه في كتابه «الأدب المفرد» (٩٧٠) في باب المعانقة.

(٣) انظر «إحياء العلوم» في آداب السفر [٢: ٢٤٥ ـ ٢٤٧] (طه).

(٤) انظر جملةً صالحةً من أخبار العلماء في التعب والنَّصب، والرحلة في طلب العلم وقطع المسافات في الكتاب النافع المعطار «صفحات من صبر العلماء» ص٣٣_١٠٧، لأستاذنا العلامة المحدِّث الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

لأنه أوَّل مسجدٍ بُني في الإسلام، وأوَّل مسجد أعلنَ فيه النبيُّ عليه الصلاة والسلام الجماعة بأصحابه، وأوَّل مسجدٍ بُني لجماعة المسلمين عامة، وكانت المساجد قبلة خاصَّة للأفراد أو القبائل، وكان النبيُّ ﷺ يزوره كل سبت راكباً أو ماشياً، وكان ابن عمر رضي الله عنهما يحرص على ذلك اقتداءً به ﷺ[١].

المسجد المؤسَّس على التقوى

واختلف العلماء في أيِّ المسجدين نَزَل قوله تعالى: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾[٢]؟.

فَذَهَب جَمَاعةٌ ـ منهم مالك ـ إلى أنه مسجد المدينة مُحتجِّين بما أخرجه مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: سألت رسول الله ﷺ عن المسجد الذي أُسِّسَ على التقوى؟ فقال: «هو مسجدكم هذا»[٣]، يعني مسجد المدينة.

قال النووي: وهذا نصٌّ بأنه المسجد الذي أُسِّس على التقوى المذكور في القرآن، وردٌّ لما يقول بعضُ المفسِّرين أنه مسجد قباء[٤].

والحقُّ ـ كما قال الحافظ ابن حجر ـ أنَّ كلاً منهما أُسِّسَ على التقوى من أوَّل يوم بُنيَ فيه، وأنَّ قوله تعالى في بقيَّة الآية: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾[٥] يؤيِّد أنَّ المراد مسجد قباء، كما رُوي في سبب

---

(١) روى البخاري (١١٩٣)، والنسائي (٦٩٨) عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ كان يأتي مسجِدَ قُباء كلَّ يوم سبتٍ راكباً وماشياً، وكان عبد الله يَفْعَلُهُ.

(٢) سورة التوبة: ١٠٨.

(٣) أخرجه مسلم (١٣٩٨)، والترمذي (٣٠٩٩)، والنسائي (٦٩٧).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم ٩: ١٦٩.

(٥) سورة التوبة: ١٠٨.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

نزولها بسندٍ صحيح[١].

والسرُّ في إجابته ﷺ بأنَّه مسجد المدينة، رفْعُ ما يخطُرُ بالبال من أنَّ التأسيس على التقوى خاصٌّ بمسجد قباء، وبيانُ أنَّ مسجد المدينة يشاركه هذه الميزة، ويمتاز عنه بفضائل أخرى[٢].

وبعد، فإنَّ الحنيفيَّة السَّمْحَة تدعو إلى الأسفار النافعة، والرحلات المباركة، التي تُثمر ثمرها، وتُؤْتي أُكُلَها، وتدلُّ على الخَيْر والهُدى، وتدفع الشرَّ والرَّدى؛ كما تُحذِّر من الأسفار العابثة والضَّائعة، التي لا تُكْسِبُ صاحبها في الدين أجراً، ولا في الدنيا خيراً.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: نزلت هذه الآية في أهل قُباء: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ قال: كانوا يستنجون بالماء، فنزلت فيهم هذه الآية. أخرجه أبو داود (٤٤)، والترمذي (٣٠٩٩)، وابن ماجَهْ (٣٥٧)، وابن خزيمة (٨٣)، والحاكم في المستدرك ١ :٢٥٧، وصحَّحه ووافقه الذهبي.

وعن أبي أيوب الأنصاري، وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك رضي الله عنهم أن هذه الآية لما نزلت: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾، قال رسول الله ﷺ: «يامعشر الأنصار: إنَّ الله قد أثنى عليكم في الطهور، فما طهوركم»؟ قالوا: نتوضأ للصلاة، ونغتسل من الجنابة، ونستنجي بالماء.. قال: «فهو ذاك فعليكموه». رواه ابن ماجَهْ (٣٥٥) والحاكم ١ :٥٥، وقال: هذا حديث كبير صحيح، ووافقه الذهبي، وحسَّنه الزيلعي في «نصب الراية» ١ :٢١٩. والحديث صحيح لشواهده عن جماعة.

(٢) وأما زيارته صلوات الله وسلامه عليه، فكان المقصود الأول منها مواصلة أهل قباء وتفقُّد أحوالهم وأحوالِ مَنْ غاب منهم عن شهود الجمعة معه، وهذا هو سرُّ تخصيص الزيارة بالسبت (طه).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

من أسرار الصوم وآدابه *

٢٩ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال اللهُ عزَّ وجلَّ: كلُّ عَمَلِ ابنِ آدمَ لهُ، إلاَّ الصِّيامَ، فإنَّه لي وأنا أجْزي بهِ. والصِّيامُ جُنَّةٌ، فإذا كان يومُ صَوم أحدِكُم، فلا يَرفُثْ ولا يَصْخَبْ، فإن سابَّه أحدٌ أو قاتَله، فليَقُل: إني صائمٌ. والذي نفسُ مُحمَّدٍ بيده، لَخُلوفُ فَمِ الصائم أطيبُ عندَ الله منْ رِيحِ المِسْكِ، للصَّائم فرحتان يَفرحُهُما: إذا أفطر فَرِحَ، وإذا لقيَ ربَّهُ فرِحَ بِصومِهِ». رواه الشيخان واللفظ للبخاري[(١)].

مكان الصوم من العبادات

أفاض العلماء والباحثون قديماً وحديثاً في حِكَم الصوم وأسراره ما شاء الله أن يفيضوا، وجهدوا في اكتشافها ما شاء الله أن يجهدوا. ولكنَّهم مهما يكتشفوا من أسراره الفرديَّة والجماعيَّة، وحِكَمه الماديَّة والروحيَّة، وآثاره الطبيَّة والتهذيبيَّة؛ فلن يُدركوا غايتها، ولن يحيطوا بتفصيلها علماً.

وأكبرُ الظنِّ أنهم في جهدهم هذا يعنون أشدَّ العناية ببيان حِكَمه وأسراره مستقلاًّ عن سائر أركان الإسلام وشُعَبه؛ إذ لم ينل ارتباطه بها وتأثيره فيها من هذه العناية إلاَّ قليلاً.

فهل لنا أن نُنعم النظر في كشف أسرار الصوم مرتبطاً بغيره من شرائع الإسلام وشُعبِهِ ومؤثِّراً فيها، كما أنعمنا النظر في أسراره وآدابه مُستقلاً عنها

---

* مجلة الأزهر، العدد التاسع، المجلد الرابع والعشرون (١٣٧٢).

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١) كلاهما في كتاب الصيام.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وبلغنا أمداً بعيداً؟! وهل لنا أن ننتقل بعد ذلك إلى سائر هذه الشُّعَب، فندرس صِلة كلٍّ منها بأخواتها ومدى تأثيرها فيها، ثمَّ ندرس صِلاتها مجتمعةً متعاونة متضافرة ـ كما أعدَّها العليم الحكيم ـ على إعداد الفرد والأمة، إعداداً قوياً متيناً، يُجدِّد بناء أمَّتنا الإسلامية، ويُعيدها سيرتهَا الأولى؟

مِصْفَاةٌ دقيقة نقيَّة وامتحانٌ سنويٌّ دقيق

إنَّ مَثَلَ الصوم في أركان الإسلام وشرائعه، كمثل المِصْفاة اللَّطيفة الدقيقة النقيَّة التي صَفَتْ في نفسها، وأُعِدَّت لتصفية غيرها. فهي تُنقِّي أعمالَ الصَّائم وأحوالَه، وشؤونَ جسمه وروحه كلِّها ـ دقيقها وجليلها ـ من سمومها المادية والمعنوية، وعلى قدر نقاء هذه المصفاة ولطفها تكون تنقيتها لغيرها.. أو كَمَثل امتحانٍ سنويٍّ دقيق، يستغرق من العام شهراً كاملاً، تُمتحن فيه أعمال العبد وشؤونه حتى تمرن على الإخلاص والقوّة، وتَخلُص من الدَّنَس والضعف والهزال، ويتجدَّد الامتحان كل عام حتى يتخرَّج الصَّائم عضواً نافعاً، ولَبِنَةً سليمة قويَّة في بناء هذه الأمة الإسلامية.

امتحانٌ اختياريٌّ

وإذا كان هذا الامتحان السنويّ إجبارياً في كلِّ عام، فإنَّ هناك امتحاناً اختيارياً، سَنَّهُ معلِّمُ الناس الخير، ومُخرِجُهم من الظلمات إلى النور بإذن ربِّه صلوات الله وسلامه عليه، سَنَّه في خلال كلِّ شهر ما عدا شهر رمضان، بل في كلِّ أسبوع لمن شاء أن يترقَّى في معارج الكمال، ويبلغ الذِّروة في فضائل الأعمال.

المزيّة لا تقتضي الأفضليّة المُطْلَقة

وليس الصوم نفسُه بحاجة إلى مِصْفَاةٍ أو امتحان؛ لأنَّ الله العليم الحكيم قد اصْطفاه لنفسه، واختصَّه من بين العبادات والشرائع بالإضافة إليه، تكريماً له وتشريفاً، ومزيَّةً له دون غيره من الطاعات؛ لا جَرَم أنه يتولَّى تصفيته وتنقيته على حسب ما قدَّر لعبده من منزلة، وما رفعه من درجة، وقد باتَ من القضايا

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الأوليَّة: أنَّ المزيَّة لا تقتضي الأفضليَّة[١].

سرُّ إضافته إلى الله تعالى

ولعلَّ السرَّ في اختصاص الصوم بهذه المرتبة العليا من التشريف والتكريم، ما قيل من أنه لم يُعبد به أحدٌ غيرُ الله عز وجل، فلم يعظِّم الكفَّار في عصرٍ من الأعصار معبوداً لهم بالصيام، بل عظَّموه بصورة الصلاة والسجود والقيام، والذبح والحَلِف والنذر، والطواف والصَّدقة والذكر، وما إلى ذلك من فنون الجاهلية وأعمال المشركين.

أو لأنَّ الصوم ـ لخفائه ـ أبعد ما يكون عن الرياء. فليس للصائم فيه حظٌّ ولا شهوة كما له في غيره من العبادات. أو لأنَّ الاستغناء عن الطعام والشراب وما إليهما، من صفات الربِّ الذي يُطعم ولا يَطعم، فأضاف الصوم إليه لأنه يوافق صفةً من صفاته الربانيَّة، وإن جلَّت صفاته سبحانه عن الشبيه والنظير: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[٢].

ثواب الصوم ومقدار الجزاء عليه

ولمَّا كرَّم الصومَ ـ عزَّ اسمه ـ بنسبته إليه وحده، تولَّى هو أيضاً جزاءَه واختصَّ به، وتفرَّد علماً بمقداره وتضعيفه، وجعله سرًّا محجوباً لا يُطلع عليه أحداً من عباده، كما كان الصوم نفسه سرًّا بين العبد وربه، جزاءً وفاقاً.

وإذا كانت الحَسَنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف إلى أضعافٍ كثيرة، في أعمال ابن آدم الظاهرة التي أُسندت إليه، وأنبأه الله ثوابها وعظيم جزائها، فكيف بهذا السرِّ الذي اختصَّ الله به نسبةً وجزاءً؟! لا جَرَم أنه جزاء لا يهتدي إليه حساب الحاسبين، ولا يمتدُّ إليه وصف الواصفين.

---

(١) انظر مناقشة هذه العبارة: المزيَّة لا تقتضي الأفضليَّة في التتمة الأولى ص٩٤٧.

(٢) سورة الشورى: ١١.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وإذا كان «الصيام نصفَ الصبر» كما صحَّ في الأثر[(١)]، فإنَّ الصائمين في طليعة الصَّابرين الذين بشَّرهم ربهُّم بأنهم يُوفَّون أجرهم بغير حساب.

درجات الصوم

وبعد، فأيُّ صوم هذا الذي كرَّمه الله ذلك التكريم، ووفَّى صاحبه ذلك الجزاء العظيم؟! لا ريبَ أنه درجاتٌ متفاوتة بتفاوت الصابرين المخلصين، ولعلَّ أدناها أن يتخلَّى من الآثام الظاهرة والباطنة قولاً وعملاً، ويتحلَّى بالآداب النبوية فقهاً وهدياً. وأما صيام العامَّة وأشباه العامة ـ وهو مجرَّد الإمساك عن الطعام والشراب وما إليهما مع اقتراف الآثام ـ فليس من الصيام الربَّاني في شيء.

وقد روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «من لم يدع قولَ الزور والعمل به، فليس لله حاجةٌ في أن يدع طعامه وشرابه»[(٢)].

ويرى الزُّهاد والمتصوِّفة أنَّ الصوم درجاتٌ ثلاث: صوم العوام وهو هذا الذي ذكرناه آنفاً؛ وصوم الخواص وهو هذا مع اجْتناب المحرَّمات من قول أو فعل؛ وصوم خواص الخواص، وهو الصيام عن غير ذكر الله وعبادته؛ ثم يزعمون أنَّ هذا الأخير هو المراد في الحديث. وهو زعمٌ لا دليل عليه، وفيه تحجيرٌ لرحمةِ الله الواسعة، وتضييقٌ لفَضْله العظيم.

المراد من الصوم في هذا الحديث

والذي يدلُّ عليه الهديُ النبويُّ في هذا الحديث وغيره، أنَّ المراد إنما هو

---

(١) رواه الترمذي (٣٥١٩) بسنده عن رجل من بني سلمة، وقال: هذا حديث حسن. وكذا رواه ابن ماجه (١٧٤٥) ـ واللفظ عنده ـ من طريقين عن أبي هريرة. قال البوصيري في «الزوائد»: إسناد الحديث عن الطريقين معاً، ضعيف.

(٢) رواه البخاري (١٩٠٣).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الصوم الذي يؤدّي وظيفتَه التي من أجلها شُرِع، وحِكْمَته التي من أجلها كُتِب، وإليها الإشارة بقوله عزَّ من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[1]، وقوله صلوات الله وسلامه عليه: «الصيام جُنَّة»[2].

والجُنَّة: السترة والمانع؛ لأنَّ الصومَ الحقَّ يمنع صاحبه من الرفث والآثام، ومن غضبِ اللهِ وعذابه كما يمنع المِجَنُّ ـ وهو التُّرس ـ صاحبَه من السلاح.

ومثل من لا يقيه صيامُه سهامَ الذنوب والآثام، كَمَثل من لا تَنْهاهُ صلاته عن الفحشاء والمنكر، وكلاهما لا يزداد من الله إلا بُعداً!.

وإذا كان الصيام مِجَنّاً لصاحبه وحِصْناً له من عدوِّه: نفسِه وهواه وشهوتِه، وإبليس وذرِّيَّته فمن كَيَس الصائم أن يكون يقظاً فطناً، يأخذ حذره أن يخرق العدوُّ مجنَّه، أو أن يهدم عليه حصْنَهُ، فيكون فريسةَ عدوّ لا يألوه خَبالاً أو ضحية حَمَق هو أشدُّ وبالاً ونكالاً!.

سدُّ منافذ العدو

ومن أكْيَسِ الكَيْس ألاَّ يَدَعَ مَنْفَذاً من منافذ العَدوِّ التي يهجم منها عليه إلاَّ سدَّه سدَّاً مُحْكماً، متعهِّداً هذه المنافذ وسدودها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وأقربُ المنافذ إلى العدوِّ رفثُ الصَّائم وصخبه، وسبابُهُ وجداله، وما إلى هذا من آفات لسانه الذي بين فكَّيه!.

والرفث: السُّخْف وفاحش الكلام، وما لا ينبغي إلا بين المرء وزوجه في غير أوقات الصيام.

---

(١) سورة البقرة: ١٨٣.

(٢) رواه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

والصَّخب: ويقال بالسين أيضاً، هو الصِّياح والخصام وما إليهما من المِراء والجدال.

من المنهاج النبوي في التربية

وفي نهيه ﷺ عن أقرب خطايا الصائم وأهونها عليه، تنبيهٌ على أبعدها منه وأشقاها عليه، كما في نهيه عزَّ وجل عن التأفيف في معاملة الوالدين؛ ليكون أحرى بنهيه عمَّا وراء ذلك من إيذاء وعنف.

وليس الصائم وحدَه هو المقصود بالنهي عن هذه الصغائر التي قد تكون ستاراً لما وراءها من كبائر؛ بل غير الصائم مثله في أصل النهي، ولكن يتأكد في حقِّ الصائم ما لا يتأكَّد في حقِّ غيره، ويُطالب الصائم من الاجتهاد والمحافظة والوَقار بما لا يُطالب به غيره.

فإذا شاتم الصائمَ أحدٌ أو خاصَمَه، فَلْيَعفُ وَلْيَصْفح، ولا يقابلنَّ الشرَّ بمثله، ولْيذكر اليوم وحرمته، ولْيقل بقلبه ولسانه مَرَّةً أو مرتين: إني صائم، فذلك أدنى أن يكفَّ عن خصمه، وأن يكفَّ عنه خصمه.. ثم لا بأس أن يجلس إن كان قائماً، أو يقوم إن كان جالساً، فذلك أعون على صرف الشيطان وجنده، فما استعان الشيطانُ على أحدٍ بمثل غضبه وصَخَبه.

تربية الإرادة القوية

وفي تذكير العبد نفسه بأنه صائمٌ عند العدوان عليه سَفَهاً وجهلاً، تقويةٌ لظهره، وشدٌّ لأزره، وتمرينٌ لنفسه على تربية الإرادة القوية، والعزيمة الماضية، التي لا يحوم حولها جبنٌ ولا تردُّد، ولا ينال منها إيذاءٌ مؤذٍ، ولا تثبيط مثبِّط، وذلك من آثار التقوى التي هي ملاك الحكمة في الصيام وشرعته.

ومَنْ لنا بمن يبلِّغ علماء النفس والتربية منهاجَ النبيِّ المربِّي الحكيم صلوات الله وسلامه عليه، في تربية أمَّته على قوَّة الإرادة ومَضَاءِ العزيمة، بهذا الأسلوب

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

العملي الميسَّر، الذي يستوحيه المرءُ من نفسه لنفسه، فيجده أسرع مُجيبٍ له وناصرٍ بإذن ربه.

بشائر الرضا والقبول

هذا الصائم الوقور المُتَّقي الذي لم يكن ـ بصيامه ـ صورةً صمَّاء مُمْسكة عن الطعام والشراب والشهوة فحسب، بل كان ـ بصيامه وتقواه ـ قوةً من جند الله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾(١)، وكان روحاً وثَّاباً إلى المَجْد والعُلا، سائحاً في ميادين الخير، والتعاون على البرِّ، والدفع بالتي هي أحسن، يهدي إلى سبيل الرَّشاد بصومه، ويرفع بناء المَكْرُمات بأيدِه وعزمه، هو الحقيقُ بأن يزفَّ إليه الصَّادق المَصْدوق صلوات الله وسلامه عليه، بشارة الرضا والقَبول والفوز بالمأمول، ممَّن بيده الخيرُ كلُّه، وهو الذي لا يضيع أجرَ مَنْ أحسنَ عملاً.

والخُلوف ـ بضم الخاء، ويجوز فتحها ـ هو تغيُّر رائحة الصائم من أثر الإمساك عن الطعام والشراب، و تقزُّزُ الناس منه أمرٌ طبيعي لا لَوْم عليه، لكنه عند الله تعالى آيةُ الرِّضا والمحبة للصائم الذي وصفناه آنفاً.

وإنما أقسم ﷺ ـ وهو الصادق المعصوم ـ توكيداً لهذه البشارة، وتفريحاً لأصحابها. وكان أكثر أقسامه بالذي نفسه بيده، وهو ربهُّ ومالك أمره؛ إشعاراً بتقواه ومراقبته، وأنه أعلم بعبده وأقرب إليه من حبل الوريد.

فرحتان عاجلة وآجلة

ثم بشَّر النبيُّ ﷺ ذلك الصائم ببشارتين أخريين، كلتاهما من آثار البشارة العامة السابقة: فرحة عاجلة في ختام كلِّ يوم من أيام صومه، بتمام عبادته وسلامتها وتوفيق الله له فيها، ثمَّ برزق الله له، وإنعامه عليه بالحلال الطيِّب

---

(١) سورة المدثر: ٣١.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الذي يُعينه على عبادة ربِّه والإخلاص له؛ وفرحة آجلة بلقاء ربِّه راضياً مرضيًّا، مُسْتَبشراً بجزائه الذي وعده إيَّاه على لسان نبيِّه ـ دون أن يحسب أو يقدِّر ـ ممَّا «لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلب بشر»(١).

* * * * *

(١) اقتباس من حديث رواه البخاري في كتاب بَدْء الخلق (٣٢٤٤)، ومواضع أخرى، ومسلم في أول كتاب الجنة وصفة نعيمها ٤ : ٢١٧٤ (٢ ـ ٥).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

مدرسة الصِّيام *

٣٠ ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسولُ الله ﷺ أجْوَدَ النَّاس، وكان أجْوَدَ ما يكُونُ في رَمَضان، حيَن يَلْقَاهُ جبريلُ، وكان يَلْقَاهُ في كلِّ ليلةٍ من رمضان، فيُدارِسُهُ القُرآنَ، فلَرَسُولُ الله ﷺ أَجْوَدُ بالخير من الرِّيح المُرْسَلَةِ.

رواه الشيخان، واللفظ للبخاري[(١)]

أصول الإسلام ودعائمه العظمى

بُنيَ الإسلام على خمس: شهادةِ أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً عبده ورسوله، وإقامِ الصلاة، وإيتاءِ الزكاة، وصومِ رمضان، وحجِّ بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلاً[(٢)].

---

* مجلة الأزهر، العدد التاسع، المجلد التاسع والعشرون، رمضان(١٣٧٧).

(١) رواه البخاري في بَدْء الوحي (٦)، ورواه بعد ذلك في الصوم (١٩٠٢)، وفي بَدْء الخلق: باب ذكر الملائكة (٣٢٢٠)، وفي الأنبياء: باب صفة النبيِّ ﷺ (٣٥٥٤)، وفي فضائل القرآن (٤٩٩٧)، وأما مسلم فرواه في كتاب الفضائل (٢٣٠٨).

(٢) اقتباس من حديث رواه البخاري (٨)، ومسلم (١٦) ولفظه عند البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان».

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

هذه أصول الإسلام ودعائمه العظمى، وتؤلِّف كلُّ دعامة منها مدرسة لها مناهجها وحدودها، وأحكامها وآدابها.. ثم تؤلِّف الدعائمُ كلُّها منهاجَ الدين كلِّه، في جملته وتفصيله.

فأما الجملة فقد أشار إليها حديث الشيخين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بِضْع وسبعون ـ أو بضع وستون ـ شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[١].

أعظم ميراث نبويٍّ

وأما التفصيل فقد بيَّنه صلوات الله وسلامه عليه أوفى بيان، منذ أُوحيَ إليه في شهر رمضان ـ الذي أُنزل فيه القرآن ـ إلى أن ودَّع هذه الدنيا، تاركاً لأمته أعظم ميراث نبويٍّ، وأوفى منهاج سماويٍّ، أعجز الأوَّلين والآخرين أن يأتُوا بمثلِه، وأن يجدوا سعادتهم الدنيوية والأخروية في غيره.

أساس الدعائم

ولكلٍّ من هذه الدعائم الخمس ـ ما عدا الأولى ـ ميقاتها الزماني ليس غير، أو الزماني والمكاني معاً.

وأما الدعامة الأولى، فهي أساس الدعائم الأربع ومفتاحها، وقُطبها وعمادها، لا يُوزن عند الله عمل إلا بميزانها، ولن يرضى الله عن عبد إلا إذا امتلأ يقيناً بها، فليس لها إذاً زمان ولا مكان... اللهمَّ إلا قلبٌ سليم ينبضُ بالحقِّ، ولسانٌ قويم ينطق بالصِّدق، ونفسٌ مؤمنةٌ راضية: رَضِيَتْ بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمدٍ ﷺ عبداً لله ورسولاً.

---

(١) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) وقد شرحه المؤلف في «شُعَب الإيمان».

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

اتِّصال الدعائم الخمس بعضها ببعض

ولئن كانت الدعائم الخمس، يتَّصل بعضها ببعض اتِّصالاً وثيقاً، فإنَّ لكلٍّ منها مزايا خاصَّة، وفضائل وأسراراً، وحِكَماً بالغة تُوحي بها أو تشير إليها، وتُعرف من مدرستها ومنهاجها، بمقدار فقه العبد في دينه، وتلقِّيه العلم عن أهله، وإنما النبيُّ ﷺ قاسم، والله يعطي.

لا جَرَمَ أنَّ أعظم الناس حظاً من هذه الفضائل والمزايا: الأنبياء والصِّدِّيقون، والعلماءُ العاملون، على دَرَجاتٍ بينهم.

اختصاص رمضان بإنزال القرآن

وأوَّل ما اختصَّت به دعامة الصيام، أنَّ الله جَلَّت حكمته، وتباركت نعمته، اختار زمانها – قبل أن تكون كتاباً موقوتاً، وفرضاً محتوماً – مبدأً لإنزال كتابه، في ليلة مباركة، هي ليلة القدر، أعظمَ الفضلَ فيها، والإنعامَ بها، حتى جعلَها خيراً من ألف شهر.

الدعامة الروحيَّة الكبرى

عَطَاءٌ جِدٌّ عظيم، وجودٌ من جَوَاد كريم، لا يَقْدر عليه إلا مالك الملك، ومَنْ بيده الخير، وهو على كلِّ شيء قدير.

لا عَجَب بعد هذه الهِبَة الإلهيَّة العُظمى، واستقرار الإسلام بدعائمه الثلاثة الأولى، أن تُفرض الدعامة الروحيَّة الكبرى، شكراً لمولى النِّعم، وذكراً لأجلِّ النِّعم، واحتفالاً كريماً في كلِّ عام، بفاتحة الهُدى والفرقان.

إخلاص لا يشوبه رياء

ومن أجَلِّ ما اختصَّت به هذه الدعامة الروحيَّة: الإخلاص الذي لا يشُوبه رياء، وهو أول درس يتلقَّاه الصائمون في مدرسة الصيام.

وسرُّ هذا الإخلاص الخاص، أنَّ الصيام عبادةٌ سلبيَّةٌ خفيَّة لا يعلمها إلا الله عزَّ وجل، ومن ثمَّ شرَّفها بإضافتها إليه وحده دون سائر العبادات، فقال

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

سبحانه في حديثه القدسي: «كلُّ عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به»[١].

الإيمان بين الصبر والشكر

وإذا كان الإيمان بين الصبر والشكر، كما يشير إلى هذا قوله جلّ ثناؤه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[٢].

وقوله صلوات الله وسلامه عليه: «عَجَباً لأمر المؤمن إنّ أمرَه كلَّه له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إنْ أصابته سرَّاء شكَرَ، فكان خيراً له، وإنْ أصابته ضرَّاء صبَرَ، فكان خيراً له[٣]».

فالصَّائم يتلقَّى في مدرسة الصَّوم كلَّ ضروب الصبر، وكل فنون الشكر، حتى يَشْرُفَ بالعبوديَّة لله وحده، فيكونَ صالحاً لعمارة الأرض، خليقاً برضوان الله عزَّ وجل.

التخلُّق بأخلاق القرآن

وإذا كان شكر كلِّ نعمة بما يناسبها ويتَّصل بها، فَخَليقٌ بمن يشكر هذه المنَّة الكبرى، أن يجمع إلى الفرح بصوم رمضان، تخلُّقه بأخلاق القرآن، فإذا كان يحفظه أو يحفظ منه قدراً، فليتَّخذ من تلاوته ومُدارسته شكراً وذكراً، أما العمل به والتخلُّق بأخلاقه، فذلك جماع الشكر، وأفضلُ الذكر، وكذلك كان هدي أول المسلمين، وقدوة الشاكرين ﷺ.

---

(١) الحديث رواه الشيخان، البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وشرحه أستاذنا الجبالي في المجلد الرابع، ونسينا أن نرجع إلى جدْول الأحاديث فشرحناه في المجلد الرابع والعشرون. (طه) انظر: من أسرار الصوم وآدابه ص٣١٢.

(٢) سورة إبراهيم:٥، وسورة لقمان: ٣١، وسورة سبأ: ١٩، وسورة الشورى: ٣٣.

(٣) رواه مسلم (٢٩٩٩) عن صهيب بن سنان رضي الله عنه.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

كان ﷺ خلقه القرآن

كان خُلُقُهُ القُرآن[١]، يرضى لرضاه، ويَسْخَطُ لِسَخَطِه.

وكان أحسنَ الناس، وأشْجَعَ الناس، وأجْوَدَ الناس[٢]، ما سُئل شيئاً قط فقال: لا[٣]، إنْ كان عنده أعطى، وإن لم يكن عنده وعد وعداً كريماً. وكان يعطي عطاءَ من لا يخاف الفاقة، في حين يعيش في نفسه وأهله عيش الفقراء، حتى ليمكثَ الشهر أو الشهرين لا يوقد في بيته نار، إن هو إلا التمر والماء!.

جودٌ ربانيٌّ

كان جوده قبل أن يُبعث كرماً إنسانياً، فلمَّا أكرمه الله بالرسالة، أصبح جوده كرماً ربانياً، ومَنْ أوْلى من رسول الله ﷺ، بأن يتخلَّق بأخلاق مولاه؟! فإذا جاء شهر التنزيل، فمِن دونه البحر فيضاً وصفاء، بل مِن دونه الريح انطلاقاً ورخاء.

نماذج من الجود النَّبويِّ

ومن جوده بالخير صلوات الله وسلامه عليه: تعليمُ الجاهلين، وهداية الضَّالِّين، وإخراج النفوس من ظلماتها، وإحياء القلوب بعد موتها، في غير كُلْفةٍ ولا منَّة، بل بالحكمة والموعظة الحسنة. وذلك من آثار فضلِ اللهِ عليه ورحمته، ولاسيِّما في هذا الشهر الكريم.

---

(١) روى الإمام مسلم (٧٤٦)، وأحمد في «المسند» ٦ :١٦٣(٢٥٣٠٢) عن سعد بن هشام، قال: سألت عائشة فقلت: أخبريني عن خلق رسول الله ﷺ؟ فقالت: كان خلقه القرآن. وإسناده صحيح على شرط الشيخين

(٢) في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال: «كان رسولُ الله أحسَنَ الناس، وأشجع الناس، وأجْوَد الناس » أخرجه البخاري (٢٨٥٧) في الجهاد، ومسلم (٢٣٠٧) في الفضائل.

(٣) في الصحيحين عن جابر قال: ما سُئِلَ رسولُ الله ﷺ شيئاً فقال: لا. أخرجه البخاري (٦٠٣٤) في الأدب، ومسلم (٢٣١١) في الفضائل.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عرض القرآن ومدراسته

ومن هذا الفَضْل أن يلقاه الرُّوح الأمين في كلِّ ليلة من لياليه، فيدارسه القرآن فيه، ويعرضه كل منهما مرة في كل عام، حتى إذا كان رمضان الأخير كانت المعارضة مرتين، إيذاناً بانتقاله إلى الرفيق الأعلى صلوات الله وسلامه عليه.

دروس يتلقَّاها الصائمون

ألا إنَّ الجودَ عامة، وفي رمضان خاصَّة، وتلاوةَ القرآن ومدارسته، وتزاورَ المحبِّين في الله، وشكرَ المُنْعِم على ما أوْلاه، والتعاونَ على البرِّ والتقوى، كلُّ أولئك من الدروس التهذيبيَّة القيِّمة، التي يتلقَّاها الصَّائمون في مدرسة هذا الشهر العظيم، ولكنْ مَضَتْ سُنَّة الله تعالى، ألاَّ ينفع عالماً بعلمه، حتى يكون به من العاملين.

* * * * *

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

استدارة الزمان *

٣١ ـ عن أبي بكرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض؛ السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعةٌ حرم؛ ثلاثٌ متواليات: ذو القَعدَة، وذو الحجَّة، والمُحرَّم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان». رواه الشيخان(١).

المفردات:

يُطلق الزمان: على قليل الوقت وكثيره، والمراد هنا: السنة القمرية بدليل السياق، واستدارة الزمان: دورانه وعودته إلى سيرته الأولى، منذ خلق الله السموات والأرض، وقدَّر القمرَ منازل.

والأشهرُ الحُرُم: واحدها حَرَام، كسَحَاب، من الحُرمة؛ لأنَّ الله فرض احترامها وتعظيمها على لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وتواتر ذلك عن العرب قولاً وعملاً، وإن أخلّوا به بعد، اتِّباعاً لأهوائهم، وانقياداً لشهواتهم، على ما يأتي بيانه.

ومضر: قبيلة عظيمة من قبائل العرب، تنسب إلى أبيها، وهو الجد الثامن

---

* مجلة الأزهر، العدد الأول، المجلد السادس عشر، سنة (١٣٦٤).

(١) أخرجه البخاري (٤٤٠٦) في المغازي، ومسلم (١٦٧٩) في القسامة.

وفي الأصل ذكر الحديث من طريق أبي هريرة. والصواب ما صحَّحته. وأبو بكرة هو نُفيع بن الحارث بن كَلَدَة الثقفي، وقيل: اسمه مَسْروح، كنَّاه النبيُّ ﷺ لتدلّيه ببكْرة من الطائف، توفي ٥١هـ. كما في «الكاشف» (٥٨٦٩).

الجديد و حصري NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

عشر للنبيِّ ﷺ. وإنما أُضيف رجبٌ إليها؛ لأنها كانت أشد القبائل استمساكاً بتحريمه. ويُقال: إنّ ربيعة كانت تحرم رمضان وتسمِّيه رجب، فأبطل ﷺ هذه التسمية، وقضى ببيانه على هذا الزعم.

* * * * *

حجة الوداع

في السنة العاشرة من الهجرة أُذِّن في الناس أنَّ رسول الله ﷺ خارج إلى الحج. فما كاد هذا النبأ ينتشر حتى أقبل الناس في المدينة ألوفاً ألوفاً، من كل حَدَب يَنْسلون، وحتى ضُربت الخيامُ حول المدينة لمئة ألف أو يزيدون؛ جاؤوا جميعاً يلبُّونَ دعوة نبيِّهم، ويأتمُّون به في حجِّهم، يحدُوهم إيمانٌ خالص، وتملأ نفوسهم غبطةٌ صادقة. ولخمسٍ بقين من ذي القعدة خرج صلوات الله وسلامه عليه لحجة الوداع، التي لم يحج بعد الهجرة غيرها[١].

خطبته ﷺ في حجة الوداع

وفي وسط هذه الجموع الحاشدة، ألقى خطبته الجامعة الخالدة، التي قرَّر فيها أُسُساً من الفضائل، ونَبَذَ فيها أصولاً من الرذائل، وطرح فيها بِدَعاً من منكرات الجاهلية الأولى، وأبان فيها حقوقَ الله، وحقوق عباده، ووطَّد فيها قاعدة المساواة بين الناس، وأنهم جميعاً سواسيةٌ كأسنان المشط، لا فضل

(١) وأما قبل الهجرة، فقد روى الثقات أنه كان يحجُّ كلَّ عام. قالوا: وإذا كانت قريش تحجُّ كلَّ عام وتفخر بذلك، وهي على غير دين، فلا ريب أنه صلوات الله عليه أحرص على الخير منهم. (طه).

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

شبكة الألوكة
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

لعربي على عجمي إلا بالتقوى، وأنَّ المسلمين إخوة لا يحلُّ لمسلم من أخيه إلاَّ ما أعطاه عن طيبِ نفس، ووصَّى فيها بالنساء خيراً. وكان شطراً منها هذا الحديث الذي رواه الشيخان[١]. وهو يشتمل على أمرين عظيمين: إبطالِ بدعة النَّسيء، وكانت فاشيةً في العرب، وفضلِ الأشهر الحرم.

ضلالة النَّسيء

أما النَّسيء فهو شرعةٌ جاهليةٌ مبتدعة، غيَّر بها العرب ما ورثوه عن ملَّة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، من تعظيم الأشهر الحرم، وإتمام مناسك الحج، وتحريم القتال فيها.

وكأنَّ الله ـ جلَّت حكمته، ووسع كلَّ شيء علمُه ـ جعلها هدنةً لهم، يأمنون فيها على أنفسهم وأموالهم وتجارتهم وحجِّهم. ولقد بلغ من تعظيمهم لهذه الأشهر أنْ كان الرجلُ يلقى فيها قاتلَ أبيه أو أخيه فلا يهيجه ولا يمسُّه بأذى.

فلمَّا طال عليهم الأَمَد، وكانت معيشتهم على الصَّيْد والحروب وشنِّ الغارات، والأخذ بالثأر، شقَّ عليهم الكفُّ عن ذلك ثلاثة أشهر متوالية. فزيَّنت لهم شياطينهم أن يبدِّلوا في المناسك ويَنْسئوا في حرمة الأشهر، بسوء التأويل واتِّباع الهوى؛ فكانوا إذا جاء المحرَّم وهم محاربون أحلُّوا، وحرَّموا مكانه صَفَراً، فإن احتاجوا إليه أحلّوه وحرَّموا مكانه ربيعاً الأول، وهلمَّ جرًّا. فإذا جاء العام القادم حرَّموا المحرَّم في زعمهم وأحلّوا صفراً.

هكذا كانوا يفعلون حتى استدار التحريم على شهور السنة كلها. وقد

---

(١) شطر الشيء نصفه، وجزؤه. ومنه في حديث الإسراء: «فوضع عني شطرها» أي: جزأها. وقد روى الخطبة كلها أصحاب السيرة، واستشهد بها الأستاذ الكبير مدير هذه المجلة، وعلق عليها تعليقاً حسناً. انظر آخر المجلد الرابع عشر (طه).

الجديد و طرح NEW & EXCLUSIVE

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يزيدون في السنة أحد عشر يوماً، أو خمسة عشر يوماً أو شهراً في بعض السنين؛ لتوافق السنة القمرية أختها الشمسية، فيقع حجُّهم في وقت معيَّن من السنة، يتفق وأسفارهم ومواسمهم التجارية[1]. وأيًّا ما اختلفوا في النسيء، فقد كانوا يعتدُّون في التحريم بمجرَّد العدد، لا بخصوصية الأشهر المعيَّنة.

وفي هذه الضلالة التي ابتدعوها علاوة على شركهم يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2].

متى استدار الزمان؟

وأكبر الظنّ أنَّ فجر الإسلام ـ أوَّل انبثاقه ـ قد مَحَا ظلمة النَّسيء، فلم يُبقِ لها من أثر، وإنه لم يقع حجٌّ في الإسلام إلا بعد أن استدار الزمان كهيئته يوم خلق الله السَّموات والأرض، فأرسلها الرسول الأكرم صلوات الله وسلامه عليه صَيْحةً في الآفاق مدويّة، بأنَّ النَّسيء قد انمحَى بنور الإسلام، وعاد أمر السنين على ما كان.

وإذا كان الأمر على ما رجّحنا، فقد وافقت حجَّة أبي بكر رضي الله عنه شهر ذي الحجة من السنة التاسعة، كما وافقته حجَّة الوداع من السنة العاشرة،

---

(١) قيل: إنهم تعلموا هذا الكبس من اليهود والنصارى، فإنهم كانوا يفعلونه من أجل أعيادهم. ويرى بعض الباحثين أن التأخير كان نسيء أهل البادية، وأن الكبس كان نسيء أهل الحضر، ولذا كانوا يختلفون في وقت الحج ويتجادلون فيه. وبعد، فهذه خلاصة آراء كثيرة في النسيء ذكرها المؤرخون والمحدثون. انظر: «فتح الباري» في كتاب التفسير، و«بلوغ الأرب في أحوال العرب» للآلوسي (طه).

(٢) سورة التوبة: ٣٧.

الجديد و حصري NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

خلافاً لمن زعم أنها كانت في شهر ذي القعدة. أنى هذا؟! وكيف يصح حج الصدِّيق إذن؟! بل كيف يسميه الله الحج الأكبر، ويؤذن فيه ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾(١)؟!.

إنا لا نشكُّ مثقالَ ذرَّة في أنَّ العليم الخبير قد أنبأ نبيَّه صلوات الله عليه عوْدةَ الزمان إلى وضعه الأول، ثم نبَّأ به ﷺ أمته في حَجَّة الوداع، أجلّ موسم شهده العالم الإسلامي، ويشهده حتى يقوم الناس لرب العالمين.

آية من آيات النبوة

وفي هذا النبأ الذي طابق ما حققه علماءُ الفَلَك، وأثبته أئمةُ التاريخ آيةٌ من آي النبوة، وحُجَّةٌ من حجج الرسالة ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾(٢).

فضل الأشهر الحرم

وفي تخصيص هذه الأشهر بالذكر دليلُ فَضْلها على ما سواها؛ فالحسنةُ تُضاعف فيهنَّ، وكذلك السيئة.

قال قتادة في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ﴾(٣) : إنَّ الظلمَ في الأشهر الحرم أعظم خطيئةً وَوِزْراً [من الظلم] فيما سواها، وإنْ كان الظلمُ على كلِّ حال عظيماً، ولكنَّ الله يُعَظِّم من أمره ما شاء(٤).

وقال: إنَّ الله اصْطَفى صفايا من خلقه؛ اصْطَفى من الملائكة رسلاً، ومن

---

(١) سورة التوبة: ٣.

(٢) سورة آل عمران: ١٧٩.

(٣) سورة التوبة: ٣٦.

(٤) تفسير الطبري ١١ :٤٤٥

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الناس رسلاً، واصطفى من الكلام ذِكْرَهُ، واصْطَفى من الأرض المساجدَ، واصْطَفى من الشهور رمضانَ والأشهُرَ الحُرُمَ، واصْطَفى من الأيام يومَ الجُمُعة، واصطفى من الليالي ليلةَ القدر، فعظِّموا ما عظَّم الله؛ فإنَّما تُعظَّم الأمورُ بما عظَّمها الله به عند أهل الفهم وأهل العقل[(١)].

مناط التفضيل في الأشياء

وإليه ـ جلَّت حكمتُه ـ يُردُّ تفضيل مَنْ شاء وما شاء، من الملائكة والناس، والأزمنة والأمكنة، فلولا تخصيصُه تعالى وتفضيلُه لاسْتَوت الذوات والأعيان، والأمكنة والأزمنة.

وهو ـ سبحانه ـ لا يختصُّ شيئاً بفَضْل إلا لمعانٍ خاصَّةٍ به، وخصائص حقيقة به، تحيط بها حِكَمٌ بالغة، وأسرار عالية، إذا عجزنا عن إدراكها رددنا إليه علماً.

وهو ـ تعالى جَدُّه ـ أعلم بمواقع اختياره ومواطن رضاه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾[(٢)] فليسعنا ما وَسعَ عمر رضي الله عنه ـ وناهيك به[(٣)] ـ إذ يقبِّل الحجر الأسود، ثم يردُّ أمره إلى الله ورسوله، فيقول: «أما والله إني لأعلم أنك حجرٌ لا تضرُّ ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسولَ الله ﷺ يقبِّلك ما قبلتك»[(٤)].

وزعم قوم أن تفضيل بعض الأشياء على بعض، إنما هو لما يُضاف إليها من نحوِ علم وعمل، وذكر وعبادة، وإلا فذواتها كلّها بمنزلةٍ سواء. وقد نقض

---

(١) تفسير الطبري ١١ :٤٤٥، و تفسير ابن كثير ٤ :١٦٥٦.

(٢) سورة القصص: ٦٨.

(٣) ناهيك به من رجل أي: كافيك. كأنه بجده وغنائه ينهاك عن تطلُّب غيره.

(٤) أخرجه البخاري (١٥٩٧)، ومسلم (١٢٧٠).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

هذا الزعم من أساسه ابن القيم في أوّل كتابه «زاد المعاد»[١].

نظام الأشهر الحرم

وإنما جعل الله الأشهر الحرم على هذا الوضع؛ ثلاثة سَرْدٌ، وواحد فردٌ؛ لأداء مناسك الحج والعمرة، وتقليل شرور القتال وتخفيف أوزاره، وتأمين السُّبُل وتيسير المنافع، لقوم أَلِفوا الغارة والحرب، فحرَّم قبل أشهر الحج ذا القعدة؛ لأنهم يقعدون عن القتال فيه، وحَرَّم شهرَ ذي الحجَّة؛ لأنهم يحجُّون فيه ويؤدُّون المناسك، وحَرَّم بعده شهراً؛ ليرجعوا إلى بلادهم آمنين، وحرَّم رجب في وَسَط الحَوْل لزيارة البيت والاعتمار به، لِمَنْ يَقدم من أقْصى الجزيرة ثمَّ يعود إلى وطنه آمناً.

ونرى حكمةً أخرى ذات شأن: أن يبدأ العامَ، ويتوسَّطه، ويختمه، ثلاثةُ مواسم من أجلِّ مواسم الخير والبر؛ لينشط كَسِلٌ، ويتنبَّه غافلٌ، ويتوبَ مُسْرِفٌ إلى الله عز وجل.

وكان الخَتْم شهرَيْن، فَسْحاً للأهبة، ومدًّا للفرصة؛ ليذهب زوَّار الله ويؤوبوا، وهم هادئون مطمئنون، قد أرضَوْا ربَّهم، وشهدوا منافع لهم، وحقَّقوا آمال الإسلام فيهم؛ وليدرك مَنْ فاتَتْه هذه الحظوة مثوبَتها وأجرها، بإخلاص نيَّته وصدق توبته، وإحسان عمله في هذا الموسم الكريم. فما أبلغ الحكم، وما أجلَّ النِّعَم، وما أعظمَ أجر العاملين.

* * * * *

---

(١) زاد المعاد ١: ٥٣.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

شهران لا ينقصان *

٣٢ ـ عن أبي بَكْرَةَ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «شهران لا ينقصان، شهرا عيد: رمضان وذو الحجَّة»(١).

٣٣ ـ وعن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «إنَّا أُمةٌ أميَّة، لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا». يعني مرةً تسعة وعشرين، ومرةً ثلاثين(٢). رواهما الشيخان، واللفظ للبخاري.

أكرم الشهور عند الله تعالى

أكرم الشهور عند الله شهران: شهر رمضان، وشهر ذي الحجَّة(٣). جعلهما الله أعظمَ مواسم الخير، وأجلَّ مغانم البرِّ، وَفَضَّلهما على سائر الشهور تفضيلاً...جعلهما كليهما ميقاتَيْن لرُكنَيْن من أركان الإسلام: الصوم، وحج البيت الحرام؛ واصْطَفَى من كلٍّ منهما ثُلثاً، فضَّله على سائر الليالي، والأيام.

العشر الأخير من رمضان

فأما ثُلث رمضان، فهو العشر الأخير منه، ولياليه أفضل ليالي العام كلِّه،

---

* مجلة الأزهر، العددان ١٩ و ٢٠، المجلد السادس والعشرون، (١٣٧٤ = ١٩٥٥).

(١) أخرجه البخاري (١٩١٢)، ومسلم (١٠٨٩) كلاهما في كتاب الصيام.

(٢) أخرجه البخاري (١٩١٣)، ومسلم (١٠٨٠) كلاهما في كتاب الصيام.

(٣) كتبنا في هذا الحديث إجابة لرغبة أستاذنا الشيخ عبد الرحمن حسن، وكيل الجامع الأزهر سابقاً (طه).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وحَسْبُك أنَّها شُرِّفَتْ بليلة القدر، وليلةُ القدر خيرٌ من ألف شهر، وهي الليلة المباركة التي أُنزل فيها القرآن، ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[1].

التماس ليلة القدر

وقد ندَبَ النبيُّ ﷺ أمته أن يلتمسوها في الوِتر من هذه الليالي العشر، وكان صلوات الله وسلامه عليه يجتهد في رمضان ما لا يجتهد في غيره، ويجتهد في هذا العشر الأخير منه ما لا يجتهد في غيره، وكان يعتكف في مسجده هذا الثلث الأخير من كلِّ رمضان، فلمَّا كان العام الذي انتقل فيه إلى الرفيق الأعلى اعتكف ثُلثَيه: الثاني والثالث منه.

عيد الفطر

وجعل الله لأمة محمد ﷺ ختامَ هذا الثلث الأخير عيداً كريماً هو عيد الفطر، فَرَضَ عليهم فيه أن يفطروا؛ تحقيقاً لبشارة النبيِّ ﷺ لمن صام رمضان إيماناً واحتساباً بأنَّ له فرحتين يفرحها: إذا أفطر فرح، وإذا لقِيَ ربَّهُ فرح بصومه، وما أجلَّ الفرحة الأخرى وأعظمها...

أحبُّ الأيَّام إلى الله

وأما ثُلُث ذي الحجَّة فهو العَشر الأوَّل منه، وحَسبُك أنَّ أيامه أحبُّ الأيام إلى الله تعالى؛ بشهادة الصَّادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه.

روى البخاريُّ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أيَّامٍ العملُ الصالح فيها أحبُّ إلى الله من هذه الأيّام ـ يعني أيامَ العشر ـ قالوا: يا رسول الله، ولا الجهادُ في سبيل الله؟! قال: ولا الجهاد في سبيل الله، إلاّ رجلٌ خرج بنفسه ومالِه، ثمَّ لم يرجع من ذلك بشيء!!»[2].

---

(١) اقتباسٌ من الآية ١٨٥ من سورة البقرة.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب العيدين (٩٦٩)، وأبو داود في الصوم (٢٤٣٨)، =

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

خلاصة الأشهر الحرام

وكفى هذه الأيام شَرَفاً أنْ جعلها الله تعالى خُلاصة الأشهر الحرُم؛ فيها موعدُ الهجرة إلى بيته، والجهادُ في مَرضاتِه، وتعظيمُ شعائره وحُرُماته؛ وفيها يوم النحر أعظم الأيام على الإطلاق، كما أنَّ ليلة القدر أعظم الليالي على الإطلاق؛ وفيها يوم عرفة، وهو يلي يوم النَّحر في الفضل[١]، وقد صحَّ أن صيامهُ يكفِّرُ ذنوب سنتين[٢]، وما من يومٍ يَعتقُ الله فيه الرقاب أكثر منه في يوم عرفة، وفيه يباهي الله ملائكته بأهل الموقف؛ وقد جاؤوا شُعثاً غُبراً خاشعين لله، راجين فضْلَه ورضَاه[٣].

والترمذي (٧٥٧)، وابن ماجه (١٧٢٧) واللفظ لأصحاب السنن الثلاثة، أما لفظ البخاري فهو: «ما العمل في أيام العشر أفضل من العمل في هذه» قالوا: ولا الجهاد؟ قال: «ولا الجهاد، إلا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله، فلم يرجع بشيء». وسيأتي شرح المؤلف له بعنوان: «أحبُّ الأيام إلى الله» ص٣٤١.

(١) بل قد صحَّ أنه أفضل أيام الدنيا فيما خرّجه ابن حبان ٩: ١٦٤ (٣٨٥٣) من حديث جابر مرفوعاً: «.. وما من يوم أفضل عند الله من يوم عرفة».

وعلَّق أبو زكريا النَّوويُّ رحمه الله في «المجموع» ٦: ٣٨١ عن البغوي وغيره: أن يوم عرفة أفضلُ أيام السنة، وعلى المُرجَّح من المذهب: لو علَّق طلاقَ زوجته فقال: أنت طالق في أفضل أيام الدنيا: طَلَقَتْ يومَ عرفة.

(٢) روى مسلم في «صحيحه» (١٩٦) من حديث أبي قَتادة رضي الله عنه، أن النبيَّ ﷺ قال: «صيام يوم عرفة أحتسب على الله تعالى: أن يُكفِّر السنة التي بعده، والسنةَ التي قبله».

(٣) روى مسلم (١٣٤٨)، والنسائي (٣٠٠٣)، وابنُ ماجَهْ (٣٠١٤) عن عائشة رضي الله عنها، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مامن يومٍ أكثرَ من أن يُعتِق الله فيه عبيداً من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو، ثم يباهي بهم الملائكة، فيقول: ماأراد هؤلاء؟».

وروى أحمد ٢ :٣٠٥(٨٠٤٦)، وابن حبان في صحيحه (٣٨٥٢)، والحاكم ١ :٤٦٥ وقال: صحيح على شرطهما عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله =

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

إكمال الدين وإتمام النعمة

وإذا كان الله جَلَّتْ آلاؤه، قد أنعم على الأمة المحمديَّة بإنزال القرآن في ليلة القدر، فَلَقد أنعم عليها إذْ بشَّرها بإكمال دينه، وإتمام نعمته، في يوم عرفة[١].

روى البخاريُّ وغيره أنَّ يهودياً جاء إلى عمر رضي الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين، آيةٌ تقرءونها في كتابكم، لو علينا معشرَ اليهود نزلت؛ لاتَّخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: أيُّ آية؟. قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِينًا﴾[٢]، فقال عمر: إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه، والمكان الذي نزلت فيه؛ نزلت على رسول الله ﷺ بعرفة يوم جمعة، ونحن واقفون معه[٣]، فأُفحِمَ اليهود عليهم لعنة الله، بأنَّ الله تعالى أنزلها في عيدين لا في عيد واحد[٤].

عيد النَّحر

وإذا كان الله سبحانه قد تفضَّل على المؤمنين بعيد الفطر في ختام العشر

يباهي الملائكة بأهل عرفاتٍ يقول لهم: انظروا إلى عبادي جاؤوا شُعْثاً غُبْرا ».

(١) قال الحافظ ابن رجب في «لطائف المعارف» ص ٣١٨: «وإكمال الدين في ذلك اليوم حصل من وجوه منها: أنَّ المسلمين لم يكونوا حَجُّوا حجَّة الإسلام بعد فرض الحج.. ومنها: أنَّ الله تعالى أعاد الحجَّ على قواعد إبراهيم عليه السلام، ونفى الشِّرك وأهله.. وأما إتمام النعمة: فإنما حصل بالمغفرة، فلا تتمُّ النعمة بدونها..، ومنها: أنه عيدٌ لأهل الإسلام، كما قاله عمر وابن عباس».

(٢) سورة المائدة: ٣.

(٣) أخرجه البخاري (٤٥)، ومسلم (٣٠١٧).

(٤) بسط هذا البحث ووفَّاه بما لم يسبق إليه صاحب «زاد المعاد» [١: ٦١] في أوله، فتزوَّد منه (طه). وقد شرح المؤلِّف هذا الحديث في عيد الدستور. انظر: ص٧٦٢ ـ ٧٦٦.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الأخير من شهر رمضان؛ فقد تفضَّل عليهم بعيد النحر في ختام العشر الأول من شهر ذي الحجة.

ولِعظيم فَضْل هذه الأيام ذهب أكثر السَّلف والخَلَف إلى أنه تعالى أقسم بلياليها تشريفاً لها، إذ قال: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾[١] وقيل: إنها العشر الأخير من رمضان، وقيل: هي العشر الأول من شهر الله المحرَّم[٢].

وجملة القول: أنَّ الله اصْطَفى من شهور العام شَهْرَي الصيام والحج، واصطفى من الليالي أواخر الأول، كما اصْطَفى من الأيام أوائل الآخر ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾[٣].

فضل ثابت

هذا الفضْل الثابت لهذين الشَّهرين الكريمَيْن، بشهادة المعصوم صلوات الله عليه، لا يعتريه نقصٌ ولا ضَعف، تمَّت عِدَّة كلٍّ منهما معاً ثلاثين يوماً، أو نَقُصت عدَّة كلٍّ منهما، فكانت تسعةً وعشرين يوماً، أو تمَّت عِدَّة أحدهما دون عِدَّة صاحبه.

وإذاً فمن ضَعف التأويل أن يُقال: إنَّهما لا ينقصان في عدَّتهما معاً، فلا يكونان كلاهما تسعة وعشرين، وأضعف من هذا وأسخف أن يُقال: إنهما أو إنَّ أحدَهما ثلاثون دائماً؛ فالحسُّ يدفع هذا ويُكذِّبه!.

---

(١) سورة الفجر: ١ ـ ٢.

(٢) قال ابنُ ناصر الدين الدمشقي في «مجلس في فضل يوم عرفة» ص ٢٨: «والأكثرون على أنَّ الفجرَ فجرُ يوم عرفة، والعشرَ عشرُ ذي الحجة.. والأخبار مشتهرة بتفضيل عشرِ ذي الحجَّة على العَشْرَيْن المذكورَيْن؛ لأنَّ فيه يومَ التَّروية، ويومَ عرفة، ويومَ النحر».

(٣) سورة القصص: ٦٨.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ولقد صام رسول الله ﷺ تسعَ رمضانات؛ إذْ كان فَرضُ الصِّيام في شعبان في السنة الثانية من الهجرة، وكان صيامه تسعة وعشرين أكثر من صيامه ثلاثين، حتى قيل: إنَّ صيامه ثلاثين كان عامين ليس غير. ويأبى الله ـ كسُنَّته مع نبيِّه دائماً ـ إلا أن يُصدِّقه بالعمل قبل القول، لِيزيدَ الذين آمنوا إيماناً، ويزيدَ الذين اهتدَوْا هُدىً.

هديٌ نبويٌّ عَمَليٌّ

ومن الهدي النبويِّ العَمَلي ما جاء في قصَّة «التحريم» المشهورة، التي انتهت بحلفه ﷺ: ألاَّ يدخل على أزواجه شهراً؛ من شِدَّة مَوْجِدَته عليهنَّ، حين عاتَبَه اللهُ عزَّ وجل. فلمَّا مَضَت تسعٌ وعشرون ليلةً دخل على عائشة فبدأ بها، فقالت له: يا رسول الله، إنَّك كنت أقسمت ألاَّ تدخلَ علينا شهراً! وإنَّما أصبحتَ من تسعٍ وعشرين ليلة، أعدُّها عدًّا!! فقال: الشهر تسعٌ وعشرون، وكان ذلك الشهرُ تسعاً وعشرين ليلة[١].

يقرِّر بهذا الصَّنيع صلوات الله وسلامه عليه أنَّ أحكام الشريعة الغرَّاء لا تتأثَّر ولا تتغيَّر بنقص العِدَّة في غير هذين الشهرين العظيمين، فأولى ألاّ تتأثَّر ولا تتغيَّر فيهما؛ وهما شهرا عيدَيْن كريمَيْن، لا جَرمَ أنَّ ناقصَ العدَّة منهما وكاملَها سواءً في الحجِّ والصِّيام وسائر الأحكام، كما هما سواءٌ في الفضل والجزاء والرضوان، ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾[٢].

مَبْنى الشريعة على الأمور الظاهرة

وثَمَّ حكمةٌ جليلة أشار إليها صاحب «حُجَّة الله البالغة»[٣]، ولم أجد من تنبَّه

---

(١) رواه مسلم (١٠٨٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) سورة النساء: ٧٠.

(٣) ٢ :٧٥١ في أحكام الصوم.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

لها سواه. أشار رحمه الله إلى أنَّ مبنى الشرائع على الأمور الظاهرة عند الأُميين دون التعمُّق في حساب النُّجوم، وذلك قوله صلوات الله عليه: «إنّا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب»[(١)]، وقوله صلوات الله عليه وسلامه: «شهرا عيدٍ لا ينقصان»، قيل: لا ينقصان معاً، وقيل: لا يتفاوت أجرُ ثلاثين، وتسعة وعشرين. وهذا الأخير أقْعدُ بقواعد الشَّرع، كأنه سَدَّ أن يخطر ذلك في قلب أحد.

ومن المقاصد المهمَّة في باب الصَّوم سدُّ ذرائع التعمُّق، وردُّ ما أحدثه المُتَعَمِّقون، فلقد كانت هذه الطاعة شائعةً في اليهود والنصارى ومتحنِّثي العرب، بل كانت ولا تزال شائعة في الوثنيين والهنود إلى اليوم، فتعمَّقُوا وابتدعوا وزادوا ونقصوا، واتبَّعوا أهواءهم!! فحذّر صلوات الله وسلامه عليه أمَّته أن يزيدوا أو يتكلَّفُوا؛ إذ بيَّن أحسنَ بيان وأجْمَلَه، بأنَّ شَهْرَي الصيام والحج ـ كلاهما من العبادات العريقة في القِدم ـ كاملان في الفضْل والمثُوبة، وإن نَقَصت عِدَّتهما، فليسا بحاجةٍ إلى تكملة أو زيادة؛ فإنَّ التكملة من عند العبَّاد غلوٌّ في العبادة وافتراءٌ على المعبود، وذلك منشأ الضلال وسبيل النكال، والعياذ بالله تعالى».

وهذه الإشارة التي أشار إليها صاحب «حجة الله البالغة»[(٢)] ـ وتصرَّفنا فيها بالبسط والإيضاح ـ أثرٌ من آثار بَصِرَه بالسنَّة وفقهه في الدين، و«من يُرِدِ الله به خيراً يفقهه في الدين»[(٣)].

رؤية الهلال وتحرِّيها بمختلف الطرق

ذلك، ولا نرى حَاجةً إلى البحث في رؤية الهلال، وتحرِّيها بمختلف

---

(١) رواه البخاري (١٩١٣) ومسلم (٨٠٨٠).

(٢) هو الإمام ولي الله الدهلوي المتوفى سنة ١١٧٦ رحمه الله تعالى.

(٣) اقتباس من الحديث الذي رواه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الطرق؛ فقد كفانا مؤونة هذا البحث علماء أجلاَّء، وفي طليعتهم أستاذنا الأكبر[١] في أحاديثه: «وإذا كانت الشريعة لم تفرض على النَّاس أكثرَ من تحرِّي الهلال برؤيته بالعين المُجرَّدة...رحمةً بهم، وتخفيفاً عليهم، فإنَّ ذلك لا يمنع أن تُستخدم تلك الوسائل التي تُسهِّل رؤيته، والتثبُّت منه، ما دامت موفورةً ميسورةً»، ومن الله العونُ والهداية.

* * * * *

(١) هو العلامة الشيخ محمد الخضر حسين رحمه الله تعالى.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أحبُّ الأيام إلى الله*

٣٤ ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ أيَّام العملُ الصَّالح فيها أحبُّ إلى الله من هذه الأيام ـ يعني أيَّام العَشْر ـ قالوا: يارسول الله، ولا الجهادُ في سبيل الله؟! قال: ولا الجهادُ في سبيل الله، إلاّ رجلٌ خرج بنفسه وماله، فلم يرجع من ذلك بشيء». رواه البخاري[(١)].

كَثْرة شُعَب البر

من محاسن هذا الدين أنه لم يدع خِلَّةً من خِلال الخير والبرِّ إلاّ رغَّب بها وحضَّ عليها، ثم يَسَّـر سبيلَها، وبشَّر بجميل عاقبتها، وكريم مثوبتها؛ كما لم يَدَع خَصْلَةً من خِصال الشرِّ والإثم إلا نفَّر منها وكرَّه النفوس إليها، ثم عسَّر في سبيلها وتوعَّد عليها.

مواسم كريمة

ولمَّا كانت شُعب البرِّ ـ وهي أكثر من أن تُحصى ـ أجلُّ من أن ينهض بها أحدٌ من الناس بالغاً من الفضل ما بلغ، أعدَّ الله لعباده مواسمَ كريمة، وأتاح فُرصاً مباركة، في أزمنة محدَّدة، وأيام معدودة، ضاعف لهم فيها الحسنات أضعافاً كثيرة؛ ليُسارعوا فيها إلى الخيرات، ويتَّجروا فيها بصنوفِ القُرَب والطاعات، فيعوِّض مُقصِّرٌ فيها ما فاته، ويُدرك مُؤَمِّل ما تمنَّاه.

---

* مجلة الأزهر، العدد العاشر، المجلد الثامن عشر، شوال (١٣٦٦).

(١) أخرجه البخاري (٩٦٩) في العيدين: باب فضل العمل في أيام التشريق.

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

من آثار رحمته بعباده

وحكمةٌ أخرى بالغة، وهي أنّ الله سبحانه علم أنَّ في عباده ضعفاً وعجزاً ومَيْلاً إلى الكسل والهوى والشهوة، فمنحهم هذه المواسم جَبْراً لضعفهم، وعوناً لعجزهم، وإرغاماً لشيطانهم؛ وذلك أثر من آثار رحمته بهم وفضله عليهم.

ومن فَضْله جلَّت آلاؤه أن فرَّق هذه المواسم التي اصْطَفَاها، في خلال العام كلِّه، ترغيباً للعاملين، وتنشيطاً للخاملين؛ لئلا تضعف الهمم، وتفترَ العزائم، ببعد الشُّقَّة وطول الزمن.

أفضل أيام الدنيا

ومن هذه المواسم التي اختارها الله لعباده، ودعاهم إلى اغتنام العمل فيها، أيّام العشر الأُوَل من شهر ذي الحجة؛ جعلها الله أفضل أيّام الدنيا، وأحبَّ الأزمان إليه، وأدناها إلى رضوانه وكرمه؛ العمل فيها أعظم الأعمال، والأمل فيها أقربُ الآمال، والحسنةُ فيها بسبعمئة ضعف إلى أضعافٍ كثيرة لا يعلمها إلاَّ الله عزَّ وجل: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

وإذا كان يوم الجمعة ـ وهو موسم الأسبوع ـ خيرَ يومٍ طلعت عليه الشمس ـ كما ثبت في صحيح مسلم[2] وغيره ـ فإنَّ كلَّ يومٍ من هذه الأيام العشر خيرٌ من يوم الجمعة الذي هو ليس فيها، كما يدلُّ ذلك على إطلاق الحديث، وكما رُوي عن ابن عمر رضي الله عنهما، وهو مَنْ هو اتِّباعاً للسنة واقتفاءً للآثار، أنه

---

(١) اقتباس من الآية ٢٦١ من سورة البقرة.

(٢) أخرجه مسلم (٨٥٤) في الجمعة، ولفظه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خُلق آدم، وفيه أُدخل الجنة، وفيه أُخرج منها».

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

قال: «ليس يومٌ عند الله أعظم من يوم الجمعة، ليس العشر؛ فإنَّ العمل فيها يعدل عمل سنة»[١].

تفضيل العمل في أيام العشر على الجهاد

بل إنَّ تفضيل العمل فيها على الجهاد في سبيل الله ـ وهو ذِرْوة الإسلام ومناره ـ أعظمُ دليل على فَضْل هذه الأيام على الدَّهر كلِّه دون جدال أو استثناء؛ اللهمَّ إلا ضرباً واحداً من ضروب الجهاد لإعلاء كلمة الله عزَّ وجل، هو أن يخرج المجاهد مُخاطراً بنفسه وماله، يبتغي الشهادة، ويرجو الحُسنى وزيادة، ثم لا يرجع بنفسه ولا ماله؛ هذا النوع وحده من أنواع الجهاد ـ وهو أعلاها شأناً وأجلّها مكاناً ـ هو الذي يعدل العمل في عشر ذي الحجة أو يزيد عليه؛ على أنَّ العمل في هذه الأيّام جهادٌ للنفس والهوى، وناهيك منه[٢].

وحَسْبُكَ في فضل الجهاد الذي اقترن بهذه الأيام فساوته أو أرْبَتْ عليه، ما جاء في الصحيحين أنَّ رسول الله ﷺ سُئل عما يعدل الجهاد في سبيل الله فقال: «لا تستطيعونه»، فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثاً، كلّ ذلك يقول: «لا تستطيعونه»؛ ثم قال: «مَثَلُ المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم، القانت بآيات الله لا يفتُرُ من صلاة ولا صيام حتى يرجع»[٣].

---

(١) قال ابن رجب في «لطائف المعارف» ص٤٦٠: وروى ثُوير بن أبي فاختة ـ وفيه ضعف ـ عن مجاهد، عن ابن عمر قال: «ليس يوم أعظم عند الله...» وهو يدل على أنَّ أيام العشر أفضل من يوم الجمعة الذي هو أفضل الأيام.

(٢) يقال: هذا رجل ناهيك من رجل. معناه: أنه بجده وغنائه ينهاك عن تطلُّب غيره (طه).

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٨٥)، ومسلم (١٨٧٨) وانظر شرحه لهذا الحديث تحت عنوان: حيَّ على الجهاد ص٢٧٣ ـ ٢٨٢.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد أقسم الله بها تعظيماً لها فقال عزَّ من قائل: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾[(١)(٢)].

وإنَّما رفع الله قَدْرها، ونوَّه صلوات الله وسلامُه عليه باسمها؛ لأنها خُلاصة الأشهر الحرم، ومَجْمَعُ أمَّهات العبادة وأصولها، ومَوعدُ الهجرة إلى الله والرحلة إلى بيته، والجهاد في مرضاته.

وإذا كان الله اصْطَفى الأشهر الحُرُم وعظَّمها، فقد اصْطَفى منها شهر ذي الحجة وزادَهُ تعظيماً، ثم اختار عشره الأول فزاده شرفاً وفضلاً، فهي بلا ريب خير الأيام، وصفوة العام.

أيُّهما أفضل أيام العشر من ذي الحجة أم ليالي العشر الأخير من رمضان؟

ولا يُعارض هذا ما جاء في فضل ليلة القدر، وأنها كما قال تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾[(٣)] فإنَّ هذا الفَضْل ثابتٌ لأيامها دون لياليها[(٤)].

---

(١) سورة الفجر: ١ ـ ٢.

(٢) كما قال غير واحد من السَّلف والَخلف. وقيل: هي العشر الأخير من رمضان، وقيل: العشر الأول من محرم (طه).

(٣) سورة القدر: ٣.

(٤) قال الحافظ ابن رجب في «لطائف المعارف» ص٤٦٨ـ٤٦٩: «فأما لياليه ـ أي العشر من ذي الحجة ـ فمن المتأخِّرين ـ يريد به ابن القيِّم والله أعلم ـ مَنْ زعم أن ليالي عشر رمضان أفضل من لياليه، لاشتمالها على ليلة القدر، وهذا بعيد جداً. ولو صحَّ حديث أبي هريرة: «قيام كلِّ ليلةٍ منها بقيام ليلة القدر» ـ رواه الترمذي (٧٥٨) وابن ماجه (١٧٢٨) من رواية النَّهاس بن فَهْم عن قتادة، عن ابن المسيب، عن أبي هريرة مرفوعاً. والنَّهاس ضعفوه ـ لكان صريحاً في تفضيل لياليه على ليالي عَشْر رمضان، فإنَّ عَشْر رمضان فضِّل بليلةٍ واحدةٍ فيه، وهذا جميع لياليه متساوية لها في القيام على هذا الحديث، ولكن حديث جابر الذي خرجه أبو موسى المديني: «ولا ليالي أفضل من لياليهن» صريحٌ في تفضيل لياليه كتفضيل =

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

والحقُّ كما قال ابن القيِّم: «أنَّ لياليَ العشر الأخير من رمضان أفضلُ من ليالي العشر من ذي الحجة، وأيَّام عشر ذي الحجَّة أفضل من أيام عشر رمضان، وبهذا البيان يزول الاشتباه»(١).

ومن هنا كانت ليلة القدر أفضل الليالي على الإطلاق، كما أنَّ يوم النحر أفضل الأيام على الإطلاق(٢)، وكفى أن سمَّاه الله تعالى يوم الحج الأكبر(٣)، ويلي يوم النحر في الفضل يوم عرفة(٤)، وقد صحَّ أنَّ صيامه يكفِّر ذنوب سنتين(٥)، وما من يوم يُعتِق الله فيه الرقاب أكثر منه في يوم

أيامه أيضاً. والأيام إذا أطلقت دخلت فيها الليالي تبعاً، وكذلك الليالي تدخل أيامُها تبعاً.

وقد أقسم الله بلياليه، فقال: ﴿وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ وهذا يدلُّ على فضيلة لياليه أيضاً.

والتحقيق ماقاله بعض أعيان المتأخِّرين من العلماء أن يقال: مجموع هذا العشر أفضلُ من مجموع عشر رمضان، وإن كان في عشر رمضان ليلة لا يفضل عليها غيرها، والله أعلم».

(١) زاد المعاد ١ :٥٧.

(٢) روى الإمام أحمد في «مسنده» ٤ :٣٥٠(١٩٠٧٥)، وأبو داود (١٧٦٥) في الحج، والحاكم في «المستدرك» ٤ :٢٢١ وصحَّحه ووافقه الذهبي من حديث عبد الله بن قُرطٍ عن النبي ﷺ أنه قال: «أعظم الأيام عند الله يومُ النحر، ثم يوم القَرِّ» وإسناده صحيح، ورجاله ثقات، والقرُّ هو: حادي عشر من ذي الحجة، سُمِّي بذلك، لأن الناس يقرون فيه بمنى.

(٣) كما في سورة براءة، وقد بعثَ النبيُّ ﷺ علياً ليقرأ صدرها في موسم الحج في السنة التاسعة، وكان أميره أبو بكر رضي الله عنه، وكان التبليغ يوم النحر (طه) وسُمِّيَ يوم الحج الأكبر؛ لأنَّ معظم أعمال الحج ومناسكه فيه.

(٤) ولكن جاء في حديث جابر الذي رواه ابن حبان في «صحيحه» ٩ :١٦٤(٣٨٥٣) عن النبيِّ ﷺ: «وما من يومٍ أفضل عند الله مِنْ يوم عرفة» وهو حديث صحيح، إسناده قويّ. وذهب إلى ذلك طائفة من العلماء، ومنهم من قال: يوم النَّحر أفضل الأيام، لحديث عبد الله ابن قُرْط المتقدِّم. وانظر ما علَّقته ص ٣٣٥.

(٥) كما في الحديث الذي رواه مسلم (١١٦٢)، والترمذي (٧٤٩)، وابن ماجه =

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

عرفة[١]، وفيه يتجلَّى الله على عباده، ثم يباهي ملائكته بأهل الموقف، وقد جاؤوا شُعثاً غُبْراً خاشعين لله، راجين من فَضْله رضاه[٢]؛ ولئن كان يوم النحر يوم الرفادة والزيارة، فإنَّ يوم عرفة يوم التوبة والضَّراعة، والابتهال والطهارة[٣].

سرُّ تخصيص هذه الأيام بهذا الفضل

هذا، وإذا استْبان فَضْلُ هذه الأيام العشر، فإنَّا نحاول بعون الله وتوفيقه أن نبيِّن السِّرَّ في تخصيصها بهذا الفضل، مع يقيننا أنَّ مردَّ هذا التفضيل إليه سبحانه، فهو الذي يُفضِّل مَنْ شاء وما شاء، كما قال جلَّ ثناؤه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾[٤].

ولا بدَّ لنا قبل ذلك أن نقفَ ولو قليلاً على تاريخ هذه الأيام في الجاهلية الأولى، لنعرف كيف بدَّلها الله من الرِّجس طهراً، ومن الضلال هدًى، ومن

(١٧٣٠)، ولفظه عند مسلم من حديث طويل عن أبي قتادة جاء في آخره: «وسُئل ـ أي رسول الله ﷺ ـ عن صوم يوم عرفة؟ فقال: «يكفِّر السنة الماضية والباقية».

(١) اقتباس من حديث رواه مسلم (١٣٤٨) عن عائشة قالت: إن رسول الله ﷺ قال: «ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار، من يوم عرفة، وإنه ليدنو، ثم يباهي بهم الملائكة. فيقول: ما أراد هؤلاء»؟.

(٢) اقتباس من حديث صحيح رواه الإمام أحمد في «المسند» ٢: ٣٠٥ (٨٠٤٧)، وابن خزيمة (٢٨٣٩)، وابن حبان (٣٨٥٢)، ولفظه عند أحمد من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله عزَّ وجل يُباهي الملائكة بأهل عرفات، يقول: انظروا إلى عبادي شُعثاً غُبْراً».

(٣) انظر أول «زاد المعاد» [١: ٤٢_٦٨] في اختيار الله تعالى وتفضيله بعض الأشياء على بعض (طه).

(٤) سورة القصص: ٦٨.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الظلام نوراً ؟؟.

لقد بدَّل العربُ في الجاهلية ملّةَ إبراهيم حنيفاً، فملؤوا البيت بالرِّجس والأوثان، وأفسدوا الشعائر بالزور والبهتان، وقدَّموا لآلهتهم الذبائح والقرابين، واتَّبعوا ما تَتْلو الشياطين، وجَعَلوا هذا الموسم مَيداناً لكلِّ خرافةٍ وضلالة، وشعوذة وجهالة؛ حتى أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدين كلِّه، فَمَحَا معالم الغَواية، ورفع منار الهداية، وثبَّتَ دين الله في الأرض، وأعاد ملَّة أبيه إبراهيم طاهرةً نقية، استجابةً لدعوته عليه السلام إذ قال: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾(١).

وما أن تمَّ فتح مكة، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، واستقرَّ الإسلام في جزيرة العرب، حتى عاد هذا الموسم ميداناً للإيمان والنور والهدى، وإعلاناً لدعوة الحقِّ، ووسيلة أي وسيلة للتعارف والتعاون على البر والتقوى.

ولا يقولنَّ قائلٌ: إنَّ التمتُّع بهذا الموسم خاصٌّ بمَنْ شدَّ الرحال إلى بيت الله الحرام، وأدَّى مناسك الحجِّ وشعائره على قواعد الإسلام، أمّا من أدَّى الفريضة أو كان عاجزاً عنها فليس له في فضيلة هذا العشر من نصيب؛ فإنَّ الجواب عند من يعرف أنَّ المسلمين أمة واحدة، دينهم واحد، وإلههم واحد، يتعاون حاضرُهم وغائبُهم، وظاعنُهم ومقيمُهم، وغنيُّهم وفقيرُهم، على المصلحة والخير العام. ولئن فات المقيمَ التمتُّعُ بمناسك الحج وشعائره، وشهودِ الإسلام في أكبر معالمه، وأجمل مظاهره، لا يفوته العمل ـ وهو في وطنه ـ لنفسه ولأمته على ما يرفع شأن المسلمين والإسلام، ويعيد هذه

(١) سورة البقرة: ١٢٩.

الجديد و الطريف NEW & EXCLUSIVE

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الذكريات خالدةً في العالمين.

أرأيت كيف كان هذا العشر غُرَّة الدهر، وخُلاصة الأيام، ومِسْك الختام من كلِّ عام؟! أَوَرأيت أنَّ السعيد كلَّ السعيد مَن وُفِّق لاغتنام فرصته، وتحصيل فضيلته؛ إذ كان أحبَّ الأيام إلى الله، وأدناها إلى إحسانه ورضاه؟!.

* * * * *

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فضل الذكر*

٣٥ ـ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: «مثل الذي يذكر ربَّه، والذي لا يذكر ربَّه مثل الحيِّ والميِّت». رواه البخاري[(١)].

الذكر والشكر

دعامتان قويتان، يقوم عليهما الدين كلّه، أصوله وفروعه؛ الذكر والشكر. ينبئ عن هذا قولُه ـ جلَّ ذِكْرُه ـ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[(٢)] ووصيّته ﷺ لمعاذ رضي الله عنه ـ فيما رواه أبو داود والنسائي ـ ألاّ يدع في دُبر كلِّ صلاة أن يقول: «اللهم أعنِّي على ذكرك، وشكرك، وحُسْن عبادتك»[(٣)].

حقيقة الذكر والشكر

وذلك لأنَّ الذكر عمل اللسان والقلب، وهو مُقْتضٍ لمعرفة الله تعالى والإيمان به، ووصفه بصفات جلاله وجماله، والثناء عليه بما أثنى به على نفسه، وتنزيهه عن كلِّ ما لا يليق به. والشكرُ عمل بقية الجوارح في خدمة الله

---

* مجلة الأزهر، العدد التاسع، المجلد الرابع عشر، رمضان (١٣٦٢ = ١٩٤٣).

(١) أخرجه البخاري (٦٤٠٧) في الدعوات.

(٢) سورة البقرة: ١٥٢.

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» ٥: ٢٤٥ (٢٢١١٩)، (٢٢١١٢٦)، وأبو داود في «سننه» ٢: ١٨٠ (١٥٢٢)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (١٠١) (١١٧) من السنن الكبرى، وفي سننه الصغرى ٣: ٥٣ (١٣٠٣). وانظر تتمة تخريجه وشرحه في تعليقاتي على «جياد المسلسلات» للسيوطي ص ١٥٦ ـ ١٦٢.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

تعالى، وطاعته، والتقُّرب إليه بأداء محابِّه، واجْتناب مكارهه. فانتظم الذكر والشكر؛ ما تعبّد الله به عبادَهْ، وما خلق الجنَّ والإنس إلا لأجله، كما يقول ـ وقوله الحق ـ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[١].

على أنَّ لنا أن نعدَّ الشكر أثراً من آثار الذكر، كما نعدُّ الطاعة ثمرة من ثمار المعرفة، فما شكر الله تعالى من لم يذكره.

فضل الذكر

ولا حَرَج أن نقول إذاً: إنَّ الذكر الحقَّ رأس اليقين والإيمان، ومدارُ الإسلام والأحكام، وعمادُ الخير كلِّه.

ويعضُدنا في هذا ما أخرجه الترمذي وابن ماجَهْ[٢] عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أُنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مَليكِكم، وأرفعها في دَرَجاتكم، وخيرٍ لكم من إنفاق الذهب والفضة، وخيرٍ لكم من أن تَلقَوْا عدُوَّكم، فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟» قالوا: بلى. قال: «ذكر الله تعالى»[٣].

وكذلك ما أخرجه الترمذي وغيره عن عبد الله بن بُسْر: أنَّ رجلاً قال: يارسول الله، إنَّ شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ، فأخبرني بشيء أتشبَّث به،

---

(١) سورة الذاريات: ٥٦.

(٢) بسكون الهاء في الوصل والوقف ونُطقُها بالتاء خطأ. (طه) وانظر تعليق أستاذنا العلاّمة الشيخ عبد الفتاح أبو غُدَّة رحمه الله تعالى على رسالة: «ذكر من يُعتمد قوله في الجرح والتعديل» للذهبي ص١٩٨ـ١٩٩ الطبعة الرابعة، سنة ١٤١٠ ضمن «أربع رسائل في علوم الحديث».

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٥: ١٩٥ (٢١٧٠٢) (٢١٧٠٤) بإسناد صحيح، والترمذي (٣٣٧٧)، وابن ماجه (٣٧٩٠).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قال: «لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله»[(١)].

أكمل الذكر وأفضلُه

وواضحٌ أنَّ اللسان لا يكون رَطْباً من ذكر الله إلاّ إذا رُوِي القلب من خشية الله، وقاد الجوارح إلى طاعة الله؛ لأنَّ اللسان ترجمانُ القلب، والقلبُ أمير الجوارح، «إذا صَلَح صَلَح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله»[(٢)].

بعد الذي أوضحنا فلا عَجَبَ أن يشبِّه النبيُّ ﷺ الذاكر ـ وقد استنار قلبُه بنور المعرفة، وتحلّى قلبُه بحلية الطاعة ـ بالحيِّ الذي تزيَّن ظاهره ببهجة الحياة، وباطنه بنور العلم والإدراك؛ وأن يشبِّه الغافل ـ وقد قسا قلبه، وأظلمت نفسه ـ بالجثَّة الهامدة؛ تعطَّل ظاهرها، وأظلم باطنها، فلَحِقَتْ بعالم الجماد.

وإذا قلنا: إنَّ الذكرَ عملُ اللسان والقلب جميعاً؛ فإنما نعني به أكمل الذكر، وأفضله، وأزكاه عند الله تعالى، وأَوْلاه بمراده ومراد رسول الله ﷺ؛ وإلاّ فإنَّ الذكر يكون باللسان وحده، وهو أقلُّ درجاته؛ وأفضل منه أن يكون بالقلب وحده؛ وأفضل من هذا أن يكون بهما معاً، فإذا أُسِّس على التقوى، وامتزج بتدبُّر المعنى، وأُحيط بخشية الله عزَّ وجل، فذلك هو الفقه الأكبر، وهو أجلُّ الذكر وأعظمه، وهو ـ بحقٍّ ـ طبُّ القلوب ودواؤها، وعافية الأبدان وشفاؤها، ونور الأبصار وضياؤها، وحياة النفوس وزكاؤها.

وإنّما كان ذكر القلب وحده أفضل من ذكر اللسان وحده؛ لأنَّ ذكر القلب يثمر المعرفة، ويثير الحياء، ويبعث على الخشية، ويدعو إلى المراقبة، ويَزَعُ

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٧٦٨٠) (١٧٦٩٨)، والترمذي (٣٣٧٥). وهو حديث صحيح.

(٢) اقتباس من حديث رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

عن التقصير في الطاعات والتهاون في السيِّئات، وقلَّما يكون في ذكر اللسان وحده شيء من هذا.

أقسام الذكر

وكثيراً ما يراد بذكر الله ـ تعالى شأنه ـ كل طاعة له، وإن جاوزت عمل اللسان والقلب إلى غيرهما من سائر الجوارح؛ لأنَّ طاعة الله، فرضاً أو نفلاً لا تتحقَّق إلا مقْترنة بذكره أو مُشتملة عليه، أو داعية إليه، ومن أجل هذا، سمَّى الله الصَّلاة ذكراً، فقال عز من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾(١).

وعن بعض العارفين قال: الذكر على سبعة أنحاء: فذكر العينين بالبكاء، وذكر الأذنين بالإصغاء، وذكر اللسان بالثناء، وذكر اليدين بالعطاء، وذكر البدن بالوفاء، وذكر القلب بالخوف والرجاء، وذكر الروح بالتسليم والرِّضاء.

وقال الإمام النووي: إنَّ فضيلة الذكر لا تنحصر في التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير ونحوِها(٢)، بل كلُّ عاملٍ لله تعالى بطاعةٍ فهو ذاكرٌ له. وقال عطاء رحمه الله: مجالس الذكر، هي مجالس الحلال والحرام، والفقه بالدين(٣).

وذلك أنَّ أساس الذكر ـ ولا جدال ـ معرفةُ المذكور أوّلاً؛ ثمَّ ذكرُه بما شرَعه لعباده، وارتضاه لعبادته، ودعا إليه على لسان رسوله ﷺ.

وكلُّ الأذكار والأوراد في صِيَغِها وأدائها، وشروطها وآدابها ـ مفردةً

---

(١) سورة الجمعة: ٩.

(٢) كالدعاء والاستغفار والصلاة والسلام على النبيِّ ﷺ.

(٣) «الأذكار النووية» ص٤٩.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ومكرّرةً، مقيّدةً ومُطْلقةً، مُسْتوفاة ومخفَّفةً ـ قد فصَّلها الشارع تفصيلاً، ولم يأذن لأحدٍ من بعده أن يمسَّها بتهذيبٍ أو تعديل، فَضْلاً عن التغيير والتبديل، فمن استباح شيئاً من ذلك، فقد افتات على الله ورسوله.

ولسنا بحاجة بعد الذي تقدَّم إلى بَسْط الأدلة على فضل الذكر، وجليل خطره. وحَسْبُنا أنَّ الله تعالى أمر به مطلقاً ومقيَّداً، وجعله قرينَ الأعمال الصَّالحة وروحَها ومفتاحَها وختامَها، وربط الفلاح باستدامته وكثرته، وجزى أهله بذكره ومحبّته، وغشَّاهم ـ أينما كانوا ـ بفضله ورحمته. وانظر «مدارج السالكين»[1]، ففيه تفصيلُ هذا كله.

تفاضل الأذكار

ثم الأذكار تتفاضل بحسب آثارها، وتوكيد الشارع أو تخفيفه في طلبها. وقد تظاهرت الأدلة على أنَّ أفضلها، بل أحبُّ الأعمال إلى الله قاطبة، الصلاة لوقتها؛ لأنها جِماعُ الذكر كله؛ ثمّ تلاوة كتاب الله تعالى؛ ثمَّ التهليل والتسبيح وما إليهما.

على أنه قد يعرض للمفضول ما يجعله أولى وأفضل؛ وذلك كالتسبيح في الركوع والدعاء في السجود؛ فإنهما أفضل من قراءة القرآن، بل القراءة فيهما منهيٌّ عنها. وكذلك القول في الأذكار الموظّفة عقب الصلوات والمقيَّدة بحال خاصة.

حقاً إنَّ فضْل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه، لكن لكلِّ مقامٍ مقال، ولكلِّ ذِكر مَقْصد إذا عَدَل عنه إلى غيره فاتَتْ الحكمة وعُطِّلت المصلحة. وإذا لم يخلق الله شيئاً عبثاً، فحاشَ لله أن يشرعَ شيئاً عبثاً.

---

(١) ٢ : ٤٢٣ـ٤٢٣ في منزلة الذكر. وانظر أيضاً «الوابل الصيِّب» ص٦٦ـ١٢٦فقد استوفى بيان فوائد الذكر استيفاءً حسناً، وذكر نحو مئة فائدة.

الجديد و طرح NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد يخلو العبد بربّه فيتَضَرَّع ويبكي ويستغفر، ويحضره من الخشوع والابتهال ما لا يحضره في وقت آخر، لا جرم أنَّ هذا في موطنه أجلّ أنواع الذكر، وصاحبُه أحد السبعة الذين يظلّهم الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلاّ ظله.

وجملة القول: إنَّ التفضيل مَسْلكٌ دقيق لا يجتازه إلاّ من كان على نورٍ من ربِّه، يعرف به مراتبَ الأعمال ومقاصدَها، ويفرِّق به بين فضيلة الشيء النفسية وفضيلته العرضية، ليعطيَ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، ويضعَ كلَّ شيء موضعه، ولا يشتغل بالمفضول عن الفاضل، ولا بالفاضل عن الأفضل، فيربحَ إبليسُ الفضل الذي بينهما.

قال صاحب «الوابل الصيِّب»: «سُئل بعض العلماء: أيُّهما أنفع للعبد، التسبيح أم الاستغفار؟ فقال: إذا كان الثوب نقياً، فالبخور وماء الورد، وإذا كان دَنساً، فالصابون والماء الحار»[1].

تكرار الذكر

ويدعو الحديث إلى تكرار الذكر وإدمانه في كلِّ المناسبات، وجميع الحالات؛ لكن على ما أوضحته السنة وفصَّلته الأحاديث، ورواه الثقات.

ولقد كان ﷺ يذكر الله قائماً وقاعداً وعلى جنب، في مشيه وركوبه، ومسيره ونزوله، وظعنه وإقامته، ونومه ويقظته، بل كان كلامه في ذكر الله وما والاه؛ من أمره ونهيه ووعده ووعيده وصفاته وأحكامه وسؤاله ودعائه ورغبته ورهبته، وهكذا كان ذكره لله تعالى يجري مع أنفاسه، وفي كلِّ أحيانه، وعلى

---

(١) «الوابل الصيِّب ورافع الكلم الطيِّب»، لا بن قيِّم الجوزية ص١٢٦ وذكر ابن القيم أنه لما قال ذلك لشيخه ابن تيميّة، قال له: فكيف والثياب لا تزال دَنِسةٌ ؟

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

سائر أحواله.

حكمة التكرار

وللذكر مع التكرار أثرٌ عظيم في محو الذنوب وصَقْل القلوب، وتَقْوية العزائم، وإنهاضِ النفوس، وإثارةِ الهمم، واستعذاب الصِّعاب، واحتمال المشاق.

ومن الأدلة على هذا كلّه ما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «من سبّح الله في دُبُر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، وكبّر الله ثلاثاً وثلاثين، وقال تمام المئة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كلِّ شيء قدير، غُفرت خطاياه، وإن كانت مثلَ زَبَدِ البحر»(١).

وما رواه الشيخان أنه ﷺ علّمَ علياً وفاطمة رضي الله عنهما أن يسبِّحا كلَّ ليلة ـ إذا أخذا مضاجعهما ـ ثلاثاً وثلاثين، ويحمَدا كذلك، ويكبِّرا أربعاً وثلاثين لمّا سألته خادماً، وشكت إليه ما تقاسي من الطحن والسعي والخدمة؛ علّمهما ذلك، وقال: «إنه خيرٌ لكما من خادم»(٢). والأدلّة على ذلك أكثر من أن تُحصى، ولكنَّ المشاهدةَ أعدلُ شاهد.

عناية الصوفيّة بالذكر وتكراره

من أجل هذا اتَّخذ الصوفية من الذكر وتكراره منهاجهم، وجعلوا منه دواءهم وغذاءهم، ورأوا كما رأى الحديث ـ بحق ـ أنَّ العبد بحاجةٍ إلى ذكر مولاه مادام بحاجة إلى الحياة.

لكنّا ننصح لهم ـ والدينُ النصيحة ـ أن يكونَ هَوَاهُم تَبعاً لما جاء به من لا

---

(١) أخرجه مسلم (٥٩٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣١١٣)، ومسلم (٢٧٢٧)و (٢٧٢٨).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ينطق عن الهوى صلوات الله وسلامه عليه، فقد أقام المعالمَ وأوضح السبيلَ، وأبان النهج، واختار لنا خيراً وأفضل وأزكى وأجمل ممَّا نختار لأنفسنا. فمن رأى رأياً معه، فقد آثر نفسه واتَّبع هواه فأرداه. وإذا كان جزاء من تزلَّف إلى الملوك بزيف الجواهر، الطرد والحرمان، فما جزاء من تقرَّب إلى ملك الملوك بزيف العبادة إلا الهلاك والخسران!.

عجائب التكرار

وللتكرار من عجائب الآثار، وبدائع الأسرار، ما جعل المربين، وعلماء النفس والاجتماع، يقيمون عليه صروحاً من العلم والفضائل، وحصوناً من مكارم الأخلاق والعادات.

وعلى نظريّة التكرار تقوم في هذه الأيام دعوةٌ جديدة لتعلم اللغة العربية وإنهاضها، وتربية مَلَكَة قوية تغني عن القواعد في تأثُّر البيان، وتقويم اللسان، وعِصمته من اللحن والأخطاء.

ولا ندلُّكُم على «روح الاجتماع» ومؤلفات التربية؛ لتقفوا على عجائب التكرار وفعله في النفوس وإيقاظه للقلوب؛ وإنَّما نهديكم إلى كتاب الله، وتعاليم رسوله ومُصْطفاه ﷺ، ففيهما العجبُ العجاب، ومنهما يغترف أولو الأبصار والألباب.

* * * * *

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أدب الدعاء*

٣٦ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يُستجابُ لأحدكُم ما لَمْ يَعْجَلْ؛ يقول: دَعَوْتُ ربّي فلم يَسْتَجب لي» رواه الشيخان(١).

كما أدَّبَ النبيَّ ربُّه فأحسنَ تأديبه، وهذَّبه فأكملَ تهذيبه، علَّم النبيُّ ﷺ أُمَّته فأحسنَ تعليمها، وزكَّاها فأجمل تزكيتها.

وهذا أدبٌ من أُمَّهات الآداب التي يلقِّنها النبيُّ ﷺ أمَّته؛ ليأخذوا أنفسهم بها حين يدعونَ ربَّهم ويسألونه من فضْله، حتى يكون دعاؤهم حقيقاً بالقَبول، جديراً بالاستجابة.

ومن الخير ألا نعجل بتبيان هذا الأدب وما إليه من قَبلِ أن نبيِّن ما هو الدعاء في لسان الشرع؟ وما مكانه من هذا الدين الحنيف؟.

معنى الدعاء

عدَّ العلماء للدعاء معانيَ ترجع في جملتها إلى معنيين: العبادة، والمسألة. وقالوا: إنَّ الإجابة على المعنى الأول هي: الجزاء والإثابة، وعلى المعنى الثاني هي: إيتاء العبد ما طلب.

وبالمعنيين جميعاً فُسِّر قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ

---

* مجلة الأزهر، العدد العاشر، المجلد الرابع عشر، شوال (١٣٦٢= ١٩٤٤).

(١) أخرجه البخاري (٦٣٤٠) في كتاب الدعوات، ومسلم (٢٧٣٥) في الذكر والدعاء.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[(١)]؛ وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[(٢)] وهذا المعنى الأخير أكثر المعنَيَيْن شيوعاً، وهو المراد هنا.

والدعاء بهذا المعنى شعبة من شُعَب الذكر، وركنٌ من أجلِّ أركانه. وهو عنوانُ الخشوع والطاعة، ومناطُ الذلة والضَّراعة، ثم هو بعد ذلك مَظْهَرُ العبودية؛ لأنه كما روى الترمذي: «مخُّ العبادة»[(٣)].

آداب الدعاء

أما آداب الدعاء فهي كثيرةٌ مبْثوثة في السنة؛ من أهمِّها ما جاء في هذا الحديث وهو: أن يجتهد العبد في الدعاء ويكرِّره غير متعجِّل ولا مُسْتَبْطِئ؛ فإنَّ الله تعالى لا تُعجزه الإجابة، ولا يُنقص خزائنه العطاء، وكيف، وقد قال صلوات الله عليه فيما يرويه عن ربِّه عز وجل: «يا عبادي لو أنَّ أوَّلكم وآخِركم، وإنْسكُمْ وجنَّكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيتُ كلَّ واحد مسألته، ما نَقَصَ ذلك ممَّا عندي إلا كما يَنْقُص المِخْيَط إذا أُدْخلَ البحر». رواه مسلم عن أبي ذرٍّ[(٤)].

وفسَّر النبيُّ ﷺ استعجال العبد بأن يقول بلسان الحال أو المقال ـ وبئس ما يقول ـ: «دعوتُ ربي فلم يستجب لي»! هذا فرارٌ من طريق العبودية، ومغادرةٌ لِبابِ الربوبيَّة. وأين هذا من مقال بعض العارفين: «إني أسأل الله تعالى حاجةً منذ عشرين سنة، ولا أزال أسأله إيَّاها، وأنا أرجو الإجابة؛ سألته عزَّ وجل أن

---

(١) سورة البقرة: ١٨٦.

(٢) سورة غافر: ٦٠.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٣٧١) من حديث أنس بن مالك. قال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة.

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٧٧). والمِخْيَط: الإبرة.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يوفقني لترك ما لا يعنيني؟»[(١)].

السرُّ في تأخير الإجابة

وليس تأخير الإجابة دليلاً على ردِّ المسألة، ولا على هوان السائل؛ فقد تُؤَخَّر لأسرار إلهيَّة يتجلَّى للعبدِ بعضها، فيعلم أنَّ الله أراد به خيراً أو دفع عنه شراً. وقد تؤخَّر ليرفع اللهُ درجتَه؛ ويباهي به ملائكته؛ ففي بعض الآثار: أنَّ العبد إذا دعا ربَّه وهو يحبُّه قال: «يا جبريل! لا تعجل بقضاء حاجة عبدي؛ فإني أحبُّ أن أسمع صوته»[(٢)]. فلْيكثر العبد من دعاء ربِّه، ولْيَحْذَر أن يضربَ له مثلاً من خلقه؛ فإنه لا يستوي مَنْ يغضب حين يُسأل، ومن يغضب حين لا يُسأل[(٣)]!.

أسباب الإجابة

ومن أهمِّها: أن يكون صادقَ النيَّة، حاضر القلب، مُخلصاً في الدعاء،

---

(١) ذكرها الإمام الغزالي في «إحياء علوم الدين» ١: ٤٧٥.

(٢) أخرجه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» كما في «بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث» ٢: ٩٦٦ برقم: ١٠٦٨. ولفظه من حديث جابر أن النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ جبريل مُوكَلٌ بحاجات العباد، فإذا دعاه عبده المؤمن قال له: يا جبريل، احبس حاجة عبدي هذا، فإني أُحبُّه وأحبُّ صَوْتَه، وإذا دعاه الكافر، قال: يا جبريل، اقضْ حاجة عبدي هذا، فإني أبغضه وأبغض صوته». وفي إسناده الحسن بن قتيبة، وهو ضعيف.

(٣) أخرج الترمذي (٣٣٧٠) والحاكم في «المستدرك» ١: ٤٩١ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من لم يسألِ اللهَ يغضب عليه**».

وفي ذلك يقول الشاعر:

اللهُ يغضبُ إنْ تركتَ سؤالَه ... وبُنَيُّ آدم حين يُسألُ يغضبُ

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

موقناً بالإجابة؛ فإن الله تعالى لا يستجيب دعاءً من قلبٍ غافلٍ لاهٍ(١).

وقد روى الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دعا أحدُكم فَلْيَعْزِم في الدُّعاء، ولا يقل: اللهمَّ إنْ شئتَ فأعطني، فإنَّ الله لا مُسْتكْرِهَ له»(٢).

وإنما كُرهت المشيئة في الدعاء، وإن حُمِدَت في غيره؛ لأنها تُشعر بالاستغناء عن المسؤول، وضعف الثقة بإجابته. وحقٌّ على من يَضْرَع إلى مولاه أن يُحْسِنَ الأدب، ويجُدَّ في الطَّلب، ويعظم الرَّغبة؛ فإنه تعالى لا يتعاظمه شيء. ثمَّ لا يمنعُه مِنْ صدق ظنِّه بربِّه، ما يعلم من نفسه؛ فقد استجاب الله لشرِّ

---

(١) اقتباس من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ادعُوا الله، وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أنَّ الله لا يستجيب دعاء من قلبٍ غافلٍ لاهٍ». رواه الترمذي (٣٤٧٤) وقال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، والطبراني في «الدعاء» (٦٢)، والحاكم في «المستدرك» ١: ٤٩٣ وقال: مستقيم الإسناد، وتعقبه الذهبيّ بأن في إسناده صالحاً المري، وهو متروك. وذكره النووي في «الأذكار» رقم (١٠٤١) وقال عقبه: إسناده فيه ضعف. وقال المناوي في «فيض القدير» ١ :٢٢٩: «فمن زعم حسنه فضلاً عن صحته فقد جازف»، وفي «الفتوحات الربانية» ٢: ١٧٧ قال ابن علان: له شاهد في مسند أحمد ٢ :١٧٧(٦٦٥٥)، عن عبد الله بن عمرو بن العاص انتهى. والشاهد بلفظ: «القلوب أوعيةٌ، وبعضها أوعى من بعض، فإذا سألتم الله عز وجل، أيها الناس، فاسألوه ، وأنتم موقنون بالإجابة، فإنَّه لا يستجيب لعبدٍ دَعَاه عن ظهر قلب غافل» وحسَّنه المنذري في «الترغيب والترهيب» ٢ :٤٩١ (٢٤٥٩)، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٠ : ١٤٨: رواه أحمد وإسناده حسن. وضعفه محققو «المسند» ١١ :٢٣٥ لوجود ابن لهيعة وهو سيئ الحفظ، وباقي رجاله رجال الصحيحين غير أبي عبد الرحمن الحُبُلي فمن رجال مسلم.

ومعنى الحديث صحيح: إذ لا بدَّ مع الدعاء من حضور القلب والإيقان بالإجابة.

قال الإمام الرازي_ فيما نقله المناوي في «فيض القدير» ١ :٢٢٩ _: أجمعت الأمة على أنَّ الدعاء اللساني الخالي عن الطلب النفساني قليل النفع، عديم الأثر.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٣٨)، ومسلم (٢٦٧٨).

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الخلق إبليس: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾[١].

وملاك الأمر[٢] في إجابة الدعاء: تَقْوى الله، وصدقُ معاملته، وحُسْن الظنِّ به.

قيل لإبراهيم بن أدهم: ما لنا ندعو فلا يُستجاب لنا؟! قال: «لأنكم عرفتم الله فلم تطيعوه، وعرفتم الرسول فلم تتَّبعوا سنَّته، وعرفتم القرآن فلم تعملوا به، وأكلتم نِعَمَ الله فلم تؤدُّوا شكرها، وعرفتم الجنة فلم تطلبوها، وعرفتم النار فلم تهرُبوا منها، وعرفتم الشَّيطان فلم تحاربوه، وعرفتم الموت فلم تستعدُّوا له، ودفنتم الأموات فلم تعتبروا، وتركتم عيوبكم، واشتغلتم بعيوب الناس»[٣]!!.

الدعاء والقضاء

ولا يحُولنَّ بين العبد وبين الجدِّ في الدعاء ما جَرى به القلم، وسبَق به القضاء[٤]؛ فقد ربط الله الأسباب بمسبَّباتها، والوسائل بغاياتها، وأمر عباده بالدعاء سبباً إلى الحاجات، ووسيلةً إلى الرغبات، وكلٌّ مقدور، في لوح مسطور، ومن قعد عن الدعاء محتجًّا بالقضاء، فَليقْعد عن الأكل والشُّرب والسَّعي والعمل، أو يفرِّق بين الأمرين بسلطان مبين.

---

(١) سورة الحجر: ٣٦ ـ ٣٨، وسورة ص: ٧٩ ـ ٨١.

(٢) مَلاك الأمر: ـ بفتح الميم ويكسر ـ: قِوامه الذي يملك به.

(٣) إحياء علوم الدين ٣: ٣٣، كتاب شرح عجائب القلب، بيان تفصيل مداخل الشيطان إلى القلب.

(٤) أخرج أحمد في «مسنده» ٥: ٢٧٧ (٢٢٣٨٦) من حديث ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «.. ولا يردُّ القدر إلا الدعاء» وهو حديث حَسَن لغيره، كما في التعليق على «المسند» ٣٧: ٦٨ طبعة مؤسسة الرسالة. وانظر ما كتبته بإسهاب في تعليقاتي على «العقيدة الإسلامية» للمكي بن عزُّوز ص٣٥٢ ـ ٣٥٥.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ولو لم يكن من مزايا الدُّعاء، إلاَّ أنه عنوان العبوديَّة، ومفتاح باب الربوبيَّة لكفاه شرفاً وفضْلاً. ولِمَ لا يسعُنا ما وَسعَ رسول الله ﷺ، وقد كان يُكثر الدعاء، وله أدعيةٌ كثيرةٌ مأثورة؟! وعلى نهجه سار أصحابُه والتابعون.

ألا إنَّ الدعاء، كما جاء في الآثار: ينفع ممَّا نَزَل وممَّا لم ينزل[١]، ومن فُتح له باب الدعاء فُتحت له أبواب الرحمة[٢].

تنوُّع الإجابة

وكما قلنا آنفاً: ليس تأخير الإجابة دليلاً على ردِّ المسألة، نقول هنا: ليس من شرط الإجابة أن تُقضى حاجة العبد نفسها، فقد يختار الله له خيراً منها أو مثلها. وكثيراً ما رأينا رَأيَ العين أنَّ خيرةَ الله خيْر، وكثيراً ما نتمثَّل بقول الصوفية: «لو اطَّلعتم على الغيب لرضيتم بالواقع».

وقد روى الإمام أحمد وغيره عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «ما من مسلم يدعو بدعوةٍ ليس فيها إثمٌ ولا قطيعةُ رحم إلاَّ أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجِّلَ له دعوته، وإما أن يدَّخرها له في الآخرة، وإما أن يصرفَ عنه من السوء مثلها. قالوا: إذاً نكثر، قال: الله أكثر»[٣].

فما من دعوة من مسلم إلا وهي مستجابة، لا سيما الدعوات في الأوقات

---

(١) اقتباسٌ من حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يُغني حَذَرٌ من قدر، والدعاء ينفع ممَّا نزل وممَّا لم ينزل، وإنَّ البلاء لينزل، فيتلقَّاه الدُّعاء، فيعتلجان إلى يوم القيامة» ـ أي: يتصارعان ـ رواه الحاكم في «المستدرك» ١ : ٤٩٢ وصحَّحه ووافقه الذهبي.

(٢) اقتباسٌ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من فُتح له في الدُّعاء منكم، فُتحت له أبواب الجنة» رواه الحاكم في «المستدرك» ١ : ٤٩٨ وصحَّحه.

(٣) أخرجه أحمد ٣ : ١٨ (١١١٣٣)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧١٠)، والحاكم في المستدرك (١٨٥٩)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الفاضلة، والفرص الكريمة، كالسجود، والأذان، وجوف الليل، وأدبار الصَّلوات، والخَلْوة مع الله عزَّ وجل. غير أنَّ الإجابة ـ كما يدل الحديث ـ تتنوَّع؛ فتارةً تكون بما دعا به الداعي، وتارةً تكون بعوض منه.

الدعاء والتفويض

وبعد؛ أيُّ المقامين أفضل: الدعاء والسؤال، أم السكوت والرضا؟.

قيل: السكوت أفضل؛ لما فيه من التفويض والتسليم. وقيل: الدعاء أوْلَى وأجمل؛ لأنه سنن الأنبياء والمرسلين، وبرهان الخشوع والضَّراعة لربِّ العالمين.

أفضل الأدعية

والذي يطمئنُّ إليه القلب في هذا الخلاف، أنَّ خير الحالَيْن، وأعلى المقامَيْن ما خَلُصَت فيه النية، وصَدَقت فيه الرغبة؛ فقد يكون الدعاء أفضل، لا سيما المقترن بالرضا، والمُمْتزج بالطمأنينة، والشامل في ظهر الغيب للإخوان والمسلمين. وقد يكون التسليم أفضل، لا سيما المخالط لسكون القلب، وطمأنينته بذكر الله وجلاله، أكثر من دعائه وسؤاله؛ وهذا مُجْمل ما جاء في الحديث القدسي: «من شَغَلَه القرآنُ وذكري عن مسألتي: أعطيتُه أفضلَ ما أُعطي السَّائلين»[١].

وفيما علَّمنا الله ورسوله الخير، والهداية كلُّ الهداية، والكفاية كلُّ الكفاية لمن أحبَّ اللهَ ورسولَهُ.

* * * * *

---

(١) أخرجه الترمذي آخر أبواب ثواب القرآن (٢٩٢٧) من حديث أبي سعيد الخُدريِّ رضي الله عنه، وقال: حديث حسن غريب.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

دعاء الله بأسمائه *

٣٧ ـ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إنَّ لله تسعةً وتسعينَ اسماً؛ مئةً إلا واحداً، مَنْ أحصاها دَخَل الجنة؛ إنه وترٌ يحبُّ الوتر». رواه الشيخان[١].

المفردات:

الاسم: ما دلَّ على مُسَمَّاه. واسمُهُ تعالى شأنه: هو كلُّ لفظ دلَّ على ذاته سبحانه، أو على معنىً ثابتٍ له؛ الأول: كلفظ الجلالة، والثاني: كالرحمن الرحيم.

أحصاها: حفظها، كما جاء في إحدى روايات الشيخين[٢]، أو دعا بها، كما في رواية أبي نُعيم، ويؤيِّده قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[٣]، أو أطاقها، فأحسَنَ رعايتها، وتخلَّق بها، على ما يأتي توضيحُه. وأصل الإحصاء: العدُّ بالحَصَى؛ لأنهم كانوا يعتمدونه في العدد، كاعتمادنا فيه على الأصابع، ثم استُعمل لمُطلق العد.

---

* مجلة الأزهر، العدد التاسع، المجلد السادس عشر، (١٣٦٤ = ١٩٤٥).

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٦) في كتاب الشروط، ومسلم (٢٦٧٧) في كتاب الذكر والدعاء.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤١٠) في كتاب الدعوات، ومسلم (٢٦٧٧) في كتاب الذكر والدعاء.

(٣) سورة الأعراف: ١٨٠.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

والوتر ـ بفتح الواو وكسرها ـ : الفَرد، أو ما لم يتشفَّع من العدد، وأوتره أفذّه، ومنه أوتر صلاته إذا جعلها وتراً.

وعدٌ كريم

في هذا الحديث وعدٌ كريمٌ من الصَّادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه، بأنَّ منْ أحصى أسماء الله التسعة والتسعين، فَتح الله له باب رحمته، وكرَّمه بدخول جنَّته، وأحلَّ عليه رضْوانه، فلم يَسْخط عليه بعده أبداً.

المرادُ بإحصاء أسماء الله الحُسنى

وليس المراد من إحصائها مُجرَّدَ حفظها، أو الدعاءَ بها، وإنْ كان في ذلك مثوبةٌ وفضلٌ؛ فإنَّ هذا ممَّا يستوي فيه البرُّ والفاجر، والعامل والخامل، وإنَّما المراد حفظها بإحسان القيام عليها، والتخلُّق بآدابها.

وإذاً فليس المراد من الوعد الكريم مجرَّد دخول الجنة؛ فإنَّ ذلك مآل كلِّ مَنْ مات على كلمة التوحيد مُوقناً بها، وإنْ ذاق ما ذاق من عقوبة جرمه، وعاقبة بغيه وظُلمه، ولكنَّ المراد دخوله في السَّابقين الأوَّلين: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[1].

الإحصاء بالقول وبالعمل

ثمَّ إنَّ الإحصاءَ يقع بالقول تارةً، وبالعمل أخرى.

فالذي يكون بالقول أن يعلمَ العبدُ، أنَّ لله تعالى أسماءً يختصُّ بها، كالأحد والمتعالي والجبَّار والقهَّار، إلى غير ذلك من صفات الجلال، فيقرُّ بها، ويخضع عندها.

والذي يكون بالعمل، أن يعلمَ أنَّ له جلَّ شأنه أسماءً تُطْلَقُ في ظاهر الأمر

---

(١) اقتباس من الآية ٦٩ من سورة النساء.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

على غيره، كالرحيم والكريم والعفوِّ والحليم، إلى غيرها من صفات الجمال، فيقْتدي بها، ويتحلَّى بمعانيها، فيرحمَ ويُكرمَ ويعفوَ ويحلُمَ، ما وَضعَ كلَّ وصف في موضعه، وما استطاع إليه سبيلاً.

ولا يبعدُ أن يكون للعبد حظٌّ من صفات الجلال أيضاً، فيتكبَّر على أعداء الله المستكبرين، وينتقم لله من الظلمة الباغين، وهكذا حتى يكون متخلِّقاً بأسمائه تعالى وصفاته كلِّها، على حَسْب حاله وطاقته ومقدار عبوديته لمولاه ذي الجلالِ والإكرامِ، والقهرِ والانتقام. وهذا ما يعنيه الصُّوفية بقولهم: «تخلَّقوا بأخلاق الله عزَّ وَجَل»[١].

---

(١) دلَّني البحث والاستقراء على أنه ليس بحديث، وإن نُسِبَ إلى النَّبيِّ ﷺ في غير ما كتاب (طه).

وروى الخطيب في «تاريخه» ٢ :٤٠١_٤٠٢ (زوائد ٢٥٣) من حديث أنس قال: «حُسْنُ الخلق من أخلاق الله عزَّ وجل» وإسناده ضعيف، وينظر الكلام عليه في «الميزان» ١ :٥٢٣، و«اللسان» ٣: ١٢٤ (٢٤٠٧) في ترجمة الحسن بن مقداد. والأخذُ بحُسن الخلق تخلُّقٌ بأخلاق الله عزَّ وجل.

وحديث: «تخلَّقوا بأخلاق الله» ذكره السَّهروردي المتوفى سنة ٦٣٢ رحمه الله تعالى في كتابه «عوارف المعارف» في الباب الحادي والستين في ذكر الأحوال وشرحها في الحب الخالص لله، وأن المحبة لا تزال تجذب بوصفها إلى محبوبها، فيعود المحب بفوائد اكتساب الصفات من المحبوب، وهذا الذي عبَّر عنه حقيقة قول رسول الله ﷺ: «تخلَّقوا بأخلاق الله». وقال الحافظ السيد أحمد بن الصِّدِّيق الغماري رحمه الله تعالى في «غنية العارف بتخريج أحاديث عوارف المعارف» ٢ :٨٧٠ (٥٦٧): لم أجده.

وبعد كتابة ما تقدَّم وقفت على مقالتين لفضيلة الشيخ طه الساكت رحمه الله تعالى بخطِّه نُشرت الأولى في العدد السابع من مجلة «نور الإسلام» بتاريخ غرة ربيع الثاني ١٣٦٢ بعنوان: «تخلَّقوا بأخلاق الله» قال فيه: «يظنُّ كثيرٌ من الناس أنَّ هذا حديث عن رسول الله ﷺ، والذي أعلمه من مطالعاتي في كتب القوم وغيرها أنه حكمة صوفية، ولقد بحثت جاهداً عن مصدرها في مظانَّ كثيرة، مثل كتاب «كشف الخفا والإلباس» للعجلوني، و«تذكرة =

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الموضوعات» للفتَّني، و «الفتاوى الحديثيَّة» للهَيْتمي، و«الرسالة القشيرية» فلم أجدها. ثم سألت كثيراً من أرباب البحث والاطلاع فلم أظفر بشيء، وأخيراً رجعت إلى مابدأت البحث فيه، وهو كتاب «الإحياء» للإمام الغزالي، فعثرت في فضيلة حُسْن الخُلق من كتاب رياضة النفس على حديثٍ في هذا المعنى، وهو: «حُسْنُ الخُلُق خُلُق الله الأعظم». قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» ٣: ٥٠: رواه الطبراني في «الأوسط» (٨٣٤٤) من حديث عمار بن ياسر بسند ضعيف.

[وقال الهيثميُّ في «المجمع» ٨ :٢٠:«ورواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه عمرو ابن الحُصين، وهو متروك». والحديث رواه أبو نُعيم في «الحلية» ٢ :١٧٥ من طريق عمرو ابن الحُصَيْن أيضاً].

ثمَّ كانت خاتمة المطاف أن رجعت إلى «المقْصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» للغزالي أيضاً، فوجدتُ في ص١٥ مانصُّه: الفصل الرابع في بيان أن كمال العبد وسعادته في التَّخلُّق بأخلاق الله تعالى، والتَّحلِّي بمعاني صفاته وأسمائهِ، بِقَدْر ما يُتصوَّر في حقِّه، ثم أخذ يشرح هذا الفصل، وبيَّن أن التحلِّي بمكارم الأخلاق هو السبيل إلى الكمال والسعادة.

وبعد، فهذا بحث في مصدر هذه الحكمة ومنشئها، نرجو ألا يُلهينا عن معناها والانتفاع بها، فإنَّ الحكمة ضالَّة المؤمن، فحيثما وَجدَها أخذها.

وإجمال القول في هذه الحكمة الجليلة: أنَّ صفات الله سبحانه لا تتناهى، وأنَّ كمالاته جلَّ شأنه لا تُحصى، وإذا كانت نعمه جلَّ ثناؤه لا يُحصيها عدٌّ، ولا يدنو منها حصر، فكيف بأوصاف جماله وجلاله؟ وما جاء في الصحيحين وغيرهما مما قد يشير إلى حصرها من مثل قوله ﷺ: «إن لله تسعةً وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، مَنْ أحصاها دَخَل الجنة» فليس المراد منه الحصر، وإنما المقصود ما يترتَّب على حفظها والعمل بها، والتحلِّي بمعانيها، من دخول الجنة ورضوان الله عز وجل» انتهى.

وأما المقالة الثانية فهي بعنوان: «السعادة عند الصوفية» نشرت في مجلة «الهداية الإسلامية» المجلد السادس عشر، بتاريخ ذي الحجة ١٣٦٢ قال فيها: «من العبارات الشائعة عند القوم، ومن نصائحهم البالغة، ووصاياهم الجامعة: «تخلَّقوا بأخلاق الله» ولقد جرت هذه النصيحة مجرى الأمثال، حتى ظنَّ كثير من أرباب الفضل والنُّهى أنها من كلام الرسول صلوات الله وسلامه عليه، وممَّن صرَّح بذلك العارف ابن عطاء الله في كتابه «القصد المجرَّد» وصاحب كتاب «التاج» في أول كلامه على البسملة، ويذكر الصوفية أحاديث في هذا =

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأما مَنْ حفظها عداًّ، وأحْصَاها سَرْداً ولم يعملْ بها، فمثَلُه كَمَثَل مَنْ حفظ القرآن ولم يعمل به، وقد ثبت الخبرُ في الخوارج، أنهم: «يقرؤون القرآن ولا يجاوز حناجرهم»(١).

نعم؛ إنَّه يُثاب كلٌّ منهما على العدِّ، والتلاوة والدعاء، وإن اقْترف

المعنى، منها: «إن لله ثلاثمائة خُلُق، من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة» » [أخرجه الطبراني في «الأوسط» من حديث أنس مرفوعاً عن الله بلفظ: «خلقت بضعة عشر وثلاثمائة خلق..» وهو ضعيف كما في «تخريج الإحياء» ٤ :٣٥٩] .

ومن المعروف أنَّ الصوفية، وإن بلغوا في الفضل مبلغاً ليسوا من رجال الحديث وأهل النقد، والذي استَنْبطتُهُ بعد طويل البحث والمراجعة والتحرِّي، أنها ليست من الحديث في شيء.

ورأيت في الآلوسي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ نقلاً عن «الكشف» أنه ﷺ مُتخلِّق بأخلاق الله عز وجل، ونقل عن العارف بالله المرصفي: أن عائشة رضي الله عنها أرادت بقولها: «كان خلقه القرآن، يرضى لرضاه، ويسخط لسخطه» أنه ﷺ متخلِّق بأخلاق الله، لكنها لم تُصرِّح به تأدُّباً منها.

وإيضاح معنى التخلُّق بأخلاقه تعالى: أن له أسماء وصفات يختصُّ بها، كالجبَّار والقهَّار والمتعال، ونحوها من صفات الجلال، فيجب على العبد الإقرار بها والخضوع عندها. وله جلَّ شأنه أسماء وصفات؛ كالرحيم والكريم والشكور والغفور، ونحوها من صفات الجمال، فيجب الاقتداء بها، والتحلِّي بمعانيها. ولا يبعد أن يكون للعبد حظٌّ من صفات الجلال أيضاً، فيتكبَّر على أعداء الله عزَّ وجل، وينتقم لله، ويقهر لله. وهكذا فيكون متحلياً بالصفات كلِّها على حسب حاله، ومقدار مايتَّفق وعبوديته لمولاه ذي الجلالة والإكرام، والجبروت والسلطان. وقد يكون حَسَناً وجميلاً أنَّ نفس التخلُّق بأخلاق الله تعالى، التخلُّق بالآداب النبويَّة والشمائل المحمديَّة التي أدَّب اللهُ بها نبيَّه فأحسن تأديبه، وهذَّبه بها فأكمل تهذيبه، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين، ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين» انتهى.

(١) رواه البخاري (٣٦١١)، ومسلم (١٠٦٦) كلاهما من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه مرفوعاً.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

المعاصي، ولكن شتَّان ما بين العاملين والغافلين.

كثرة أسماء الله وصفاته

ولا تَحْسَبَنَّ الحديثَ يحصرُ أسماءَه تبارك وتعالى في تسعةٍ وتسعين، بل هو يُبشِّر مُحصيها بدخول الجنّة مع السابقين الأوَّلين كما أوضحنا. وإلا فأكثر أسمائه صفاتٌ، وصفاتُهُ تعالى لا تتناهى.

وفي الحديث: «أسألك بكلِّ اسمٍ هو لك سَمَّيتَ به نَفْسَك، أو أنزلته في كتابك، أو علَّمته أحداً منْ خلقك، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندَك، أن تجعلَ القرآنَ ربيعَ قلبي، ونُورَ بصري، وجِلاءَ حُزني، وذهابَ همِّي»[١].

الحكمة في الاقتصار على هذا العدد

والحكمة في الاقتصار على هذه العدة، أنَّها الأسماء الجوامع، الدَّالة على ما عَدَاها، ممَّا لا يُحصيه إلا الله تباركت أسماؤه وَجَلَّت آلاؤه.

وَيُؤْثَر عن بعض الحُكماء أنَّ العددَ زَوْجٌ وفردٌ، والفردُ أفضل من الزوج، ومنتهى الإفراد من غير تكرار تسعة وتسعون؛ لأن مئة وواحداً يتكرَّر فيه الواحد، وإنَّما الوتر أفضل من الشَّفع؛ لأنَّ الأول من صفات الخالق، والثاني من صفات المخلوق؛ ولأن الشَّفْعَ يحتاج إلى الوتر من غير عكس.

وقد يؤيِّد هذا قوله صَلوات الله عليه: «مئة إلا واحداً» بعد قوله: «تسعة وتسعين»، دفعاً لشبهة التصحيف في الخطِّ والسمع، بين التسع والسبع. وفي

---

(١) رواه أحمد ١: ٣٩١ الميمنيَّة (٣٧١٢) (٤٣١٨) طبعةمؤسسة الرسالة، وهو حديث ضعيف كما قال الدارقطني في «العلل» ٥: ٢٠١؛ وذلك لجهالة أحد رجال إسناده، وهو أبو سَلَمة الجُهني، فلم يتبيَّن لأئمة الجرح والتعديل من هو، وقد انتهى الأستاذ شعيب إلى تضعيف الحديث في تعليقه على «مسند أحمد» بعد أن صحَّحه في تعليقه على «صحيح ابن حبان» ٣: ٢٥٣ (٩٧٢) بسبب التفريق بين أبي سلمة الجُهني وموسى الجُهني، حيث جزم بأن سلمة الجهني هو موسى الجهني الثقة. وانظر: التعليق على «المسند» ٦: ٢٤٧ ـ ٢٥٠.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

هذا البدل من توكيد الكلام، ونصوع البيان، ما لا يَخْفى على ذي لبٍّ[١].

الله وترٌ يحبُّ الوتر

ومعنى الوتر في حقِّه سبحانه: أنه واحدٌ في ذاته، لا يقبل الانقسام والتَّجْزِئة، واحدٌ في صفاته، فلا شبيهَ له ولا مَثيل، واحدٌ في أفعاله، فلا ظهيرَ له ولا مُعين.

ومعنى محبَّته للوتر: إثابتُه على الإيتار المشروع في الأعمال، ورضاه عن ذلك أكثر من غيره؛ لأنه رمزٌ لوحدانيَّته، وعنوانٌ على كبريائه وعظمته؛ ولذلك خلق السموات سبعاً، والأرضين سبعاً، وأيام الأسبوع سبعاً، وجَعَل أركان الإسلام خمساً، وفرض الصَّلوات خمساً، وجعل أعداد ركعاتها سبع عشرة.

ثمَّ اقتدى به إمام الموحِّدين صلوات الله وسلامه عليه، فأمر بالإيتار في كثير من الأعمال والطاعات، كالطَّهارة وختام الصَّلوات، وتكفين الأموات، وأمرَ أن نجعلَ آخر صلاتنا من الليل وِتْراً؛ لنختم الليل كما ختمنا النهار، برمز الوحدانية وهو الإيتار.

أسماء الله سبحانه توقيفيَّة

ثمَّ لا خلافَ بين الثقات من العُلماء أنَّ أسماءَه تعالى توقيفيَّةٌ، فما لم يَرِدْ إطلاقُه عليه سبحانه في الكتاب أو السُّنَّة أو الإجماع، لا تجوز تسميته به، وإن صحَّ معناه، فتقول: يا رحيم. ولا تقول: يا رفيق، وتقول: يا قويّ. ولا تقول يا جليد، وتقول: يا كريم. ولا تقول: يا سخي؛ فإن ذلك من الإلحاد في أسمائه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾[٢]. وهم الذين

---

(١) من لطائف المصادفات أو الأوهام أن يُكتب هذا الحديث للجزء التاسع في الشهر التاسع، فيكون تجاور التسعتين عِدَّة أسماء الله الحسنى (طه).

(٢) سورة الأعراف: ١٨٠.

الجديد و طهارة NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

يعدلون عن الحق، فيشركون به سبحانه، أو يُسَمُّونه بما لم يُسَمِّ به نفسه، أو بما لا يُعرف معناه، جلَّت أسماؤه، وتعالت صفاته[١].

هذا، ولم تُذكر الأسماء في الصحيحين، وإنما وردت في الترمذي وغيره[٢]. قال صاحب «الفتح»: «ورواية الترمذي هي أقْرب الطرق إلى الصحة، وعليها عوَّل غالب مَنْ شرَح أسماءَ اللهِ الحُسنى»[٣]، ثم ساق الرواية، وهي مشهورةٌ ميْسورة.

أمثل خطة وأحكم أسلوب

وبعد؛ فهل رأيت خطَّة أمثل وأقْوم، أو أسلوباً أجل وأحكم، أو دعوة إلى التوحيد أشْيَع وأذْيَع من هذه التعاليم الزاكية النامية التي يُحيي بها النَّبِيُّ ﷺ كلمة الحق، ثمَّ يُثَبِّتُها ويُنَمِّيها، حتى تَدخلَ كلَّ قلب، وتملأ كلَّ نفس، وتختلط باللحم والدم، من الرأس إلى القدم؛ لئلا يقوم العبد إلا عليها، ولا يتحرَّك أو يسكن إلا بها، فهو يُبرزها ويُمثِّلها في الأحوال كلِّها، دقيقها وجليلها؟!

ولِمَ لا تتبوَّأ هذه المنزلة، وهي رسالة الله التي أرسل بها رسله، ووصيَّته التي أقام عليها شرعه. ثم هي مفتاح كلِّ خيرٍ ونعمة، ومِغْلاق كلِّ شر ونقْمة، ولولاها لَفَسدَت السَّموات والأرض ومَنْ فيهنّ؟!.

لقد رعاها ﷺ حقَّ رعايتها، وتعهَّدها كما ينبغي لها، حتى رَسَا أصلُها، وسَمَا فَرعها، وآتت أُكلَها كلَّ حين بإذن ربِّها.

ولعلَّ هذا هو السرُّ الأعظم والمقْصودُ الأجلُّ الأكرم الذي يتكشَّف لك

---

(١) انظر ما كتَبْتُه بإسهاب في تعليقاتي على كتاب «العقيدة الإسلامية» للمكِّي بن عزُّوز ص ٢٦٦ ـ ٢٧٢.

(٢) الترمذي (٣٥٠٢)، وابن حبان (٢٣٨٢)، وابن ماجَهْ (٣٨٦١).

(٣) فتح الباري ١١: ٢١٩.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عندما تطالع وَجْهَ هذا الحديث بعد النظرة الأولى، وأكبر العلم أنه:

يزيـــدك وَجْهُـــه حُسْـــناً إذا مـــا زِدْتَـــهُ نَـــظَراً

ولكنَّا نقف عند نهاية الصفحات الثلاثة[1]؛ لأنه تعالى وترٌ يحبُّ الوتر.

* * * * *

(١) كما في صفحات المجلة المطبوعة، أما هنا فهي تسع صفحات مع تعليقاتي.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ظنُّ العبد بربِّه *

٣٨ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبُّي ﷺ: «يقول الله تعالى: أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا مَعَه إذا ذكرني، فإنْ ذَكَرني في نفسه: ذكرتُه في نفسي، وإنْ ذَكَرني في ملأٍ: ذكرتُهُ في ملأٍ خيرٍ منهم، وإنْ تقرَّب إليَّ شبْراً: تقرَّبت إليه ذراعاً، وإن تقرَّب إليَّ ذراعاً: تقرَّبت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي: أتيتُه هرولةً». رواه الشيخان[1].

المفردات:

الظنُّ: إدراكٌ فوق الشَّك ودون اليقين، وقد يَرِدُ بمعنى اليقين والاعتقاد كما هنا، وأكبر الظنِّ أنَّ إيثاره على اليقين رمزٌ إلى أقلِّ درجات الثقة بالله تعالى والرجاء فيه، وهي أن تبلغَ من العبد مَبْلغ الظنِّ الغالب، فلن يُقبلَ منه ما دون ذلك، وفي هذا من الرحمة والحنان بالعبد ما لا يخفى على بصير.

وعند: ظرف يفيد القُرب حِسًّا أو معنىً. ومن أفصح الأساليب وأجزلها: «أنا عند ظنِّك»، أي: أنا لك أو عليك كما تظن فيَّ، إنْ خيراً فخير، وإنْ شراً فشرٌّ.

ومع: ظرفٌ يفيد المُصَاحَبَة حِسًّا أو معنى كذلك.

والمعيَّة إذا أُضيفت إليه سبحانه فهي على وجهين: معيَّة علم وإحاطة،

---

* مجلة الأزهر، العدد العاشر، المجلد السادس عشر، (١٣٦٤ = ١٩٤٥).

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد (٧٤٠٥)، ومسلم في أول الذكر والدعاء (٢٦٧٥).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ومراقبة وقدرة، كالتي في قوله عزَّ سلطانه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[(١)].

ومعيَّة حفظ ورعاية، ورحمة وولاية، كالتي هنا، والتي في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[(٢)].

وذكر الله تعالى: تَذَكُّرُه بآلائه وآثاره، والثناءُ عليه بما هو أهله قولاً وعملاً واعتقاداً. وقد بيَّنا في شرح الحديث: «مثلُ الذي يذكر ربَّه، والذي لا يذكر ربَّه، مثل الحيِّ والميِّت»[(٣)]، إنَّ كلَّ طاعة لله، فهي ذكرٌ له.

والمَلأ: جماعةُ الأشراف؛ لأنهم يَملؤون العيونَ أبهةً، والصُّدورَ هَيْبةً وَجَلالاً، أو الجماعة مُطْلقاً كما هنا. وجمعه: أملاء، كَسَبَب وأسباب.

وذكر الله للعبد في نفسه: كنايةٌ عن إثابته إيَّاه بما لا يطَّلع عليه أحدٌ من خلقه، وذكرُهُ سبحانه للعبد في الملأ: كنايةٌ عن الثناء عليه، وإعلان مكافأته.

[**والباع** : قدْر اليدين مفتوحتين مَمْدودَتَيْن، والصَّدْر بينهما]

والهَرْوَلة : الإسراع في المشي[(٤)].

وإضافة هذه الأمور إليه سبحانه من قبيل المجاز والتمثيل، تقريراً للمعاني وتصويراً لها في أجمل صورةٍ، وأحسن تقويم[(٥)].

---

(١) سورة الحديد: ٤.

(٢) سورة النحل: ١٢٨.

(٣) سبق تخريجه وشرحه في فضل الذكر ص٣٤٩.

(٤) قال ابن الأثير في «النهاية» ٥ :٢٦١ في تحديد معنى الهَرْوَلة، والمعنى العام للجملة: «الهَرْوَلَة: بين المشي والعَدْو ـ أي الركض، وهو كنايةٌ عن سُرعة إجابة الله تعالى، وقبول توبة العبد ولطفه ورحمته».

(٥) ونقل الإمام الترمذي رحمه الله تفسيره ـ عَقِبَ روايته له ـ عن الأعمش أحدِ رواة هذا الحديث، وهو إمامٌ مشهور بالقراءات ورواية الحديث، توفي سنة بضع وأربعين ومائة، =

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

والمراد: أنه من أتى بقليل الطاعة كافأه الله بجزيل الأجر والعطاء، وكلَّما ازداد فيها ضاعف الله له المثُوبة والجزاء، ولكن أين هذا الكلام، من كلام الملك العلَّام ذي الجلال والإكرام؟!.

وإنْ سَلَكْتَ سبيل السَّلف، ففوِّض التأويل إلى الله تعالى، مؤمناً بكمال تنزيهه، وأن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾(١).

الفرق بين الحديث القدسي والقرآن:

وبعد؛ فهذا حديثٌ من الأحاديث القدسيَّة التي يرويها النبيُّ ﷺ عن ربِّه عزَّ وجل.

وبحَسْبنا هنا أن نفرِّق بين الحديث القدسي، والقرآن الكريم، بأنَّ هذا أُوحيَ بلفظه ومعناه للإعجاز؛ والتحدِّي، إلى الهداية به، والتعبُّد بتلاوته: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾(٢)؛ وذاك أُوحي إليه

قال: «ويُروى عن الأعمش في تفسير هذا الحديث: «من تقرَّب مني شبراً تقرَّبت منه ذراعاً» يعني: بالمغفرة والرحمة، وهكذا فسَّر بعض أهل العلم هذا الحديث. قالوا: إنما معناه إذا تقرَّب إليَّ العبدُ بطاعتي وبما أمرت، تُسارع مغفرتي ورحمتي». ونحو هذا التفسير قولُ قَتَادة عقب روايته للحديث: «فالله تعالى أسرع بالمغفرة» كما في «المسند» ٣: ١٣٨(١٢٤٠٥). وتوفي قتادة قبل الأعمش بنحو ثلاثين سنة.

وقال النووي رحمه الله في «شرح مسلم» ١٧: ٣: «هذا الحديث من أحاديث الصفات، ويستحيل إرادة ظاهره. ومعناه: من تقرَّب إليَّ بطاعتي تقرَّبتُ إليه برحمتي والتوفيق والإعانة، وإنْ زاد زدتُ، فإن أتاني يمشي وأسرع في طاعتي: أتيتهُ هرولةً. أي: صَبَبْتُ عليه الرحمة، وسبقتُه بها، ولم أُحْوِجه إلى المشي الكثير في الوصول إلى المقصود. والمراد: أنَّ جزاءه يكون تضعيفُه على حَسْب تقرُّبه».

(١) سورة الشورى: ١١.

(٢) سورة الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ﷺ لمُجَرَّد البشارة أو النذارة، وله أن يرويَه بمعناه فحسب، وإن نزلَ بلفظٍ إلهيٍّ كريم[١].

حُسْن الظنِّ بالله تعالى

وأهم ما يعرضُ له الحديث ـ ونحن مُضْطرُّون إلى الإيجاز ـ أمران خطيران يُحدِّدان مقامَ العبد بربِّه، ومعاملة العبد له، وهذا متَّصل بسابقه اتِّصال الثمرةِ بالشَّجرة، والغايةِ بالوسيلة، فإنْ ظنَّ بالله خيراً وَجَدَه خيراً، وإنْ ظنَّ به غير ذلك فهو كما ظن، وعلى حَسَبِ ظنِّه بربه وثقته به، يكون تعظيمُه له وأدبُه معه.

وحُسْنُ الظنِّ به تعالى حقٌّ محتوم على كلِّ عبد، وفي كلِّ حال، ولا سيِّما المريض، ومن تأهَّب للقُدوم على مولى كريم، يعفو عن السيِّئات، ويُضاعف الحَسَنات، ويُنادي عبادَه الذين أسرفوا على أنفسهم: ﴿لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٢].

بين حُسْن الظنِّ والاغترار بالله والجرأة عليه

ولكن لا سبيلَ إلى حُسْن الظنِّ لمَنْ فرَّطوا في جَنْبِ الله، مُغْترِّين بربِّهم الكريم، ناكبينَ عن صراطه المستقيم.

وفي هؤلاء يروي البخاري في «تاريخه» قولَه ﷺ: «ليس الإيمان بالتمنِّي ولكن ما وَقَرَ في القلب، وصدَّقه العمل، وإنَّ قوماً ألهتهم أمانيُّ المغفرة حتى

---

(١) انظر في تعريف الحديث القدسي، وهل لفظه ومعناه من الله عز وجل، أو لفظه من النبيِّ ﷺ ومعناه من الله تعالى؟ ما كتبه أستاذنا العلامة المحقِّق الشيخ محمد عوَّامة حفظه الله في عافية وسرور في مقدمة كتابه الحافل النافع «من صحاح الأحاديث القدسية» ص ٧ ـ ١٧.

(٢) سورة الزمر: ٥٣.

الجديد و طهارة NEW & EXCLUSIVE

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

خَرَجوا من الدنيا ولا حسنةَ لهم، وقالوا: نحن نحسن الظنَّ بالله تعالى، وكذبوا. لو أحسنوا الظنَّ لأحسنوا العمل»[(١)].

وشتَّان بين حُسْن الظنِّ بالله، والاغترار به والجُرأة عليه.

من ثمرات حُسْن الظنِّ بالله

ومن ثمرات حُسْن الظنِّ بالله ـ كما ألمحنا إليه آنفاً ـ: حُسْنُ معاملة العبد له، وكريمُ أدبه معه، فيؤدِّي فرائضَه كما أمر، ويتركُ معاصيه كما نهى، ويتقرَّبُ إليه بالنوافل كما نَدَب، ويُكثِرُ من ذكره كما أحبَّ، حتى يكون الله معه بنصره ومعونته، وتأييده ورحمته. ومَنْ بلغ هذه المنزلة، فقد انتظم في سِلْك الصِّدِّيقين الذين يُباهي الله بهم الملائكة.

وقد يتشوَّف لهذه المنزلة قومٌ سمَّوا أنفسهم بالمتصوِّفة، أو حَشَروا أنفسهم في الذاكرين، وليسوا من هؤلاء ولا أولئك في شيء، اللهمَّ إلا أنْ يثوبوا إلى رُشدهم، فيعرفوا المذكور أولاً، ثم يذكروه بما شرَع لعباده، وارتضى لعبادته، ودعَا إليه على لسان رَسُولِه ﷺ.

---

(١) هذا الحديث لا يصحُّ رفعه ونسبتُه إلى النبيِّ ﷺ، وإنما هو من كلام الحسن البصري رحمه الله تعالى، أورده ابن أبي شيبة في «المصنَّف» بتحقيق العلامة المحقق الشيخ محمد عوامة برقم (٣٠٩٧٧) من طريق جعفر بن سليمان، عن زكريا، قال: سمعت الحسن البصري ..، والخطيب البغدادي في «اقتضاء العلم العمل» رقم (٥٦) من طريق محمد بن عبد الملك الدقيقي، عن عبيد الله بن موسى، عن أبي بشر الحلبي، عن الحسن. وذكره الشيخ ابن تيمية في «فتاواه» ٧ :٢٩٤ من طريق عباس الدوري، حدثنا حجاج، حدثنا أبو عبيدة الناجي. وذكره الحافظ ابن رجب أيضاً في «لطائف المعارف» ص٤٠٢ من كلام الحسن البصري.

وتتمة الحديث: «وإنَّ قوماً ألهتهم أماني المغفرة..» من كلام الحسن البصري أيضاً، كما نسبه إليه ابن كثير في «البداية والنهاية» ٩ :٢٦٨، والمناوي في «فيض القدير» ٥ :٦٧.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

نُصْرة الدين والجهاد في سبيل الله

ومن آثار حُسن الظنِّ بالله تعالى: نُصْرةُ دينه، والجهادُ في سبيله، وبَذْلُ النفس والنفيس في مرضاته، ثقةً به، وتوكُّلاً عليه، وإيثاراً لما عنده. وما كان الرُّسل صَلَوات الله وسلامه عليهم أكرمَ الناس، وأشْجَعَ الناس؛ إلا لأنَّهم أعرفُ الناس بربهم، وأوْثَقُهم به، وأعظمُهم توكُّلاً عليه: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾(١).

فَضْل الذكر الجهري

وإنَّما فضَّل الله سبحانه مَنْ ذكره في ملأٍ، على مَنْ ذكره في نفْسِه؛ لأنَّ الأوَّل أثنى على الله بما هو أهله، ودَعَا عبادَهُ إلى الثناء عليه، بقوله أو عمله أو بهما جميعاً، فكان خليقاً بأن يُذكر في الملأ الأعلى، وأن يُباهيَ الله به. والجزاءُ من جنس العمل، ولولا هذا، لكان الآخرُ مثلَه أو أفضلَ منه.

خيريَّة العالم العلوي

وقد استدلَّ بهذه الخيريَّة من ذهب إلى تفضيل الملائكة على خواصِّ البشر، وهو بحثٌ عريض له مجال غير هذا. على أنَّ خيريَّة العالم العلوي هنا إنَّما جاءت من طريق المعيَّة الإلهيَّة، وهي معيَّة الشَّرف الذي لا يُسامى، والكرامة التي لا تُدانى(٢).

---

(١) اقتباسٌ من الآية ٨١ من سورة النساء.

(٢) إنما صار الملأ الثاني خيراً من الملأ الأول، لأنَّ الله سبحانه وتعالى مع مَنْ يذكر هذا الذاكر. ونقل الحافظ في «الفتح» ١ : ٣٨٧ عن القاضي ابن الزَّمَلْكاني في «الجزء الذي جمعه في الرفيق الأعلى» قوله: «وإنما صار الذكر في الملأ الثاني خيراً من الذكر في الأول؛ لأنَّ الله هو الذاكر فيهم، والملأُ الذين يذكرون ـ والله فيهم ـ أفضلُ من الملأ الذين يذكرون وليس الله فيهم».

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

درجات الطاعة ودركات المعصية

والحقُّ الذي لا جِدَال فيه أنَّ العبد يصعد في درجاتِ الطاعة والطُّهر حتى يكونَ مَلَكاً كريماً أو أفضلَ منه، ويهبط في دركات المعصيةِ والدَّنَس حتى يصيرَ شيطاناً رجيماً أو أسفل منه. و«كلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له»(١).

* * * * *

(١) اقتباسٌ من الحديث الذي رواه مسلم (٢٦٤٩) في القدر من حديث عمران بن حصين.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

دعاء واستعاذة *

٣٩ ـ عن زيد بنِ أرقمَ رضي الله عنه قال: لا أقول لكم إلاَّ كما كان رسولُ الله ﷺ يقول. كان يقول: «اللهمَّ إني أعوذُ بكَ من العَجْزِ والكسلِ، والجُبن والبُخل، والهرَم وعذاب القبر. اللهمَّ آتِ نفسي تَقْواها، وزكِّها، أنتَ خيرُ من زكَّاها، أنت وليُّها ومَوْلاها. اللهمَّ إني أعوذُ بك من علمٍ لا ينفع، ومن قلبٍ لا يخشع، ومن نفسٍ لا تشبع، ومن دعوةٍ لا يُسْتَجَابُ لها». رواه مسلم[١].

شأن الدعاء

للدعاء في الإسلام، وهَدْيِ النبيِّ عليه الصَّلاة والسلام، شأنٌ عظيمٌ ومَقامٌ كريمٌ.

ألم تر إلى فاتحة الكتاب: أم القرآن وأعظم سورة فيه؟! شطرها الأول ثناء، وشطرها الآخر دعاء.

أوَلم تر إلى الرسول ﷺ؟! لم يكتف بأن يحدِّثنا أنَّ الدعاء أكرم شيء على الله تعالى[٢]، حتى حدَّثنا أنه هو العبادة[٣]، أو هو مخ العبادة[٤].

---

* مجلة الأزهر، العدد الثاني، المجلد الرابع والعشرون، (١٣٧٢ = ١٩٥٢).

(١) رواه مسلم (٢٧٢٢) في كتاب الذكر والدعاء..

(٢) رواه الترمذي (٣٣٧٠)، وابن ماجَهْ (٣٨٢٩)، وابن حبان (٨٧١)، والحاكم (١٨٤٤) كلهم من حديث أبي هريرة مرفوعاً بلفظ: «ليس شيءٌ أكرم على الله من الدعاء».

(٣) رواه أبوداود (١٤٧٩)، والترمذي (٣٢٤٧) و(٣٣٧٢).

(٤) رواه الترمذي (٣٣٧١) وقال: هذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه لا نعرفه إلا من =

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

والعبادة هي منتهى الخشوع والخضوع لله ربِّ العالمين.

وبِحَسَبِ إخلاص العبد فيها واستقامته عليها، ترتفع درجته، وتَشْرُف عند الله مكانته.

خمس آفات مهلكات

وفي هذا الحديث يستعيذ النبيُّ ﷺ، ويعلِّم أمَّته أن تستعيذ من خمس آفاتٍ مُهلكات، كلُّهنَّ شرٌّ يُتَّقى، وبلاءٌ يُستعاذ بالله منه، ثم يستعيذُ صلوات الله وسلامه عليه من عذاب القبر، وكأنه عاقبةٌ محتومةٌ للآفات السَّابقة، ونذيرُ سوء لما بعده من عذاب الآخرة، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾[1].

ثم يضرع لله تعالى أن يؤتيَه، ومن اتَّبع هداه التقوى، وأن يُطَهِّره من هذه الآفات، وما إليها، ويقْرن هذه الضَّراعة بالثناء عليه بما هو أهله، ثم يتحصَّن به ـ وهو نِعْم المَلْجأ ـ من أربع بلايا من كُفِيَهُنَّ فقد كُفِيَ الشرَّ كلَّه، وضرب في الخير بسهم وفير.

العجز والكسل

وقد زاوجَ النبيُّ ﷺ بين اثنين من هذه البلايا التي عاذ بالله منها لمشاكلةٍ بينهما.

فتعوَّذ أول ما تعوَّذ من العَجز والكسل، وكلاهما داءٌ وبيلٌ ومرضٌ قاتل للحياة الروحية والاجتماعية، بل للحياة الطيِّبة في الآخرة والأولى. ويتَّفقان كلاهما في صفة سلبيَّة، وهي التخلِّي عن العمل، وإن كان منشأ التخلِّي في العجز: عاهة أو نحوها، ومنشأ التخلِّي في الكسل: التقاعد والتثاقل عن العمل

حديث ابن لهيعة..

(١) اقتباس من الآية ١٢٧ من سورة طه.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

مع القُدرة عليه؛ إيثاراً لراحة البدن أو حظٍّ من حظوظ النفس وأهوائها.

ويختلفان في أنَّ الكسلان مذمومٌ ملومٌ لا عذر له؛ لأنه ساقط الهمَّة، خائر العزيمة، مُتخلِّف عن الرَّكب، بضاعته الأحلام والأماني، و﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾[1].

أما العاجز فهو معذورٌ إلى أمدٍ بعيد، ولا سيما عجز بمحض القضاء والقدر، لا يدَ لصاحبه فيه، كالذي يولد كذلك؛ أو الذي يصاب من حيث لا يحتسب. فأما من جَنَى على نفسه حتى أعجزها، أو حادَ بها عن طريق الجادة حتى أتلفها، فهو أعظم من الكسلان جرماً وأقبح إثماً وذماً!.

فَلْيَتَّقِ اللهَ امرؤٌ في نفسه، ولْيُجنِّبها بواعثَ العَجز والكسل، وإلاَّ فهو عُضوٌ فاسدٌ يجب النظر في إصلاحه أو بتره قبل أن يعدوَ فسادُهُ على المجتمع.

الجبن والبخل قرينان

وتعوَّذ ﷺ من الجُبْن والبُخل، وكلاهما منعٌ وشُحٌّ، غير أنَّ الأول شحٌّ بالنفس، والثاني شحٌّ بحبيب النفس، وهما قرينان لا يكاد يذكر أحدهما دون صاحبه، وكذلك ضدَّاهما: الشجاعة والكرم.

ومن أمثلة الاستدراك في مبادئ النحو: فلانٌ شجاع لكنه بخيل؛ وذلك لأنه لا تخطر الشجاعة بالبال إلا ومعها الكرم. وتعليل ذلك هيِّن، فإنَّ الكرم ضربٌ من ضروبِ الشجاعة.

ومردُّ الشجاعة بجميع صنوفها إلى الثقة بالله أولاً، ثم بالنفس ثانياً؛ ومن هنا كان الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أشجعَ الناس وأكرمَ الناس؛ لأنهم أوثق الناس بالله عزَّ وجل.

---

(١) اقتباس من الآية ٥٠ من سورة الكهف.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وجودُ الخليلِ والحبيبِ بالنَّفس والمال ليس موضعَ ريبة ولا جدال.

وكذلك ورثة الأنبياء مِنْ بعدهم، وكم ضحَّوا بالنفس والنفيس في سبيل أوطانهم، لا يبْتغون إلاَّ وجهَ الله، ولا يخشون أحداً سواه، فأما الجبناء والبخلاء، فليسوا من ورثة الأنبياء في شيء.

الهرم وعذاب القبر

وتعوَّذ ﷺ من الهرم وعذاب القبر. والهرمُ: أقصى السنِّ وأرذل العمر، والهَرِمُ على هذه الحال كَلٌّ ثقيلٌ على الأهل والولد، وبالحريِّ غيرهم. وكبرُ السن مع ثقَل الظلِّ داءٌ يُستعاذ بالله منه.

خيرُ الناس

فأما مجرَّد الكبر، ولو جاوز المئة مع سلامة العقل وهدوء النفس، واستطاعة العمل، فذلك خيرٌ يُطلب المزيد منه، فإذا اجتمع إلى تلك الصفات حِنْكةٌ وتَجْربة، وسَدادٌ في الرأي، ورُشْد في السياسة، ونور في البصيرة، وخشية لله وحده، فذلك الإمام المُقْتدَى به، والسِّراج الذي يُستضاء بنوره.

وفي مثل هذا يقول صلوات الله وسلامه عليه ـ فيما رواه الإمام أحمد في «مسنده» عن عبد الله بن بُسْر رضي الله عنه ـ : «خير الناس من طال عُمُرُه وحَسُنَ عَمَلُه»[1].

عذاب القبر ونعيمه حقٌّ

وعذاب القبر ونعيمُه كلاهما حَقٌّ، تَضَافرت الأدلة عليه، وصحَّت

---

(١) أخرجه أحمد في مسند عبد الله بن بُسْر المازني ٤ :١٨٨(١٧٦٨٠) و(١٧٦٩٨) وإسناده صحيح، وهذه الجملة: «خير الناس من طال عمره وحسن عمله» رواها أحمد أيضاً في مسند أبي هريرة (٧٢١٢)، وفي مسند أبي بكرة الثقفي (٢٠٤١٥).

الجديد و طُرفة NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الرواية فيه عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم في مواطن كثيرة، ولا يأبى دُستور العقل أن يعيدَ اللهُ تعالى حياةَ العبد في جسده أو في جزء منه، وأن يعرض عليه مَقْعَده بالغَداة والعشيِّ، إنْ كان من أهل الجنة فَمِنْ أهل الجنة، وإنْ كان مِنْ أهل النار فَمِنْ أهل النار، ويقال له: هذا مَقْعَدُك حتى يَبْعَثَكَ الله يوم القيامة[١].

وقاعدة أهل السنة والجماعة: أنَّ شيئاً وَرَدَ به نقلٌ قويم، ولم يمنع منه عقلٌ سليم، وَجَب قَبوله واعتقاده والإيمان به.

وكم من شيء أثبته العلم الحديث في عالم الأحياء، بعد أن أنكره قليلو البضاعة من أشباه العلماء، فكيف بهم في عالم الأموات، وبضاعتهم فيه مُزْجَاة؟!.

ألا إنَّ «القبر رَوْضةٌ من رياض الجنة، أو حفرةٌ من حفر النار»[٢]، فليعدَّ امرؤ قبرَه كما يشاء ويختار، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[٣].

التَّخْلية قبل التَّحلية

بعد أن تعوَّذ ﷺ من هذه الآفات التي تُهلك من يُبتلى بها ـ فرداً كان أو جماعة ـ ضَرَع إلى الله سبحانه أن يمنح نفسه تَقْواها له وخشيتها منه، وأن يزكيِّها

---

(١) اقتباسٌ من حديثٍ رواه البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦) كلاهما من حديث عبد الله بن عمر. ولفظه عند البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أحدكم إذا مات عُرِض عليه مقعدُه بالغداة والعشي؛ إن كان مِنْ أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان مِنْ أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعَثَكَ الله يوم القيامة».

(٢) اقتباس من حديث رواه الترمذي (٢٤٦٢) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّما القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار» وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(٣) اقتباس من الآية ٣٠ من سورة الإنسان.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ويُجمِّلها؛ لأنَّه القادر على ذلك وحده، فهو مالكُ أمرها، ومدبِّر شأنها، والقائم على كلِّ نفس بما كسبت، لا يسوق الخيرَ غيرُه، ولا يكشف الضُّرَّ أحدٌ سواه. إنَّ ضراعته هذه بعد استعاذته، من قبيل التحلية بعد التخلية، أو من قبيل الصحة بعد العافية.

تزكية النفس

وتزكية النفس: تطهيرُها سرًّا وعلانية من الخُبْث والدَّنَس، في عقيدة المرء وسلوكه ومعاملته، لنفسه أو لربِّه، أو لأهله وعشيرته، أو لوطنه وأمته والعالم أجمع.

التطهير العام الشامل

ولقد قام الإسلام على قواعد التَّطهير العام الشامل: فدعا إلى تطهير العقائد من دَنَس الشِّرك والكفر وعبادة غير الله عزَّ وجل، وإلى تطهير العقل من الخشوع والخضوع للخرافات والأوهام والأضاليل، وتقليد الآباء والكُبَراء على غير هُدًى وبصيرة، وإلى تطهير القلب من الحقد والحسد والغلِّ والشَّحناء والبغضاء، وما إلى ذلك من أمراضه الذاهبة به وبصاحبه. ودعا إلى تطهير المعاملات من الكذب والزُّور والرِّشوة والربا، والحرص والجَشَع والخِداع والطمع، وما إليها من أكل أموال الناس بالباطل، والعدوان عليهم في المال أو العرض أو النفس.

بُني الإسلام ـ ولا نقول سبق ـ على التَّطهير العام الشامل الذي لم يدع رذيلةً إلاَّ هدمها، ولا نقيصةً إلا مَحَاها، ثم شيَّد على أنقاض هذه الرذائل مدرسةً قويَّةَ الأركان، عتيدةَ البنيان، منهاجها الكتاب المبين، وإمامُها خاتم النبيين، وبنوها خيرُ أمة أُخرجت للناس[١].

---

(١) شرح المؤلف حديث عبادة بن الصَّامت: «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ...» تحت عنوان: التطهير في الإسلام. انظر: ص٧٣٤ ـ ٧٦١.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أربع آفات مهلكات

ولما كان النبيُّ في أمته، والإمامُ في رعيته، والقائدُ في جنده، كالطبيبِ الشفيق الناصح، وكان أخوف ما يخاف على مريضه الانتكاس والعياذ بالله تعالى؛ عاد ﷺ يتعوَّذ من أربع آفات أخرى، فيهنَّ فساد المرء ودنسه، ومنهنَّ يكون بلاؤه وانتكاسه. على أنه ﷺ كان يتعوَّذ أحياناً من هذه الأربع على حِدة، فقد روى الاستعاذة منها في حديثٍ مستقل الترمذيُّ والنسائيُّ عن ابن عمرو رضي الله عنهما(١)، وكذلك أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه(٢).

الآفة الأولى: علم لا ينفع؛ لأنه شرٌّ من الجهل، فإنَّ الجاهل قد يُعذر بجهله، وأما العالم الذي لم ينفعه الله بعلمه فهو فتنةٌ للناس ومَضلَّةٌ لهم؛ لأنه في موضع القدوة منهم، لا جَرَمَ أنَّ علمَهُ حُجَّةٌ عليه لا له، وأنه أشدُّ الناس خِزياً ومَقْتاً في الدنيا والآخرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾(٣).

الآفة الثانية: قلب لا يخشع؛ لخلوِّه من الإيمان واليقين، ولفساده باجْتراح السَّيِّئات والمعاصي، طَبَع الله عليه فلم يَلن لذكر الله، ولم يتَّعظ بمواعظ الله، ثم انتقل فساده إلى الجوارح؛ لأنه المهيمن عليها والمُحرِّك لها.

وفي حديث الصحيحين المعروف: «ألا وإنَّ في الجسد مضغةً، إذا صَلَحَت صَلَحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فَسَدَت فَسَدَ الجسد كلُّه، ألا وهي القلب»(٤).

الآفة الثالثة: نفسٌ لا تشبع؛ لجَشَعها وطمعها، فهيَ وَبَالٌ على صاحبها

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٧٨)، والنسائي (٥٤٤٢).

(٢) أخرجه أبو داود (١٥٤٨)، والنسائي (٥٤٦٧).

(٣) سورة الصف: ٢ـ٣.

(٤) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ومُتْعبةٌ له، لا تدعه يتمتَّع بما أُوتي من نعمة ومتاع، لا يتمتَّع بنعمة عاجلة لأنه مشغول عنها بالآجلة، ولا يتمتَّع بنعمة آجلة لأنها لم تأت بعد، لا جرم أنه الشقيُّ المحروم الذي سُلب نعمة الرِّضا، وملئ قلبُه بحبِّ الدنيا، وحب الدينار رأس كل خطيئة.

الآفة الرابعة: دعوةٌ لا يستجاب لها، أو: «دعاء لا يُسمع» كما في الرواية الأخرى؛ لأنَّ عدم الاستجابة أمارة إعراض الله عن العبد لإعراض العبد عنه.

من أسرار تأخير الإجابة

وينبغي أن يعلم أن تأخير الإجابة ليس دليلاً على ردِّ المسألة، فقد تؤخَّر لأسرار إلهيَّة.

منها: أن الله يُحب أن يسمع صوت الداعي وتضرُّعه، كما أنه ليس من شرط الإجابة أن تقضى حاجة العبد نفسها، فربَّما ادَّخرها الله له في الآخرة، وربَّما صرف عنه من السُّوء مثلها. فلا ييأس العبد من رَوْح الله، وليدعُ ربَّه صادقَ النيَّة، حاضرَ القلب، طيِّبَ الكسب، موقناً بالإجابة.

وقد بسطنا القول في أدب الدعاء، في شرح حديث الصحيحين: «يُستجاب لأحدكم ما لم يعجل»(١)، فلا حاجة بنا إلى إعادته.

إرشاداتٌ وتنبيهاتٌ

ذلك، وينطوي الحديث على لطائفَ جمَّةٍ، وإرشاداتٍ كريمة، إذا لم يتَّسع المقام لتفصيلها كلها، فلا أقلَّ من التنبيه على بعضها.

فمنها: أن التحصُّنَ من الآفات والبلايا، بالدعوات والاستعاذة، بمنزلة الوقاية منها قبل وقوعها، ومثل الأمراض الروحيَّة والاجتماعيَّة كمثل الأمراض

---

(١) انظر: تخريجه وشرحه في «أدب الدعاء» ص٣٥٧.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الجسمية، الوقاية في كلٍّ منها خير من العلاج. فإذا وقع شيءٌ من هذه الأدواء، وجد أنَّ جانبه الأدوية التي أنزلها الحكيم الخبير ضامنةً للشفاء. ومتى أصاب الدواء موضع الداء برأ بإذن الله.

وما مثل الضمان الاجتماعي الذي تتباهى به الأمم بجانب هذا الضمان الإلهي إلاَّ كمثل القشر من اللب، أو كمثل الزَّبَد من الزُّبد، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾[١].

ومنها: شدَّةُ الصحابة رضي الله عنهم في تحرِّي الرواية عن رسول الله ﷺ، أخذاً من قول زيد رضي الله عنه: لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله ﷺ يقول.. وحَسْبُ زيد شرفاً وتحرِّياً أنَّ الله تعالى صَدَّقه لما رفع إلى النبيِّ ﷺ قول عبد الله بن أُبيّ رأس المنافقين: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾[٢]. وقد أكذبه ابن أُبيٍّ وحلف، فأنزل الله تصديقه؛ وأخذ ﷺ بأذنه، وقال: «وفت أذنك يا غلام»[٣]. ولبسط القصة مقام آخر غير هذا المقام[٤].

ومنها: الإشارة إلى فَضْل الدعاء والاستعاذة، وعظيم أثرهما في تزكية النفس وتربيتها، وصلتها بربها ومالك أمرها وناصيتها، ولا سيِّما مع الدوام الذي تشير إليه صيغة: «كان..».

---

(١) سورة الأحزاب: ٤.

(٢) سورة المنافقون: ٨.

(٣) أخرجه البخاري (٤٦٢١)، (٤٦٢٣)، ومسلم (٢٧٧٢)، ولفظه عند البخاري من حديث طويل: «...وقال: «إن الله قد صدقك». وفي لفظ آخر من حديث أنس، قالوا: هو الذي يقول رسول الله ﷺ: «هذا الذي أوفى الله له بأذنه».

(٤) انظرها في حديث: «دعوى الجاهلية» ص٦٩٨.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

فاللهمَّ هذا الدعاء، وعليك الإجابة، وهذا الجَهْد، وعليك التُّكلان. «اللهمَّ اهدنا لأحسن الأعمال، وأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، وقنا سيِّئَ الأعمال، وسَيِّئ الأخلاق، لا يقي سيِّئها إلا أنت»[(١)]، ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾[(٢)].

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

---

(١) اقتباس من حديث رواه مسلم (٧٧١)، وأبو داود (٧٦٠)، والترمذي (٣٤٢١)، والنسائي ٢: ١٢٩ (٨٩٦)، وابن ماجَهْ (٧٢٩)، وابن حبان (١٧٧٢) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال: «وجَّهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً..».

(٢) سورة الكهف: ١٠.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفصل الرابع

الأسرة والمرأة

١ ـ الظَّفَر بذات الدين.

٢ ـ النساء في العهد النبويِّ.

٣ ـ الإحسانُ إلى البنات.

٤ ـ جهاد النساء.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الظَّفَر بذات الدين*

٤٠ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «تُنكح المرأةُ لأربع: لمالها، ولحَسَبها، ولجَمَالها، ولدينها، فاظْفَر بذاتِ الدِّين، تَرِبَتْ يَدَاك». رواه الشيخان(١).

المفردات:

الحَسَب: ما يعدُّه الناس من مفاخر الآباء، مأخوذٌ من الحساب؛ لأنهم كانوا إذا تفاخروا عدُّوا مناقبهم ومآثرَ قومهم، ثمَّ حكموا لمن كان أكثرهم مناقبَ وأوفاهم شرفاً.

والحَسَب أيضاً: الفِعَال الحسن، كالجود، والشجاعة، وحُسن الخلق. وقد حسب حسباً، فهو حسيب.

وتربت يداه: في أصل كلامهم دعاءٌ عليه، كأنه افتقر حتى لصق بالتراب. لكنهم أكثروا استعمال هذه الكلمة، وتوسَّعوا فيها حتى أخرجوها عن حقيقتها؛ قصداً إلى الإنكار، أو التعجُّب، أو التعظيم، أو الحث كما هنا.

وللعرب كلماتٌ تجري على ألسنتهم، ولا يريدون بها معناها الأول. ومن هذا القبيل: قاتله الله؛ لا أب له، لا أم له.

* مجلة الأزهر، العدد التاسع، المجلد الخامس عشر، سنة (١٣٦٣).

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩٠)في النكاح، ومسلم (١٤٦٦) في الرضاع.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

عادات الناس في الزواج

يحدِّثنا صلواتُ الله وسلامه عليه عن عادات الناس في الزواج، ويُحلِّل رغباتهم فيه، تحليلاً لا يدع لباحث قولاً؛ يبيِّن أنَّ مقاصدَ الناس في النكاح ـ على اختلاف نزعاتهم، وتعاقب أعصارهم ـ على أربعة أنحاء؛ فإما أن تُقصد المرأة لمالها ليستمتع به الزوج في حياته، ويورثه أولاده منها بعد مماته، ويخفِّف به أثقال العيش وأعباء الحياة. وإمّا أن تُراد لحسبها، يبتغي زوجها العزة بقومها والمنزلةَ بشرفها وجاهها؛ والمصاهرة لُحمةٌ كلحمة النسب. وإما أن تُرغب لجمالها، إذا كان الزوج عبدَ الهوى وأسير الشهوات.

سوء اختيار الزوجة ومغبته

تلك شؤون الكثرة الكاثرة من الناس، إذ يَقْصدون إلى النكاح. وما أسوأ العاقبة، وأنكد الحياة، إذا استحوذت المرأة على الرجل، فاستعبدته بمالها، أو اقتنصته في شَرَك حسبها وجمالها!. هنالك تكون هي القيِّمة على الزوج، والحاكمة بأمرها، والمُستْبدَّة برأيها، ويكون الزوج هو العبدُ المطيع، والذليل المُسَخَّر لما تريد المرأة وتهوى، وهنالك الطامّة الكبرى، والبلاء الأعظم.

اختيار المرأة الصالحة وأثره

أما الكَمَلَةُ من الرجال ـ وما أقلَّهم ـ فهم الذين يرغبون في المرأة لدينها؛ فيجدون فيها السَّكَنَ لنفوسهم، والطّمأنينة لقلوبهم، والأمن على أموالهم وأعراضهم.

ذلك بأنَّ الحَسَب عندهم هو التُّقى، وأن الغنى غنى النفس، وأنَّ الجمال هو جمال الدين والخُلُق.

لكنَّ الله تعالى يهبُ لهم من ذوات الدين ما فقدوا وخيراً ممَّا فقدوا؛ من ذوات الحَسَب والنسب، وربّات المال والجمال.

الجديد و حصري NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وفي الدين الخير كلُّه لمن باع الحياةَ الدنيا بالآخرة فربحهما جميعاً. وفي الدنيا الشرُّ كله لمن اشترى الفانية بالباقية، فخسرهما جميعاً؛ ومصداق ذلك ما رواه الطبراني في «الأوسط» عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «من تزوَّج امرأةً لعزِّها لم يزده الله إلا ذلاً، ومن تزوَّجها لمالها لم يزده الله إلا فقراً، ومن تزوَّجها لحسبها لم يزده الله إلا دناءةً، ومن تزوَّج امرأةً لم يرد بها إلا أن يغضَّ بصره، ويُحْصِنَ فرجَه، أو يَصِلَ رَحِمَه، بارك الله له فيها، وبارك لها فيه»[1]. وفي تجاريب الحياة مُعتَبرٌ وذكرى.

علاوة في الفضل وزيادة في الحُسنى

وغنيٌّ عن البيان أنَّه صلوات الله وسلامه عليه إنما يرغِّب عن ذوات الحسب، والنسب، والجمال، إذا عَرَيْن عن الدين، وتَجَرَّدن من فضائله. وأما إذا تحلَّت ذاتُ الدين بخصلةٍ من الخصال الثلاث، أو بهنَّ جميعاً فذلك علاوة في الفضل، وزيادة في الحُسنى، لا يأباها الدين الحنيف، بل يدعو إليها؛ ومن ثمَّ نراه ينفِّر من نكاح المرأة الوضيعة الحَسَب، أو المجهولة النَّسب إلا من أمثالها؛ لأنَّ العرقَ دسَّاس، وكلُّ إناء بما فيه ينضح، كما نراه يرغِّب في النظر إلى المرأة حين خطبتها؛ خشيةَ أن يُخدع فيها، فيعاشرَها على مَضَضٍ، أو يفارقها على نكد.

وقد حظيت أمهات المؤمنين ـ لا سيما خديجة وعائشة، رضوان الله عليهن ـ بهذه المناقب أو أكثرها، مضافة إلى الدين والخُلق والأسوة الحسنة والتربية الرشيدة. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وجملة القول: أنَّ الدين هو الأساس الأول، لمن يختارها الرجل شريكةَ

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٣٤٢). وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٤ :٢٥٤ فيه عبد السلام بن عبد القدوس بن حبيب، وهو ضعيف.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

حياته، وموضع ثقته، ومثابةَ هناءته وسعادته، فإذا حظي فيها بمنقبة فوق ذلك، فما أخلقه بشكر النعمة وتقوى الله فيها.

بم تعرف المرأة الصالحة؟

وتُعرف ذات الدين بالمَنْبت الكريم، والبيئة الصَّالحة، والبيت التَّقي المُهَذَّب، والسيرة النقيَّة الطاهرة.

ومهما أَوْغَل الناس في الفساد والغش، وَسَرَتْ عَدوى الرذيلة إلى الفضيلة، واشتبهت المسالك، فإنَّ للصلاح نوراً يُبدِّد الظلام، ويخترق الحُجُب، ويدلّ روّاده عليه، ويهديهم السبيل إليه. فإن عَثَر ـ بعد قصد صحيحٍ ـ ذو قلب سليم، وطويَّة صالحة ـ وقلَّما يعثر ـ فسرعان ما يقوم على قدميه مطمئنة نفسُه، ذاهبة كربته ﴿وَٱلۡعَـٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾[١].

ويتَّصل بالأغراض السابقة ما نرى الآن، من ثقافات المرأة المختلفة، وفنون تربيتها المتكاثرة. فما كان منها في الخلق والأدب، وواجبات الزوجية والأمومة، وحقوق البيت والولد، فهو راجع إلى دينها.

وما كان منها ـ وهو الأعمُّ الأغلب ـ في فنون العيش، ومزاحمة الرجال، وضُروب الزينة، ومفاتن الحياة، فهو مردودٌ إلى المقاصد الأخرى في زواجها.

والذي نعنيه أنَّ النبيَّ ﷺ قد أبان أمهات الأغراض في النكاح، وأنَّ ما جدَّ في المدنية الزائفة، والحضارة المقيتة، فهو متشعِّب عنها ومردود إليها، وأنَّ الدين ـ ومنه التربية الرشيدة ـ لا يزال هو المقْصد الأسمى، والمَطْمح الأعلى، لمن يبتغي عِزَّةً خالصة، وحياة طيبة.

---

(١) سورة طه: ١٣٢.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

اختيار الرجل الصالح

وكما ينبغي للرجل أن يبحث عن ذات الدين فيظفر بها، ينبغي كذلك للمرأة أو وليِّها أن يتخَّير ذا الدين والخُلق فيظفرا به. وهنالك توضع اللبِنَةُ الأولى في بناء البيت الصالح التقي، والأسرة الكريمة المهذَّبة، بل الأمة المرهوبة الجناب، الرفيعة المنزلة.

الكفاءة بين الزوجين

ومما هو جدير بالنظر، رعاية المشاركة بين الزوجين في حظوظ هذه الدنيا؛ فقد حدثنا التاريخ، وأرتنا المشاهدات، أنَّ المرأة لا تحتفل بمن كان دونها حَسَباً، أو مالاً، أو ثقافة؛ فَتَضْطرب الحياة الزوجية حينئذ، وتسوء مغبتها، وأما إذا كان الزوجُ أكثرَ مالاً وأعزّ نفراً، فهو الرجل عندها كلّ الرجل.

ولما كان للحَسَب من بين الحظوظ مكانته الأولى، قدَّرته الشريعة الغرّاء قَدْره، وحلَّت عقدة النكاح، إذا خُدِعت المرأة بزوجٍ لم يكن لها كُفُئاً.

تنشئة البنت على الدين والخُلُق

وكما في تعبيره ﷺ بالظَّفر ـ الذي هو البُغْيَةُ ومُنْتَهى الأمل ـ إثارة للرغبة الصَّادقة في المرأة الصالحة، فيه كذلك إشارةٌ واضحة إلى أولياء البنت والقوّامين عليها، أن يُنَشِّئوها على الدين والفضيلة، وحقوق الزوج والمنزل. فلْيعلموا أنها تربةُ الولد ومنبتُه، وعمادُ هذا الوجود وبهجته، وأنها خُلقت سريعة التأثر بما تنشأ عليه من خيرٍ وشرّ، قويّة التأثير بما طُبعت عليه أو تأثَّرت به.

فهي ـ ولا مراء ـ أشدُّ من الرجل إثارةً، وأبلغ في النفوس تأثيراً؛ لأنَّ عقلها من وراء قلبها، وأما الرجل، فإن قلبه من وراء عقله. وشتَّان ما بين النهجَيْن.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وكم رأينا من زوجٍ صالحةٍ أنقذت زوجها من بُؤْرة الفساد، وهدته السبيلَ السويَّ، وأخرى فاسدةٍ عكست عليه أمرَه وَفَتَنَتْه في دينه، وكانت نَكَداً له ووبالاً عليه.

وقلَّما نرى رجلاً صالحاً قوَّم زوجه المِعْوَجَّة وغيَّر من طباعها؛ ومن هنا كانت العناية باختيار المرأة الصالحة أشدَّ من العناية باختيار الرجل الصالح.

مصابنا في بيوتنا وأولادنا

أما بعد، فإذا راعك هَوْل مصابنا في بيوتنا وأولادنا، بل في أموالنا وأخلاقنا، فاعلم أنَّ أساس ذلك كله هو المرأة؛ ذلك بأنها عندنا واحدةٌ من اثنتين؛ جاهلةٌ خَرقاء، مظلمةُ القلب والبصيرة، صرفها جهلُها عن الخير، وأرداها خَرَقُها في الشرِّ؛ ومتعلِّمة ثرثَارة، أسفَّتْ في اللهو والتَّرف، وتَسكَّعت في المجامع والأندية، وثارت على الأهل والولد، فكانت شراً من أختها وأضلَّ سبيلا!.

مصابنا في إحجام الشباب عن الزواج

وإلى رسوخ الجهل، وسوء التربية، وإن شئت فقل: إلى عُري المرأة من الدين والفضيلة، يُردُّ مصابُنا في إضْراب فريق من الشباب عن الزواج، وإيثار فريقٍ آخر غير المسلمة على المسلمة، حتى عرضت الفتاة في الطرقات والأسواق، كما تعرض السِّلع للتجارة؛ ظناً من أهلها وذويها أنّ ذلك يُرَغِّب الشبَّان فيها! مع أنَّ هذا لا يزيدها عندهم إلا حقارةً وازدراءً، ولا يزدادون به إلا نفوراً وإباءً! ومن وراء الإحجام عن الزواج انحلال الأمة، وتقويض بنائها، وضياع أخلاقها.

وإنَّما الأمم الأخلاق ما بقيَتْ ... فإنْ همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

كلمة إلى ولاة الأمور

فإذا كانت المرأة ـ كما يقول علماء الاجتماع بحقٍّ ـ أساسَ نهضة الأمم

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وفخارَها، ومبعثَ قوَّتها وآمالها، وعنوان عزها وسعادتها، إذا صَلَحَت صلح المجتمع كلُّه، وإذا فَسَدَت فَسَدَ المجتمع كلّه؛ إذا كانت كذلك فلينظر ولاة الأمور والقوَّامون على التربية: أين يضعونها؟ ولْيعلموا أنَّ الله سائلهم عن شرعتها ومنهاجها، ولْيُوَطِّنوا أنفسهم على أن يجعلوا الدينَ عمادَها والفضيلةَ ملاكَها، وإلا جَنَوْا عليها، وفقدوا خُلُقها؛ وإذاً لا يجدون العلم إلا مدرجة للشر وسبيلاً إلى الفساد ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ﴾[1].

* * * * *

---

(١) سورة الأعراف: ٥٨.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

النِّساء في العَهْد النبويِّ *

٤١ ـ عن أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه قال: قالت النساء للنبيِّ ﷺ: غَلَبنا عَلَيْكَ الرِّجالُ، فَاجْعَلْ لَنا يوماً من نفسك؛ فَوعَدَهُنَّ يوماً لَقِيَهُنَّ فيه، فَوَعَظَهُنَّ وَأَمَرَهُنَّ؛ فكان فيما قال لَهُنَّ: «ما مِنكُنَّ امرأةٌ تُقدِّم ثلاثةً من ولَدِها إلا كان لها حِجَاباً من النار». فقالت امرأة: واثنين؟ فقال: «واثنين». رواه الشيخان[(١)].

المفردات:

قالت النساء: في رواية مسلم: أنهنَّ كُنَّ من نساء الأنصار، والقائلة إحداهنَّ، ولعلَّها كانت أكبرهُنَّ سناً أو شأناً، ولرضاهُنَّ كلهنَّ نسب إليهنَّ.

غَلَبنا عليك الرجال: زاحمونا عليك، فلم يكادوا يتركون لنا وقتاً معك، تُعلِّمنا فيه مَّما علَّمك الله[(٢)].

ولدها: الولد يشملُ الذكر والأنثى، والصغير والكبير، والمفرد والجمع.

إلاَّ كان: أي هذا التقديم المفهوم من «تقدِّم» وفي رواية: «إلاَّ كانوا» أي: هؤلاء الثلاثة، وفي رواية ثالثة: «إلا كُنَّ» أي: هؤلاء الأنفس أو النَّسَمات.

---

* مجلة الأزهر، العدد الثامن، المجلد الثامن عشر (١٣٦٦).

(١) أخرجه البخاري (١٠١) و(١٠٢) في كتاب العلم، ومسلم (٢٦٣٣) في كتاب البرِّ والصِّلة.

(٢) نستعين في شرح الحديث إجمالاً وتفصيلاً برواياته المختلفة، قَصْداً إلى الجمع والإفادة، وخير ما فَسَّر الواردَ الواردُ (طه).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

فقالت امرأة: هي أمُّ سُليم الأنصارية، والدةُ أنس خادم رسول الله ﷺ، وقيل: أم مُبشِّر، وقيل: أم أيمن، ولا مانع أن تكون كلٌّ سألت، فيُروى القول عن كلٍّ.

* * * * *

تاريخ النساء في صدر الإسلام

هذه صحيفةٌ من الصُّحف الخَوَالد، من تاريخ النساء في صدر الإسلام، أحببنا أن نعرضَها على نسائنا في هذا العصر، عسى أن يَجِدْن فيها عِظةً بليغة ينتفعنَ بها، أو حِكمةً رشيدة يَسْتَضِئْن بنورها، وإنهنَّ لواجدات إن شاء الله، متى أصْغَيْنَ القلب، وألقَيْن السمع، وقام أولياؤهن بما فرض الله من تعليمهنَّ وإرشادهنَّ.

ولم تكن حياة النساء في العصر الأول كحياتهنَّ في هذا العصر، مُضْطربةً حائرة، أو متبذِّلة ساخرة؛ بل كانت إلى الفطرة أقرب، وإلى الطُّهر أدنى.

حِرْصُهُنَّ على التفقُّه في الدين

ولم يكن يمنعهنَّ الحياء الذي يَتَحَلَّيْنَ به ـ والحياءُ من الإيمان ـ أن يتفقَّهن في الدين، ويسألن رسول الله ﷺ وأصحابه عمَّا جهلن منه؛ ولم تكن رعايتهنَّ البالغة بحقوق الزوج والبيت والولد، لِتحول بينهنَّ وبين المنافسة في الهدى والخير، إلى المثوبة والبر، ابتغاء رضوان الله ورسوله.

قُلنَ يوماً لرسول الله ﷺ: يارسول الله، غلبَنا عليك الرجال، فاستأثروا بك، وذهبوا بحديثك، فاختَر لنا يوماً من تلقاء نفسك نأتيك فيه، فتعظنا بمواعظ الله، وتعلِّمنا ممَّا علَّمك الله، فقال: «موعدكنَّ بيت فلانة يوم كذا

الجديد و طهرة NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وكذا»، فاجتمعن فيه.

أدبٌ في الخطاب، وكَرَمٌ في الجواب، وحِرْصٌ على الوفاء، رغبةً في العلم والتعليم، ورجاوة للفقه في الدين. وهذا بعض ما كان منه ومنهنَّ، صلوات الله عليه، ورضوان الله عنهن.

اجتمعن في الموعد المضروب، حتى جاء رسول الله ﷺ فحدَّثهُنَّ وعَلَّمَهُنَّ، وتخيَّر من الحديث ما هُنَّ أحوج إليه، وما هو أمسُّ بهنَّ، وأزكى لهنَّ. وكذلك الداعي إلى سبيل ربِّه بالحكمة والموعظة الحسنة، يحدِّث كلَّ أحد بما هو أصلح وأجدر به.

واقتصر أبو سعيد رضي الله عنه على تلك البِشارة العظيمة التي سنذكرها بعدُ، ولم يبيِّن لنا ماذا أمرهُنَّ به في هذا اليوم؟ إما لعنايته بهذه البشارة وجليل شأنها عند الناس ولا سيما النساء، وإما لأنه لم يبلِّغ ما وجَّه إليهنَّ النبيُّ ﷺ من أمر.

أمره ﷺ النِّساءَ بالصَّدَقة

ومن يتتبَّع عظاته للنساء صلوات الله عليه يطمئن إلى أنه أمرهنَّ، فيما أمرهنَّ، بالصَّدقة، جَبْراً لنقصهنَّ، وتطهيراً لقلوبهنَّ، وتكفيراً لسيئاتهن.

على أنَّ أبا سعيد نفسه هو الذي روى عنه الشيخان أنَّ النبيَّ ﷺ خرج في أضحى أو فطر إلى المُصَلَّى فمرَّ على النساء، فقال: «يا معشر النساء تَصَدَّقْنَ، فإنِّي أُريتُكُنَّ أكثَرَ أهل النار»، فقلن: وبِمَ يا رسولَ الله؟ قال: «تُكثرن اللعنَ وتكفُرن العشير(١)؛ ما رأيت من ناقصات عقلٍ ودين أذهب للبِّ الرجل الحازم من إحداكنَّ!»، قلن: وما نقصانُ ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال: «أليس شهادة المرأة

---

(١) المعاشر والمخالط ولا سيما الزوج.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مثل نصف شهادة الرجل؟» قلن: بلى؛ قال: «فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تُصلِّ ولم تصم؟» قلن: بلى؛ قال: «فذلك من نقصان دينها»[(١)].

وفي رواية لمسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه قال: «تصدَّقْنَ فإنَّ أكثركنَّ حَطَبُ جهنم»؛ [فقامت امرأةٌ مِنْ سطة النساء، سفعاءُ الخدَّين. فقالت: لِمَ يارسول الله]؟ قال: «لأنكنَّ تُكْثِرنَ الشَّكاة، وتكفرن العشير»[(٢)]، قال: فَجَعَلنَ يَتَصَدَّقْنَ من حُليِّهنَّ، يُلقينَ في ثوب بلال من أقراطِهنَّ[(٣)] وخوَاتمهنَّ.

ولا يعيبُ المرأةَ أن يكون النقص في أصل تكوينها وخُلُقها؛ لأنها لا يدَ لها فيه، وإنما هو لحكمةٍ عالية أرادها العليمُ الحكيمُ، ليكتب على الرجل ولايتها ورعايتها، وبَذْلَ الجهدِ في إكرامِها والإحسان إليها؛ ومن أجل ذلك لم يُحمِّلها ما لا طاقة لها به، بل نهاها أن تتعاطى ما لا تُحسنه من كلِّ ما لا يتَّفق مع جِبلَّتها وتكوينها. وقلَّما وَلِيَتْ أمراً ليس من شأنها إلا باءت هي وأنصارها بخسران مقيم، وخزيٍ أليم. على أنها إذا تأمَّلت في هذا النقص وجدته من نِعَمِ الله عليها، ورحمته؛ بها إذ رفعَ عنها إصرًا لا تقوم به، وَوِزْراً لا تحملُه، وقد يُعوِّضُها الله بصالح الأعمال ما تسبق به كثيراً من الرجال.

بشارةٌ نبويَّة

بقي الكلام على البشارة التي بَشَرهُنَّ بها النبيُّ ﷺ، وهي: أنَّ من أُصيبت

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٤) في كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم، ومسلم (٨٠) في كتاب الإيمان.

(٢) أخرجه مسلم (٨٨٥) في كتاب صلاة العيدين. وما بين المعكوفين سقط مِنَ الأصل.

(٣) القرط: ما يُعلَّق في شحمة الأذن، ذهباً كان أو غيره، وجمعه قراط كرماح والأقرطة جمع الجمع (طه).

شبكة الألوكة
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

في ثلاثةٍ من أولادها فَصَبرت عند الصَّدمة الأولى، واحتسبتْ راضيةً بقضاء الله وقَدَره، فقد ضَمِنَ الله لها الجنة، ووَقَاها عذاب النار.

واشترط بعضُ العلماء أن يكونوا صغاراً لم يبلغوا الحلم، أخذاً ممَّا رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه، قال: قال النبيُّ ﷺ: «ما من الناس من مسلمٍ يتوفى له ثلاثة لم يبلغوا الحِنْثَ[1] إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إيَّاهُم»[2]؛ لأن الرحمة بالصغير أعظم، والمحبة له أكثر، ولكن لا يخفى أنَّ المصيبة في الكبير أقطع، والفجيعة فيه أفظع، والآمال به أعلق، فإن لم يَفُق الصغيرَ في المثوبة، فلا أقلَّ من أن يُساويَه.

طمعت النساء في فَضْل الله، فسألنَ الرسول ﷺ، وما أكثر تسآلهنَّ في مثل هذا المقام: أيكون هذا الفضل لمن أُصيب في اثنين؟ فأجابهنَّ صلوات الله عليه بأنه ثابت كذلك لمن فُجِعَت في اثنين.

بل أخرج الطبراني في «الأوسط» من حديث جابر بن سَمُرة مرفوعاً: «من دفن ثلاثة، فصبر عليهم، واحتَسَبَهُم وَجَبَتْ له الجنَّة»، فقالت أمُّ أيمن: أَو اثنين؟ فقال: «واثنين»، فقالت: وواحداً؟ فسكت، ثم قال: «وواحداً»[3].

ولا عَجَبَ في هذا عند من يَعْلم أن لا حَرَجَ على فَضْل الله عزَّ وجل، وكيف؟! وقد روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول ﷺ قال: «يقول الله تعالى: ما لعبدي المؤمن عندي جزاءٌ إذا قبضتُ صفيَّه من أهل الدنيا

---

(١) الذنب، والمراد: لم يكلَّفوا، فيكتب عليهم الحنث.

(٢) أخرجه البخاري (١٢٤٨) في كتاب الجنائز، باب فضل من مات له ولد فاحتسب.

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط»: (٢٤٨٩)، وقال الهيثمي في «المجمع» ٣ :١٠: رواه الطبراني في «الأوسط»، و«الكبير»، وفيه ناصح بن عبد الله، أو عبد الله، وهو متروك.

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم احتَسَبَه، إلاَّ الجنة»[١].

ففي هذا بشارة شاملة لكلٍّ من أُصيب في عزيز لديه، من ابن بارٍّ أو أبٍ رحيم، أو أخٍ كريم، فقابل المُصَابَ بالصَّبر والتَّسليم، والرِّضا بقضاء العليم الحكيم.

ودلَّت الأحاديث المتواترة على أنَّ الرجل والمرأة في هذه البشارة سواء، وإنما قال ﷺ: «ما منكنَّ امرأة..» إلخ؛ لأن العِظة كانت خاصَّة بالنساء.

مكانة المرأة في الإسلام

هذه صحيفةٌ تُصوِّر لنا ـ على الرُّغم من إيجازها ـ مكانةَ المرأة في الإسلام، وحَدبه عليها، وعنايته بتعليمها وإرشادها، وحمايته لها من وخامة الابتذال والاختلاط، وما يَجُرَّان عليها من وبال وبلاء.

ثم تبيِّن لنا كيف استجابت المرأة في الصَّدر الأول لدعوة الإسلام، وتأدَّبت بأدبه؟ فلم تعدُ طَوْرَها، ولم تجاوز حدَّها، ولم تفكِّر يوماً أن تزاحم الرجل فيما كتب الله عليه من حقوق وأعباء، وإن عملت على أن تكون معه في الخير العام على سواء.

ولا نريد هنا أن نُبيِّن منَّة الإسلام على المرأة فيما فرض لها من حقوق وواجبات، وفيما أنقذها من طغيان الرجل في العصور المظلمة، وقد كان يَسومُها سوء العذاب والآلام، ويعاملها معاملة السِّلَع والأنعام، فقد كُتبتْ في هذا مؤلفاتٌ ومقالات تربو على الإحصاء، وأضحى الكلام فيه من الحديث المعاد.

وإنما الذي نريد ونرجو من المرأة في عصرنا الحاضر أن تقرأ ـ ولو على سبيل التسلية ـ تاريخَها في الإسلام، وعنايته بها؛ فعسى ـ إن فعلت ـ أن تذكرَ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٢٤) في كتاب الرقاق، باب العمل يُبْتَغَى به وجهُ الله.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

نعمة الله عليها، فتخفِّف من غَلْوائها، وتقصد في غيِّها، وتتبيَّن أنها كانت مخدوعةً بمفاتن المدنيَّة الحديثة وآثامها وشرورها!.

وحينذاك تضعُ أكوام اللَّبِنات وأقواها في بناء أمَّتها وعزِّها، وسعادتها وارتقائها.

* * * * *

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الإحسان إلى البنات*

٤٢ ـ عن عائشة رضي الله عنها قالت: دَخَلت عليَّ امرأةٌ ومعها ابنتان لها تَسْأَلُ، فلم تجِدْ عندي شيئاً غَيْرَ تمرةٍ واحدةٍ، فأعطيتُها إيَّاها، فَقَسَمَتْها بين ابنَتَيْها ولم تأكُلْ منها، ثم قامت فَخَرَجت، فدخل النبيُّ ﷺ علينا فأخبرتُه، فقال: «من ابتُلِيَ مِنْ هذه البنات بشيءٍ، فأحسن إليهنَّ، كُنَّ له سِتْراً من النار». رواه الشيخان[1].

٤٣ ـ وعنها رضي الله عنها قالت: جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها، فأطعمتُها ثلاثَ تمرات، فأعطت كلَّ واحدة منهما تمرةً، ورفعتْ إلى فيها تمرة لتأكلَها، فاستَطْعَمَتْها ابنتاها، فشقَّت التمرةَ التي كانت تريد أن تأكلَها بينهما، فأعجبني شأنُها، فذكرتُ الذي صَنَعَتْ لرسول الله ﷺ، فقال: «إنَّ الله قد أوْجَبَ لها بها الجنة، أو أعتقها بها من النار». رواه مسلم[2].

عناية الإسلام بالبنات

هذان حديثان صحيحان، اتَّفق الشيخان على رواية أوَّلهما، وانفرد مسلمٌ عن البخاريِّ برواية آخرهما. ويبدو لِمن تأمَّل أنَّهما قصتان مختلفتان وإنْ تقاربتا لفظاً ومعنى. وأجاز صاحبُ «الفتح» اتِّحادَهما، على أن يكونَ مُراد الصِّدِّيقة

---

* مجلة الأزهر، العدد التاسع، المجلد الثامن عشر، (١٣٦٦).

(١) أخرجه البخاري (١٤١٨) في كتاب الزكاة، ومسلم (٢٦٢٩) في كتاب البر والصلة، والترمذي (١٩١٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٣٠) في كتاب البرِّ والصِّلة.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بقولها: «فلم تجد عندي شيئاً غير تمرة واحدة»، أنَّها لم تجد سوى تمرةٍ في أوَّل الأمر، فأعطتها إيَّاها، ثمَّ عثرت على اثنتين بعدها فأعطتهما إياها كذلك، فيصرن ثالثاً. وفي هذا من التكلُّف مالا يعنينا.

وإنَّما الذي يعنينا من هذه القصَّة أو القصتين ـ عدا ما نشير إليه بعد ـ عنايةُ الإسلام بالبنت، وترغيبه في إكرامها والإحسان إليها، وإعدادها لأنْ تكون أمًّا صالحة، تبني أُسَراً كريمة، وتُنشئ أجيالاً سعيدة، من بعد أن أنقذها من حُفَر الوأد[1]، وانتشلها من بؤر الذِّلَّة والمَهَانة!.

كراهية العرب في الجاهلية للبنات

لقد جُبل الناس قديماً وحديثاً على كراهية البنت، حتى قالوا: «**دفنُ البنت من المَكْرُمات**»[2]. وقال عبد الله بن طاهر:

(١) وأد بنته يئدها: دفنها حية، وهي وئيدة وموؤودة. (قاموس).

(٢) زعم بعض الرواة أنه حديث، فإنْ وَرَدَ فله وجهٌ صحيح ولا سيما إن كانت البنت سيئة التربية في زمن كله فتن وفساد، غير أنه الأشبه به أنه موضوع كما قال بعض أئمة النقد. انظر «كشف الخفا» [١ :٤٠٧](طه).

والحديث رواه الطبراني في الكبير ١١ :٣٦٦(١٢٠٣٥)، و «الأوسط» (٢٢٨٤)، والبزار (٧٩٠)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٧٦)، والخطيب في «تاريخ بغداد» ٥: ٦٧ (٦٧٣ زوائد)، وأبو نعيم في «الحلية» ٥ :٢٠٩، وابن عدي في «الكامل» ٦ :٢٢٠٠، كلُّهم من حديث ابن عمر، والحديث موضوع أورده ابن الجوزي الموضوعات ٣ :٢٣٦، وحكم بوضعه الصَّغاني في «الدرِّ الملتقط»، والسيوطي في «اللآلئ المصنوعة» ٢ :٤٣٨ والشوكاني في «الفوائد المجموعة»ص٢٦٦.

كما روي الحديث من حديث ابن عمر، أخرجه ابن عديٍّ في «الكامل» ٢ :٦٩٣، والخطيب في «تاريخ بغداد» ٧ :٢٩١(١٠٦٩زوائد) ، وأبو نُعيم في «الحلية» ٧ :٢٤٥ وحكم بوضعه ابن الجوزي، وأقرَّهُ السيوطي، وقال الدكتور الشيخ خلدون الأحدب في كتابه النافع «زوائد تاريخ بغداد» ٤ :٣٠٢ «إذا كان الحكم على الحديث بالوضع من جهة الإسناد بعيد، فإنه غير =

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لكلِّ أبي بنتٍ يُراعي شؤونها ثلاثةُ أصهارٍ إذا حمد الصِّهر
فبعلٌ يراعيها، وخدرٌ يكنُّها وقبرٌ يواريها؛ وخيرُهُم القبر

وبلغ من كراهية العرب للبنت في الجاهلية، أنَّ فريقاً منهم كانوا يئدونها وهي طفل، وكان أحدُهم إذا دَنا وضع امرأته استخفى عن الأعين حتى ينظروا ما تلد له؛ فإن كان ذكراً ابتهج واستبشر، وإن كانت أُنثى اغتمَّ وتكدَّر، وظلَّ مُسْتخفياً حائراً حتى يقضيَ في أمر ابنته؛ فإنْ بدا له أن يستحيِيَها تركها حتى إذا كبُرت ألبسها جُبَّة من صوفٍ أو شعرٍ، وجعلها ترعى الإبل والغنم في البادية، وإذا أراد أن يقتلَها تمهَّل حتى صارت سداسيّة قال لأمها: زيِّنيها وطيِّبيها حتى أذهبَ بها إلى أحمائها، ويكون قد حفرَ لها حفرةً في الصَّحراء، فإذا بلغ تلك الحفرة التي أعدَّ لها، قال لها: انظري إلى هذه البئر، فإذا نظرت إليها دفعها من خلفها، ثم هال التراب عليها، ويزعم أنه هدمَ ركناً من أركان المعرَّة أو الفقر.

وفي هؤلاء نزل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ[١] ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[٢].

من آثار الجاهلية الأولى

ومن آثار هذه الجاهلية الأولى: ما نشاهد من غضب الرجل على امرأته إذا ولدت بنتاً، وربَّما ذَهَبَ به الجهلُ بالله والسُّخطُ على قضائه أن يطلِّقَ أمَّها، كأنها

بعيد من جهة نكَارة المتن، ومن ثمَّ جزم مَنْ جزم من النقَّاد ببطلانه، وهو الصَّواب».

(١) ممتلئ غمّاً وحزناً. وسواد وجهه كناية عن تغييره لما أصابه (طه).

(٢) سورة النحل: ٥٨_٥٩.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

التي صوَّرتها وأنشأتْها بشراً سويّاً؛ ولِمَ لا يخلق لنفسه إذاً وهو أقدر من المرأة وأقوى؟! وهل وُجد هذا الجاهل على ظهرِ الأرض، وأُشِمَّ نسيم الحياة لولا المرأة؟! ومَنْ ذا الذي يدري أيُّ الأولاد خير وبركة؟! فَلَرُبَّ جارية خيرٌ لأهلها من غلام، كما نشاهد ذلك كثيراً؛ وصدق الله: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[١].

حاربَ الإسلامُ هذه العادة البغيضة المُنْكَرة حتى قضى، أو كاد يقضي عليها؛ ولم يكتفِ بتهجينها وتقبيحها والقضاء عليها، حتى دعا إلى إكرام البنت، وبالغَ في طلب الإحسان إليها.

أفضل سُبُل التربية

ولقد أجمع المُربُّون على أنَّ أهدى سُبُل التربية، وأقومَ مناهج الحكمة، ألاّ يقنعَ المربِّي باقتلاع رذيلةٍ حتى يغرسَ مكانها فضيلة، وألاّ يرضى بهدم منكر حتى يبنيَ على أنقاضه معروفاً. وذلك شأن سيِّد المربِّين ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ في محوه آثار الرذائل، وإقامة معالم الفضائل، ودعوته إلى الحق، وهدايته إلى الرُّشْد، منذ بعثه الله ليتمِّم مكارم الأخلاق.

درجات الإحسان

هذا، والإحسان إلى البنت درجاتٌ، أدناها أن ينفقَ عليها وليُّها، ويؤدِّي إليها حقَّها، ويبرئ نفسه من التأثيم في شأنها[٢]؛ وبَدَهيٌّ أنّ هذا كله ليس مراد النبيِّ ﷺ من الإحسان إليها في هذا الحديث؛ لأنه من الأمور العامّة التي لا تستوجب هذا الوعد الكريم، ويكاد الأولياء يتّفقون فيها، إن لم يكن لدافع من

---

(١) سورة البقرة: ٢١٦.

(٢) أثمه تأثيماً: قال له: أثمت.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الحنان والرحمة، فللتبرؤ من تهمة التفريط في التربية!.

وإنَّما مراده ﷺ أمرٌ فوق هذا، من الإيثار والمعروف وحُسن الصنيع؛ ولذا أشار إلى إحسان امرأة بما آثرت ابْنَتيْها وقدَّمتهما على نفسها.

على أنَّ هناك آثاراً وروايات ـ وإنْ لم تبلغ مَبْلغ هذين الحديثين منزلة ـ تُفسِّر لنا المرادَ من الإحسان وتُوضِّحه.

ففي حديث ابن عباس عند الطبراني أنَّ هذه البشارة ـ وهي الحجاب من النار ـ لِمَنْ ولِيَ من هذه البنات شيئاً: «فأنفق عليهنَّ، وزوَّجَهُنَّ، وأحسن أدبهُنَّ»[(١)].

وفي حديث أبي سعيد في «الأدب المفرد»: «فأحسن صُحبتهنّ، واتّقى الله فيهنّ»[(٢)].

وفي حديث ابن مسعود عند الطبراني أيضاً: «مَنْ كانت له ابنةٌ[(٣)] فأدَّبها

---

(١) أخرجه أبو يعلى ٤ :٣٤٢ (٢٤٥٧)، والطبراني في الكبير (١١٥٤٢) من حديث ابن عباس، ولفظه: «من عال ثلاث بنات، فأنفق عليهنَّ، وأحسن إليهنَّ، وَجَبَت له الجنة»، وروى ابن ماجَهْ (٣٦٧٠) بإسناد صحيح، وابن حبان (٢٩٣٤) في صحيحه، والحاكم ٤ :١٧٨ وقال: صحيح الإسناد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مامن مسلمٍ له ابنتان فيُحسن إليهما ما صَحِبتاه، أو صحبهما، إلا أدخلتاه الجنة».

(٢) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٧٩)، والترمذي (١٩١٦) باللفظ المتقدِّم. وأخرجه أبو داود (٥١٤٧) إلا أنه قال: «فأدَّبَهُنَّ، وأحسَنَ إليهنَّ، وزوَّجهُنَّ، فلَهُ الجنة».

(٣) هذا صريح في أنَّ فضْل الإحسان وجزاءه يقع لمِنْ وَلِيَ شيئاً من البنات ولو واحدة فقط، وتؤيِّده روايات أخرى (طه).

منها: حديث أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «من كُنَّ له ثلاثُ بناتٍ، فَصَبَر على لأوائهنَّ وضرَّائهنَّ وسرَّائهنَّ، أدخله الله الجنة برحمته إيَّاهنَّ»، فقال رجلٌ: واثنتان يا رسول الله؟ قال: «واثنتان»، قال رجل: يا رسول الله: وواحدةٌ؟ قال: «وَوَاحِدَةٌ» رواه الحاكم ٤ :١٧٦ وقال =

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وأحسنَ أدبها، وعلَّمها فأحسن تعليمها، وأوْسَعَ عليها من نعمة الله التي أوْسَع عليه»[(١)]. فهذه الآثار ـ وما إليها ـ دليلٌ على أنَّ الإحسان الذي يُريده النبيُّ ﷺ لا يتمُّ إلا بتعليم البنت وتأديبها والحَدَبَ عليها. ولا سبيل إلى ذلك إلا إذا نَهَجَ بها وليُّها منهجاً قويماً، لُحْمتُه هذا الدين المتين، وسَداه خُلق الإسلام الكريم. فأيّما منهج سار على غير هدى من الدين الحنيف، فليس من الإحسان إلى البنت في قليلٍ ولا كثير، بل إنه إساءة إليها، من ورائها حساب عسير.

طرائف ولطائف

وبعد، ففي الحديث جملةٌ من الطرائف يجمل بنا أن نشير إليها، لِما تحويه من معانٍ سامية، وأدبٍ رفيع.

فمنها: تصدُّق أمِّ المؤمنين رضي الله عنها بالقليل التافه حيث لم تجدْ غيره، حرصاً منها على الخير، ومبالغة في امتثال وصيّته ﷺ لها، إذ قال: «لا يرجعُ من عندك سائلٌ ولو بشقِّ تمرة» رواه البزار من حديث أبي هريرة[(٢)]. وفي ذلك عبرةٌ لمن يمتنعُ عن الصَّدقة لقلَّة ذاتِ يده، فإنَّ العدم أقلُّ من القليل، ورُبَّ حَفْنةٍ من البرِّ والشَّعير أزكى وأطهر عند الله من آلاف الدراهم والدنانير.

صحيح الإسناد.

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (١٠٤٤٧) بسند واهٍ، كما قال الحافظ في «الفتح» ١٠: ٤٤٣.

(٢) رواه البزار كما في «كشف الأستار» ١ :٤٤٤(٩٣٨) ولفظه: «يا عائشة اشتري نفسك من الله، لا أغني عنك من الله شيئاً، ولو بشقِّ تمرة، يا عائشة لا يرجعنَّ من عندك سائل، ولو بِظلْف محرق» والظِّلف للبقر والغنم كالحافر للفرس والبغل، والخفُّ للبعير كما في «النهاية» ٣ :١٥٩.

وروى أحمد في مسنده ٦ :٧٩(٢٤٥٠١) بإسناد حسن عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «يا عائشة استَتِري من النَّار، ولو بشقِّ تمرةٍ، فإنَّها تسدُّ من الجائع مَسَدَّها من الشَّبعان».

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وفي خلوِّ بيت النبيِّ ﷺ ـ أحياناً ـ من متاع الدنيا على سَعَةِ ما أفاء الله عليه، درسٌ وعظة للأغنياء الكانزين، وعزاءٌ وسلوى للفقراء البائسين.

ومنها: أنه لا حَرَجَ على أحد أن يذكرَ برّه ومعروفه ـ قلَّ أو كَثُر ـ ما سلمَ قصدُه من الأمراض النفسيَّة، كالمنِّ والفخر والرياء وما إليها، كما هو الظنُّ بالصِّدِّيقة أمِّ المؤمنين.

فأمَّا اختصاص البنات بهذه البشارة فلِمَا فيهنَّ من الضعف وانخفاض الجَناحِ وشدَّة الحاجة إلى الرعاية والتهذيب؛ أما البنون فلديهم، في أغلب الأحوال، من قوَّة البدن وجزالة الرأي، واحتمال الشدائد ما يغنيهم عن المبالغة في الرفق والإحسان. ولعلَّ هذا هو السرُّ في التعبير بالابتلاء[1] مع ما جرَت به العادة من استياء الناس بولادة البنات!.

وإذا كان في حديثه ﷺ هذا عظة لمن ابتُليَ بالبنات، ففي ذُرِّيَّته الطاهرة أكبرُ العِبر والعظات.

لقد احْتَسَبَ بنيه كلّهم أطفالاً صغاراً، ولم يُجاوزوا طَوْر الطفولة إلا بناته الفُضْلَيات، فأدَّبهُنَّ وعلَّمَهُنَّ وأحْسَنَ إليهنَّ ثم اختار لهنَّ خيرة الأزواج، ولم يعشْ منهنَّ بعده إلاَّ الزهراء. وقد كانت أسرع أهل بيته لحَاقاً به، صلوات الله وسلامه عليه وعلى من اهتدى بهديه في مناهج التربية والآداب.

* * * * *

---

(١) في قوله: «من ابتلي..» إلخ، وفي بعض الروايات: «من بُلي..» بالباء. وهي ظاهرة (طه).

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

جهاد النساء *

٤٤ ـ عن عائشة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها، أنها قالت: يا رسول الله، نَرَى الجهادَ أَفْضَلَ العملِ، أفلا نُجَاهِدُ؟ قال: «لا، لَكُنَّ أفضلُ الجهاد، حجٌ مبرور» رواه البخاري(١).

٤٥ ـ وعنها: رضي الله عنها، عن النبيِّ ﷺ: سأله نساؤه عن الجهاد؟ فقال: «نِعْمَ الجهادُ الحَجُّ» رواه البخاري(٢).

النساء في العهد النبوي

لم تكن حياة النساء في العهد النبوي كحياتهنَّ فيما بعد!! بل كانت إلى الفطرة النقيَّة أدنى، وإلى العفَّة الأبيَّة أقرب.

كانت المرأة في هذا العهد، تستجيب مُسارعةً إلى دعوة الإسلام متأدِّبةً بآدابه، لا تعدو طَوْرَهَا، ولا تجاوز حَدَّها، ولا تحيد عمَّا أعدَّها الله له، ولا تزاحم الرجل فيما خَصَّه الله به، وكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلق له.

كانت ذاتَ حياءٍ، ولكن لم يمنعها حياؤها أن تسأل عن دينها كي تتفقَّه فيه، وكانت ذات إباءٍ، ومن أجل ذلك رغبت رغبةً صادقة في أن تُشارك الرجل في كلِّ ما تستطيع المشاركة فيه، بل تنافسه في العلم والفضل، والمثوبة

---

* مجلة الأزهر، العدد الثامن، السنة الثامنة والعشرون، (١٣٧٦= ١٩٥٧).

(١) أخرجه البخاري في كتاب الحج (١٥٢٠)، وفي كتاب جزاء الصَّيد (١٨٦١)، وفي كتاب الجهاد (٢٧٨٤) (٢٨٧٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد (٢٨٧٦).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والأجر، وفي كلِّ خيرٍ عام، ما وَجدَت إلى ذلك الخير سبيلاً.

قالت للرسول الأكرم ﷺ: غَلَبنا عليك الرجال، فاجْعَل لنا يوماً من نفسك، فَوَعدَهُنَّ يوماً لقيهُنَّ فيه، فَوَعَظَهُنَّ وأمرهُنَّ(١).

وقالت له(٢) صلوات الله وسلامه عليه: ما لنا لا نُذكر في القرآن كما يُذكر الرجال؟! فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾(٣)

جماع الخير

تلك عشرة أوصاف كاملة، هي جِمَاع الخير والبرِّ، وأساسُ السعادة في الأولى والآخرة يستوي في عظيم جزائها الرجل والمرأة. وربما فاقت المرأة

(١) أخرجه البخاري (١٠١)، (٧٣١٠)، ومسلم (٢٦٣٣)، وانظر حديث: النساء في العهد النبويّ ص٤٠٠.

(٢) القائلة أمُّ عمارة الأنصارية، أو أمُّ سلمة رضي الله عنهما. روى الترمذي (٣٢١١) عن أم عمارة أنها أتت النبيَّ ﷺ فقال: ما أرى كلَّ شيء إلا للرجال، وما أرى النساء يُذكرن بشيء. فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ ..﴾ وهناك سبب آخر للنزول فقد أخرج أحمد ٦ :٣٠٥ (٢٦٦٠٣)، والنسائي في «السنن الكبرى(١١٤٠٥) عن أمِّ سلمة قال: قلت: يا رسول الله، مالنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال؟قال: فلم يَرُعْني منه يومئذ إلا ونداؤه على المنبر: «يأيها الناس» قالت: وأنا أُسرِّح رأسي، فَلَفَفْت شعري، ثم دنوت من الباب، فجعلت سمعي عند الجريد، فسمعته يقول: إنَّ الله عز وجل يقول في كتابه: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ...﴾.

(٣) سورة الأحزاب: ٣٥.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الرجل في بعض هذه الصفات، فكانت أعظم شأناً عند الله وأرفع مكاناً. وما يمنعها وأبواب الخير لا تُحصى، والله ذو فضل عظيم؟!.

استئذان رسول الله ﷺ بالجهاد

ولم تقنع المرأة في العهد النبويِّ بهذا الفَضْل المشترك، إلى جانب فضل آخر خاص بها: من الرعاية لزوجها، والعناية بأمر بيتها، والقيام على أولادها، بل همَّت أن تزاحم الرجل في أخصِّ خصائصه، وهو حملُ السلاح في سبيل الله تعالى.

فما أن سمعت الثناء على الجهاد والمجاهدين، وأنَّ الجهاد أفضل الأعمال بعد الإيمان بالله ورسوله، إلى غير ذلك، ممَّا عرضنا لبعضه في الدعوة إلى الجهاد[١]، حتى استأذنت رسول الله ﷺ أن تجاهد. استأذنته بلسانِ أمهات المؤمنين، وفي طليعتهنَّ ـ رضوانُ الله عليهنَّ ـ الصِّدِّيقةُ بنتُ الصِّدِّيق.

نساء في الميدان

ولقد ساعد المرأة على استئذانها هذا، ترخيصُ رسول الله ﷺ لها في ساعة العُسْرة وشدَّة الحاجة، أن تناضل وتقاتل وتحمل السلاح لإعلاء كلمة الله، وتقْتحم الميدان لتمريض الجرحى في سبيل الله تعالى.

ففي الصِّحاح عن أنس رضي الله عنه أنه لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبيِّ ﷺ، فرأى عائشة بنت أبي بكر، وأمَّه أم سُليم مُشَمِّرتَيْن تنقلان القُرَب على ظهورهما، ثم تُفرغانها في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها، ثمَّ تجيئان فتفرغانها في أفواه القوم[٢].

وفيها: أن الرُّبَيِّع بنت مُعَوِّذ قالت: كنا نغزو مع النبيِّ ﷺ، فنسقي القوم

---

(١) انظر: حيَّ على الجهاد ص٢٧٣.

(٢) رواه البخاري (٢٨٨٠) (٤٠٦٤)، ومسلم (١٨١١).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ونخدمهم، ونداوي الجرحى، ونردُّ القتلى إلى المدينة[١].

وفيها: أن أمَّ سليم اتَّخذت يوم حُنين خنجراً، فكان معها، فرآها أبو طلحة زوجها، فقال: يا رسول الله، هذه أمُّ سُليم معها خنجر، فقال لها رسول الله ﷺ: ما هذا الخنجر؟! قالت: اتَّخذته، إنْ دَنَا مني أحد من المشركين بَقَرتُ به بطنه، فجعل رسول الله ﷺ يضحك!![٢].

امرأة تبلي أعظم البلاء

وممَّن أبلى أعظم البلاء من النساء في سبيل الله: أمُّ عمارة الأنصارية، واسمها نَسيبة، شهدت بيعة العقبة، ثم شهدت أُحُداً، وكان معها زوجها زَيْد بن عاصم، وابناها منه: عبد الله[٣]، وحبيب الذي قَتَله مُسَيلمة بعد. تروي عنها أمُّ سعد بنت سعد بن الربيع أنها قالت: خرجتُ يوم أحد، ومعي سِقاءٌ فيه ماء، فانتهينا إلى رسول الله ﷺ ـ وهو في أصحابه ـ والدولة والريحُ للمسلمين، فلمَّا انهزم المسلمون، انحزتُ إلى رسول الله ﷺ، فكنت أُباشر القتال، وأذبُّ عنهم بالسيف، وأرمي عن القوس، حتى خلصت الجراح إليَّ. قالت أم سعد: فرأيت على عاتقها جرحاً أجوفَ له غَورٌ. فقلت: مَنْ أصابك بهذا؟! قالت: ابن قَمِئة[٤]. ثم شهدت بيعة الرضوان.

ولمَّا بلغها قَتْلُ ابنها حَبيب، نَذَرت ألاَّ يصيبها غسلٌ حتى يُقتل مُسيلمة، فشهدت اليمامة مع خَالد بن الوليد، وقاتلت حتى قُطعت يدها، وجُرحت اثنا

---

(١) رواه البخاري (٢٨٨٢).

(٢) رواه مسلم (١٨٠٩).

(٣) عبد الله بن زيد المازني، الذي حكى وضوء رسول الله ﷺ كما في صحيح البخاري (١٥٩)، ومسلم (٢٣٥)، قُتل رضي الله عنه يوم الحرة، سنة٦٣.

(٤) طبقات ابن سعد ٨ :٤١٢.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

عشر جرحاً[١].

جهادٌ خاصّ

هذا البلاء الذي أبْلَته المرأة في القتال، في العهد النبويِّ والعهود التي بعده، ليس رخصةً لها، بل حقٌّ عليها، كما هو حقٌّ على الرجال، في شدَّة الحاجة، وساعة العُسْرة، كما أسلفنا. وأما في غير الحاجة الملحَّة، والضائقة المحيطة، فقد كفاها الله المئونة، وخفَّف عنها العبء، وبدّلها بهذا الجهاد الخاصِّ بغير أولي الضرر من الرجال، جهاداً آخر عاماً، لا يقلُّ أجره، ولا تنقص مثوبته، عن جهاد الرجال، إن أخلصت لله فيه، وأتمَّتْهُ له، بريئاً من الإثم والرياء، والشِّقاق والنفاق وسوء الأخلاق. وهذا هو الجهاد الذي لا قتال فيه، وهو جهاد الكبير والصغير والضعيف، وهو الحجُّ المبرور الذي لا جزاء له إلا الجنة.

بدلٌ كريم

تخفيفٌ من الله ورحمةٌ منه بالمرأة، وبدلٌ كريم قابلته المؤمنة الصادقة، راضيةً مُسْتَبْشرةً، بلسان أُمِّ المؤمنين رضوان الله عليها.

ولقد تجلَّى هذا الرِّضى والبِشْر في روايةٍ أخرى رواها البخاري أيضاً عن عائشة بنت طلحة[٢] عن خالتها ـ عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ـ قالت: قلتُ يا رسول الله: ألا نَغْزو ونجاهدُ معكم؟ فقال: «لَكُنَّ أحسَنَ الجهاد وأجمله: الحجُّ؛ حجٌّ مَبْرور»، فقالت عائشة: فلا أدَعُ الحجَّ بعد إذ سَمِعْتُ هذا من رسول الله ﷺ[٣].

---

(١) طبقات ابن سعد ٨: ٤١٦.

(٢) عائشة بنت طلحة بن عبيد الله، وأمُّها أمُّ كلثوم بنت الصديق، وكانت بديعةَ الحُسْن، أصْدَقَها مُصْعب ألفَ ألفٍ، ماتت بعد المائة. كما في «الكاشف» (٧٠٣٩).

(٣) رواه البخاري (١٨٦١).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم زادها رضي الله عنها اقْتناعاً بهذا البدل، ورضاً به، وطمأنينةً له، ما رأت من انحراف بعض النساء في آخر عهدها عن الجادة المُثْلى، بما أحْدَثْنَ عند خروجهنَّ من زينةٍ لا تُذكر بجانب ما أحدثن بعد ذلك من السفور والتبرج!

فتقول رضي الله عنها فيما رواه مسلم عن عَمْرة بنت عبد الرحمن: لو أنَّ رسول الله ﷺ رأى ما أحدث النساء، لمَنَعَهُنَّ المسجد، كما مُنعت نساءُ بني إسرائيل[1].

وفي هذا مَقْنعٌ وبلاغ لمن أراد السَّداد والرَّشاد، والله المُستعان.

* * * * *

(١) رواه مسلم (٤٤٥).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفصل الخامس

الرقائق والأخلاق

١ ـ إنما الأعمال بالنيات.
٢ ـ الحبُّ الإلهي.
٣ ـ بركة المسلم حياً وميتاً.
٤ ـ كياسة المؤمن.
٥ ـ عزَّة الكمال في الناس.
٦ ـ من حُسْن إسلام المرء.
٧ ـ الصحة والفراغ.
٨ ـ التماس رضا الله وإن سخط الناس.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

إنَّما الأعمالُ بالنِّـيَّـات *

٤٦ ـ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى عليه وسلم يقول: «إنَّما الأعمال بالنيات، وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوى؛ فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يُصيبها أو امرأة يَنكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه». رواه الشيخان(١).

ثلث الإسلام

أجمع الأئمة على جلالة هذا الحديث، وعظيم خطره، حتى قال الشافعيُّ وأحمدُ وغيرهما: إنه ثُلُث الإسلام، يعنون: أنَّ الإسلام ينتظم أركاناً ثلاثة: عملَ الجَنان، وقولَ اللسان، وفعلَ الجوارح، أو يريدون: أنه أحد الأحاديث الثلاثة التي إليها تُردُّ جميعُ الأحكام؛ والثاني: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ»(٢) رواه مسلم عن عائشة؛ والثالث: «الحلال بيِّن والحرام بيِّن»(٣)، الحديث. رواه الشيخان عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

تقدير النّية والاعتداد بها

والحديثُ بعدَ هذا يرفع شأن النيَّة، ويُعلي مكانَها، ويبيِّن أنَّها من العمل

* مجلة الأزهر، العدد الثاني، المجلد التاسع عشر، (١٣٦٧ = ١٩٤٧).

(١) أخرجه البخاري (١) و(٥٤) و(٢٥٢٩) و(٣٨٩٨)، و(٥٠٧٠) و(٦٦٨٩) و(٦٩٥٣)، ومسلم (١٩٠٧).

(٢) أخرجه مسلم (١٧١٨).

(٣) أخرجه البخاري (٥٢) و(٢٠٥١)، ومسلم (١٥٩٩).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بمنزلة الأُسِّ من البناء، والرُّوح من الجَسَد، والعماد من البيت.

وإذا قدَّرت القوانين النيَّة قَدْرها، وربطت بين آثارها، وأدخلت في الثواب أو العقاب حسابها، فإنَّ شريعةً من الشرائع لم تبلغ مبلغ الإسلام في تقدير النيَّة والاعتداد بها.

وحَسْبُك أنه يَهدر العملَ إذا خلا من النية، ويجعلُه ـ أو يكاد ـ ضرباً من ضروب اللّغو أو الخطأ، وهو لا يجزي على واحد منهما، وإن أدَّى بطريق المصادفة إلى غاية حسنة. فإنْ عاقب المخطئ إذا أفضى خطؤه إلى ضرر، فلِتربية اليقظة في النفوس وتحذيرها أن تتهاونَ أو تتغافلَ حتى تنحرفَ عن الجادَّة.

ومن هنا رُفع القلم عن الصَّبيِّ حتى يبلغَ، وعن المجنون حتى يُفيق، وعن النائم حتى يستيقظ[١]، كما رُفع عن المخطئ والناسي والمُكره[٢]؛ لأنَّ هؤلاء جميعاً لا نيَّة لهم، اللهمَّ إلا الصبيَّ إذا ميَّز فإنه يؤدَّب إذا أساء، ويُكافأ إذا أحسن، وإن تكن نيَّته دون من بلغ الحلُم، على أنَّ الإسلام لم يتركْ هذا الباب مفتوحاً على مصْراعَيه، يلجه كلُّ من تحدِّثه نفسه بالتخلِّي عن التَّبِعَة، بل وضع شروطاً للخطأ والنسيان والإكراه تأخذ بتلابيب كلِّ مُفترٍ أو مُتصنِّع[٣].

---

(١) للحديث الذي رواه الترمذي (١٤٢٣) في الحدود، وأبو داود (٤٤٠٣) في الحدود أيضاً من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رُفع القلم عن ثلاثةٍ: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبيِّ حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يعقل».

(٢) للحديث الذي رواه ابن ماجَهْ (٢٠٤٥)، وابن حبّان في صحيحه (٧٢١٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان، وما استُكرهوا عليه».

(٣) فلا يقبل من دواعي الخطأ والنسيان والإكراه إلاّ ما دلَّت القرائن على صدقه (طه).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

نية المؤمن خير من عمله

وإذا أردت أن تبلغَ الغاية في تقدير الإسلام للنية والاعتداد بها، فانظر إليه إذ يفضِّل النيَّة المجرَّدة من العمل على العمل المجرَّد من النية، وهذا تأويل الأثر المشهور: «نية المؤمن خيرٌ من عمله»[١]؛ وذلك لأنَّ العمل الذي خلا من النية كالصُّورة لا حياة فيها، والبنيان لا أساسَ له، فلا خير منه يُرجى، ولا ثمرةَ له تُرتقب؛ أما النيَّة الصَّالحة فهي تُذكِّي صاحبها، وتُوجِّهه إلى صالح العمل وشيكاً؛ بل هي تُلحقه بالعاملين المخلصين إنْ صَلَحَت، وبالمفسدين إنْ فَسَدَت، وإن لم يصنع صاحبُها شيئاً.

وشاهد هذا ما رواه الترمذي من حديث أبي كَبْشَة الأنماري رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ: «إنما الدنيا لأربعة نفر: عبدٌ رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتَّقي فيه ربه، ويَصِل فيه رَحِمَه، ويعلم لله فيه حقاً، فهذا بأفضل المنازل.

وعبدٌ رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً، فهو صادق النية، يقول: لو أنَّ لي مالاً لعملت بعمل فلان، فهو بنيَّته، فأجرهما سواء.

وعبدٌ رزقه مالاً ولم يرزقه علماً، فهو يخبط في ماله بغير علم، لا يتَّقي فيه ربَّه، ولا يَصِلُ فيه رَحِمَه، ولا يعلم لله فيه حقاً، فهذا بأخبث المنازل.

وعبد لم يرزقه مالاً ولا علماً، فهو يقول: لو أنَّ لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان، فهو بنيّته، فوِزْرُهما سواء»[٢].

---

(١) عزاه في «المقاصد الحسنة» ص٤٥٠ للطبراني في «الكبير» ٦: ١٨٥ (٥٩٤٢) من حديث سهل بن سعد الساعدي، وأيضاً عزاه للعسكري من حديث النواس بن سمعان، والديلمي من حديث أبي موسى الأشعري... ثم قال بعد أن ذكر رواياتهم: «وهي وإن كانت ضعيفة فبمجموعها يتقوّى الحديث».

(٢) رواه أحمد ٤: ٢٣١ (١٨٠٣٢)، والترمذي (٢٣٢٥) وقال الترمذي: حسن صحيح.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقد دلَّت صِحَاح الآثار على أنَّ من اعتاد عمل خيرٍ أو همَّ به فَحَبسه حابسٌ من مرض أو عذر، كتب الله له ثوابَ ما نوى.

فمن ذلك ما رواه البخاري عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ: «إذا مرض العبد أو سافر، كُتبَ له مثلُ ما كان يعملُ مقيماً صحيحاً»(١).

وما رواه البخاري أيضاً عن أنس رضي الله عنه قال: رجعنا من غزوة تبوك مع النبيِّ ﷺ فقال: «إنَّ قوماً خلَّفنا في المدينة، ما سَلَكْنا شِعْباً ولا وادياً إلا وهم معنا، حَبَسهم العذر»(٢).

وكما يُجْزَى العبدُ على الحسنة يهُمُّ بها فلم يستطعها، يُجْزَى كذلك على السَّيِّئة يريدها، ثم يكفُّ عنها خشيةَ الله عزّ وجل(٣)، وربما انتظم ـ بخوفه من الله ـ في سلك الطوائف السَّبعة، التي يظلُّها الله يوم لا ظلَّ إلا ظله.

اختلاف الجزاء على الأعمال

ولمَّا كانت النيَّة تختلف قوّةً وضعفاً، على حَسْب منزلة العبد في الإخلاص

---

(١) رواه البخاري (٢٩٩٦) في الجهاد.

(٢) رواه البخاري (٢٨٣٩) في كتاب الجهاد.

(٣) روى البخاري في الرقاق (٦٤٩١)، ومسلم بألفاظ كثيرة في كتاب الإيمان ١: ١١٨(١١٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ فيما يرويه عن ربِّه عزَّ وجل قال: «إنَّ الله كتب الحسنات والسيِّئات، ثم بيَّن ذلك: فمن همَّ بحسنةٍ فلم يعملْها كتبها الله له عنده حسنةً كاملةً، فإن هو همَّ بها فَعَمِلَها كتبها الله له عنده عشرَ حَسَنات، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعافٍ كثيرة. ومن همَّ بسيئةٍ فلم يعملْها كتبها الله له عنده حسنةً كاملةً، فإن هو همَّ بها فَعَمِلها كتبها الله له سيئةً واحدة»

وفي الرواية الأخرى التي عند البخاري في كتاب التوحيد (٧٥٠١) عن أبي هريرة: «وإن تركها ـأي السيئةـ من أجلي فاكتبوها له حسنة» وجاء مثل هذا القيد في رواية مسلم ١: ١١٨(١٢٩): «وإن تركها من جرَّايَ» أي: من أجلي.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قُرباً وبُعداً، اختلف الجزاء على الأعمال قِلّةً وكَثْرةً، حتى جُوزي المحسنُ على حسنةٍ بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة لا يعلمها إلاّ الله عزّ وجل.

روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدَّق بعَدْل تمرة[1] من كسبٍ طيِّب ـ ولا يقبل الله إلا الطَّيِّب ـ فإنَّ الله يتقبلُها بيمينه، ثم يربِّيها لصاحبها، كما يربِّي أحدكم فَلُوَّه[2] حتى تكون مثل الجبل»[3].

وروى النسائي وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سَبَقَ درهمٌ مئة ألف درهم»، فقال رجل: وكيف ذلك يا رسول الله؟! قال: «رجلٌ له مال كثير أخَذَ من عُرضه مئة ألف درهم تصدَّق بها، ورجل ليس له إلا درهمان فأخذ أحدهما فتصدَّق به»[4].

ولعلَّ في هذا الذي أسلفنا بياناً لفضل النيَّة الصالحة، وأنَّها جوهر العمل وروحُه، وتلك خلاصة الجملة الأولى: «إنما الأعمال بالنيَّات»؛ وتصويراً صادقاً لجزاء العاملين، وأنه على حسب نياتهم، ومرتبة كلٍّ من الإخلاص، وهم في ذلك درجاتٌ، وتلك خلاصة الجملة الثانية: «وإنما لكل امرئ ما نوى».

جزاء المخلصين والمرائين

ولمَّا بيَّن صلَوات الله وسلامه عليه أنَّ الأعمال بحسب النيَّات، وأنَّ حظَّ العامل من عمله نيّته ـ خيراً كان العمل أو شراً ـ أوضح جزاءَ المخلصين

---

(١) أي بقيمتها لأنّ العَدل بالفتح: المِثْل، وبالكسر: الحِمْل.

(٢) مهره، وفيه لغتان: الفتح فالضم بالتشديد، والكسر فالسكون بوزن جرو. والتقبُّل باليمين كناية عن الرضا (طه).

(٣) رواه البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤).

(٤) رواه النسائي (٢٥٢٧)، (٢٥٢٨).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

والمرائين في مثال من الأعمال التي تتَّحد صورتها، ويختلف حكمها والجزاء عليها باختلاف النِّيَّة فيها، إخلاصاً ورياءً وصلاحاً وفساداً، وكأنه يقول: إنَّ سائر الأعمال على قياس هذا المثال.

اختيار التمثيل بالهجرة

واختيارُ التمثيل بالهجرة لِمَا لها من عظيمِ الشأن في ذلك العهد، ولعلَّه تحدَّث الحديث في إبَّان الهجرة من مكة إلى المدينة والدعوة إليها.

يؤيِّد ذلك ما يُروى أنَّ رجلاً هاجر من مكَّة إلى المدينة، لا يريد فضيلة الهجرة، وإنَّما يريد أن يتزوَّج امرأةً تُدعى أم قيس[١]. فإنْ صحَّ أن تكون القصَّة سبب هذا الحديث كما قيل، كان التمثيل بالمرأة مَقْصوداً له ﷺ، جَرْياً على كريم عادته من التعليم والإرشاد من غير أن يُجابِهَ أحداً بما يكرهُ حياءً أو كَرَماً، وإلاّ فالقصَّة من قبيل المُصَادفة[٢] ليس غير.

---

(١) قال الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» ١ : ٧٤: «وقد اشتهر أن قصة مُهاجر أمِّ قيس هي كانت سبب قول النبي ﷺ: «من كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها»، وذكر ذلك كثير من المتأخرين في كتبهم، ولم نرَ لذلك أصلاً يصحُّ. والله أعلم» انتهى. وقد روى وكيع في كتابه عن الأعمش عن شقيق ـ وهو أبو وائل ـ قال: خطب أعرابيٌّ من الحيِّ امرأة يقال لها: أمُّ قيس، فأبت أن تزوِّجه حتى يهاجر، فهاجر، فتزوجته، فكنَّا نسميه مُهاجرَ أمِّ قيس. قال: فقال عبد الله: يعني ابن مسعود: من هاجر يبتغي شيئاً، فهو له.

وروى هذه القصة سعيد بن منصور في «سننه»، ومن طريقه الطبراني في «المعجم الكبير» (٨٥٤٠) عن أبي معاوية عن الأعمش بهذا الإسناد. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٢ : ١٠١: رجاله رجال الصحيح. وقال الحافظ في «الفتح» ١ : ١٠: «لكن ليس فيه أن حديث الأعمال سبق بسبب ذلك، ولم أر في شيءٍ من الطرق ما يقتضي التصريح بذلك».

(٢) الصحيح أن يقول: من باب الموافقة لا غير.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الهجرة في الإسلام

وقد وقعت الهجرة في الإسلام على وجهين: **أوّلهما**: الانتقال من دار الخوف إلى دار الأمن كما في هجرتَي الحبشة، وابتداء الهجرة من مكّة إلى المدينة. **والثاني**: الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان، وذلك بعد أن استقرَّ النبيُّ ﷺ بالمدينة، وهاجَرَ إليها مَنْ أمكنَه ذلك من المسلمين، وكانت الهجرة إذْ ذاك تختصُّ بالانتقال إلى المدينة، إلى أن فُتحت مكة، فانقطع الاختصاص، وبقي عمومُ الانتقال من دار الكفر ـ لمن قدر عليه ـ واجباً.

اتِّحاد الجزاء والشرط

واتِّحاد الجزاء والشَّرط ممَّا يدلُّ على المبالغة في التعظيم أو التحقير، فكأنه صلوات الله وسلامه عليه يقول: مَنْ هاجر لا يبتغي إلا وجه الله عزَّ وجل لا أجد له جزاءً إلاّ أنْ أكِلَه إليه سبحانه، فهو وليُّه وحسبه ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[1].

ومَنْ هاجر لا يبتغي إلاَّ دنيا يُصيبها أو شهوةً يقضيها، فحسبه ضياعاً وخزْياً أنْ وكَلَه الله إلى غيره، فَخَسِرَ الدنيا والآخرة ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾[2].

وبعدُ، فإنَّ مدار الفوز والسَّعادة على العمل، ومدار العمل على الإخلاص، فمَنْ عَجزَ عن العمل الصالح فلن يَعْجزَ عن النيَّة الصَّالحة، والرَّغبة الصَّادقة، ورُبَّ نيَّةٍ فاقَتْ عملاً، ورُبَّ رغبةٍ مهَّدت للخير سُبُلاً.

* * * * *

---

(١) سورة البقرة: ١٠٥.

(٢) سورة الحج: ١١.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الحبُّ الإلهي*

٤٧ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا أحبَّ اللهُ عبداً نادى جبريلَ: إنَّ الله يُحبُّ فلاناً فأحبَّه، فَيُحبُّه جبريل. فينادي جبريل في أهل السماء: إنّ الله يُحبُّ فلاناً فأحبُّوه، فيحبُّه أهلُ السماء، ثم يُوضَعُ له القَبول في الأرض» رواه الشيخان(١).

منزلة المحبة

محبةُ الله لعبده وما يَتْبعها، من ولاية الله ونصره له، ودفاعه عنه، ومعاداته لِمَنْ عاداه، ومُسالمتُه لِمَنْ سالَمَه، وإكرامُه لِمَنْ أكرمه، ومنْ إعزاز السماء والأرض له، حتى لتفرحان به في حياته، وتبكيان عليه عند موته؛ هذه المحبة التي لا محبَّة فوقها، وكلُّ محبةٍ دونها، منزلةٌ ما أجملها! حقيقةٌ بأن يتنافسَ فيها المتنافسون، ويتسابقَ إليها المتسابقون، من العباد المخلصين والأبرار المقرَّبين؛ إذ كانت هي الغايةُ القُصْوى من المقامات، والذِّروة العليا من الدرجات، ولا جَرَم أنَّها حرام على أرباب الكلام، وأصحاب الأماني

* مجلة الأزهر، العدد الثالث، المجلد الرابع والعشرون (١٣٧٢ = ١٩٥٢).

(١) رواه البخاري في ثلاثة مواضع: في بَدء الخلق (٣٢٠٩)، وفي كتاب الأدب (٦٠٤٠)، وفي التوحيد (٧٤٨٥)، ورواه مسلم في كتاب البر والصلة ٤: ٢٠٣٠ (١٥٧). غير أنّ مسلماً انفرد بذكر الشطر المقابل، وهو: «وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلاناً فأبغضه، فيبغضه جبريل، ثم ينادي أهل السماء: إنّ الله يبغض فلاناً، فأبغضوه، ثم تُوضع له البغضاءُ في الأرض»، واقتصر البخاري على الجملة الأولى منه فقط التي فيها المحبة.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والأحلام، حلالٌ لأولي العلم والنُّهى، والعمل والخشية، من الذين جاهدوا في الله حقَّ جهاده، وتولَّوا الله حقَّ وَلايته، فاجْتباهم ربُّهم، واصْطَفاهم لمحبته، واختصَّهم برحمته: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[1].

أسباب محبّة الله للعبد

غير أنه ـ سبحانه ـ وإن اختصَّ برحمته من يشاء من عباده، علَّمنا في كتابه المبين، وفيما أوحى إلى رسوله الصادق الأمين، أنَّ لهذه الدرجة الرفيعة ـ درجة محبته وولايته ـ أسباباً تدلُّ عليها، ووسائل تهدي إليها، وأمارات ترشد إلى أهلها، على تفاوت ما بينهم فيها.

وقد أمرنا الله أن نعمل ونكدح، آخذين بالوسائل والأسباب لما قضى ـ وله الحجة البالغة ـ من الربط الإلهي الوثيق بين الأسباب ومسبَّباتها، والوسائل وغاياتها.. فمن طمع في محبَّة الله له ورضوانه عليه، دون أن يأخذَ بأسباب هذه المحبّة، ويسلك سبلها، فهو إمَّا مخدوع جاهل، أو مُبْطلٌ عنيد، يريد أن يلغي عقله، ويفسد فطرته، ويبدِّل سنّة الله في خلقه وشرعه، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[2].

وأساس حُبِّ الله لعبده وولايته له، هو: حبُّ العبد لربه وإخلاصه له، وعلى قدر حبِّ العبد وإخلاصه، يكون حبُّ الله ومعونته، وتوفيقه وهدايته.

ولا يزال العبد يتدرَّج في الإخلاص والمحبَّة، حتى يكون عالماً ربانياً: لا ينام ولا يقوم، ولا يحبُّ ولا يبغض، ولا يفعل ولا يترك، ولا يتحرَّك ولا يسكن، إلا بالله ولله؛ يتَّقيه حقَّ تُقاته، ويبلغ الجهد في مرضاته، ويتوكَّل عليه

---

(١) سورة البقرة: ١٠٥.

(٢) سورة الأحزاب: ٦٢.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

حقَّ توكله، فلا يخشى أحداً غيره، ولا يرجو أحداً سواه.. وما أجدره حينئذٍ بمحبة الله له، وقُربه منه، حتى يكون أقربَ إليه من سمعه وبصره، ويده ورجله، وما ظنُّك بعبدٍ أحبَّه مولاه، فكفاه وتولاَّه، ورضيَ عنه وأرضاه؟!.

أليس مِصْداقُ ذلك ما رواه البخاري في الحديث القدسي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تعالى قال: مَنْ عادى لي ولياً فقد آذنتُهُ بالحرب، وما تَقَرَّبَ إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ ممَّا افترضتُه عليه، وما يزال عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافل حتى أُحِبَّه، فإذا أحببتُهُ كنتُ سَمْعَهُ الذي يسمعُ به، وبَصَرَهُ الذي يُبْصر به، ويَدَهُ التي يَبْطُش بها، ورِجْلَهُ التي يمشي بها، وإن سَأَلني لأُعطِيَنَّه، ولَئن استعاذني لأُعيذنَّه»[١].

طريقةُ محبَّة العبد لربِّه سبحانه

بيَّن هذا الحديث الربّاني ـ أيَّ بيانٍ ـ طريقة محبَّة العبد لربه، ووسيلته إلى قربه، وأجملَها في امتثال أوامره، واجتناب محارمه، والوقوف عند حدوده، مع تقديم الأصولِ على الفروع، والفرائضِ على النوافل، وقديماً قال العلماء الربَّانيُّون: مَنْ شغلَه الفرض عن النفل فهو معذور، ومن شغلَه النفل عن الفرض فهو مغرور. ومَثَلُ من يتقرَّب إلى الله بالنوافل مع تهاونه في الفرائض، مِن جَهَلَةِ المتصوِّفة وأمثالهم، كَمَثَل البستاني، يأتمنه سيِّدُه على بستانه، فيعمد إلى أشجاره فيسرقها، ثم يختلس منها بعض ثمارها، فيقدِّمها هديَّة إلى سيِّده. لا جَرَمَ أنه جديرٌ برفض هديَّته علاوةً على غضب مولاه ومَقْته!

أدعياء المحبة

أما الذين يزعُمون أنَّ محبة الله أثرٌ للعلاقة القلبية، والصِّلة الروحيَّة بين

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب التواضع ١١: ٣٤٠ (٦٥٠٢).

شبكة الألوكة
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

العبد وربِّه، ولا دخل للعمل فيها، من الزنادقة الملاحدة، ومَنْ جاراهم ـ من أرباب الفلسفة النظرية والشَّقشقة اللِّسانية ـ فلا خطاب لنا معهم، إذْ لا أملَ لنا فيهم؛ لأنَّهم قومٌ ركبوا رؤوسهم، وأغلقوا قلوبهم، واتَّبعوا أهواءهم، فعموا وصمُّوا وضلُّوا وأضلُّوا: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾[(١)].

وقد ادَّعى محبةَ الله أقوامٌ أقلّ من هؤلاء تمرُّداً وعناداً، فشهر الله فضيحتهم وإفلاسهم، وأعلن في كتابه العزيز تكذيبهم وبراءته منهم، فقال ـ و قولُه الحق ـ : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[(٢)].

وقال في إبطال دعوى أهل الكتاب وإفحامهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ﴾[(٣)].

ثمَّ قال جلَّ شأنه في علامات أوليائه الصَّادقين، الذين أحبَّهم كما أحبوُّه، ورضيَ عنهم كما رضوا عنه، والذين يُباهي بهم ملائكته، ويعزُّ بهم دينه، ويجعل منهم العوض، خير العوض ممَّن ارتدَّ عنه وجحده: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[(٤)].

---

(١) سورة الجاثية: ٢٣.

(٢) سورة آل عمران: ٣١ ـ ٣٢.

(٣) سورة المائدة: ١٨.

(٤) سورة المائدة: ٥٤.

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

من صفات المُحبِّين الصَّادقين

هذه أربع علامات تضمَّنتها الآيتان الكريمتان، ميَّز الله بهما هؤلاء المحبين المخلصين:

الأولى: ذلَّتهم للمؤمنين، وخفض الجناح لهم وإشفاقهم عليهم، كإشفاق الوالد على ولده، أو الأخ على أخيه، أو الطبيب على مريضه، فليست الذلّة هنا ذلّة ضَعَة وضعف، ولكنها ذلَّة تواضع وعطف، وقد أمر الله الأبناء أن يُحسنوا إلى الآباء، ويخفضوا لهم جناح الذّلِّ من الرحمة، ووصف رسول الله ﷺ الكمَلَة من أمته، بأنهم في توادِّهم وتراحُمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسَّهَر والحُمَّى[(١)].

الثانية: عزَّتهم على الكافرين، وعدم الخضوع لهم، فلا يتولَّونهم ولا يمالئونهم، ولا يتَّخذون منهم بِطانةً وأنصاراً، ولا يتشبَّهون بهم في شأن من شؤونهم، ممَّا يهين كرامتهم أو يضعف عزّتهم وسلطانهم ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[(٢)]. ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾[(٣)].

وفي معنى هاتين العلامتين ما وصف الله تعالى أصحاب نبيِّه ﷺ فقال: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ ﴾[(٤)].

---

(١) اقتباس من حديث رواه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦)، ولفظه عند البخاري من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم، كمثل الجسد إذا اشتكى عضواً، تداعى له سائر جسده بالسَّهر والحُمَّى».

(٢) سورة المنافقون: ٨.

(٣) سورة النساء: ١٤١.

(٤) سورة الفتح: ٢٩.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الثالثة: جهادهم بأنواع الجهاد كافَّة: بأنفسهم، وأموالهم، وأيديهم، وألسنتهم، لا يألون جهداً، ولا يدَّخرون وُسعاً.

وعلى ضروب الجهاد قام الإسلام، وبُني هذا الدين الحنيف، وعمَّ نورُ الله في الأرض، وبالجهاد سَبَق السَّابقون ممَّن لا يبلغ المجتهدون منا مُدَّ أحدهم ولا نصيفه(١).

الرابعة: صَلابتهم في الحقِّ ومضيُّهم فيه، لا يخافون لوم اللائمين، وإن بلغوا من السُّلطان والجاه أمداً بعيداً؛ لأنهم لا يعملون رغبةً في جزاء من الناس أو ثناءً، أو رهبةً من مكروه أو بلاء، وإنما يخشون الله وحده، فيحقّون الحقَّ، ويُبطلون الباطل، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، رضيَ الناسُ أم كانوا ساخطين.

مُقْتضى محبَّة الله سبحانه

وتقتضي محبة الله سبحانه أن يُحبَّ العبدُ ما يحبُّه ربُّه، ويبغضَ ما يبغضه، من الأعمال والعباد جميعاً. وتلك هي العلامة الجامعة للعلامات السابقة وما إليها، مما هو مبثوثٌ في كتاب الله تعالى، وسنّة رسوله ﷺ. وممَّا أَلِفَتْهُ العقول، وجرَتْ عليه الفِطَر، أنَّ المُحِبَّ يُؤْثر حبيبَه على نفسه، ثم يتحسَّس من كلِّ ما يحبُّ الحبيب فيحبه، ومن كلِّ ما يبغض فيبغضه، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

أَوْلى الناس بالمحبَّة بعد الله عزَّ وجل

وَأَوْلى الناس بالمحبَّةِ هو خاتمُ النبيِّين، صلواتُ الله وسلامه عليه وعليهم،

---

(١) المُدُّ في الأصل: رُبْع الصَّاع، وإنَّما قدَّره به، لأنه أقلّ ما كانوا يتصدَّقون به في العادة. ويروى بفتح الميم، وهو الغاية كما في «النهاية» ٤ :٣٠٧. والنَّصيف هو: النِّصف كما في «النهاية» أيضاً ٥ :٦٥.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إذْ أَخرَجَنا من الظلمات إلى النُّور بإذن ربِّه، وأَحيانا حياةً أبديَّة روحيَّة، فوق حياتنا العابرة الجسمية؛ ولذلك كان حبُّه ﷺ فوقَ حُبِّ الوالدَين، بل كان رُكناً من أركان الإيمان، ودعامَةً من دعائمه، وكان شكرُه ـ باتِّباعه، واستجابةِ ندائه، والصلاة والسلام عليه ـ فوقَ شكر الوالدين اللذين أمر الله بشكرهما مقروناً بشكره.

وتَلي محبَّتُهُ ـ صلوات الله وسلامه عليه وعلى إخوانه النبيِّين والمرسلين ـ مَحَبَّة أصحابه والتابعين لهم بإحسان.

ومن آثار محبَّتهم: إجلالُهم وإحسانُ الظَّنِّ بهم، لحُبِّ الله ورسوله إيَّاهم، وثنائه عليهم ومغفرته لهم.

وحَسْبُنا من دواعي الحبِّ والإجلال، أنهم شهدوا من النور ما لم نشهد، ثمَّ حدَّثونا، وعلموا من الكتاب والسنة ما لم نكن نعلم لولا أن علَّمونا، وكان فضل الله عليهم بالسَّبْق، ثم علينا بالاتِّباع عظيماً[١].

ثمرةُ الحبِّ الإلهي

إذا بلغ العبدُ المرتبةَ العليا في محبَّة الله له، على ما بيَّنا لك آنفاً، من مُجْمَل القول ومفصَّلِه، فبشِّره بما بشَّر الله به أولياءه من حبِّ الملائكة والناس لهم، ورضا الخَلْق بعد رضا الخالق عنهم؛ إلى ما يمتِّعهم به سبحانه من غنى النفس، وقُرَّة العين، وطِيب الحياة، بلذَّة الحبِّ وحلاوة المُناجاة، ممَّا لو علمه ملوك الدنيا لاشتروه بملكهم، ولقاتلوا المحبين عليه.

---

(١) بسطنا القول في فضل الصحابة رضوان الله عليهم، في الجزأين الأول والثاني من المجلد السابع عشر، ثمَّ في كتابنا «درجات الناس» [ص٣٥ـ٣٩](طه) وانظر: حديث: خير القرون ص ٨٥٥ ـ ٨٦٦.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولا ينقص من محبَّة الوليِّ وهيبته ورضا الله والناس عنه، ما يغصُّ به حاقد أو حاسد، أو فاسق أو منافق، فإنه لا وزن لهؤلاء في حبٍّ ولا بغضٍ، وما نجا من بلائهم أولياءُ الرحمن في زمان أو مكان: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾[١]، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾[٢].

تلك عاجلة بُشرى العباد الصالحين في الدنيا، وأمَّا في الآخرة، فقد أعدَّ الله لهم ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خطَرَ على قلب بَشَر، واقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٣].

لمحاتٌ ولطائف

ولا نَدَعَ القلم قبل أن ينبِّه إجمالاً ـ كعادته ـ على بعض ما انطوى عليه الحديث من لمحاتٍ ولطائف:

فمنها: فضل الرُّوح الأمين، والرسول الكريم جبريل عليه السلام على سائر الملائكة.

ومنها: إثباتُ حُبِّ الله وبغضه، ودعائه وثنائه، وهي من صفاته الثابتة له جلَّ شأنه على الوجه اللائق بجلاله وجماله، نؤمن بها، دون أن نبحثَ عن كيفيَّتها وكُنْهِها، كما آمنَ الرسول صلوات الله وسلامه عليه، وكما آمن صحابته

---

(١) سورة آل عمران: ١٧٩.

(٢) سورة الأنعام: ١١٢.

(٣) سورة السجدة: ١٧، وهو اقتباس من الحديث القدسي: «أعددت لعباديَ الصالحين مالا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت،..» رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب ماجاء في صفة الجنة (٣٢٤٤)، ومسلم أول كتاب الجنة ٤ :٢١٧٤ (٢٨٢٤).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

والراسخون في العلم.

ومنها: أنَّ محبة الناس وقَبولهم ـ ولا سيما الصَّالحين منهم ـ من علامات محبة الله عزَّ وجل، وكذلك بغضهم ونفورهم، من علامات بغضه وسخطه. نعوذ بالله منه.

ومنها: ـ وهو ألطفها وأوفاها وأدقُّها ـ أنه ليس الشأن أن تُحبَّ الله، بل الشأن أن يُحبَّك الله، ولن تظفرَ بمحبَّته إلاَّ إذا اتَّبعت حبيبَهُ ظاهراً وباطناً، واستقمت على طريقته غائباً وشاهداً، لا ترضى منها بدلاً، ولا تبغي عنها حِوَلاً.

* * * * *

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

بركة المسلم حياً وميتاً *

٤٨ ـ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ من الشَّجر شَجَرَةً لا يسقط ورقُها، وهي مَثَلُ المسلِمِ، حدِّثُوني مَا هِيَ»؟ فوقع الناس في شَجَرِ البادية، ووقع في نفسي أنها النَّخلةُ ـ قال عبد الله: فاستَحْيَيْتُ ـ فقالوا: يا رسول الله أخبرنا بها، فقال رسولُ الله ﷺ: «هيَ النَّخلةُ». قال عبدُ الله: فَحَدَّثْتُ أبي بما وقع في نفسي، فقال: لأَنْ تكون قلتَها أحبُّ إليَّ من أن يكون لي كذا وكذا. رواه الشيخان[1].

مجالس النبيِّ ﷺ

في مجلسٍ من مجالس النَّبيِّ ﷺ، وقد حفل بصفوةٍ من أصحابه، أراد أن يحدِّثهم عن المسلم الذي يصلح أن يكون عضواً حيًّا في الجامعة الإسلامية، ولَبِنةً قوية في بنائها، ومَنْ أحقُّ من النبيِّ ﷺ بهذا الحديث، وهو أوَّلُ المسلمين بشهادة الله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[2]؟!.

من فنون التربية

والذي أثار الحديث عن المسلم مناسبةٌ لطيفة، اتَّخذ منها إمام

* مجلة الأزهر، العدد السادس، المجلد الثاني والعشرون (١٣٧٠=١٩٥٠).

(١) أخرجه البخاري (١٣١) في كتاب الوضوء، باب الحياء في العلم، ومسلم (٢٨١١) في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم.

(٢) سورة الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

المربيِّن صلوات الله وسلامه عليه سبيلاً إلى امتحان أصحابه في أسلوب مشوّقٍ لما يلقي عليهم من العلم والحكمة. والتشويق فنٌّ من فنون التربية، عني به المربون وعلماء النفس كثيراً، وأوسعوه بحثاً ودرساً؛ لما له من عظيم الأثر في تنبيه الفكر وجمع القوى.

أُهديَ إليه ﷺ جُمَّار[١] فأكل منه، ثم سأل أصحابه أن يخبروه عن الشجرة التي لا يتساقط ورقُها على غير المعهود في الشجر، والتي مثلها كَمَثل المسلم في النفع والخير والبركة.. فأخذ الحاضرون يذكرون من شجر البادي ذاهلين عن الشجرة التي أكلوا من جمَّارها.

وكان في الجُمَّار تنبيهٌ على الإجابة، بَيْد أنهم لم يعرفوا النخلة باسم الشجرة قبل هذا المجلس، لكن عبد الله رضي الله عنه تنبَّه وألقى الله في رُوعه[٢] أنها النخلة، وللجُمَّار الأثرُ الأول في هذا التنبيه، ولقد همَّ عبد الله أن يُجيب، ولكنه نظر فإذا هو أصغر القوم، وكان عاشرَ عشرةٍ هو أحدثهم، ورأى الشيخين: أبا بكر وعمر لا يتكلَّمان؛ فسكتَ عن الإجابة حياءً وأدباً. فلمَّا عجز القوم وأعيوا، سألوا النبيَّ ﷺ فأجابهم بأنها النخلة.

ولَّما انصرف المجلس حدَّث عبد الله أباه بما وقع في نفسه، فقال له: لو قلتها يا بنيَّ لكان ذلك أحبُّ إلي من حُمُر النَّعم، كما ثبت عند ابن حبان في «صحيحه»[٣]، والأحاديث يفسِّر بعضها بعضاً، ومن ذلك

---

(١) جمع جُمَّارة، قلب النَّخل. وفي علم النبات: لبُّ النباتات، ويتألف من أنسجةٍ لدْنةٍ هَشَّةٍ. كما في «المعجم الوسيط» ١ :١٣٤.

(٢) الرُّوع: القلب، والذهن، والعقل. يقال: وقع في رُوعي كذا، أي: في نفسي.

(٣) أخرجه ابن حبان (٢٤٣) حيث جاء في آخر الحديث: «أحسبه قال: حُمُر النَّعم»، =

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

حديث الصحيحين: «لأن يَهْديَ الله بك رَجُلاً واحداً خَيْرٌ لك من حُمُر النَّعَم»[١]، والإبل الحمراء أعزُّ أموال العرب وأنفسها.

تشبيه المسلم بالنخلة

ما أجمل تشبيه المسلم بالنخلة، أو النخلة بالمسلم، كما فعل رسول الله ﷺ.

إنَّها خفيفةُ المؤونة، قليلةُ الكُلفة: تنفع ولا تَضر، وتُحسِنُ ولا تُسيء، وتعطي ولا تأخذ ـ إن أخذت ـ إلاَّ قليلاً؛ وكذلك المسلم الحقُّ، يتعفَّف ولا يُلحف، ويتلطَّف ولا يتكلَّف، مأمولٌ خيرُه ونفعُهُ، مأمونٌ شرُّهُ وَضرُّهُ؛ يُحْسِنُ إلى الناس، ويعفو عن إساءاتهم، ويعطيهم مُخْلِصاً، ولا يريد منهم جزاءً ولا شكوراً.

وفي النَّخلة صَلابةٌ واستقامةٌ، وقوةٌ ومتانةٌ، لا تُحرِّكها الرياح، ولا تنال منها العواصف؛ وكذلك المسلم الحق: قويٌّ في دينه، ثابتٌ في يقينه. في الزلازل وقورٌ، وفي المكاره صبورٌ، وفي الرَّخاء شكور، مهتدٍ وهادٍ إلى الصِّراط المستقيم.

النخلة وارفة الظلال، طيِّبة الثمار، ممدودة الخير، موصولة النفع منذ أن تغرس، إلى أن تجف وتَيْبس، بل بعد أن تُقطعَ قطعاً، وتُرسل في مصالح الناس ومرافقهم. ولن ترى شيئاً من أُصولها وفروعها وثمارها مهمَلاً أبداً.

وقد تفرَّد بها أبو عمر الضرير، وهو حفص بن عمر بن عبد العزيز الدُّوري، لا بأس به، كما في «التقريب»، ومَنْ فوقه على شرطهما.

(١) أخرجه البخاري (٤٢١٠) في كتاب المغازي، ومسلم (٢٤٠٦) في كتاب فضائل الصحابة.

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ويدرك بركةَ النخيل وخيرَها في حياتها وبعد مماتها، مَنْ يعلم أنَّ كثيراً من الناس كانوا ـ ولا يزالون ـ يقيمون في بيوت تعتمد على جُذوع النخل وجريده، ويعيشون على التمر عُمُراً، كما تعيش إِبِلُهم على النَّوى دهراً.

وفي السيرة النبويَّة عن عائشة رضي الله عنها: إنا كنَّا ـ آل محمد ـ لَنمكث شهرين، ما نوقد ناراً، إن هما إلاَّ الأسودان: التمر والماء(١).

المسلم الحقُّ خيرٌ كلُّه

وكذلك المسلم الحق، كلُّهُ خيرٌ وبركةٌ، حيًّا وميتاً، لنفسه ولعشيرته، وأُمته ووطنه، والعالم أجمع:

أما في حياته: فيما يعلِّمهم ويُرشدهم، ويُؤدِّي حقوقَهم، ويسعى جاهداً في مصالحهم، ويعينهم على البرِّ والتقوى.

وأما بعد مماته: فيما يترك فيهم من علمٍ نافعٍ، أو هَدْيٍ صالح، أو أثرٍ مبارك، أو سنَّةٍ حسنةٍ، له أجرُها وأجرُ من عمل بها من بعده إلى يوم القيامة، لا ينقص من أجورهم شيء.

وكلُّ هذه الشُّعب الخَيِّرة المُتنوِّعة تدخل فيما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله، إلاَّ من ثلاثة، إلا مِن: صدقة جارية، أو علم يُنْتَفَعُ به، أو ولد صالح يدعو له**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٦٧)، ومسلم (٢٩٧٢).

(٢) مسلم (١٦٣١)، وقد تقدَّم شرحه تحت عنوان: عمل المرء لغيره ص١٨٣.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الأمة المسلمة

هذا هو المسلمُ الحقُّ، الذي تتألف منه ومن أمثاله أمةٌ رشيدةٌ قويةٌ، متماسكة متآزرة ﴿كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾[١].

أمة صالحة لوراثةِ الأرض وعمَارتها، جَديرةٌ بما وَعَدَ الله عباده من النصر في قوله سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[٢]، والعزِّ في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[٣]، والتمكين في الأرض من بعد الاستخلاف فيها، كما قال جلَّ سلطانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗا﴾[٤].

فأين المسلم أو المسلمون اليوم من شجرة طيِّبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء، تُؤتي أُكلها كلَّ حين بإذن ربها؟! إنهم حُفَالة كحُفَالة[٥] الشعير أو التَّمر، أو غثاء كغثاء السيل؛ لا تستطيع أن تحصيهم عدداً، ولكن قلَّما ترى مع الأسى والأسف أحداً!!.

إنه لن يعود للمسلمين مَجْدُهم الأول، إلاَّ إذا تخلَّقوا بأخلاق الرعيل

---

(١) سورة الفتح: ٢٩.

(٢) سورة الروم: ٤٧.

(٣) سورة المنافقين: ٨.

(٤) سورة النور: ٥٥.

(٥) الحُفَالة: رذالة من الناس، كرديء التمر ونُفايَتِهِ، وهو مثل الحُثالة. كما في «النهاية» ١ :٤٠٩.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الأول: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[١]، تراهُم في «توادِّهم، وتعاطفهم، وتراحمهم، كَمَثَل الجَسَد الواحد، إذا اشتكى منه عُضوٌ منه، تداعى له سائر الجَسد بالسَّهَر والحُمَّى»[٢]، أو تراهم «كالبنيان يشدُّ بعضُه بعضاً»[٣].

* * * * *

(١) سورة الفتح: ٢٩.

(٢) اقتباس من حديث النعمان بن بشير المرفوع المتفق عليه في البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).

(٣) اقتباس من حديث أبي موسى المرفوع المتفق عليه في البخاري (٤٨١)، ومسلم (٢٥٨٥).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

كياسة المؤمن *

٤٩ ـ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبِيّ ﷺ أنه قال: «لا يُلْدَغُ[١] المؤمنُ من جُحْرٍ مرَّتين». رواه الشيخان[٢].

المفردات:

اللدغ: كاللسْع وزناً ومعنى. ويُستعملان في ذوات السموم على سواء، بخلاف اللدغ، فإنه الخفيف من إحراق النار. وقيل: اللسْع لذوات الإبر، كالعقارب. واللدغ لذوات الفم، كالحيَّات.

والجُحْر: هو الثَّقب الذي تحتفره الهوام والسباع لأنفسها.

* * * * *

من جوامع الكلم وروائع الحكم

هذا حديثٌ من جوامع كلمه، وروائع حِكمه، صلوات الله وسلامه عليه. ضربه مثلاً للمؤمن وما ينبغي أن يتكمَّل به من كياسة وسياسة، ويقظة وحزم؛ فإنَّ نقصاً في دين المرء وعقله أن يكون أبْلَهَ مُغفَّلاً، خُدْعةً للخادعين، وطُعْمَةً للطامعين.

---

* مجلة الأزهر، العدد الثامن، المجلد السادس عشر، (١٣٦٤ = ١٩٤٥).

(١) رُوي بضم الغين وكسرها لالتقاء الساكنين، على النفي أو النهي. والنفي مراداً به النهي أبلغ وأحكم (طه).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٣٣) في كتاب الأدب، ومسلم (٢٩٩٨) في كتاب الزهد والرقائق.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أبو عَزَّة الجُمَحي

وموردُ هذا المثل أبو عَزّة الجُمَحي الشَّاعر، وكان يهجو النَّبِيَّ ﷺ وأصحابه، ويؤذي الله ورسوله. وذلك أنه أُسر في غزوة بدر فيمن أسر من المشركين، فَضَرَع إلى النَّبِيِّ ﷺ أن يعتقه دون فداء، وقال: يا محمد، إني فقير وذو حاجة قد عرفتها، فامنُن عليَّ لفقري وبناتي، فرقَّ الرسول وأطلقه، بعد أن أخذ عليه الميثاق ألاَّ يُظاهر عليه.

فلمَّا عاد إلى مكة أبى له لُؤْمُه وسُوءُ طويتَّه إلا أن ينال من المسلمين بِشعْرِه، وأن يطيعَ المشركين في الخروج إلى أحد، واستنفار الأعداء لمحاربة النَّبيِّ ﷺ وأصحابه.

ويشاء الله أن يقع أسيراً في غزوة حمراء الأسد[1]، وهي التي استجاب المؤمنون فيها لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح، فعاد سيرته الأولى، يَضْرع ويشكو، ويقول للنَّبيِّ ﷺ: امنُن عليَّ لفقري وبناتي، وأعاهدك ألاَّ أعود لمثل ما فعلت.

فأجابه سيّدُ الحكماء صَلَوات الله وسلامه عليه إجابته الخالدة: «لا والله، لا تَمْسَح عَارِضَيْك[2] بمكة، وتقول: خدعت محمداً مرَّتين. لا يُلدغ المؤمن من جُحْر واحد مرتين، اضرب عنقه يا زيد».

كان صلواتُ الله وسلامه عليه في الأولى مَضْرِبَ المثل حِلْماً ورِفقاً، ورحمةً، كما كان في الثانية مَضْرِبَ المثل كذلك سياسةً وكياسةً وحكمةً.

---

(١) تقع على نحو ثمانية أميال من المدينة. وكانت هذه الغزوة في اليوم التالي لغزوة أحد، ولذا تابع بعض الشرَّاح فألحقها بأحد، وقال: إنّ أبا عزة أُسر بها (طه).

(٢) العارضان والعارضتان: صفحتا الخد، وقيل: مسحهما، كنايةٌ عن الزهو والاستخفاف.

الجديد و طـرح NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الخطة المثلى للذين يقودون الأمم

وهذه هي الخطة المُثْلى للَّذين يقودون الأمم، ويسوسون الجماعات، ويحملون لواء الهُدى، عفوٌ في غير ضَعف، ورحمةٌ من غير عنف، وإحسانٌ لا تُكَدِّره مَساءَة، فإذا لم يُصادف شيءٌ من ذلك مَوْضعه، ولم يُصب مَوْقعه، وكان كالبذر الطيِّب في الأرض السَّبِخة، فلا مناصَ من الشدَّة والحزم، واليقظة والعزم؛ ليعتبر ماكرٌ، ويرتدع غادر، ثمَّ لتنتصر الفضيلةُ، وتعلو كلمة الحق.

وما أصدق أبا الطيِّب إذ يقول:

إذا أنتَ أكرمتَ الكريمَ ملكتَهُ ... وإنْ أنتَ أكرمتَ اللئيم تمرَّدا

فوضْعُ النَّدى في موضع السيف، بالعُلا ... مُضِرٌّ كوضع السيفِ في موضع الندى

الحكمة وضعُ كلِّ شيء في موضعه

وإذا كان من الإيمان والحكمة، بل من هدي النبوَّة والرسالة، أن يوضع كلُّ شيء في موضعه، فلا غَرابة أن يمتدحَ الله جلَّ ثناؤه، عباده المؤمنين بأنهم ينتقمون ولا يعتدون، فيقول سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾[1].

على حين أنه يحضُّهم على العفو في غير آية، ويقول لنبيِّه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[2].

وكان النَّخَعي إذا قرأ الآية الأولى قال: كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم، فيجترئ عليهم الفسَّاق.

---

(١) سورة الشورى: ٣٩.

(٢) سورة الجاثية: ١٤.

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

التحلِّي بالحزم والفطانة

وسواءٌ أكان النَّبيُّ ﷺ يُخبر عن حالٍ من أحوال المؤمن، أم ينهى المؤمن ويُحذِّره أن يقع في شرَك الغفلة؛ فإنه ـ وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم ـ يدعوهم إلى أن يَتَحلَّوْا بالحزم والفَطَانة والتجريب للأمور، حتى إذا نُكب أحدهم من وَجْهٍ مرّة، منعه تفطُّنه أن يُنكَبَ منه مرةً أخرى.

سرُّ تقييد الجُحْر بواحد

وما أجمل تقييده الجُحْر «بواحد»، حتى لا تكون نقصاً في إيمان المؤمن، ولا ثَلْماً في فطنته وكياسته، أن يُلدغَ من جُحْرٍ آخر ليس من نوع الأول ولا من قبيله، وإن لم يكن من تمام الفطنة والاعتبار بالحوادث، والاتِّعاظ بالكوارث، وقياس الأمور بأشباهها.

لماذا خُصَّ المؤمنُ بهذه الوصية؟

وإنما خصَّ المؤمن بهذه الوصيَّة الحكيمة؛ لما يغلب عليه من سلامة النيَّة وحُسْن الظن، فيقع في الشَّرَك من حيث لا يدري.

الغفلة والبلاهة ليست من صفات المؤمن:

ومن العَجَب العُجَاب أن يزعم كثيرٌ من الناس ـ ومنهم من قرَّاء الحديث ـ أنَّ البلاهة والغفلة من سمات الصَّلاح والتقوى، وأنَّ الكياسة والفطنة من آيات الخُبْث والجَرْبَزَة[1].

زعمٌ باطل، ووهمٌ خاطئ، جرَّ على المسلمين نكَبات وبلايا، لا يزالون يَرْزَحُون تحت أثقالها، وكيف يكون الأمر كما زعموا، والأبْلَه والمخدوع لا يصلح لأمر من أمور الدين، ولا لشأن من شؤون الدنيا، بل هو نكبةٌ أينما حَلَّ، وبليَّة حيثما ارتحل؟!!.

---

(١) الجُرْبُز ـ بالضمِّ ـ الخبُّ الخبيث، والمصدر: الجَرْبَزَة «قاموس».

الجديد و طريف NEW & EXCLUSIVE

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أم كيف يكون الأمر كما ظنُّوا، وقد جاء القرآن الكريم يخاطب العقول، وينبِّه الألباب على ما احتوى عليه من عِبَر، وما اشتمل عليه من حِكَم؟! كما جاءت السنة حافلة بالثناء على ذوي البصائر والعقول تنويهاً باسمهم، وحثاً على الاقتداء بهم.

ثم لم يصْطَفِ الله تعالى رسولاً أو نبياً إلا وهو قدوة مثلى، في اليقظة والحزم، وأخذ الأمور بالتي هي أقومِ.

ولم تأذن الشريعة الغرَّاء للمسلمين أن يولُّوا أمرهم أميراً أو قاضياً، إلا إذا كان معروفاً برجاحة العقل، وإصابة الرأي، وبُعْد النظر.

الجمع بين هذا الحديث وبين وقوله ﷺ: «المؤمن غرٌّ كريم»

ولا يُعارض هذا الحديث ما رواه الإمام أحمد في «مسنده» عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ الرَسُول ﷺ قال: «**المؤمن غِرٌّ كريمٌ، والمنافق خَبٌّ لئيمٌ**»[١] فقد تكلَّم الحفَّاظ في سَنَده حتى ذهب بعضهم إلى أنه موضوعٌ. على أنّ وصف المؤمن فيه بالغَرارة جاء مُقابلاً لوصف المنافق بالخِبِّ والخِداع. وهذا جَليٌّ في أنَّ المراد من غرارة المؤمن: غفلتُه عن الشرِّ، وبُعدُه عن الخُبْثِ والمكر[٢]،

---

(١) رواه أحمد ٢ :٣٩٤(٩١١٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٤١٨)، وأبو داود (٤٧٥٧) في الأدب، والترمذي (١٩٦٤) في البرِّ والصِّلة. كلُّهم بلفظ: «والفاجر» ولم يأت في مصادر التخريج لفظ «المنافق». والحديث حَسَن بمجموع طرقه. كما في التعليق على «المسند» ١٥ :٥٩_٦٠ بتحقيق شعيب الأرناؤوط وتلاميذه.

(٢) قال ابن الأثير في «جامع الأصول» ١١ : ٧٠١: «الغِرُّ: الذي لم يُجرِّب الأمور، وإنما جعل المؤمن غِرًّا نسبةً إلى سَلامة الصَّدر، وحُسْنِ الباطن والظنِّ في الناس، فكأنه لم يُجرِّب بواطن الأمور، ولم يطَّلع على دخائل الصدور، فترى الناس منه في راحة لا يتعدَّى إليهم منه شرٌّ، بل لا يكون فيه شرٌّ فيتعدَّى.

والخَبُّ: الخَدَّاع المكَّار الخبيث، ولذلك قابل به «الغِرّ» لأنَّ الناس يتأذَّون به، لما يصلهم من شرِّه».

=

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وهذه خَلَّة كريمة لا تحولُ بينه وبين الاحتراس من المكايد واليقظة في الأمور.

ومهما يكن من أمر، فلا جدال في أنَّ المؤمن الفَطِنَ الحَذِر، الكيِّس[١]، الرشيد خيرٌ من المؤمن العاجز الضعيف، وأجدرُ أن يكون خليفة الله في الأرض[٢].

وإذا امتدح ﷺ في المؤمن كياستَه، فلا يريد أن تصلَ به إلى منزلةٍ من الخُبْث والمكر وسوءِ الظنِّ، فإنَّ هذه من صفات المنافقين الذين يمْقُتهم الله ورسوله، وإنما يريد الكياسة التي نبَّهْنا عليها، وهي التي تُعرِّفه الشرَّ لئلاَّ يقع فيه، وتُبصِّره عواقب الأمور؛ ليكون منها على حَذَر.

جواز الخداع والكذب في الحرب

نعم، أجاز صلوات الله وسلامه عليه الخداع في الحرب، بل الكذب فيها، وقال فيما رواه الشيخان عن جابر رضي الله عنه: «الحرب خدعة»[٣]؛ لأنَّ

وقال في «النهاية»٣ :٣٥٤_٣٥٥ في معنى قوله: «المؤمن غِرٌّ كريم»: «أي: ليس بذي نُكْرٍ، فهو ينخدع لانقياده ولينه، وهو ضدُّ الخَبِّ. يريد أنَّ المؤمن المحمود من طبعه الغَرارة، وقلَّة الفطنة للشرِّ، وترك البحث عنه، وليس ذلك منه جهلاً، ولكنه كرمٌ وحُسن خلق.

والخبُّ- بالفتح_ الخدَّاع، وهو الجُرْبز الذي يسعى بين الناس بالفساد. رجل خَبٌّ، وامرأة خبَّة، وقد تكسر خاؤه، فأما المصدر فبالكسر لا غير. كما في «النهاية»٢ :٤ .

(١) ومما ينبَّه له أن حديث: «المؤمن كيِّس، فَطِنٌ، حَذِر» رواه الشهاب القضاعي في «الشهاب» (١٢٨) من حديث أنس بن مالك. وهو حديث موضوع، فيه سليمان بن عمرو، أبو داود النخعي. قال أحمد وغيره: كان يضع الحديث. وأبان بن عياش: متروك متهم.

(٢) في إطلاق هذه اللفظة نظر، وانظر ماكتبه شيخنا العلامة المفسِّر عبد الرحمن حنبكة الميداني حفظه الله تعالى في كتابه «بصائر للمسلم المعاصر» ص١٥٢_١٨٤ بعنوان: مقولة «الإنسان خليفة الله في أرضه» مقولةٌ باطلة..

(٣) البخاري (٣٠٣٠)، ومسلم (١٧٣٩). وخَدْعة بتثليث الخاء مع سكون الدال، وبضمها مع فتح الدال، وأفصح لغاتها: الفتح فالسكون.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الغاية من الحرب كَسرُ شوكة الأعداء. ويعلم كلٌّ من الخَصْمَيْن أنَّ صاحبَهُ لا يألو جهداً في الكَيْد له. وإذا كان للشجاعة، وكثرة الجند، وجودة السلاح أثرٌ عظيم في الفوز والغَلَبة، فقد تكون الخدعة في الحرب أعظم أثراً، وأبقى على النفوس والأموال.

ويشهد لهذا ما فعل نُعيم بن مسعود الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في واقعة الأحزاب، إذْ سعى بين المشركين وبين بني قريظة بما فرَّق بينهم حتى صرَفَ الله كَيْدهم، ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾(١).

وفي خدعة الحرب يقول المُهلَّب لبنيه: «عليكم في الحرب بالمكيدة؛ فإنها أبلغ من النَّجْدة»، على أنَّ الخدع في الحرب، أو الكذب فيها لا يجوز البتة فيما يؤدِّي إلى نقض عهدٍ أو أمان.

على هذه اليقظة الحميدة والكياسة السَّديدة، سار النَّبيُّ ﷺ، وخلفاؤه الراشدون، ثمَّ المسلمون الأوَّلون في تصريف شؤونهم وتدبير دولتهم، حتى كانوا بحقٍّ سادةَ الأمم وملوك الدنيا.

التفطُّن لمكايد الشيطان الرجيم عدوِّ الإنسان

وإذا كان جديراً بالمؤمن أن يتفطَّن لمكايد عدوِّه الذي يُبصره، فما أحراه أن يكون دائم اليقظة والفطنة لعدوِّه اللدود الذي لا يُبصره، ذلك هو الشيطان الرجيم، وعدُّو الإنسان المبين.

حذَّر الله عبادَه إغراءه وإضْلاله، وضَربَ لهم أمثالاً من فتنه ومكايده، وقال جلَّ شأنه: ﴿يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ﴾(٢).

---

(١) اقتباس من الآية ٢٥ من سورة الأحزاب.

(٢) سورة الأعراف: ٢٧.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

كما بيَّن النَّبيُّ ﷺ لأُمَّته طريقَ النَّجاة من دَسَائسه ووَسَاوسه، حتى أخبرهم أنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، كما روى الشيخان[١] من حديث أم المؤمنين صفيَّة.

ومع هذا فليس من أحد ـ ما خلا النبيِّين والصِّدِّيقين ـ إلا أوقعه في مكايده، وَصَادَه بمصايدِه، ثمَّ يأبى ـ وقد أفلته الله منه ـ إلا أن يغترَّ به، ويقع في مخالبه.

الحثُّ على التفطُّن واليقظة في شؤون الدنيا والآخرة

وقد استَبَان ممَّا قدَّمنا أنَّ الحديثَ يتناول الحثَّ على التفطُّن، واليقظة في شؤون الدنيا والآخرة معاً، فليس مقصوراً على أمور الدين خاصَّة، كما زعم بعض الشَّارحين. وما من شك في أنَّ من خُدع في إحداهما أَوْشَكَ أن يُخدع في أخراهما.

يقظة أولي الأمر وذوي الرأي

أما بعد؛ فإن لم يكن من مَطْمَع في يقظة المؤمنين جميعاً، وكياستهم في دينهم ودنياهم، وشؤونهم كلِّها كافَّة، فلا أقلَّ من أن يَسْتيقظَ أُولو الأمر منهم وذوُو الرأي فيهم، حتى يستعيدوا لأُمَّتهم بعضَ عِزَّتها، ويَستردُّوا لها شَطْراً من مَجْدِها وكرامتها. ولن يُغَيِّر الله ما بقومٍ ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ﴾[٢].

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

---

(١) البخاري (٢٠٣٥)، ومسلم (٢١٧٥).

(٢) اقتباس من الآية ١١ من سورة الرعد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

عزَّة الكمال في الناس*

٥٠ ـ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّما الناس كالإبلِ المئةِ لا تكادُ تجد فيها راحلةً»[١]. رواه الشيخان[٢].

معرفة الناس وطبائعهم

مِنْ أعظم شرائط الدعوة، وأهم الأسباب في نجاح الداعي، معرفتُه أحوال مَنْ يدعوهم؟ وإلمامه بطباعهم، ومبلغ رقيِّهم وانحطاطهم؛ ليكون على بصيرة من دعوته.

ومن أجل ذلك تُعنى الأمم ـ ولا سيما المستعمرين منهم ـ بدراسة الاجتماع وطبائع النفوس وأحوال البشر؛ ولا تُولِّي سياسة البلاد إلاَّ من حنكته الخبرة، وَصَقَلَتْه التجربة، وفاز من هذه الدراسات بحظٍ كبير.

وأوْلى الناس بمعرفة الناس وطبائعهم هم الدعاة إلى الله عزّ وجل؛ لأنهم يبنون نفوساً متهدِّمة، ويعمرون قلوباً خربة، ويُصلحون فِطراً فاسدة، وينشئون أجيالاً جديدة. فما أشقَّ مهمتهم وما أثقل عبئهم!.

---

* مجلة الأزهر، العدد السابع، المجلد الخامس عشر، رجب (١٣٦٣).

(١) يجوز أن تكون المئة صفة مفردة للإبل، وأن تكون مبتدأ والجملة بيان. والراحلة هي البعير القوي النجيب المختار في جميع أوصافه للسفر والركوب، وما أعزّها في الإبل (طه).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٩٨) في الرقاق، ومسلم (٢٥٤٧) في فضائل الصحابة.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

خبرة الرسل بأحوال الناس

وإذا كان رسلُ الله هم سادة الدعاة إليه، فليس عجباً أن يمنَحهم من الخبرة بأحوال الأمم أوفْى نصيب، وفي رعيهم للغنم وهم أحداث ـ وما من نبيٍّ إلا رعاها ـ ثم في تحمُّلهم مشاقّ الأسفار، ومفارقة الديار، تأييدٌ لما نقول؛ ولهذا كانوا أوسعَ الناس صدراً، وأجمَلَهم صبراً، وأجلَّهم سياسةً وحِلماً.

وإذا قَضَتْ حكمة الله تعالى أن يكون رسلُه في الفضل درجاتٍ، فلا بِدع أن يكون خاتمُ النبيين صلوات الله وسلامه عليهم أجلَّهم في العلوم منزلةً، وأعظمهم في المعارف رتبةً، وأوسعهم في طباع الناس علماً؛ لأنّ دعوته عامة، وشريعته خالدة.

ولقد تجلَّى ذلك في هديه وإرشاده، وتأليفه بين القلوب النافرة، واجتذابه للنفوس الشَّاردة، كما تجلَّى ذلك في وصاياه المختلفة، وحكمه البالغة، التي اقْتَلَعَت جذوراً شرِّيرة، وأبْرأت أدواء مُسْتعصية.

الإبداع في التمثيل

ومن الآيات البيِّنات على نُفوذ بصيرته، وبلوغِ خبرته بأحوال النفوس وطبائع البشر، هذا الحديث الجامع الذي يصف الناس فيه بأنهم كثير، ولكنّ الكامل فيهم قليل.

مثلُهم كمثل الإبل، تعدُّ المئة منها، بل المئتين فلا تقع على الراحلة النجيبة، الحسنة المنظر، الكريمة المخبر، التي استوت خَلَقاً وخُلقاً، فلا تجد فيها ضعفاً ولا عيباً، ولا ترى فيها عِوجاً ولا أمْتاً.

وهكذا الناس، يعييك منها العدُّ والإحصاء، فلا يقع بصرك أو بصيرتك ـ إلا ما شاء الله ـ على كامل مكمّل، ترضى سجاياه كافة، وتُحمد أحواله عامة؛ بل لا بدّ من قذى في العين، أو شجى في الحلق، أو أذًى في النفس.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

هذا تقيٌّ نقيٌّ إلا أنه يُخْدَع؛ وهذا قويٌّ سَريٌّ إلا أنه يَخْدَع؛ وهذا عالمٌ كبير لكنه ضعيف! وهذا حاكم خطير لكنه يحيف؛ وهذا شجاع كريم غير أنه فاسق؛ وهذا مفكّر عليم غير أنه ينافق. وقُل ما شئت من مدحٍ وثناء، ولكن لا بدَّ من الاستدراك والاستثناء.

وما أحسن ما قيل في هذا المعنى: «الناس إلا قليلاً ممَّن عصم الله مدخولون في أمورهم؛ فقائلهم باغ، وسامعهم عيّاب، وسائلهم متعنّت، ومجيبهم متكلّف، وواعظُهم غير محقق لقوله بالفعل، وموعوظهم غير سليم من الاستخفاف، والأمين منهم غير متحفِّظ من إتيان الخيانة، وذو الصِّدق غيرُ محترس من حديث الكذبة، وذو الدين غير متورِّع عن تفريط الفجرة، والحازم منهم تارك لتوقع الدوائر...».

من حكمة الله في هذا النقص

وكأنه ـ كما قال أبو حيَّان التوحيدي ـ لابدَّ من نقصان يعتري الإنسان، في كلِّ زمان ومكان؛ لئلا يستبدَّ باستطاعته، ولا يغترَّ بكماله، ولا يختال في مشيته، ولا يتهكَّم في لفظه، ولا يتحكَّم على ربِّه، ولا يعدو على بني جنسه؛ ولئلا يعرى من مُذَكِّرٍ بالله، وزاجرٍ عن أمر الله، وداعٍ إلى ما عند الله، ومُحَذِّر من عقاب الله، ومُرَغِّب في ثواب الله.

قَبَسٌ من نور النبوة

ولقد افتَّن الأدباء والشعراء في التعبير عن عزَّة الكمال في الناس، وقلّة الأخيار منهم، حتى قال قائلهم:

ما أكثر الناس، لا بل ما أقلّهم ... الله يعلم أنّي لم أقُل فَنَدا[١]

(١) الفند: الكذب وضعف الرأي.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إني لأُغمض عيني ثمَّ أفتحها على كثيرٍ ولكن لا أرى أحدا

قال أبو تمام:

إن شئتَ أن يسودَّ ظنُّك كله فَأَجِلْهُ في هذا السَّواد الأعظم

إلى شواهد كثيرة يحفظها أهل الأدب والبيان. بل لقد شكا الفاروق رضي الله عنه وهو في خير القرون قلّة الرجال، إذ قال: «اللهم إنّي أشكو إليك جلَدَ الكافر، وعجزَ الثقة».

أبدع الشعراء والأدباء في تصوير هذا المعنى ما شاء الله أن يُبدعوا، ولكنهم لم يخلُصوا إلى مثل هذه البلاغة النبوية، والحكمة الربَّانية، والتي تنبع من جلال الحقِّ، وتفيض من معين الصدق، وتجلي الحقيقة للعيان ساطعةً مشرقة، وأين مشاعل الشعراء، من مصابيح الأنبياء؟.

معنى آخر للحديث

وضح ممّا قدمناه أنّ الحديث يعني قلَّة الكاملين الخيِّرين المُصْطَفَين على كثرة الناس، كقلّة الراحلة النجيبة المختارة إلى الإبل، ويشهد لهذا المعنى آياتٌ كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[١]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾[٢].

وإذا كان الكرام المُصْطَفَون قليلاً في السابقين، فهم أقلُّ من القليل في اللاحقين. لكنّ طائفةً قد تأوّلوه على أنّ الناس في أحكام الدين سواسية كأسنان المشط؛ لا فضل فيها لشريفٍ على مشروف، ولا لرفيع على وضيع، كالإبل

(١) سورة الأنعام: ١١٦.

(٢) سورة سبأ: ١٣.

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الكثيرة المستوية في فقدان الراحلة. وليس غلوًّا أن نقول: إنّ هؤلاء قد انحرفوا عما يقصد إليه الحديث المبين.

تقدير الكمال

ثم إنَّ الناس يختلفون في تقدير الكمال اختلافاً كثيراً، تبعاً لعصورهم وتربيتهم وبيئاتهم. ولقد أُولِع الإنسان ـ ولا يزال ـ بتصوير مَثَل كامل ينزِّهُهُ عن كلِّ نقصٍ بشري، ويمنحه كلّ جمال إنساني، ثم يتخذه قدوته وغايته، ولكنه ـ ويا للأسف ـ لا يزال عاجزاً عن مداناة هذا المثل فضلاً عن تحقيقه.

والكامل عند علماء الأخلاق والتربية: من قويَ جسمُه حتى أصبح آلةً سليمة في فعل الخير، وعدَّةً قويمة في إنتاج البر؛ ونَضَجَ عقله وحصف حتى حال بينه وبين الفساد، وسَلَكَ به سبيلَ الرَّشاد؛ ولطفت روحه وسَمَت حتى بوّأته مقاعدَ الصدِّيقين.

وللصوفية مجالٌ كبير في تصوير الإنسان الكامل. وصفوَةُ القول فيه عندهم: أنه مَنْ يرقى بنفسه؛ ويسلك طريق الأنبياء والمقرَّبين حتى يتَّصلَ بالله عزَّ وجل؛ وحينئذٍ يذوق ما لا يذوق الناس، ويرى ما لا يرون، ويعرف ما لا يعرفون.

نموذجان من الكمال الإنساني

ولا نرى بأساً أن نشيرَ هنا إلى صورتين جميلتين من نماذج الكمال الإنساني، نرجو بذلك أن نأخذَ أنفسنا بهما أو بإحداهما، ويُيسِّر السبيل إليهما أنهما ليستا من الأمور النظرية، ولا ينقص من ينتهجهما إلا صدق الرغبة، ومضاء العزيمة في قليلٍ من المرَانة والصبر.

قال عليٌّ كرَّم الله وجهه في صفة المتَّقين: «فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوَّةً في دين، وحزماً في لِين، وإيماناً في يقين، وحِرصاً في علم، وعلماً في حلم، وقصداً في غنى، وخشوعاً في عبادة، وتجمُّلاً في فاقة، وصبراً في شدّة، ونشاطاً في هُدى، وتحرُّجاً عن طمع. يعمل الأعمال الصَّالحات وهو

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

على وَجَل؛ يمسي وهمُّه الشكر، ويصبح وهمُّه الذكر؛ مُقْبلاً خيره، مُدْبراً شره؛ في الزلازل وقور، وفي المَكَاره صبُور، وفي الرخاء شكُور؛ نفسه في عناء، والناس في راحة».

وقال أحد الحكماء: إنّي مخبرك عن صاحبٍ لي، كان أعظم الناس في عيني، وكان رأسُ ما أعظمه عندي صغرَ الدنيا في عينه، كان خارجاً من سلطان بطنه، فلا يشتهي ما لا يجده، ولا يكثر إذا وجد؛ وكان خارجاً من سلطان فرجه، فلا يدعو إليه مؤونة، ولا يستخف له بدناً ولا رأياً؛ وكان خارجاً من سلطان الجهَالة، فلا يقدم إلا على ثقة أو منفعة؛ وكان لا يشكو وجعاً إلاَّ عند من يجد عنده البُرء، ولا يصحب إلاَّ من يرجو عنده النصيحة، وكان لا يتبرَّم ولا يتسخَّط، ولا يتشهَّى ولا يتشكّى، ولا ينتقم من الولي، ولا يغفل عن العدو، ولا يخصُّ نفسه دون إخوانه بشيء من اهتمامه وحيلته وقوته.

الكمال درجات

وأياً ما كان الأمر فالكمال على أنحاءٍ ودرجات، ومحالٌ أن يجتمع في كلٍّ نواحيه إلاَّ للأنبياء والمرسلين، والناس بعد هؤلاء على حظوظ متفاوتة على حسب اقترابهم، أو تباعدهم من الكمال والكاملين، ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾(١).

ثم إنَّ الكمال أمرٌ نسبيٌّ، فَرُبَّ مفضولٍ في الأوَّلين يكون مثلاً كاملاً في الآخرين، ومهما وصف الواصفون في ضروب الكمال وسبله، ففي كتاب الله وسنّة رسوله هدى ونورٌ وشفاء لما في الصدور. وحسبنا آية البر(٢)، وسورة

---

(١) سورة فاطر: ٣٢.

(٢) ﴿۞لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ [البقرة:١٧٧].

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

العصر، وأجمع آيةٍ لخيرٍ يُمتثل وشرٍ يُجْتنب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(١).

من لطائف الحديث وأسراره

وحقٌّ على من فهم هذا الحديث أن يأخذَ العفو ويأمر بالعرف، وأن يُحسن ما وَجَدَ إلى الإحسان سبيلاً، ولا ينتظر من الناس ـ والنقص في طبائعهم ـ ملائكةً أطهاراً، أو صدّيقين أخياراً، فإنه حينئذ يطلب ما لا سبيل إليه. وليكن مع هذا كلّه على حذر من الناس يستره، في ظنٍّ حسن وخُلُقٍ كريم.

وفي الحديث منافسةٌ كريمةٌ، يدركها السبَّاقُون إلى الخير، والغُيَّرُ على المكارم، فيعملون على أن يكونوا في الناس كالرواحل في الإبل «وقليل ما هم».

أما بعد، فإنَّ الواصفين أكثر من العارفين، والعارفين أكثر من الفاعلين، فلينظر امرؤ أين يضع نفسه؟.!.

* * * * *

(١) سورة النحل: ٩٠.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

من حُسْن إسلام المرءِ تركُه ما لا يعنيه *

٥١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من حُسْنِ إسْلامِ المَرْءِ تركُه ما لا يَعْنِيهِ»(١)

جوامع الكلم

أُوتيَ النَّبيُّ ﷺ جوامعَ الكَلِم، واخْتُصِرَ له الكلامُ اختصاراً.

ومن جوامع كلمه، ولوامع حِكَمِه هذا الحديث، الذي نحن بصدده، والذي نحاول بعون الله أن نكشف الغطاء عن بعض ما يكنُّ من دقائق وأسرار. ولنبدأ بكلماتٍ في إسلام المرء، وحُسن إسلامه، وما يعنيه، وما لا يعنيه؛ فإنها المنفذُ إلى مكنونات الحديث.

أمَّا إسلام المرء: فهو انقياده لشرع الله الذي شَرَعَ لعباده وتعبَّدهم به، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، والوقوفِ عند حدوده وآدابه.

وأما حُسْن إسلام المرء: فهو قيامُه على هذا الشَّرع، وتقبُّله له بجميل الرعاية، فيما أمر ونهى، وأحبَّ وكره.

---

* مجلة الأزهر، العدد السادس، المجلد الرابع عشر، جمادى الآخرة (١٣٦٢)، وهذا أول حديث بدأ بشرحه العلامة طه الساكت رحمه الله تعالى، ونُشر له في مجلة الأزهر.

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٨) في الزهد، وابن ماجه (٣٩٧٦) عن أبي هريرة، وأخرجه أحمد ١ :٢٠١(١٧٣٧) من حديث الحسين بن علي رضي الله عنهما. والحديث حَسَنٌ بشواهده.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وتختلف مراتبُ الحُسْن بِاختلاف هذه الرعاية، فعلى قدر ائتماره وانتهائه يكون إسلامه، كما أنه بحسب إخلاصه ويقينه يكون إيمانه. وتَبَعاً لهذا اختلف المسلمون قوّةً وضعفاً، وحقيقةً وزعماً، حتى سما بعضهم عن الملائكة الكرام، وسفَل بعضهم عن بهيمة الأنعام: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾[١].

ما الذي يعني المرء؟

وأما الذي يعني المرء فهو كلُّ ما يهمُّه في دينه ودنياه، وآخرته وأُولاه، من علم نافع، وعمل صالح، وسعيٍ حميد إلى غرض مجيد.

يَعني المرء في حياته أن يُقبِل على نفسه فيُهَذِّبها، ويستكمل فضائلها، وعلى عمله، فيُحسنَه ويتقنه غير وكِلٍ ولا كَسِلٍ، وعلى حقوق الله وحقوق عباده فيؤدِّيها كاملةً غير منقوصة.

ويَعني المرء في حياته، أن يُحسن إلى أهله وعشيرته، بتعليمهم وإرشادهم، وتقويمهم وإصلاحهم؛ فإنه راعٍ لهم، والله سائله عمّا استرعاه، وأن يُحسِن إلى أُمَّته وبلاده؛ فلا يدَّخر وسعاً في رفعتها وإعلاء شأنها، ولا يألوَ جهداً في ابتغاء الخير لها؛ فإنه عضوٌ منها ولَبِنَةٌ في بنائها، وإذا شلَّ عضوٌ تداعت له سائر الأعضاء، وإذا سقطت لبنة أوشك أن يتصدَّع البناء.

الترويح عن النفس

ويدخل فيما يعني المرءَ ما يُروِّح النفسَ، ويُجمُّ القلب من عناء العمل وهموم الحياة، على ألاَّ يجافي المروءة، أو يجاوز حدَّ الأدب. وقد كان ﷺ

(١) سورة محمد ﷺ: ١٧.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يمزح ولا يقول إلا حقاً[١]، وقد ضحك حتى بَدَتْ نواجذه[٢]، وإن كان جُلُّ ضحكه التبسُّم[٣].

وَيُؤْثَر عن عليٍّ رضي الله عنه: أجمُّوا هذه القلوب، والتمسوا لها ظرفَ الحكمة؛ فإنها تملُّ كما تملُّ الأبدان.

والنفس ـ كما قال صاحب «العِقْد» ـ مُؤْثِرة الهوى، آخذةٌ الهوينى، جانحةٌ إلى اللّهو، أمّارةٌ بالسوء، مستوطنةٌ للعجز، طالبةٌ للراحة، نافرةٌ عن العمل، فإن أكرهتها أنضَيْتها[٤]، وإن أهملتها أرديتها[٥].

ولا رَيْبَ أنَّ الناس مختلفون فيما يعنيهم، اختلافهم في النزعات والميول بما أودع الله كُلاً من عُدَّة، وما وَهَب لكلٍّ من هِبَة.

جماع القول فيما يعني المرء ومالا يعنيه

جماع القول فيما يعني المرء هو: ما ينفعه في حاله ومآله وعاجل أمره

---

(١) روى الترمذي في «السنن» (١٩٩٩٠) وقال: حسن، وفي «الشمائل» (٢٣٧) عن أبي هريرة قالوا: يارسول الله، إنك تداعبنا. قال: «إني لا أقول إلا حقاً».

(٢) قال ابن الأثير في «النهاية» ٥ :٢٠: «النواجذ من الأسنان: الضواحك، وهي التي تبدو عند الضحك، والأكثر الأشهر أنها أقصى الأسنان. والمراد الأول؛ لأنه ما كان يبلغ به الضحِك حتى تبدُوَ أواخِرُ أضراسه» انتهى.وينظر «الشمائل النبويَّة» للترمذي، باب ما جاء في ضحك رسول الله ﷺ، والأحاديث التي أوردها في بدوِّ نواجذه الشريفة ﷺ (٢٢٩) و (٢٣٢) و(٢٣٤).ولشيخ بعض شيوخنا السيد أحمد بن الصدِّيق الغماري رحمه الله تعالى: «شوارق الأنوار المنيفة في بدوِّ النواجذ الشريفة».

(٣) روى الترمذي في «السنن» (٣٦٤٢)، وقال: صحيح غريب، و«الشمائل» (٢٢٨) عن عبد الله بن الحارث رضي الله عنه: «ماكان ضحك رسول الله ﷺ إلا تبسُّماً».

(٤) أهزلتها.

(٥) العِقْد، لابن عبد ربه ٦ : ٣٩٣.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وآجله، و«كلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِق له»[١].

وإذا عَرَف كلُّ امرئ ما يعنيه، سَهُل عليه أن يعرف ما لا يعنيه؛ وبضدِّها تتميَّز الأشياء. فإذا لم يكن بُدٌّ من قولٍ جامعٍ لِما لا يعني المرء، فهو: كل ما لا يهمّه في دينه ودنياه، وحاله ومستقبله، من لغو القول، وعبث الفعل، وسَفاف الفضول.

وفضول الناس لا تقف عند حدٍّ، ولا يُستطاع ألبتَّة حَصْرها في عدد؛ لأنها فنون متشعِّبة؛ وضروبٌ متكثِّرة، وألوانٌ مترجِّحة بين لغو المباحات، وكبائر المنكرات.

أمثلة من فضول الناس

وقُصارى ما يمكن إنَّما هو سياقة أمثلة لها تكون نَموذجاً لما وراءها.

فمنها: سؤال بعضهم بعضاً من أين أقبلت؟! وإلى أين تذهب؟! وكيف عيش فلان؟! وما مرتبته؟! وماذا يملك، إلى غير ذلك من أسئلة وبحوث يضيق بها المسؤول ذرعاً! إن كذب أثم، وإن صدق حِرِج؛ وربما كشف عورة أو أذاع سراً؛ ولا يجني السائل من ورائها إلا ضعفاً في دينه، ونقصاً في خلقه، وغمطاً في مروءته!!. وخير جواب لهذا السفيه هو السكوت والإعراض، أو التذكير بمثل هذا الحديث؛ ولا بأس بردِّ سؤاله عليه، أو مفاجأته بما لا يرتقب، قصد تنبيهه على أنَّ سؤاله هذا من سَقَط المتاع.

ومنها: تعاطي بعضهم ما لا يحسُن، وتكلُّفه ما لا يستطيع، وإنفاقهُ العمر ـ

---

(١) اقتباس من حديث رواه مسلم (٢٦٤٩) في القدر من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رجل: يارسول الله: أَعلم أهل الجنة من أهل النار؟ قال: نعم . قال: ففيمَ يعمل العاملون؟ قال: «كلٌّ مُيسَّرٌ لما خلق له» . وفي رواية البخاري في القدر: «كلٌّ يعمل لما خُلق له، أو يُسِّر له».

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وهو رأس ماله ـ فيما لا يعود عليه وعلى أمته إلا بالويل والشقاء.

وكم في النوادي والمجتمعات، والبيوت والطرقات، من ساسةٍ يرسُمون خطط الحرب، ويتطوَّعون بالحُكم على بعض الدول دون بعض، وهم أعجز الناس عن سياسة أنفسهم وبيوتهم! ومن مصلحين يملؤون الدنيا صياحاً وعويلاً، وهم أجهل الناس بمبادئ الإصلاح وأسسه، وأحوج الناس إلى تقويم أَوَدهم، وإصلاح شؤونهم! ومن مفتين جاهلين يفتون بغير علم، فيَضلّون ويُضِلّون، ويفسدون في الأرض ولا يصلحون! إلى طوائف لا نطيل بذكرها، فهم ـ و يا للأسف ـ سواد هذا المجتمع المسكين ولا علاج لهؤلاء ـ إن شاء الله ـ إلا أن يُذهبهم ويأتي بخلق جديد.

هل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما لا يعني المرء؟

ولا يدخل في هذا الباب أمرُ المرء بالمعروف ونهيه عن المنكر، وتطوُّعه للخير؛ فإنَّ هذه وما إليها من معالي الأمور، وقواعد الإصلاح، ومهمَّات الدين. كيف لا وقد نفى الله الخير عن كثيرٍ من نَجْوى الناس وكلامهم إلاّ من أمر بصدقة، أو معروف، أو إصلاح بين الناس[1]؟!

وهذا أبو بكر رضي الله عنه يصعد منبر رسول الله ﷺ فيحمد الله، ويثني عليه ثم يقول: «يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية، وتتأوّلونها على غير تأويلها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾[2]، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على

---

(١) اقتباس من قوله تعالى في سورة النساء: ﴿۞لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [١١٤].

(٢) سورة المائدة: ١٠٥.

الجديد و طرح NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

يديه، أَوْشَكَ أن يعمَّهم الله بعقاب من عنده»[١].

ذلك، وواضحٌ أنه إذا كان من حُسْن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه كان ـ ولا محالة ـ من حُسن إسلامه كذلك اشتغاله بما يعنيه. ومن كان له عقلٌ يمنعه أن يشتغل بما لا يفيد، فخليقٌ بمثله أن يشتغل بما يفيد.

لماذا آثر النبِّي ﷺ ناحية الترك على ناحية الفعل؟

وإنما آثر النبيُّ ﷺ ناحية الترك على ناحية الفعل؛ لأنَّ التروك على كثرتها لا تُكلِّف الناس شيئاً فهم سواء، وما عليهم ـ إن أرادوا الخير لأنفسهم ـ إلا أن يجافوها ويسكتوا عنها، ولا يُصيخوا لدواعي الهوى ونزعات الشهوات؛ أما الأفعال ـ وهي محدودة أو تكاد ـ فهي تحصيلٌ وإنشاء، وليس كلُّ الناس قادراً على البناء، ثمَّ إنَّ حياة القادرين ـ بَلْهَ العاجزين ـ لا تتَّسع مهما امتدت لكلِّ الواجبات، فضلاً عن سائر المهمَّات، ولذلك قامت النيَّات عند العجز مقام الأعمال.

عنايته ﷺ بالتروك وتحذيره من المناهي

من أجل ذلك كانت عنايته صلوات الله وسلامه عليه بالتُّروك أشدَّ، وتحذيرُه من المناهي أغلبَ، ومن أجل ذلك قال: «ذَرُوني ما تركتُكم؛ فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء، فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه»[٢].

---

(١) أخرجه أحمد ١: ٢ (١)، وأبو داود (٤٣٣٨) في الملاحم، والترمذي (٣٠٥٩) في أبواب تفسير القرآن، والفتن (٢١٦٩)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٠٥)، وإسناده صحيح على شرط الشيخين. وانظر: التعليق على المسند، طبعة مؤسسة الرسالة.

(٢) أخرجه مسلم (١٣٣٧)، وانظر تفسير قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ﴾ [المائدة:١٠١] فإن بينها وبين الحديث عهداً، وكأنه مستمدٌّ منها (طه).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وإذاً فلا عُذر لمن قارَفَ شيئاً مما لا يعنيه؛ والعذرُ كلُّ العذر لمن عجز عن بعض ما يعنيه، وذلك سرٌّ من أسرار هذا الحديث.

وسرٌّ آخرٌ، وهو أنَّ الإنسان ـ كما قال علماء النفس ـ لا بدَّ له أن يفكِّر، ثمَّ لا بدَّ له أن يعمل، فإذا ترك ما لا يعنيه انحصر همُّه فيما يعنيه، فانقطع له وردَّد النظر فيه، وأفرغ جهده في إجادته وإتقانه، وذلك سبيل التقدُّم والنبوغ، والابتكار والاختراع في العلوم والفنون على اختلاف أنواعها وتفاوت طبقاتها. وما أحوجنا إلى إحسان الأعمال إذا ابتغينا العزَّة والكمال.

وسرٌ ثالث، وهو: أن شُغْل المرء بما يعنيه حِصْنٌ له من الذلّة والمهانة والتسكُّع والاسْتجداء، وجُنَّة له من الموبقات والآثام، بل حمايةٌ للمجتمع من النفاق والشقاق ومنكرات الأخلاق، وهل ازدحمت المحاكم، واكتظَّت السجون وتناحر الناس، وأوقدوا بينهم نار العداوة والبغضاء إلا لأنَّهم أفرطوا في اللغو والفضول، وقتلوا الوقت في الآثام والشرور؟! وهل يُنتَظر من جنود البَطالة والفراغ إلا ذاك؟!.

تربية الثقة بالنفس

لا غرابة إذاً أن يشير الحديث إلى تربية الثقة بالنفس، والاعتزاز بها والاعتماد عليها، في غير صَلَفٍ ولا ازدهاء؛ فإنَّ الانقطاع إلى العمل سرُّ النجاح فيه، والنجاحُ يدعو إلى النجاح. ومن جنى ثمرة عمله، أوشك أن يمتلئ قوّةً وإقداماً وعزماً وحزماً، وهنالك يدهشُ الألباب، ويأتي بالعَجَب العُجَاب.

يفاخر الغربيون ومَنْ لفَّ لَفَّهم بتقدُّمهم في العلوم والفنون والتربية والاجتماع، ويشكو الشرقيون تأخُّرَهم في قافلة الحياة، وقد كانوا ملوك الدنيا وأئمة العلوم.

فلولا جلس الأوّلون بين يدي هذا النبيِّ الأميِّ الكريم، ليتعلَّموا في ساعة من نهار، ما أنفذوا فيه المحابر والأعمار، ثم لم يبلغوا المراد، وما هم ببالغيه، وهلاَّ

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

اهتدى الآخرون بهديه، واقْتفوا أثر الصحابة فاستردُّوا مكانهم، واستعادوا سيرتَهم، واستراحوا وأراحوا من عناء الضجيج، وبلاء الشكوى والصياح؟! ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[١].

دعوة الحديث إلى الورع والعلم والعمل

هذا، وفي الحديث دعوةٌ إلى الورع، والورعُ: صفوة الدين، وعماد التقوى، وملاك الخير كله.

كان عليٌّ رضي الله عنه يختبر القصَّاص؛ فَمَنْ رآه أهلاً للتذكير تركه وإلا أقامه.

مرَّ رجلٌ بالحَسَن البصري رحمه الله، وهو يُذَكِّر الناس، فقال له: ما عماد الدين؟ فقال: الورع، قال: فما آفته؟ قال: الطمع. فقال له: تكلَّم الآن إنْ شئتَ.

وروى الطبراني في «الأوسط»، والبزار بإسناد حسن، أنه ﷺ قال: «فضل العلم خيرٌ من فضل العبادة، وخيرُ دينكم الورع»[٢].

وأخيراً يدعو الحديث إلى العلم والعمل، والهدى والتُّقى، وأولئك أبواب الرحمة، ومفاتح الحكمة: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٣].

جوامع الكلم وينبوع الحكم

أوَرأيت بعد هذا كيف أُوتي ﷺ جوامعَ الكلم، واختُصِر له الكلام

---

(١) سورة الأنفال: ٥٣.

(٢) أخرجه الطبراني في« الأوسط» (٣٩٦٠)، والبزار (١٣٩) من حديث حذيفة بن اليمان بإسناد حسن- كما قال: المنذري في «الترغيب» (١٠٣).

(٣) سورة البقرة: ٢٦٩.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

اختصاراً، فبَلَّغ رسالاتٍ في كلمةٍ، وهدى أمماً في حكمةٍ؟!.

أوَرأيت بعد هذا كيف قال الأئمة بحق: إنَّ هذا الحديث مجَمْع الآداب، وينبوع الحكم، وأنه لم يدع فضيلة إلا رغَّب فيها، ولا نقيصة إلاَّ نفَّر منها؟!.

أولَم تعلم بعدُ أنَّ حديث خاتم النبيين من بعد كلام ربِّ العالمين؛ لا تفنى عجائبه، ولا تنتهي بدائعه، ولا يغيض يَنبوع حكمه وأسراره، وأنه نورٌ مبينٌ، وهادٍ إلى الصراط المستقيم؟!.

* * * * *

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الصِّحَّة والفراغ*

٥٢ ـ عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال النبيُّ ﷺ: «نعْمَتَانَ مَغْبونٌ فهما كثيرٌ من النَّاس: الصِّحَّة والفَرَاغ». رواه البخاري[١].

هذا الحديث أيضاً من جوامع كلمه، صلوات الله وسلامه عليه. وقصداً إلى الإيضاح جعلنا القول فيه ذا شعب ثلاث: الأولى في مفرداته، والثانية معناه، والثالثة في بعض ما يشير إليه من لطائف وأسرار.

المفردات:

نعمتان: فُسِّرت النِّعمة ـ بكسر النون ـ بالإنعام، وبالحال الحسنة التي يكون عليها الإنسان، وبما منَّ الله به على العبد من فَضْل وإحسان. وهذا أنسب المعاني هنا[٢].

ويرى الإمام الغزالي أنَّ النعمة بحقٍّ هي السعادة الأخروية، وكلُّ ما يعين عليها من قُرب أو بُعد، وأما السَّعادة الدنيوية وما يعدُّه الناس خيراً ولذة، مما لا يؤدِّي إلى سعادة الآخرة ولا يعين عليها، فليس من النعمة في شيء؛ فإنْ سُمِّيَ نعمة، فذلك من قبيل التجوُّز أو الغلط[٣].

---

* مجلة الأزهر، العدد السابع، المجلد الرابع عشر، (١٣٦٢).

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٢) في كتاب الرقاق.

(٢) وأما النَّعمة بالفتح، فهي: التنعُّم، [وبالكسر: الإنعام]، وبالضم فهي: المسرَّة كما في «الكشاف» [٤: ٦٤٠] (طه).

(٣) إحياء علوم الدين، كتاب الصبر والشكر، في الركن الثاني من أركان الشكر: بيان =

الجديد والحصري NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

مغبون: مغلوبٌ مخدوعٌ، أو قليل الفِطْنة ضعيفُ الرأي؛ الأول من قولهم: غبنه في البيع أو الشراء، إذا غَلَبه وخَدَعه وبخَسَه شيئه؛ والثاني من قولهم: غبن رأيه، إذا قلَّت فطنته، ونقص ذكاؤه[١].

الصحة: خلاف المرض، أو هي سلامة الجسم من العيوب والآفات. وفسرها صاحب «المصباح»: بأنها حالة طبيعية في البدن، تجري أفعاله معها على المَجْرى الطبيعي. وصحَّ يصح فهو صحيح وصَحاح.

الفراغ: خلاف الشُّغل، والمراد: كفاية المؤونة، وخلو البال من شواغل العيش. ومن دعوات صاحب «الأساس»: «اللهمَّ إني أسألك عيشاً رافغاً، وبالاً فارغاً»[٢].

* * * * *

نعمتان كبيرتان

نِعَمُ الله تعالى كثيرةٌ، وأحقُّها بالرعاية وأَوْلاها بالشكر ـ وهو حُسن توجيه النعمة وصرفها فيما خُلقَت له ـ هاتان النعمتان الكبريان: نعمتا الصحة والفراغ؛ ذلك بأنهما رأس مال المُتَّجر في الآخرة والأولى، وأعظم وسائل السَّعادة في الدين والدنيا. وهل يُحسن عابدٌ عبادَته، أو يتقن عاملٌ عملَه، أو يصابر داعٍ في دعوته، أو يوفي راعٍ حقَّ رعيّته، إذا سُلب تاجَ الصحة، أو غُلَّ بأغلال العيش وأثقال الحياة؟!.

حقيقة النعمة وأقسامها ٤ :٩٩.

(١) الأول: مُتَعدّ، وبابه ضَرَب. والثاني: لازم، وبابه تعب. وقد ينصب ما بعده على نزع الخافض أو على التمييز كقولهم: رشد أمره وسفه نفسه. انظر «اللسان» (طه).

(٢) أرفَعَ: اتَّسعَ عيشُه ورَغِدَ. والأرفعُ من العيش: الخصيب الواسع. وصاحب الأساس هو العلامة المفسِّر اللغوي الزمخشري المتوفى سنة ٥٢٨ رحمه الله تعالى.

الجديد و حصري NEW & EXCLUSIVE

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وإذا كان الشكر على قدر العطاء، فحقيقٌ بمَن آتاه الله إحدى هاتين النعمتين ألاَّ يدَّخر وُسْعاً في تثميرها والانتفاع بها، وإن حُرِمَ أختها، وهي لها نِعْمَ الظهير والمعين!.

الاتِّجار في الخيرات والمنافسة في الصَّالحات

أما مَنْ أسبغ الله عليه النعمتين، وجمع له بين الرغبتين؛ فكساه حُلَّة الصحة والعافية، وكفاه مؤونة العيش والحاجة، فما أحقَّه بالاتّجار بالخيرات والمنافسة في الصالحات، وما أخْلَقَه بالعمل فيما يعود عليه وعلى أمته بالنفع والخير والفلاح، والرَّشاد! وما يمنعه وقد تنحَّتْ عنه العوائق وتهيَّأتْ له الأسباب؟!.

وإذا كان إنتاج رأس المال، إنما بحُسْن التدبير والإعمال ـ كما يقول علماء الاقتصاد ـ فما ثمرة نعمةٍ عطَّلها صاحبها، أو ضيَّعها في الغيِّ والفساد؟!.

مَثَل الذين صرفوا أوقاتهم في الشهوات والأهواء

مَثَلُ أولئك الذين أضاعوا شبيبتهم في اللهو واللعب، وأعمارهم في الشهوات والأهواء ـ وكثيرٌ ما هم ـ كمثل الأغرار من التجار تخدعهم زخارفُ الأشياء، فيستبدلون الرخيص بالثمين والخبيث بالطيِّب، فتحقُّ عليهم كلمةُ الإفلاس والهوان.

إنَّ النفس لتذهبُ حَسَرات، وإن القلبَ ليتقطَّع زَفَراتٍ على شبُّان وشواب، وأشباه رجال ونساء، ينفقون حياتهم ـ وهي أغلى ما يملكون ـ في غير فائدة ولا جدوى، فضلاً عن المآثم والمضار!.

ولو لم يُصب هذا الداء العَياء إلا السِّفْلَة والأوغاد، لكان هَمًّا مُحتمَلاً وخطباً هيِّناً، ولكنه فشا في عِلْية القوم، وخاصَّة الأمة ومن يُرَجَّون لمصلحة البلاد!!.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

مثل الذين صرفوا أوقاتهم في طلب المعالي وعمل الصالحات

ومَثَل هؤلاء الذين صرفوا أوقاتهم في طلب المعالي، وتحصيل الفضائل وادِّخار الصالحات كَمَثَل الحُذَّاق من التجار؛ يشترون البضائع الجزيلة بالأثمان القليلة، فيضاعفُ لهم الرِّبح، ويمتازون بالفضل والثراء.

وما الناس في هذه الدار إلا تُجَّار، وإن اختلفت ألوان التجارات، ورؤوس الأموال.

خير تجارة وأزكاها

ألا وإنَّ خير تجارةٍ وأزكاها، وأسلمها وأنماها، هي التجارة مع الكريم المنان، ذي الفضل والإحسان، الذي يشتري الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة لا يعلمها إلا الله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[١].

سرُّ تخصيصه ﷺ هاتين النعمتين بالذكر

دلَّ تخصيصُه ﷺ هاتين النعمتين بالذكر على عظيم فَضْلهما، وكريم خطرهما، وإن استهان بهما الناس فلم يقدّروهما قدرهما، شأنهم في كلِّ جليل من النعم وكريم من الهبات، لا سيما النعم التي تعمُّ العباد على السواء!!.

واعتبر بالشمس والهواء، والنار والماء؛ لا يعيشُ بدونها على أديم الأرض مخلوقٌ، ومع هذا فهم عنها عَمُون، ولفضلها جاحدون. ثم هم بعد ذلك يعظِّمون مُحقَّرات الأمور، ويتنافسون على توافه الأشياء.

---

(١) سورة الصف: ١٠ ــ ١٢.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

دُعيَ الحسن البصري إلى طعام ومعه فرقد السِّنجي[١] وأصحابه، فقعدوا على المائدة، وعليها الألوان من الدجاج المُسمَّن والفالوذ[٢]، فاعتزل فرقد ناحية، فسأل الحسن: أهو صائم؟ قالوا: لا، ولكنه لا يأكل الفالوذ، ويقول: لا أؤدِّي شكره، فقال: أيشرب الماء البارد؟ قالوا: نعم، قال: إنَّه جاهل؛ إنَّ نعمة الله عليه في الماء البارد أكثر من نعمته عليه في الفالوذ! ثم أقبل عليه، فقال: «يا فُريقد، أترى لعاب النَّحل، بلباب البُرِّ، بخالص السمن، يعيبه مسلم»؟!.

على قدر إلف النعمة تكون الغفلة عنها

ويبدو جلياً أنه على قدر إلف النعمةِ ولزامها تكون الغفلة عنها، وقلما ذكر أحد نعمة ألفها، إلا بعد فقدها، ومن هنا قيل: إنَّ الصحة تاجٌ على رؤوس الأصحاء، لا يراه إلا المرضى.

عنايته ﷺ بأمر الصحة

يُعنى علماء التربية والأخلاق بأمر الصحة والفراغ، وَيبسُطون الوسائل في تدبيرها وحُسن القيام عليها؛ لأنَّ الصحة هي الشرط الأوَّل لقيام الإنسان بالفضائل والواجباتِ، وتأديتها على خيرِ وجه وأكمله. كما يعنون بالرياضة البدنية؛ لأنها من ألزمِ الأمور لتوفير صحةِ الجسم ونشاطه، ولأنها تشغل صاحبها عن العبث والهوى.

ولكن سبقهم إلى هذا كلِّه سيد الحكماء والمربين ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ علماً وعملاً وهدياً وإرشاداً.

جاء في مسند الإمام أحمد، أنه ﷺ قال للعباس رضي الله عنه: «يا عباس؛

---

(١) سِنج بكسر السين: قرية من قرى مَرو، ينسب إليها جماعة من أهل العلم (طه).

(٢) في «المختار»: الفالوذ والفالوذق معرَّبان، قال يعقوب: ولا تقل: الفالوذج. وفي «القاموس»: الفالوذج، واقتصر عليه، حلواء معروفة (طه).

الجديد و طهرة NEW & EXCLUSIVE

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يا عمَّ رسول الله: سَل العافية في الدنيا والآخرة»[١].

وروى الترمذي وغيره من حديث عبد الله بن مِحصَن الأنصاري[٢]: «من أصبح معافى في جَسَده، آمناً في سِرْبه، عنده قوتُ يومه فكأنما حِيزَت له الدنيا»[٣].

وروى الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه ﷺ قال لرجل وهو يعظُه: «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابَك قبل هَرَمِك، وصحتَك قبل سقمِك، وغناك قبل فقرِك، وفراغَك قبل شغلِك، وحياتك قبل موتك»[٤].

---

(١) رواه أحمد ١: ٢٠٩ (١٧٨٣)، والترمذي (٣٥١٤)، وقال الترمذي: هذا حديث صحيح.

(٢) ويسمَّى أيضاً: عُبيد الله، بالتصغير، قال الذهبي في «الكاشف» (٢٩٤٥): «عبد الله ابن مِحْصَن الأنصاري، اختُلف في صحبته، عنه ابنه سلمة». وقال الحافظ سبط ابن العجمي في «حاشيته على الكاشف» ١: ٥٩٢: تابع المؤلفُ المزيَّ هنا، وفي «التذهيب» في ذكر عبد الله هذا مكبَّراً، وأنه اختُلف في صحبته، وقد قال مُغْلطاي: إنه لم يره في كتب العلماء إلا مصغَّراً مجزوماً بصحبته. انتهى. وقد ذكره المؤلف في «تجريده» مصغَّراً مجزوماً بصحبته، ثم قال الذهبي في آخر ترجمته: وقيل: بل هو عبد الله.

(٣) رواه الترمذي (٢٣٤٧) وقال: حسن غريب، وابن ماجه (٤١٤١)، ورواه أيضاً البخاري في «الأدب المفرد» (٣٠٠) كلُّهم من طريق سلمة بن عبيد الله بن مِحْصَن، وسَلَمة: قال أحمد: لا أعرفه، وليَّنه العقيلي كما في «حاشية الكاشف» (٢٠٣٨)، وفي «التقريب» (٢٤٩٩): مجهول. ورواه أيضاً ابن حبان في «صحيحه» (٦٧١) من حديث أبي الدرداء، وسنده ضعيف جداً، فيه عبد الله بن هانئ بن عبد الرحمن بن أبي عَبْلة. قال الذهبي في «الميزان» و«المغني»: «متَّهم بالكذب». ومع ذلك فقد ذكره ابن حبان في «الثقات» ٨: ٣٥٧. ونسبه الهيثمي في «المجمع» ١٠: ٢٨٩ إلى الطبراني، وقال: «رجاله وثِّقوا على ضعف في بعضهم». وقوله: في سِرْبه، أي: في نفسه. يقال: فلانٌ واسع السِّرب، أي: رخيّ البال، وروي بفتح السين، وهو المسلك. كما في «جامع الأصول» ١٠: ١٣٦. **والحذافير**: عالي الشيء ونواحيه، يقال: أعطاه الدنيا بحذافير، أي: بأسْرِها، الواحد: حذفار.

(٤) انظر: كتاب الرقاق في «فتح الباري» (جـ ١١)، و«زاد المعاد» (جـ ٣)، و«شرح =

شبكة الألوكة
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وكان ﷺ لا يأكل حتى يجوع وإذا أكل لا يشبع[١]، وما أكل طعاماً تعافُه نفسه، وما أدخل طعاماً على طعام قط، وكان لا يتشهَّى ولا يتكلَّف. وقد تداوى وأمر بالتداوي، ولكن الوقاية عنده خير من العلاج؛ وهذا منتهى ما وصل إليه الطب الحديث.

ومن اهتدى بهديه في تدبير المَطْعَم والمَشْرب والنوم واليقظة، والسُّكون والحركة، فإنه لا يحتاج إلى طبيب قط.

تجْزئته ﷺ لوقته

أما وقته صلوات الله عليه، فكان يُجزِّئه ثلاثة أجزاء: جزء لله عزَّ وجل، وجزء لأهله، وجزء لنفسه؛ ثم يُجزِّئ جُزأه بينه وبين الناس، فيتعهَّدهم ويبرُّهم ويتولَّى شؤونهم، ويُخبرهم بالذي ينبغي لهم، ويُؤْثر أهلَ الفضل على قدر فضلهم في الدين، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[٢].

تقدير السلف للوقت

وبعد، فإذا أهمَّنا الخير لأنفسنا وبلادنا، فَلْنسارع إلى حلٍّ هذه المشكلة العظمى؛ مشكلة الحياة وإضاعتها سُدى.

وفي طليعة ما نتقدَّم به من علاج هو النظر في تاريخ أسلافنا الأماجد، الذين قَدَّروا الوقت حقَّ قدره، ولم يُفرِّطوا في شيءٍ منه دون فائدة، حتى كان منهم العلماء المُبرِّزون، والحكماء الربَّانيُّون، والهداة الراشدون.

المواهب اللدنية» (جـ ٤). (طه). والحديث أخرجه الحاكم في «المستدرك» برقم (٧٩١٦).

(١) «نحن قوم لا نأكل حتى نجوع» إلخ صحيح المعنى، ولكني لم أجده حديثاً بعد طول البحث، ثم أخبرني مُحدّثٌ ثقةٌ أنه ثابت المعنى غير ثابت اللفظ (طه).

(٢) اقتباس من الآية ١٦٤ من سورة آل عمران.

الجديد و طهرك NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

هذا ابنُ رشْد؛ نقرأ في تاريخه أنه لم يدع النظر، ولا القراءة منذ عَقَل إلا ليلة وفاة أبيه، وليلة بنائه على أهله.

وهذا داود الطائي؛ كان يستفُّ الفتيت، ويقول: بين سفِّ الفتيت، وأكل الخبز تلاوة خمسين آية.

وهذا محمد بن أحمد البِيروني ـ وكان جليلَ القَدْر أثيراً عند الملوك، مُكبّاً على تحصيل العلم ـ دخل عليه بعض أصحابه، وهو يجود بنفسه، فقال له: كيف قلت لي يوماً: حساب الجدَّات في الميراث؟ فقال له صاحبه: أعلى هذه الحال؟! قال: يا هذا! أودِّع الدنيا وأنا عالمٌ بها؛ أليس هذا خيراً من أن أخلِّيها وأنا جاهلٌ بها؟! قال: فذكرتُها له، وخرجت، فسمعت الصَّريخ عليه، وأنا في الطريق(١).

ولسنا بحاجةٍ إلى الإفاضة في ضرب الأمثال؛ فحَسبُنا النبيُّ ﷺ والذين تخرَّجوا على يديه؛ الذين ملؤوا الدنيا نوراً وهدى، وعلماً وعملاً، وفتحاً وعدلاً، وما كانوا أحسن منَّا صحّة، ولا أكثر منّا فراغاً.

تفاوت النعم فضلاً ورتبة

ودلَّ هذا التخصيص كذلك على أن النعم تتفاوت فضلاً ورتبة.

وقال القاضي أبو بكر بن العربي: اختلف في أوّل نعم الله على العبد، فقيل: الإيمان، وقيل: الحياة، وقيل: الصحة. ثم قال: وأمثل هذه الأقوال الأوّل.

أجلُّ نعم الله على عباده

وأدقُّ من هذا ما حققه صاحب «زاد المعاد»(٢)؛ من أنَّ العافية المُطْلقة هي

---

(١) وانظر أخبار السلف في العناية بالوقت كتاب «قيمة الزمن عند العلماء» لأستاذنا العلامة الجليل الشيخ عبد الفتاح أبو غُدَّة رحمه الله تعالى.

(٢) ٤: ٢١٤.

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أجلُّ نعم الله على العباد، ويعني بالعافية المُطْلَقة: السَّلامة من الآفات في الدين والدنيا، واستشهد لذلك بما رواه الإمام أحمد عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سلوا الله اليقين والمعافاة؛ فما أُوتي أحدٌ بعد اليقين خيراً من العافية»[١] فجمع بين عافيتي الدين والدنيا، ولا يتمُّ صلاحُ العبد في الدارين إلاّ بهما؛ وممَّا يذكر عن ابن عباس أنَّ أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: ما أسأل الله بعد الصَّلوات الخمس؟ فقال: «سل الله العافية»، فأعاد عليه، فقال له في الثلاثة: «سل الله العافية في الدنيا والآخرة»[٢].

وتنقسمُ النِّعم باعتبارات مختلفة إلى أصولٍ وفروع، وعامَّةٍ وخاصَّة، وأساسية وكمالية، إلى غير ذلك ممَّا لا يُحصى.

ولو أراد أحدٌ أن يستقصيَ نعمةً واحدة منها، ويحصر أسبابها ومهيئاتها، لما استطاع إلى ذلك سبيلاً. وصدق الله إذ يقول: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[٣].

وليس المقام هنا للبسط والتفصيل، فَمَن أراد ذلك فليرجع إلى كتاب

---

(١) أخرجه أحمد ١: ٣ (٥) و١: ٤ (١٧) و١: ٨ (٤٦)، وابن ماجَهْ (٣٨٤٩) ولفظه من حديث أبي بكر: «سلوا الله المعافاة. أو قال العافية، فلم يؤت أحدٌ قط بعد اليقين أفضل من العافية أو المعافاة...». وهو حديث صحيح.

(٢) يشهد له مارواه الترمذي برقم (٣٥١٢) من حديث أنس بن مالك، أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: أيُّ الدعاء أفضل؟ قال: سل ربَّك العافية والمعافاة في الدنيا والآخرة، ثم أتاه الثاني فقال: يا رسول الله: أي الدعاء أفضل؟ فقال له مثل ذلك، ثم أتاه في اليوم الثالث، فقال مثل ذلك. قال: فإذا أعطيت العافية في الدنيا وأعطيتها في الآخرة فقد أفلحت. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، إنّما نعرفه من حديث سلمة ابن وردان.

(٣) سورة النحل: ١٨.

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الشكر من «الإحياء»، فقد أفاض الإمام الغزالي فيه وأجاد، ولا رَيْبَ أنه فارس هذا الميدان[١].

قلة الشاكرين

ويشير الحديث إلى ضعف الناس أمام الهوى، وإلى أنَّ شكر الله ـ جلَّت آلاؤُه ـ حِصْنٌ حصين من غوائل الأهواء والشهوات.

ثم يشير إلى أنَّ الشاكرين ـ وقليلٌ ما هم ـ أكيسُ الناس وأحرصُهم على خير، وأوْلاهم بفضل؛ اشتروا بثمنٍ بخس ـ حياة محدودة، وأوقات معدودة ـ مُلكاً كبيراً ونعيماً مقيماً وعزاً خالداً. أولئك هم الناس، وأولئك هم الأكياس[٢]، ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة.

* * * * *

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين ٤: ٨٠ ــ ١٢٧.

(٢) يشير إلى الحديث الذي رواه ابن ماجَهْ في كتاب الزهد (٤٢٥٩) عن ابن عمر أنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ، فجاءه رجل من الأنصار، فسلَّم على النبي ﷺ، ثم قال: يا رسول الله: أيُّ المؤمنين أفضل؟ قال: «أحسنُهم خلقاً». قال: فأيُّ المؤمنين أكْيس؟ قال: «أكثرهم للموت ذكراً، وأحسنُهم لما بعده استعداداً، أولئك الأكياس».

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

التماس رضا الله وإنْ سَخِطَ الناس*

٥٣ ـ كَتَبَ معاويةُ إلى عائشةَ رضي الله عنهما، أن اكْتُبي لي كتاباً توصيني فيه، ولا تُكثري عَلَيَّ؛ فَكَتَبَت إليه: سَلامٌ عَلَيْك. أما بعدُ؛ فإني سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «من التَمَسَ رضا الله بسُخْط الناس: كفاه الله مَؤُونَةَ الناس، ومن التَمَسَ رضا النَّاسِ بسُخْط الله: وَكَلَه اللهُ إلى الناس». والسَّلامُ عليك.

رواه الترمذي[1].

منقبتان كريمتان

منقبتان كريمتان، تلمعان في سيرة الراشدين المُقْسطين، من خلفاء المسلمين وأمرائهم.

فأما أُولاهما: فهي تعهُّدهم للولاة والعمَّال بالرعاية والمراقبة، وإيصاؤهم كلَّما حانت فرصة، بالعدل والإحسان، وتقوى الله في السر والإعلان.

---

* مجلة الأزهر، العدد العاشر، العدد الخامس عشر، (١٣٦٣).

(١) أخرجه الترمذي (٢٤١٤) عن رجل من أهل المدينة، ولم يُسَمِّ الرجلَ ـ وهو ضعيف لجهالة الرجل الذي لم يُسَمَّ ـ وأخرجه بإثر الحديث المرفوع من طريق سفيان الثوري عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة أنها كتبت إلى معاوية، فذكر الحديث بمعناه، ولم يرفعه، وسنده صحيح.

وأخرج ابن حبان في «صحيحه» المرفوع منه فقط (٢٧٦)، ولفظه: قالت: قال رسول الله ﷺ: «من التمس رضا اللّه بسُخْط الناس: رضيَ الله عنه، وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضا الناس بسُخط الله: سخط اللهُ عليه، وأسخط عليه الناس» وإسناده حسن.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وأما أُخراهما: ولعلَّها أكرم من سابقتها وأجل، فهي إصاختهم لنصح الناصحين، من أُولي المكانة في العلم والدين، بل هشاشتهم لهذا النصح وارتياحهم له، والتماسهم إيَّاه ممَّن هو به قمين؛ إذ يعلمون أنَّ الدين النصيحة، وأنَّ أكفأ من يؤدِّيها على وجهها ـ وبخاصة إذا استنصحوا ـ هم أئمة الفضل وأعلام الهُدى، الذين لا يبالون غير الحق، ولا يخافون في الله لومة لائم.

وقد حفظ لنا التاريخ من هذين الصنفين من الوصايا مُثلاً عُليا، تكفل للأمم وحكوماتها ـ إذا اهتدت بهداها ـ سعادة الأبد، وعز الخلود.

وصية موجزة جامعة

ومن الصنف الثاني هذه الوصية الموجزة الجامعة، التي اقتبستها أم المؤمنين عائشة من غُرَر حكمه صلوات الله وسلامه عليه، وأنفذتها إلى معاوية، ردًّا على كتابه، وإجابةً لاستيصائه.

لِمَ اختص معاويةُ عائشةَ لكتابة وصية له؟

والذين يعلمون شيئاً من تاريخ معاوية، وكياسته وبُعْد نظره، لا يعجبون له إذ يختص عائشة بالكتابة، وبين يديه من أصحاب رسول الله ﷺ جمٌّ غفير، كلّهم على هُدى من ربِّهم وبصيرة.

وقد يخطر بالبال أنَّ هذا الاختصاص مَظْهرٌ من مظاهر الدَّهاء وسَعَة الحيلة، ابتغاء التحبُّب إلى أمِّ المؤمنين وشيعتها، ومن وراء هذا تثبيت الملك وتأييده.

ولئن صحَّ هذا إنه لمن السياسة الرشيدة، والنظرات البعيدة، والكياسة النادرة التي ماز الله بها معاوية رضي الله عنه، والتي ينفسح لها صدر الدين الحنيف، ولا تأباه مروءةٌ ولا كرامة.

ومن أحقُّ بهذا الفضل من معاوية، وقد دعا له النبيُّ ﷺ أن يكون

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

هادياً مهدياً[١]. وقال فيه ابن العباس رضي الله عنهما ـ وكان نقَّاداً ـ: ما رأيت رجلاً كان أخلَق للمُلك من معاوية![٢].

وأجمع المؤرِّخون وأُولو البصر بالسياسة أنه كان أَسْوَسَ الناس وأسْوَدَهم، وأحقَّهم بالملك والرياسة[٣].

والذين يعلمون مقامَ عائشة من الدين، وسَبْقَها في الفَضْل، ومكانها من النبيِّ ﷺ، لا يعجبون كذلك لهذا الجواب السَّديد المُحكَم، وهذه النصيحة الفذَّة البالغة، ثم هم ينصفون معاوية، ويوقنون أنه على الخبير سَقَط.

ليس عَجَباً من عائشة رضي الله عنها، وهي تتوقَّد ذكاءً، وتمتلئ إيماناً وهدى، أن تُدرك بغيةَ معاوية وحبَّه للمُلك، وحياطته له باجْتذابه القلوب

(١) أخرجه أحمد ٤: ٢١٦ (١٧٨٩٥)، والترمذي (٣٨٤٢) وقال: هذا حديث حسن غريب. قال الإمام ابن راهويه: لا يصحُّ عن النبيِّ ﷺ في فضل معاوية شيء. كما في «السير» ٣: ١٣٢ للذهبي.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٢٠٩٨٥) عن معمر، عن همَّام بن مُنبِّه قال: سمعت ابن عباس..

(٣) قال الحافظ الذهبي في «السير» ٣: ١٣٢: «قلت: حَسْبُك بمن يؤمِّره عمر، ثم عثمان على إقليم ـ وهو ثغر ـ فيضبطهُ، ويقوم به أتمّ قيام، ويُرضي الناسَ بسخائه وحلمه، وإن كان بعضهم تألَّم مرةً منه، وكذلك فليكن الملك، وإن كان غيره من أصحاب رسول الله ﷺ خيراً منه بكثير وأفضل وأصلح، فهذا الرجلُ ساد، وساسَ العالم بكمال عقله، وفرط حِلمه، وسَعَة نفسه، وقوة دهائه ورأيه، وله هَنَاتٌ وأمور، والله الموعد»

وقال أيضاً ٣: ١٥٧: «فانقضت خلافة النُّبوة ثلاثين عاماً، ووليَ معاويةَ، فبالغ في التجمُّل والهيئة، وقلَّ أن بلغ سلطانٌ إلى رتبته، وليتَه لم يعهد بالأمر إلى ابنه يزيد، وترك الأمّة من اختياره لهم».

وقال ٣: ١٥٩: «ومعاوية من خيار الملوك الذين غلب عدلُهم على ظلمهم، وما هو ببريءٍ من الهنات».

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

واصْطناع النفوس، وأنه قد يحوم لهذا حَوْلَ مَسَاخط الله في مراضي عباده، ومَنْ حام حَوْلَ الحِمَى يُوشكُ أن يقعَ فيه، فتنفذ إليه هذا البلاغ لِيُنذَرَ به، وليتَّخذه دستوره ومنهاجه، وليعلمَ أنَّ بيد الله قلوب العباد ونواصيهم، فَمَنْ أطاعه وأرضاه رضيَ الله عنه، وأرضى عنه الناسَ، حتى يرضى عنه مَنْ أسخطه في رضاه، ويزيِّن لديه قوله وعمله وشأنه كله، ومن أعرض عنه وأسخطه سَخطَ الله عليه، وأسخط عليه مَنْ أرضاهُ في سخطه(١)، وعاد حامده من الناس ذامًّا له وناقماً عليه(٢)، ذلك بأنَّ للباطل غشاوةً على البصر والبصيرة لا تلبث أمام الحق حتى تزول. وقديماً قيل: الحقُّ أبْلَج والباطل لَجْلَج.

حاجة الملوك إلى رضا الرعيَّة

ولا يَدورنَّ بخَلَد أحدٍ أنَّ الملوك والأمراء بغنى عن رضا الرعيَّة، بل إنهَّم إلى رضا رعاياهم أحوج من الرعايا إلى رضاهم؛ إذ لا ترسخ دعائم الملك إلاَّ على المحبّة والرضا، ومن ثمّ كانوا أحوج الناس إلى العدل وأوْلاهُم به؛ يحفظ ملكهم، ويكبت عدوَّهم، ويقيهم فتنة الحقد والضغينة، ويوطِّد لهم الأمن والسكينة، وبحق قيل: العدل أساس الملك.

الذين يلتمسون رضا الناس بسخط الله

هذا، والذين يلتمسون رضا الناس بسخط الله صنوفٌ شتَّى، هم أصل

---

(١) اقتباس من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من أسخط اللهَ في رضا الناس: سَخِطَ الله عليه، وأسخط عليه من أرضاه في سُخْطِه، ومَنْ أرضى الله في سُخط الناس: رضي الله عنه، وأرضى عنه مَنْ أسخطه في رضاه حتى يزينَه، ويُزيِّن قولُهُ عملَه في عيْنه» قال المنذري في «الترغيب» (٣٣٢٦): رواه الطبراني بإسناد جيِّد قوي.

(٢) اقتباس من من حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ طَلَب محامدَ الناس بمعاصي الله، عادَ حامدُهُ له ذامّاً» رواه البزار (٣٥٦٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٧٧).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

البلاء، ومكمن الداء، وبأمثالهم مُنيَ الإسلام، في كلِّ زمان ومكان.

فمنهم: **المنافقون المداهنون**، الذين يُسِرُّون خلاف ما يعلنون، أو يراؤون الناس ويزعمون أنهم مخلصون.

ومنهم: **الجبناء المستضعفون**، الذين تأخذهم من الناس هيبة تخرس ألسنتهم، وتعمي قلوبهم، فلا يقولون حقاً، ولا ينكرون باطلاً.

ومنهم: **الذين يوادُّون من حادَّ اللهَ ورسولَه**، ويتَّخذون بطانة من دونهم لا يألونهم خَبَالاً.

يتزلَّف هؤلاء إلى الناس، ويترضَّونهم بمساخط الله، رجاء حظٍّ موهوم، أو جاه مزعوم، أو عَرَضٍ خادع، ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾[1].

وشرٌّ من هؤلاء: مَنْ يشتري مساخط الله بسخرية الناس وازدرائهم، من أولئك المجاهرين الماجنين والسُّخفاء المُتظرِّفين، ومَنْ على شاكلتهم.

الترفّق والتلطّف والمداراة

وليس منهم مَنْ يتلمسَّ رضا الله والناس، فيترفَّق في المعاملة، أو يتلطَّف في المُجَاملة، أو يُداري السُّفهاء في غير مسٍّ لكرامته ودينه، حتى إذ لم يكن بدٌّ من أحد الأمرين: سُخْطِ الله، أو سُخْطِ عباده، آثر الحقَّ على الخلق، ولم يبال الناس شيئاً.

أوفى الناس بمحبة الله والناس

وليس عَجَباً أن يكون العاملون على رضا الله ـ وإنْ سخط عباده ـ أحمدَ

---

(١) سورة النور: ٣٩.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الناس عاقبةً، وأوفاهم من محبة الله والناس نصيباً؛ ذلك بأنهم حفظوا الله فحفظهم، ونصروا الله فنصرهم، وتَولَّوا الله فكَفَاهم، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾[(١)].

موعظة الحسن البصري لابن هُبيرة

لمّا وَلِيَ ابنُ هُبَيْرة[(٢)] العراق وخراسان ليزيد بن عبد الملك، بعث إلى الحسن البصري، وابن سيرين، والشّعبي[(٣)]، فاحتفى بهم وأحسَنَ مثْواهم، ثم قال: إنَّ الخليفة أخذ من الناس عهودَهم، وأعطاهم عهده؛ كي يسمعوا له ويطيعوا، وإنه تأتيني منه كتبٌ إن أمضيتها أسخطتُ الله، وإن أهملتها أسخطتُ أمير المؤمنين، فماذا تأمرون؟ فأجاب الشَّعبُّي بكلام فيه تقيَّة، وسكت ابن سيرين. فقال: يا أبا سعيد ما تقول؟ فقال الحسن: يا ابن هُبَيرة، خَفِ الله في يزيد، ولا تخف يزيد في الله؛ فإنَّ الله جلَّ وعزَّ مانعك من يزيد، ولن يمنعك يزيد من الله.

يا ابن هُبَيْرة، إنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فما كتب إليك يزيدٌ فاعرضه على كتاب الله، فما وافقه فأنفذه، وما خالفه فلا تنفذه؛ فإنَّ الله أوْلى بك من يزيد، وكتابُ الله أوْلى بك من كتابه. وما زال به حتى أبكاه.

---

(١) سورة النساء: ٤٥.

(٢) هو الأمير عمر بن هُبَيْرة الفَزَاري الشامي، أمير العراقَيْن ووالد أميرها يزيد، جمعت له العراق في سنة ١٠٣، ثم عُزل بخالدِ القَسْريِّ، فقيَّده وألبسه عباءةً وسجنه، فتحيَّل غلمانُه ونَقَبوا سَرَباً أخرجوه منه، فَهَرب واستْجار بالأمير مَسْلَمة بنِ عبد الملك، فأجاره، ثم لم يلبث أن مات سنة ١٠٧ تقريباً. كما في «السِّير» ٤ :٥٦٢.

(٣) عامر بن شراحيل، أبو عمرو التابعي، قال: أدركت خمسمائة صحابي. قال مكحول: ما رأيت أفقه منه، مات بالكوفة سنة ١٠٣ رحمه الله تعالى.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

فما كان من الوالي بعد أن انصرف في عَبْرته، إلا أن أرسلَ إليهم جوائزهم، فأعطى الحسن أربعة آلاف درهم، وصاحبيه ألفين ألفين.

فنادى الشَّعبيُّ على باب المسجد: مَنْ قَدَر منكم أن يُؤْثر الله على خلقه فليفعل؛ فإنَّ الأمير قد سألنا عن أمر الله، ما علم الحسن شيئاً جهلْتُه، وما علمتُ شيئاً جهلَه ابن سيرين، ولكنّا أردنا وَجْهَ الأمير، فأقصانا الله عزَّ وجل وقَصَر بنا، وأراد الحسن وجْهَ الله، فحباه تبارك اسمه وزاده[1].

ومالنا نسوق الشواهد ونضرب الأمثال، ونحن نراها كلَّ يوم بأعيننا، ونكاد نلمسها لمساً بأيدينا؟!.

إيثار طاعة الله ومرضاته

ألا إنَّ مَنْ آثر الله واتَّقاه، وقَدَّم مرضاته على هواه، جَمَعَ الله حوله القلوب، ودفع عنه عَواديَ الخطوب، وجَعَلَ له من عدوِّه نصيراً، ومِن مناوئه ظهيراً.

ألا وإنَّ من باع دينه بدنياه، وخشيَ الناس، ولم يخشَ الله، هَتَكَ الله سَتْره، ونكَسَ عليه أمره، وصَرَفَ عنه قلوبَ العباد، ولم يبلِّغه حظاً مما أراد. وسبحان مقلِّب القلوب والأبصار، يُصرِّفها كيف يشاء؟.

* * * * *

(١) حلية الأولياء ٢ :١٤٩. وما أحسن قول الحسن البصري رحمه الله كما في «الطبقات» لابن سعد ٧ :١٧٥: «يا ابن آدم: لا ترضِ أحداً بسخط الله، ولا تطيعنَّ أحداً في معصية الله».

الجديد والحصري NEW & EXCLUSIVE

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفهرس الإجمالي للمجلد الأول

مقدمة المحقق	٨
ترجمة الشيخ طه الساكت	٩ – ٧٠
نشاطه العلمي والدعوي	٢١ – ٣٨
آثاره العلمية	٤٣ – ٦٦
موقفه من تدريس الفقه الشيعي	٦٧
أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر	٦٨
شرح الأحاديث النبوية	٧١ – ٩٨
عمل المحقق في خدمة الكتاب	٩٩
الفصل الأول : العقيدة والغيبيَّات	١٠٣ ـ ٢٢٤
١ـ شعب الإيمان.	١٠٥ ـ ١١١
٢ ـ دين الفطرة.	١١٢ ـ ١١٩
٣ ـ اجتماع الأنبياء على دين واحد.	١٢٠ ـ ١٢٥
٤ ـ خاتم النبيِّين ﷺ (١ ـ ٤).	١٢٦ ـ ١٥٠
٥ ـ جزاء الصَّالحات (١ ـ ٤).	١٥١ ـ ١٧٠
٦ ـ بلوغ الدعوة المحمدية.	١٧١ ـ ١٧٧
٧ ـ عمل المرء لنفسه.	١٧٨ ـ ١٨٢
٨ ـ عمل المرء لغيره.	١٨٣ ـ ١٨٨
٩ ـ العين حقٌّ.	١٨٩ ـ ١٩٤
١٠ ـ علاج العَيْن.	١٩٥ – ٢٠٠

www.alukah.net حصريات من شبكة الألوكة

١١ ـ إبطال مزاعم الجاهليَّة (١ ـ ٣). ٢٠١ – ٢٢٤
الفصل الثاني : العلم والدعوة ٢٢٥ – ٢٧٠
١ ـ مثل من الحيطة في رواية الحديث. ٢٢٧ – ٢٣٥
٢ ـ الرحلة في طلب العلم. ٢٣٦ – ٢٤٤
٣ ـ كيف يقبض العلم؟. ٢٤٥ – ٢٥٠
٤ ـ الاقتصاد في الموعظة. ٢٥١ – ٢٥٧
٥ ـ البعوث في الإسلام (١ ـ ٢). ٢٥٨ - ٢٧٠
الفصل الثالث : العبادات والأدعية والأذكار ٢٧١ – ٣٩٠
١ ـ حيَّ على الجهاد (١ ـ ٢). ٢٧٣ – ٢٨٢
٢ ـ الجنة تحت ظلال السيوف. ٢٨٣ – ٢٨٨
٣ ـ الصلاة سلاح النصر. ٢٨٩ – ٢٩٤
٤ ـ خيرة الله خير. ٢٩٥ – ٣٠١
٥ ـ المساجد الثلاث. ٣٠٢ – ٣١١
٦ ـ من أسرار الصوم وآدابه. ٣١٢ – ٣١٩
٧ ـ مدرسة الصيام. ٣٢٠ – ٣٢٥
٨ ـ استدارة الزمان. ٣٢٦ – ٣٣٢
٩ ـ شهران لا ينقصان. ٣٣٣ – ٣٤٠
١٠ ـ أحبُّ الأيام إلى الله. ٣٤١ – ٣٤٨
١ ـ فضل الذكر. ٣٤٩ – ٣٥٦
٢ ـ أدب الدعاء. ٣٥٧ – ٣٦٢
٣ ـ دعاء الله بأسمائه. ٣٦٣ – ٣٧٢
٤ ـ ظن العبد بربه. ٣٧٣ – ٣٧٩

الجديد و حصري NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

٥ ـ دعاء واستعاذة.	٣٨٠ – ٣٩٠
الفصل الرابع : الأسرة والمرأة	٣٩١ – ٤٢٠
١ ـ الظَّفَر بذات الدين.	٣٩٣ – ٣٩٩
٢ ـ النساء في العهد النبوي.	٤٠٠ – ٤٠٦
٣ ـ الإحسانُ إلى البنات.	٤٠٧ – ٤١٣
٤ ـ جهاد النساء.	٤١٤ – ٤٢٠
الفصل الخامس : الرقائق والأخلاق	٤٢١ – ٤٨٥
١ ـ إنما الأعمال بالنيات.	٤٢٣ – ٤٢٩
٢ ـ الحبُّ الإلهي.	٤٣٠ – ٤٣٨
٣ ـ بركة المسلم حياً وميتاً.	٤٣٩ – ٤٤٤
٤ ـ كياسة المؤمن.	٤٤٥ – ٤٥٢
٥ ـ عزَّة الكمال في الناس.	٤٥٣ – ٤٥٩
٦ ـ من حُسْن إسلام المرء.	٤٦٠ – ٤٦٨
٧ ـ الصحة والفراغ.	٤٦٩ – ٤٧٨
٨ ـ التماس رضا الله وإن سخط الناس.	٤٧٩ – ٤٨٦

* * * * *